



وزارة الثقافة

بيت المقدس

في أدب الحروب الصليبية
٤٩٢ - ٦٤٨هـ

تأليف
د. عبد الجليل حسن عبد المهدي







2013

بيت المقدس

في أدب الحروب الصليبية

وزارة الثقافة
مكتبة الأسرة الأردنية / مهرجان القراءة للجميع

* بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية
* المؤلف: عبدالجليل عبدالمهدي
* الناشر: وزارة الثقافة
شارع صبحي القطب
المتفرع من شارع وصفي التل
ص.ب. ٦١٤٠ - عمان - الأردن
تلفون: ٥٦٩٦٢١٨ / ٥٦٩٩٠٥٤
فاكس: ٥٦٩٦٥٩٨
Email: info@culture.gov.jo

* الطباعة: مطبعة أروى ٤٨٩٢٦٨٦
* رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (١٠٠٧ / ٤ / ٢٠١٣)

بيت المقدس

في أدب الحروب الصليبية

٤٩٢ - ٦٤٨ هـ

تأليف
د. عبد الجليل حسن عبد المهدي
كلية الآداب - الجامعة الأردنية


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

غنيت المكتبة العربية بالعديد من الدراسات التاريخية حول بيت المقدس، ولكنها ما زالت تفتقر إلى دراسات أدبية حولها، لتبين صورتها في الأدب العربي. وتركز هذه الدراسة على تبين صورتها في أدب الحروب الصليبية، شعره ونثره، في العصرين الفاطمي والأيوبي، بل في العهود الزنكية، والفاطمية، والأيوبية.

يقوم هذا البحث على دراسة موضوع «بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية» منذ أواخر القرن الخامس الهجري، وفي القرن السادس الهجري، وفي النصف الأول من القرن السابع الهجري، أي منذ احتلالها في سنة ٤٩٢ هـ، من قبل المحتلين الفرنج، وحتى تحريرها للمرة الثالثة في سنة ٦٤٢ هـ.

إن معالم الأحداث التي مرت ببيت المقدس في تلك العهود، من جراء غزو الفرنجة، وقد بدا صداها في الأدب العربي في تلك الفترة، تتشابه مع معالم الأحداث التي تمر ببيت المقدس الآن، من جراء الغزو الصهيوني، وهو تشابه في البواعث، والأهداف، والغايات، وذلك يدعو إلى العظة والعبرة دون شك.

تقع هذه الدراسة في أربعة فصول، يتحدث الفصل الأول منها عن «بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية قبل الفتح القدسي». وفيه نتبين صورة بيت المقدس في الشعر الناجم عن الهزيمة، ولكنها صورة لم تبد جلية، وذلك لأن صدى الهزيمة كان باهتاً في الشعر. كما نتبين الدعوة إلى الجهاد، ووحدة

المسلمين، لتحرير بيت المقدس وغيرها مما احتل من ديار الإسلام، في الشام، ومصر، والجزيرة. وقد بدت الصورة جلية في هذه المرحلة، بعد أن تخلص المسلمون من الهزيمة وآثارها، وبدأوا بإجراء الانتصارات بقيادة الزنكيين عماد الدين، ونور الدين. وكانت تلك الانتصارات مقدمة للفتح القدسي.

وتبدو الدعوة إلى تحرير بيت المقدس جلية من خلال القصائد التي تغنى الشعراء فيها بالانتصارات، ومن خلال رثاء الأهل والأوطان، ورثاء الأبطال، ومن خلال الأشعار التي قيلت في التعريض بالحكام الذين تعاونوا مع الفرنج، والأشعار التي قيلت في التهاني، والتعازي، والحنين وتبادل العديد من الشعراء الرسائل الشعرية، يدعون إلى وحدة المسلمين في مصر والشام، كما يبدو في أشعار طلائع رُزّيك وأسامة بن منقذ، وغيرهما من الشعراء. وتبدو الدعوة إلى الوحدة جلية في العديد من الرسائل التي أنشأها القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وقد كانت تلك الرسائل الأدبية خير معين في تجلية الحديث عن الدعوة إلى وحدة المسلمين.

ويتحدث الفصل الثاني عن «بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية» في فترة الفتح القدسي، وكان صداه كبيراً في الأدب العربي، فقد ترددت أصداؤه في شعر الكثير من الشعراء المسلمين من أمثال العماد الأصفهاني، وابن سناء الملك، وابن الساعاتي، والرشيد بن بدر النابُلُسي، ويوسف بن المجاور، والحسن بن علي الجويني، وابن جبير، وفتيان الشاغوري، وغيرهم. وأُنشئ عدد من الدواوين الخاصة ببيت المقدس، ومنها: «ديوان المبشرات والقدسيات» لعبدالمنعم الجلياني، وهو ما سأتحدث عنه في بحث خاص بتلك المبشرات والقدسيات.

وتردد صدى هذا الفتح القدسي العظيم في الكثير من الرسائل القدسية التي أنشأها القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير، كما تردد ذلك الصدى في خطبة القاضي ابن الزكي التي خطب بها في المسجد

الأقصى بعد تحريره في سنة ٥٨٣ هـ.

وينظر الأدباء إلى الفتح القدسي نظرة تعظيم، ويعده العماد الأصفهاني هجرة ثانية يؤرخ بها، وبها بدأ كتابه «الفتح القسي في الفتح القدسي»، ورأى فيه هجرة الإسلام إلى بيت المقدس ثانية.

ويربط الأدباء بين الفتح القدسي والفتوح الحاسمة في التاريخ الإسلامي، ويعدونه شبيها بـ «الفتوح العمرية، والفتكات العلوية»، وبه جددت أيام القادسية، و «الوقعات اليرموكية، والهجمات الخالدية» كما يقول الخطيب ابن الزكي. ويصورون الرباط المقدس بين المقدسات الإسلامية في بيت المقدس، ومكة، والمدينة. ويتحدثون عن آثار الفتح القدسي في نفوس المسلمين، في المجالات المختلفة: الدينية، والسياسية، والفكرية، والأدبية، والاقتصادية، والاجتماعية.

ويتحدث هذا الفصل عن الفاتح السلطان صلاح الدين كما تبدو صورته من خلال الأشعار القدسيات التي أنشئت بمناسبة الفتح القدسي، وهي كثيرة أنشأها الشعراء المسلمون من أمثال العماد الأصفهاني، وابن سناء الملك، وابن الساعاتي، وعبدالمنعم الجلياني، والرشيد بن النابلسي، وفتيان الشاغوري وغيرهم.

كما تبدو صورته من خلال الرسائل القدسية الكثيرة التي أنشأها القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير. ومن خلال خطبة القاضي ابن الزكي. ومن خلال عدد من الكتب الأدبية التي صنفت حول السلطان صلاح الدين وجهاده، مثل: «الفتح القسي في الفتح القدسي» للعماد الأصفهاني.

يصور هذا الفصل اهتمام صلاح الدين بالجهاد، وقد قضى حياته مجاهداً للحفاظ على الإسلام والمسلمين، لقد قاد حركة الجهاد ضد الفرنج لتحرير ديار الإسلام، وعلى رأسها بيت المقدس.

ويصور الأدب بطولته، وسجاياه، وأعماله، وفتوحاته، في الأشعار القدسيات، والرسائل القدسيات، والخطبة القدسية. كما يصوره الأدب القائد المجاهد، مقتدياً بالسلف، من حيث خلاله، ورعايته للمسلمين سياسياً، واجتماعياً، واقتصادياً وثقافياً. ويصور الأدب جيوش المسلمين التي حققت الفتح القدسي بقيادة صلاح الدين.

وتجدر الإشارة إلى أنني لم أُفرد فصلاً للحديث عن الفاتح الملك الناصر داود، في سنة ٦٣٧ هـ، لأن الفتح نفسه لم يجد صدى في الأدب آنذاك، والدراسة هنا تقوم على دراسة بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية: فتحاً، وفاتحاً، ومحتلاً. وكذلك كان الحال في الفتح القدسي الثالث، عندما حُررت مدينة بيت المقدس، للمرة الأخيرة، في سنة ٦٤٢ هـ، فلم يكن له صدى في الأدب.

ويتحدث هذا الفصل عن صورة محتلي بيت المقدس الفرنج، كما تبدو من خلال الأشعار القدسيات، والرسائل القدسيات، والخطبة القدسية، والمصنفات التي صنفت حول الفتح القدسي، مثل «الفتح القسي في الفتح القدسي» الآنف ذكره.

ويصوره هذا الأدب عدواً غازياً تحدوه أهداف دينية، وسياسية، واقتصادية. كما يصوره ناشراً للخراب والدمار، سفاكاً للدماء، ويبدو الصراع في العقيدة بين المسلمين والفرنج، جلياً في هذا الأدب، فيصورهم أهل كفر وشرك، وأهل رجس وآثام.

ويصور جيوشهم جرارة عدداً وعُدة، ويصورهم جبابرة أسوداً قبل المعركة، ضعفاء أذلاء بعد الهزيمة التي منوا بها.

ويصور ملوكهم وقادتهم قبل المعركة وبعدها، كما يصور فرسانهم، وخاصة الداوية، والاسبتارية منهم. ويصور أسراهم مصفدين بعد أن دارت عليهم رحى الحرب الطحون. كما يصور حصونهم، وقلاعهم، وأبراجهم التي أقاموها للحفاظ على مملكتهم اللاتينية في بيت المقدس، كما كانوا يسمونها.

ويتحدث الفصل الثالث عن «بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية بعد الفتح القدسي». ويركز البحث، في هذا الفصل، على تبين صدى أهم الأحداث التي نزلت ببيت المقدس، وتبين صداها في الأدب العربي آنذاك، وهي:

- محاولات الفرنج استرداد بيت المقدس.
- خراب بيت المقدس اضطراراً، في سنة ٦١٦ هـ.
- التنازل عن بيت المقدس، في سنة ٦٢٦ هـ.
- تحرير بيت المقدس ثانية في سنة ٦٣٧ هـ.
- التنازل عن بيت المقدس، في سنة ٦٤١ هـ.
- تحرير بيت المقدس ثالثة، في سنة ٦٤٢ هـ.

ولم يكن صدى هذه الأحداث في الأدب العربي جلياً، إذ لم يرتفع إلى مستوى هذه الأحداث ذاتها. إن الخراب الذي حل ببيت المقدس في سنة ٦١٦ هـ، لم ينل صدى يُذكر في الأدب العربي آنذاك. ولم يستثر التنازل عن بيت المقدس في سنة ٦٢٦ هـ، على يد الملك الكامل الأيوبي، الشعراء الاستثارة الجديرة بالمصيبة العظمى، ولم يقل فيه الشعراء إلا القليل من القصائد والمقطوعات. يضاف إلى ذلك ما دار في المجلس الذي عقده سبط ابن الجوزي، في الجامع الأموي بدمشق، بطلب من الملك الناصر داود. ولم ينل الفتح القدسي الثاني في سنة ٦٣٧ هـ إلا ثلاثة أبيات قالها جمال الدين بن مطروح، ورسالة واحدة كتبها الفاتح نفسه، الملك الناصر داود، إلى الخليفة العباسي في بغداد، يبشره بالفتح، فيما وصل إلينا. ولم يكن للتنازل عن بيت المقدس ثانية، بسبب الصراع في البيت الأيوبي، بعد السلطان صلاح الدين، أي صدى في الأدب آنذاك، ومن المستغرب ألا يكون لتحريرها في سنة ٦٤٢ هـ، صدى مهما كان نوعه في الأدب، فيما وصل إلينا.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنني اضطررت إلى الاستعانة بالتاريخ، بشكل موجز، في هذا الفصل، وذلك عندما كان يعوزني الأدب إلى ذلك، لعدم توفر النصوص الأدبية.

كما تجدر الإشارة إلى أن رسائل القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، كانت خير معين في مجال الأدب، في هذا الباب.

ويركز الباب الرابع على دراسة فنية للأشعار القدسيات، إذ يركز على عدد من القضايا الأدبية والنقدية التي استقرأها من واقع النصوص الشعرية القدسية، ومن أهمها: التجربة الشعرية في القصيدة القدسية، وبنية القصيدة القدسية، وأسلوبها والصنعة البديعية، والصورة الشعرية.

كما يركز على دراسة فنية للرسائل القدسيات، إذ يركز على عدد من القضايا الأدبية والنقدية التي استقرأها من واقع نصوص الرسائل القدسية أيضاً، ومن أهمها: بنية الرسالة القدسية، والأسلوب والتأثر بالشعراء السابقين (حل المنظوم)، والتأثر بالكتاب السابقين، والصنعة البديعية، والصورة الشعرية.

وتجدر الإشارة إلى أنني استثنيت أشعار عبدالمنعم الجلياني «المبشرات والقدسيات»، من أن تكون متضمنة في كتاب «بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية»، وخصصتها بكتاب مستقل لتميزها.

كما تجدر الإشارة إلى أن القدامى من المؤرخين والأدباء، وصفوا غزو أوروبا للمشرق الإسلامي بـ «الغزو الفرنجي»، أو «غزو الفرنجة». وكان هذا المصطلح هو المصطلح الشائع آنذاك وأما في العصر الحاضر، فقد شاع مصطلح «الغزو الصليبي»، أو «الحروب الصليبية»، ولهذا عمدت إلى استخدام هذا المصطلح الأخير.

واستخدمت «مصطلح أدب الحروب الصليبية»، وأعني به ما كان من صدى في الأدب العربي، لاحتلال الغزاة المشرق الإسلامي. وقد يعني هذاالمصطلح كل ما قام من أدب حول الحروب الصليبية، من أدب عربي، أو أدب غير عربي. ولكن المصطلح قد استخدم في العصر الحديث أيضاً، ليدل على مثل ما ذهبت إليه. وقد أصبح المصطلح شائعاً. وقد نبهت إلى هذا تحوطاً وحذراً، لتوضيح مقصدي.

وكلي أمل أن أكون قد وفقت في سبيل تحقيق الهدف العلمي الموضوعي في هذه الدراسة، وهو ما يرومه الباحث، ويرنو إلى تحقيقه.

ويطيب لي أن أتوجه بالشكر إلى مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، ومكتبة الجامعة الأردنية، والمكتبة الظاهرية، بدمشق، ومكتبة جامعة دمشق، ومكتبة المعهد العلمي الفرنسي بدمشق، والمكتبة السليمانية، وغيرها من المكتبات باستانبول، لما وفرته لي هذه المراكز العلمية من المصادر القيمة، مخطوطة ومطبوعة.

والله من وراء القصد

عبدالجليل عبدالمهدي

عمان في ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م

الفصل الأول

صورة بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية قبل الفتح القدسي في سنة ٥٨٣ هـ



صدى احتلال بيت المقدس في سنة ٤٩٢ هـ، في أدب الحروب الصليبية:

كان لاحتلال بيت المقدس من قبل الصليبيين، في سنة ٤٩٢ هـ، صدى كبير في أنحاء العالم الإسلامي، فقد كان الحدث جللاً، وكانت المصيبة عامة. وهنا نتساءل: هل كان لذلك صدى كبير في الشعر العربي؟

إننا عندما نستعرض شعرنا العربي، في أواخر القرن الخامس الهجري، لنتبين أثر الاحتلال الصليبي لبيت المقدس، في الشعر، نفاجأ بأن الشعر لم يكن على مستوى الحدث، لا كماً ولا كيفاً. وكان من المتوقع أن يكون لذلك الحدث أثر كبير في الشعر العربي، ولكننا نجد ألسن الشعراء، وكأنها قد حبست عن القول، وكأن الشعر العربي شعر انتصارات، وليس بشعر هزائم. وهذا ما نلمسه في الشعر العربي، قبل الحروب الصليبية أيضاً. ونتساءل هنا: هل يمكن أن يكون الشعراء قد قصدوا إلى ألا يقولو شعراً يعبر عن الهزائم حتى لا يفتوا في أعضاد الجند، وهل امتنعوا من القول في مثل هذه الأحداث لما يحسون به من مرارة الهزيمة، وخيبة الأمل؟ إن على الشعراء أن يرتفعوا إلى مستوى الحدث في أشعارهم نصراً كان أو هزيمة، وعليهم أن يعبروا عن إحساساتهم ومشاعرهم إزاء ذلك، بل عليهم أن يعبروا عن إحساسات الأمة ومشاعرها، فهم لسان الأمة المعبر، وأدبهم الجهادي هو أدب الأمة حقاً. إن عليهم أن يصوروا الهزيمة، وأن يكونوا لسان الأمة الداعي إلى الجهاد والتحرير، وأن يكون شعرهم ذا أثر كبير في انتشال الأمة من وهدة الهزيمة، وتخليصها مما لحق بها. وبهذا يكون شعرهم مقاوماً، معبراً عن الأمة، آخذاً بيدها، ملتزماً مدافعاً عن الدين، والأرض، والانسان، داعياً إلى الجهاد، والوحدة، والتحرير، ولا يكون شعراً باكياً يكتفي بتصوير الفاجعة، وإحساسات النفوس ومشاعرها الآنية.

إننا عندما ننظر إلى صدى الاحتلال الصليبي لبيت المقدس، في الشعر العربي، لا نجد سوى قصيدة، ومقطوعة، ولعل شعراً قيل، ولم يصل إلينا، ولعله ضاع. يذكر ابن تغري بردي أن الناس قالوا «في هذا المعنى عدة مرات»[1]. ولكنه يفسر قوله فيقول: «والمقصود أن القاضي ورفقته عادوا من بغداد إلى الشام بغير نجدة، ولا قوة إلا بالله». وإذا كان الأمر كما يذهب إليه ابن تغري بردي في تفسيره، فإن الشعراء لم يقولوا أشعاراً أخرى، غير ما وصل إلينا. وعلى الرغم من ذلك، فإن كلمة «مرات» ربما كانت التاء فيها ثاء، ووقع فيها تصحيف. وإذا صح ذلك، فلعل عدداً من المراثي التي قيلت، لم تصل إلينا.

يذكر المؤرخون والأدباء أن القصيدة التي أشرت إليها، قيلت في بكاء بيت المقدس وأهلها، جاء في مقدمتها: «وقال أبوالمظفر الأبيوردي ـ منسوبة إليه ـ لما استولى الفرنج على البيت المقدس، في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة»[2]. ويذكرها النويري في باب المراثي والنوادب[3].

ويذكر أبوالفرج بن الجوزي أن الأبيوردي قال قصيدة «يصف فيها الحال». وهو ذكر ما جرى على بيت المقدس من احتلال صليبي[4].

ويذكر ابن الأثير أن الفرنج تمكنوا من البلاد، فقال الأبيوردي أبياتاً في هذا المعنى[5]. وتابعهم في ذلك أبوالفداء[6]، وابن الوردي[7]، والسيوطي[8].

ويذكر ابن كثير أن القاضي أباسعد الهروي «نظم.. كلاماً قرىء في الديوان، وعلى المنابر»[9]. ولفظة «نظم» قد توحي بأن الهروي أنشأ شعراً. ولكن ابن كثير يردف قائلاً: «إن أباالمظفر الأبيوردي قال شعراً في ذلك»[10]. وهو بهذا ينسب الشعر إلى الأبيوردي، مما يضعف من نسبته إلى الهروي.

---

(١) النجوم الزاهرة ٥/١٥٢.
(٢) ديوان الأبيوردي ٢/١٥٦.
(٣) نهاية الأرب ٥/١٦٤.
(٤) فضائل القدس/ ١٢٦.
(٥) الكامل ١٠/٢٨٤.
(٦) المختصر ٢/٢١١.
(٧) تتمة المختصر ٢/٢٠.
(٨) تاريخ الخلفاء/ ٣٩٤.
(٩) البداية والنهاية ١٢/١٥٦.
(١٠) المصدر نفسه ١٢/١٥٦.

ويذكر ابن تغري بردي أن الشعر للقاضي أبي سعد الهروي، ولكنه يعود ليشكك في نسبته إلى الهروي، فيقول: «وقيل هي لأبي المظفر الأبيوردي» [1].

وهي منسوبة في الديوان إلى الأبيوردي، وقد أثبتها المحقق في الشعر المنسوب إلى الشاعر[2]، وتجدر الإشارة إلى أن هذه القصيدة هي القصيدة الوحيدة في ديوانه، حول الحروب الصليبية.

يذكر أبوالفرج بن الجوزي أن الفرنج أخذوا بيت المقدس، يوم الجمعة، في الثالث والعشرين من شعبان، سنة ٤٩٢ هـ. ويذكر ان المسلمين في الشام قصدوا دار الخلافة في بغداد، يقول: «ورد المستنفرون من بلاد الشام، وأخبرونا بما جرى على المسلين. وقام القاضي أبوسعد الهروي، قاضي دمشق في الديوان ببغداد، وأورد كلاماً أبكى الحاضرين، فندب من الديوان من يمضي إلى العسكر، ويعرفهم حال هذه المصيبة، فندب لذلك أعيان العلماء، فتعللوا، واعتذروا، ووقع التقاعد». وذكر ان الفرنج قتلوا نحو سبعين الف مسلم»[3]. وتابعه ابن الأثير في ذلك، وذكر أن جماعة كثيرة من قتلى المسلمين كانوا أئمة، وعلماء، وعباداً، وزهاداً، ممن فارق الأوطان، وجاوروا بذلك الموضع الشريف. ويضيف ابن الأثير: فأورد الهروي «كلاماً أبكى العيون، وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة، فاستغاثوا، وبكوا، وأبكوا، وذكر ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم، من قتل الرجال، وسبي الحريم والأولاد، ونهب الأموال، فأمر الخليفة» أن يُسيَّر عدد من العلماء، ولكنهم «عادوا من غير بلوغ أرب، ولا قضاء حاجة. واختلف السلاطين، فتمكن الفرنج من البلاد، فقال أبوالمظفر الأبيوردي، في هذا المعنى، أبياتاً»[4] وتابعهما في ذلك أبوالفداء[5]، وابن الوردي[6]، وابن تغري بردي[7]،

(١) النجوم الزاهرة ٥/١٥٠، ١٥١.
(٢) انظر: ديوان الأبيوردي ٢/١٥٦.
(٣) فضائل القدس/ ١٢٥، ١٢٦.
(٤) الكامل ١٠/٢٨٣، ٢٨٤.
(٥) المختصر ٢/٢١١.
(٦) تتمة المختصر ٢/٢٠.
(٧) النجوم الزاهرة ٥/١٤٩، ١٥٠.

والذهبي[1]، والسيوطي[2].

ويذكر (وليم الصوري) المؤرخ الصليبي، أنه حدثت مذبحة رهيبة، وأصبحت المدينة المقدسة «مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم»[3].

ويذهب مؤرخ صليبي آخر إلى أنه لم يستطع غداة المذبحة الرهيبة «أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين الا في صعوبة بالغة، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه»[4]. ويشهد أحد مؤرخيهم، وكان من الصليبيين الذين دخلوا بيت المقدس، بأن قومه كانوا «يجوبون الشوارع، والميادين، وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ»[5].
ويصف صاحب «أعمال الفرنجة» المذبحة المروعة تلك[6].

لقد أشرت إلى بعض معالم المصيبة العظمى التي تمثلت باحتلال بيت المقدس، لنرى مدى صداها في بلاد الإسلام من ناحية، وفي الشعر العربي من ناحية أخرى.

يذكر أبوالفرج بن الجوزي ما يعبر عن أحوال المسلمين السياسية السيئة التي كانوا يعانون منها، وتتمثل في ضعفهم، وتخاذلهم، وانقسامهم. وكأن المسلمين في العراق لا يدرون عما يجري في الشام، إلى أن جاء المستنفرون من الشام إلى بغداد، ولكن المستنفرين عادوا دون جدوى. ويعود ذلك إلى

---

(١) العبر ٥/ ١٨٤.

(٢) تاريخ الخلفاء/ ٣٩٤.

(٣) انظر: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢/ ٢٢٩.

(٤) انظر: تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ١/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥، الحركة الصليبية/ ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٤، الجبهة الإسلامية/ ١٥٠، الحروب الصليبية الأولى/ ١٧٩، ١٨٠، الحياة السياسية في بلاد الشام/ ١٢٩، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية/ ١١٣، ١١٤.

(٥) انظر: حضارة العرب ـ غوستاف لوبون/ ٣٢٥.

(٦) ١١٨ ـ ١٢٠. وانظر في الحديث عن المذبحة: ذيل تاريخ دمشق/ ١٣٧، الكامل ١٠/ ١٠٥، زبدة الحلب ٢/ ١٤١ ـ ١٤٧، الحركة الصليبية ١/ ٢٣٨ ـ ٢٤٦.

الخلافات بين السلاطين وانقسامهم، وتنازعهم[1].

لقد كان السلاجقة والفاطميون يتنازعون على بلاد الشام، ومنها بيت المقدس. وكانت فلسطين تابعة للفاطميين، ثم توجه «أتسز بن أبق الخوارزمي التركماني» بطلب من «ملكشاه السلجوقي»، إلى فلسطين، فاستولى على بيت المقدس[2]، ولكن الفاطميين عادوا، وحاصروه، وملكوه بالأمان في سنة ٤٨٩ هـ، وبقيت المدينة بأيديهم إلى أن احتلت من قبل الصليبيين[3].

ولم يكن صدى هذا كله، في الشعر العربي، إلا صدى باهتاً، وقد اقتصر هذا الشعر على قصيدة ومقطوعة، كما تقدم.

يعد هذا الشعر الذي وصل إلينا لوناً من رثاء المدن. وقد شاعت هذه الظاهرة في فترة الحروب الصليبية، في المشرق الإسلامي، كما كانت شائعة في مغربه. وهي ظاهرة جديرة بالاهتمام والدراسة. ومما يمثل هذه الظاهرة الأدبية، رثاء بيت المقدس وأهلها، كما يبدو في هذه القصيدة.

تصور هذه القصيدة الفاجعة المذهلة التي حلت بالمسلمين، وتصور الحالة الحزينة التي وصلوا إليها. ولقد جعل الشاعر شعره لوناً من الأدب الباكي، وهو يريد بذلك أن يستثير من استنجد بهم، فيصور الواقع الذي نشره الاحتلال. ولكن الأدب الباكي لا يعيد كرامة، ولا يحرر أرضاً، ولا إنساناً، ويعود الشاعر

(١) انظر: فضائل القدس/ ١٢٥، الكامل ١٠/٢٧٣ ـ ٢٧٨، المختصر ٢/٢٠٩، النجوم الزاهرة ٥/١٩٩، الحركة الصليبية ١/١٠٢ ـ ١١٢، ٤٢٩، ٥٣٢ ـ ٥٣٤، ٥٥٤، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/٢٢، ٧٠، الحروب الصليبية (في تراث الإسلام) ـ باركر/ ٨٢.

(٢) انظر: ذيل تاريخ دمشق/ ٩٨، ٩٩، ١١٢، ١١٤، الكامل ٩/٥٩١، ١٠/٢٥، اتعاظ الحنفا ١/١٧٥، النجوم الزاهرة ٥/١٢٥، ١٢٨، ١٣٠، الحركة الصليبية ١/١٠٢، ١١٣، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ١/١١٦، ١١٧، ٢/٢٢، ٢٨، ٣٣، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢/٢٠٥، الحروب الصليبية (في تراث الإسلام) /٧٨.

(٣) انظر: ذيل تاريخ دمشق/ ١٣٥، الكامل ١٠/٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، المختصر ٢/٢١١، تتمة المختصر ٢/٢٠، النجوم الزاهرة ٥/١٥٩، زبدة الحلب ٢/١٢٤، ١٢٥، الحرب الصليبية الأولى/ ٣٨، ١٧٤، أعمال الفرنجة/ ١١٦، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ١/٣٧٦، ٣٩٤، الحركة الصليبية ١/١١٣، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٤.

ليقرر أن البكاء سلاح غير مجد، ولا بد من السير في طريق القوة لإقرار الحق، يقول[1]:

مَزَجْنا دماءً بالدموع السَّواجِم ... فلم يبق منا عُرضة للمراحم
وشَرُّ سلاح المرء دمعٌ يُفيضه ... إذا الحرب شُبَّت نارُها بالصوارم

ويصور ما لحق بالمسلمين في الشام، من قتل، وذل، وهتك أعراض، واستباحة للحمى والنفوس، كما يبدو في قوله مخاطباً المسلمين في العراق، وموازناً بين الحالة السيئة التي كان المسلمون يعانون منها في الشام، وحالة الدعة التي كان المسلمون في العراق يحيونها، وفي ذلك نقد للمسلمين الذين كانوا لا يحسون بما ينزل بإخوانهم من المحن، ويحيون حياتهم العادية، وكأن شيئاً لم يحدث، فلم يحركوا ساكنا، وهم بذلك يخالفون داعي الجهاد، بل يخالفون أوامر الله ورسوله[2]:

وإخوانكم في الشام يُضحي مقيلُهم ... ظهور المذاكي أوبطونَ القَشاعم
تسومهمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ ... تَجرُّون ذيلَ الخفض فعلَ المُسالم
وكم من دماء قد أُبيحت ومن دُمىً ... تُواري حياءً حُسْنَها بالمعاصم
بحيث السيوفُ البيضُ مُحْمرةُ الظُّبا ... وسمرُ العَوالي دامياتُ اللهاذم

ويلجأ الشاعر إلى التعريض والتقريع الصريحين فيقول مستنكراً[3]:

أتهويمةٌ في ظل أمنٍ وغبطة ... وعيشٍ كنُوار الخميلة ناعم
وكيف تنامُ العينُ ملء جفونها ... على هفواتٍ أيقظتْ كل نائم

---

(١) ديوان الأبيوردي ٢/١٥٦، الكامل ١٠/٢٨٤، ٢٨٥، نهاية الأرب ٥/٢٢٦، المختصر ٢/٢١١، تتمة المختصر ٢/٢٠، ملخص تاريخ الإسلام/ ٦/١٧٥، البداية والنهاية ١٢/١٥٦، النجوم الزاهرة ٥/١٥٠، عقد الجمان للعيني ٢٢/٩، تاريخ الخلفاء/ ٣٩٤.

(٢) ديوان الأبيوردي ٢/١٥٦، ١٥٧، فضائل القدس لابن الجوزي/ ١٢٦، المنتظم ٩/١٠٨، ١٢٧، الكامل ١٠/٢٨٥، نهاية الأرب ٥/٢٢٦، المختصر ٢/٢١١، تتمة المختصر ٢/٢٠، ملخص تاريخ الإسلام ٦/١٧٥، النجوم الزاهرة ٥/١٥١، البداية والنهاية ١٢/١٥٦، عقد الجمان للعيني ٢٢/٩، ١٠.

(٣) ديوان الأبيوردي ٢/١٥٦، الكامل ١٠/٢٨٥، نهاية الأرب ٥/٢٢٦، المختصر ٢/٢١١، تتمة المختصر =

ويدعو المسلمين للحفاظ على الدين والعرض، وإن لم يفعلوا، فإنه يحاول استثارتهم عن طريق الطمع في الغنائم، وفي هذا كثير من التقريع والتعريض، وقد حُقّ له أن يُعرِّض بمن يتخلف عن أداء واجب الجهاد في ساحة الوغى، يقول(1):

أرى أُمتي لا يُشرعون إلى العدى ... رماحهمُ والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النارَ خوفاً من الردى ... ولا يحسبون العارَ ضربةَ لازم
أترضى صناديدُ الأعاريب بالأذى ... ويُغضي على ذُلٍ كماة الأعاجم
فَليتهمُ إذ لم يذودوا حميةً ... عن الدين ضَنُّوا غيرةً للمحارم
وإنْ زهدوا في الأجر إذ حَمُسَ الوغى ... فهلّا أتَوْه رغبةً في المغانم

ويختتم الشاعر قصيدته ـ مرثيته ـ هذه، بالدعوة إلى غارة عربية تخلص المسلمين من الاحتلال، ولكنه يبدو يائساً من تلبية استنجاده واستغاثته، يقول(2):

دعوناكمُ والحربُ تدعو ملحةً ... إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقبُ فينا غارةً عربيةً ... تطيلُ عليها الرومُ عضَّ الأباهم

ومن الواضح أن هذا اللون من الشعر، يمكن أن يعد أدباً باكياً، كما بدا في مستهل القصيدة، كما يمكن أن يعد أدباً مقاوماً، ملتزماً، حاثاً على التعبئة النفسية والعسكرية، وتحرير الأرض بالقوة. وهو أدب سياسي اجتماعي، يصور بعض جوانب الأحداث السياسية، وهو صدى لها، وفيه تقريع للحكام الذين تخاذلوا عن رعاية أمتهم أمام خطر الأعداء الغزاة. كما يصور بعض جوانب الحياة الاجتماعية التي كان بعض المسلمين يحياها، وخاصة أولئك الذين

= ٢/٢٠، ملخص تاريخ الإسلام ٦/١٧٥، البداية والنهاية ١٢/١٥٦، النجوم الزاهرة ٥/١٥١، عقد الجمان للعيني ٢٢/٩، ١٠.

(1) ديوان الأبيوردي ٢/١٥٧، فضائل القدس/ ١٢٧، المنتظم ٩/١٠٨، الكامل ١٠/٢٨٥، نهاية الأرب ٥/٢٢٦، البداية والنهاية ١٢/١٥٦ ـ ١٥٧، ملخص تاريخ الإسلام ٦/١٧٥، تاريخ الخلفاء/ ٣٩٤، النجوم الزاهرة ٥/١٥١، المختصر ٢/٢١١، تتمة المختصر ٢/٢٠، عقد الجمان للعيني ٢٢/٩، ١٠.

(2) ديوان الأبيوردي ٢/١٥٧، الكامل ١٠/٢٨٦، نهاية الأرب ٥/٢٢٧، عقد الجمان للعيني ٢٢/١٠.

يظنون أنفسهم بعيدين عن الخطر المحدق بالأمة.

ومن الواضح أن الشاعر قد عمل على استثارة المسلمين دينياً، وذلك أمر طبيعي، فقد كانت الحروب الصليبية حروباً دينية في بعض جوانبها، ومن هنا كان الأثر الديني جلياً فيها.

وتعد هذه القصيدة من الأدب الممثل للأمة الإسلامية، المعبر عن أحاسيسها ومشاعرها، بكل صدق وواقعية. وقد استطاع الشاعر أن ينقل إحساساتها وأحزانها، وقلقها على مصير دينها ووطنها. ولكن التوفيق لم يحالف الشاعر، عندما عَدّ ما حل بالمسلمين هفوات، فهل يعد احتلال البلاد هفوات حقاً؟ (1)

وقد استطاع شاعر آخر، لم يذكر اسمه، أن يرثي بيت المقدس بأبيات مؤثرة، حاول فيها استثارة المسلمين، فصور ما حل بهم، وبدينهم، وقرآنهم، ومساجدهم ويستنكر تخاذل المسلمين، واستكانتهم، ويعرِّض بهم، ويدعوهم إلى الجهاد(2):

أَحَلَّ الكفرُ بالإسلام ضَيْماً ... يطولُ عليه للدين النحيبُ
فحقٌّ ضائعٌ، وحمىً مباحٌ ... وسيفٌ قاطعٌ ودمٌ صبيبُ
وكَمْ من مسلمٍ أمسى سليباً ... ومسلمةٍ لها حَرَمٌ سليبُ
أمور لو تأمَّلهن طفلٌ ... لطَفَّلَ في عوارضه المشيبُ
فقل لذوي البصائر حيث كانوا ... أجيبوا الله ويحكمُ أجيبوا

ومما تجدر الإشارة إليه أن الشاعرين لم يبرزا مكانة بيت المقدس الدينية، قبلة المسلمين الأولى، وموطن الإسراء والمعراج، وغير ذلك من معالم قدسيتها، مما يتوقع أن يثير الصدى في النفوس.

ولا نجد لدى الشاعرين وصفاً لمعركة القدس، فلم يكن غرض أي منهما،

---

(1) انظر: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية/ ٤٢٥، نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية/ ٢٤ - ٢٧.
(2) النجوم الزاهرة ٥/ ١٥١، ١٥٢.

سوى تصوير الفاجعة، وإثارة النفوس علها تستجيب لداعي الجهاد.

★ ★ ★

يذكر ابن الأثير أن ما حَلّ بالقدس وبأهلها، أدى إلى حرب بين العساكر المصرية والفرنج، في رمضان من السنة ذاتها، فقد «جمع الأفضل، أمير الجيوش، العساكر، وحشد، وسار إلى عسقلان، وأرسل إلى الفرنج ينكر عليهم ما فعلوا، ويتهددهم»، ولكن الحرب انتهت بهزيمة الأفضل، وعودته إلى مصر، ثم نازل الفرنج عسقلان، وضايقوها»[1]. ويتابع ابنُ تغري بردي ابنَ الأثير، ويضيف أنه لما بلغ الأفضل «أن الفرنج ضايقوا بيت المقدس، خرج في عشرين ألفاً من عساكر مصر، وجَدّ في السير، فوصل إلى القدس يوم ثاني فتحه، فقصده الفرنج، وقاتلوه، فلم يثبت لهم، ودخل عسقلان»[2]. ولكن ابن تغري بردي يذكر ثانية أنه «لم ينهض الأفضل بإخراج «العساكر»، ويتساءل عن السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال[3]. وهكذا يتبين أن الأفضل لم يقم بما كان واجباً عليه أن يقوم به من جهاد ضد العدو الصليبي قبل احتلال بيت المقدس. وذكر أنه خرج من مصر لانجاد (افتخار الدولة) الوالي في القدس، ولكن دون جدوى، وبعد فوات الأوان[4]، ويذكر عدد من المؤرخين المسلمين والمؤرخين الفرنج أن الأفضل بن بدر الجمالي أرسل بعثة إلى الفرنج، وكانوا يحاصرون أنطاكية، وعرض عليهم أن يأخذوا شمال بلاد الشام، ويأخذ هو جنوبه[5]. ولكن «جب» دحض هذا الافتراض، كما يصفه،

---

(١) الكامل ١٠/٢٨٦، وانظر: تاريخ مصر لابن ميسر/ ٤٦٣، ذيل تاريخ دمشق/ ١٣٧، النجوم الزاهرة ١٥٠/٥.

(٢) النجوم الزاهرة ١٤٩/٥، ١٧٨.

(٣) نفسه ١٤٧/٥ وانظر: ١٤٨.

(٤) انظر: ذيل تاريخ دمشق/ ١٣٦، ١٧٣، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية/ ١٣، ١٤، الحياة السياسية في بلاد الشام/ ١٢٩.

(٥) انظر: ذيل تاريخ دمشق/ ١٣٥ ـ ١٣٦، الكامل ١٠/٢٧٣، ٢٧٨، تاريخ الخلفاء/ ٣٩٣، ٣٩٤، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ١/٣٢٥، ٣٢٦، ٣٨٥، الحركة الصليبية ١/٢٩، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، أعمال الفرنجة/٥٩، ٦٣، الجبهة الإسلامية/ ١٤٧، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية/ ١١٠، =

ويحاول دحضه بالحقيقة «القائلة إن مبعوثي الفرنجة الذين ذهبوا في تلك السنة قد ألقي بهم في السجن، ويرى أن الاحتمال الأكثر ترجيحاً يتمثل في أن الأفضل «رأى في إقامتهم بشمالي سوريا فعلاً موازياً ونافعاً للوقوف بوجه أطماع السلاجقة كما يقول». كما يرى أن «القصد من هجوم الملك الأفضل المضاد، في الدرجة الأولى، كان للدفاع عن المدن الساحلية، وكان عليه الحفاظ على عسقلان لأهميتها الاستراتيجية والتجارية»[1].

ولقد تحدثت هنا عن موقف الأفضل حيال هذا، لأن صدى هذه الأحداث قد انعكس في الشعر العربي آنذاك، ولكن انعكاسها وصداها كان سلبياً، ويتمثل ذلك في أن الشاعر أبا الصلت أمية بن عبدالعزيز الداني الأندلسي، وقف مدافعاً عن مواقف الأفضل بن بدر الجمالي، ومشيداً به، ومحرضاً إياه ضد جنده.

لقد ذُكر أن سبب عودة العساكر التي كان الأفضل يقودها، يعود إلى ما قيل عن ثورة بعض العساكر، وتآمرهم للقضاء على الأفضل. يذكر ابن أبي أُصيبعة أنه «كان قد اتفق أن قوماً من الأجناد وغيرهم، أرادوا الفتك به، فوقع على خبرهم، فقبض عليهم، وقتلهم»[2].

ويقف الشاعر أبوالصلت أمية إلى جانب الأفضل، ويمدحه، ويصوره حاكماً مثالياً، حامياً للدين، وقائداً للجيوش الإسلامية للحفاظ على المسلمين ودينهم وبلادهم، يقول[3]:

هي العزائم من أنصارها القُدرُ ... وهي الكتائبُ من أشياعها الظَفَرُ
جَرَّدتَ للدّين والأسيافُ مغمدةٌ ... سيفاً تُفَلُّ به الأحداث والغِيَرُ

وهذه مبالغة غير مقبولة، مغايرة للحقيقة والواقع، فقد تُركت مدينة بيت

= ١١١، الحرب الصليبية الأولى/ ١٢٧ ـ ١٢٨، سياسة الفاطميين الخارجية/ ١٥٧.

(١) انظر: صلاح الدين ـ جب/ ٣٢، ٣٦.

(٢) عيون الأنباء/ ٥٠٦.

(٣) ديوان أبي الصلت أمية/ ٨٩، خريدة القصر ـ قسم شعراء المغرب ١/ ٢٦٥.

المقدس طعماً ونهباً لسيوف الغزاة، فأين كان الأفضل، وبيت المقدس تابعة له، بل أين كان ملوك المسلمين جميعــاً؟ لقـد كانـوا سادرين في تخـاذلهم وهوانهم، وتنازعهم، وحرصهم على كرسي الحكم دون غيره.

ويسترسل أبوالصلت في تصوير ممدوحه بصورة الحاكم المثالية، مخالفاً الواقع والحقيقة، جاعلاً وظيفة الشعر أن يخدم ممدوحه، وليس هذا فحسب، فإنه يحاول تبرير الهزيمة التي لحقت بالأفضل وعساكره في عسقلان، بعد أن ترك البـاب مفتـوحـاً على مصـراعيه، ليدخـل منه الغزاة المحتلون إلى بيت المقدس، ويحاول الشاعر أن يبرىء ممدوحه من كل تبعات الهزيمة، ويحمل الجند كل تبعاتها، ويتهمهم بأنهم أرادوا القضاء على الأفضل، ويتحدث عن مؤامرة مزعومة، ويحرض على الفتك بهم، والانتقام منهم، يقول[1]

ورامَ كَيْدَكَ أقــوامٌ ومــا عَلمــوا ... أن الـمُـنـى خَطَراتٌ بعضُهــا خَطَرُ
أمــرٌ نَوَوْه ولــو هَمُّــوا به وقَــفــوا ... كوقــفــة الــعــير لا وِردٌ ولا صَدَرُ
فاضـرب بسيفـك من ناواكَ مُنتقمـاً ... إن الـسـيوف لأهــل البغي تُدَّخَــرُ
فليس يصبـحُ شمـلُ المُلْكَ منتظماً ... إلا بحـيث ترى الهــامــات تَنْتثِـرُ

لقـد كان الأجـدر بهـذا الشـاعـر أن يجعـل شعره شعراً معبراً عن أمته، ومأساتها، واحتلال أرضها. ومحاولة استئصالها.

★★★

ومما يُدهش له أننا لا نجد شعراً قيل حول بيت المقدس، بعد احتلالها في سنة ٤٩٢ هـ، ولفترة تقارب ربع قرن من الزمان، وهو أمر غريب حقاً، فمدينة بيت المقدس، ذات المكانة الدينية في نفوس المسلمين، لم تجد من يصور مأساتها، ويدعو إلى تحريرها، وهذا أمر يدعو إلى التساؤل: هل قيل شعر في هذا المجال، ولكنه ضاع ولم يصل إلينا؟ وهل كان لاستشهاد الكثير من الأدباء والشعراء والعلماء، من أهل بيت المقدس، على إثر الاحتلال الصليبي، أثر في ذلك؟ وهل كان لهذه المرحلة التي هزم المسلمون فيها أثر في ذلك أيضاً؟ لعل

---

(١) يوان أبي الصلت امية/ ٩٠، ٩١.

شعراً قيل، ولكنه ضاع. ومن المرجح أن استشهاد الكثير من الشعراء كان له أثر في هذا المجال. يذكر رنسيمان أن المدينة المقدسة أمست «تشكو فراغاً ضخماً، ونقصاً كبيراً في السكان، بعد أن فقدت معظم أبنائها»، وأن المذبحة التي جرت فيها «أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين»[1]. يضاف إلى هذا ما قيل عن الشعر العربي من أنه شعر انتصارات لا شعر هزائم. ولعل الشعراء لم يقولوا إلا القليل من الشعر، لأن الهزائم غلبت على الانتصارات في هذه المرحلة، ففي أوائل سنة ٤٩٢ هـ، وبعد احتلال معرة النعمان، قدمت رسل أمير شيزر، ابن منقذ، إلى الصليبيين، وعرضوا عليهم الموادعة والمسالمة، وتزويدهم بالأدلاء إلى بيت المقدس، وإمدادهم بالمؤن. وقدم رسل أمير حماة إلى «ريموند»، وبذلوا الهدايا. وتوالى حكام المسلمين في إعلان استسلامهم وتخاذلهم، فقد أرسل الأمير جناح الدولة، صاحب حمص، إليهم، يطلب المسالمة، وأرسل إليهم الهدايا. وفعل مثل ذلك فخر الملوك بن عمار، أمير طرابلس، وسالمهم، وقدم إليهم الهدايا والأموال. وعرض صاحب بيروت على الصليبيين إمدادهم بالتموين، وتقديم مبلغ من المال. وأرسل دقاق، أمير دمشق، يعرض على بلدوين خمسين ألف قطعة ذهبية فدية للأسرى، ودفع أهل أرسوف وعسقلان الجزية[2].

وفي سنة ٤٩٤ هـ، تسلم الفرنج سروج، وقتلوا أهلها، وفي رجب من هذه السنة، «فتحوا قيسارية بالسيف، وقتلوا أهلها، ونهبوا ما فيها». وفي سنة ٤٩٥ هـ، هزم المسلمون في انطرطوس. وفي سنة ٤٩٧ هـ ملك الافرنج عكا بالسيف قهراً وفي سنة ٤٩٨ هـ، هزم الافرنج العسكر المصري، وقتلوا والي عسقلان، وفي سنة ٥٠٠ هـ، استسلم والي صيدا، وأرسل مالاً إلى بلدوين

---

(١) تاريخ الحروب الصنيبية ـ رنسيمان ١/٤٠٥، ٢/١٦، الحركة الصليبية ١/٣٢٢.

(٢) انظر: الاعتبار/ ٦٥، ٨١، ذيل تاريخ دمشق/ ١٣٨ ـ ١٣٩، الكامل ١٠/٢٧٨، ٣٤٣، ٣٤٤، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ١/٣٧٦ ـ ٣٧٩، ٢/١١٩، ١٢٠، أعمال الفرنجه/ ١٠٧ ـ ١١٣، الحركة الصليبية ١/٢٢٠، ٢٢٣، ٢٥١ ـ ٢٥٦، ٢٦٨، ٤٣٢، الحرب الصليبية الأولى/ ١٦٤، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية/ ١١٩، ١٥١، الحياة السياسية في بلاد الشام/ ١٢٦ـ ١٢٧.

الأول طالباً المسالمة. وفي سنة ٥٠٢ هـ، تحالف رضوان بن تتش، صاحب حلب، مع «تنكرد» صاحب أنطاكية. وفي سنة ٥٠٣ هـ، ترددت مكاتبات ومراسلات بين ظهير الدين أتابك والافرنج»، واستقر الأمر على أن يكون للافرنج الثلث من استغلال البقاع، ويُسلم إليهم عدد من الحصون. وفيها قرر «تنكرد» عشرة آلاف دينار على شيزر. وفي سنة ٥٠٤ هـ، استقرت الحال بين والي عسقلان «شمس الخلافة» و«بغدوين» القائد الصليبي «على مال يحمله إليه»، ويكف الأذية عن عسقلان. وفيها صالحهم أمير حلب، رضوان بن تتش، وصاحب شيزر، ابن منقذ، وصاحب صور، وصاحب حماة على أن يدفعوا لهم الأموال(١).

وفي سنة ٥٠٥ هـ، حضر إلى بغداد «جماعة من الصوفية، والتجار، والفقهاء، إلى جامع السلطان ببغداد، فاستغاثوا، وانزلوا الخطيب عن المَنبر، وصاحوا، وبكوا لما لحق الإسلام من الافرنج». وبلغ الحد ببعض المسلمين الذين توجهوا إلى بغداد أن يخاطبوا الخليفة قائلين: «أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام، حتى أرسل إليك في جهادهم»؟ وكان امبراطور الروم قد أرسل إلى الخليفة والسلطان محرضاً ضد الصليبيين، وذلك لأنهم لم يسلموا له المناطق التي احتلوها. ولكن الخليفة والسلطان لم يفعلا شيئاً(٢)

وفي السنين التاليات، استمر قادة المسلمين في غفلتهم، وموادعتهم الفرنج، وكان الكثير من حكامهم مسالمين أو مستسلمين(٣).

---

(١) انظر: ذيل تاريخ دمشق/ ١٣٧، ١٣٨، ١٦٧، ١٧١، الكامل ٤/١٠، ٣٢٥، ٣٧٢، ٤٦٤، ٤٨٠ - ٤٨٣، النجوم الزاهرة ١٤١/٥، ١٤٤، ١٦٧، ١٧٢، ١٧٨، ١٨٨، ٢٠١، زبدة الحلب ١٥٧/٢ - ١٥٨، الحركة الصليبية ٢٨٤/١، ٢٨٥، ٣٥٣، تاريخ الحروب الصليبية - رنسيمان ٤٢٠/١، ٤٣٤ - ٤٣٦، ١٢٠/٢ - ١٢١، ١٤١ - ١٤٣، ١٥٦، ١٥٧.

(٢) انظر: ذيل تاريخ دمشق/ ١٧٣، الكامل ٤٨٢/١٠ - ٤٨٣، زبدة الحلب ١٥٧/٢ - ١٥٨، النجوم الزاهرة ٢٠٥/٥، الحركة الصليبية ٣٠٦/١ - ٣٠٧.

(٣) انظر: الاعتبار/ ١٤٤، ذيل تاريخ دمشق/ ١٨٦، ١٩٩، ٢٠٩، ٢١١ ٢٢٤، النجوم الزاهرة ٢٠٩/٥، زبدة الحلب ٢٢٣/٢ - ٢٢٥، البداية والنهاية ١٧٦/١٢، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية/ ٤٩٤=

ويتضح من هذا كله، كيف أن المسلمين كانوا قد منوا بالهزائم في المرحلة الأولى من فترة الحروب الصليبية. وهي الفترة التي ابتدأت بالنسبة للمسلمين. ولم يستطع الشعر أن يصور مرحلة الهزيمة هذه، أو أنه ابتعد عن تصويرها، كما تقدم.

= ـ ٤٩٥، الحركة الصليبية ١/٣١٣، ٥١٧، ٥١٠، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/١٦١، ٢٧١، ٢٨٦، ٢٨٧.

صدى الدعوة إلى تحرير بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية

إذا كانت مرحلة الهـزيمـة لم تبد جلية في الشعر العربي، وكان صداها باهتاً، فإن مرحلة الدعوة إلى الجهاد، والوحدة الإسلامية والتحرير، تبدو جلية كل الجلاء في الشعر العربي آنذاك.

إن المسلمين قد تخلصـوا من الهزيمة والشعور بها، وبدأوا يحسون بما ينبغي عليهم القيام به. لقد لقيت الدعوة إلى تحرير بيت المقدس من الاحتلال الصليبي صدى كبيراً في الشعـر العـربي، في عصر الحروب الصليبية، بعد مرحلة الهـزيمـة. وقـد انعكس ذلك جلياً في شعر الانتصارات التي احرزها المسلمون منذ نحو سنة ٥٣٩ هـ، وذلك بعد بروز شخصيات قيادية إسلامية قادت الجهاد المقدس ضد العدو الصليبي، من أمثال عماد الدين زنكي، ونور الدين زنكي، وغيرهما.

ظهـرت الدعوة إلى تحرير بيت المقدس، من خلال المديح، والفخر، والـرثـاء، والتعزية، والحنين، وغير ذلك من فنون الشعر. ويبدا هذا جلياً من خلال ما قيل في أبطال المسلمين، مدحاً، ورثاءً، من أمثال عماد الدين زنكي، ونور الدين زنكي، وأسد الدين شيركوه، وصلاح الدين الأيوبي، وغيرهم.

وشارك في تلك الدعوة، بل في تلك التعبئة النفسية للمسلمين، عدد كبير من الشعـراء من أمثال ابن منير الطرابلسي، وابن القيسراني، وطلائع بن رُزّيك، وأسامة بن منقذ، والعماد الاصفهاني، وغيرهم من الشعراء. ومن الطبيعي أن تستمر الدعوة إلى الجهاد إلى أن يتم تحرير بيت المقدس، وكل ما احتل من بلاد المسلمين.

وأما بالنسبة إلى بيت المقدس، فقد بدأ الشعراء بالدعوة إلى تحريره منذ احتلاله في سنة ٤٩٢ هـ، ولكن هذه الدعوة برزت بصورة اكثر جلاء في الشعر بعد الثلث الأول من القرن السادس الهجري، بعد أن تمكن المسلمون من إحـراز الانتصـارات الحـاسمـة في معـركـة الـرُّهـا، ومعـركة إنّب. وغيرهما من المعـارك. وقـد تغنى الشعـراء بتلك الانتصـارات، وأشـادوا بأبـطالهم

ومن ذلك ما قاله الشاعران ابن منير الطرابلسي، وابن القيسراني.

ومن خلال تلك القصائد، دعا الشاعران إلى تحرير بيت المقدس، فقد دعا ابن منير الطرابلسي إلى تحريره، في قصيدة قالها مادحاً عماد الدين زنكي، ومهنئاً بفتح الرها، ومطلعها(١):

بعمـادِ الـدِّين أضحتْ عُروةُ الـدِّيـ ـن معصـوبـاً بهـا الفتـحُ المبينْ

ويعـد الشـاعـر فتح الرها مقدمة لفتح بيت المقدس، وهو يصور بذلك أمنيتـه، بل أمـاني المسلمين، كمـا يصـور أحـاسيسـه ومشاعره، وأحاسيس المسلمين ومشاعرهم، تجاه بيت المقدس، يقول(٢):

وَغـداً يُلقـى على الـقُـدس لهـا كلكـلٌ يَدْرسـهـا دَرْسَ الـدَّرِينْ

ويدعو ابن القيسراني إلى تحرير بيت المقدس أيضاً، في قصيدة قالها مهنئاً بفتح الرّها ومطلعها(٣):

هو الـسـيفُ لا يغـنـيك إلاّ جلادُه وهـل طَوَّق الأمـلاكَ إلاّ نجـادُهُ

ويتـوجـه فيها إلى تهديد العدو الصليبي، ويطلب منهم أن يسارعوا إلى الخروج من بلاد المسلمين، ويتركوا ممالك انشأوها، وعلى رأسها مملكة بيت المقدس كما كانوا يسمونها. ويؤكد الشاعر ارتباط المسلمين ببلادهم، وحقهم فيها، بأقل الألفاظ، وأبسطها، كما يبدو في قوله(٤):

وقُـلْ لملوكِ الكُفـرِ تُسلمُ بَعْـدَهـا ممـالـكَـهـا إنَّ الـبـلادَ بلادُهُ
كَذا عن طريقِ الصبحِ فَلينْتَه الدُّجى فيَا طالـمـا غَالَ الـظلامَ امتـدادُهُ

ويعـد ابن القيسـراني فتـح الرها مقدمة لفتح بيت المقدس، وما أجمل تصويره فتح الرها بالبحر، والبحر لا ينفك عن ساحله، وكذلك كان فتح الرها مرتبطاً بفتح بيت المقدس، فهما مثل البحر وساحله، ويرى الشاعر أن الخلاص

---

(١) كتاب الروضتين ١/١٠٠، أو ١/٣٩، شعر ابن منير/ ١٩١، ديوان ابن منير/ ١٩٩.

(٢) كتاب الروضتين ١/٤٠، شعر ابن منير/ ١٩٣، ديوان ابن منير/ ٢١٠.

(٣) كتاب الروضتين ج ١ ق ١/٩٧ أو ١/٣٧، أعلام النبلاء ١/٥٠٣.

(٤) كتاب الروضتين ج ١ ق ١/٩٨.

من الصليبيين أمر آت لا محالة، كما يبدو في قصيدة له يمدح فيها جمال الدين، وزير الموصل ويهنئه بفتح مدينة الرها، ومطلعها[1]:

أما آن أنْ يُزهَق الباطِلُ ... وأنْ يُنجزَ العِدَةَ الماطِلُ

ومنها:

فإنْ يكُ فتْحُ الرُّها لُجةً ... فساحلُها القُدسُ والساحلُ

فهلْ علمتْ علمَ تلك الديا ... ر أنَّ المقيمَ بها راحلُ

أرى القسَّ يأملُ فوْت الرماح ... ولا بُدّ أنْ يُضرب السابِلُ

ويصور ابن منير الطرابلسي عيسى عليه السلام، قد جاء مستنجداً بنور الدين زنكي وسيفه، ليخصله، ويخلص بيت المقدس مما فعله المحتل الصليبي، وهي أفعال لا يرضَى عنها عيسى عليه السلام. ويقرن الشاعر حديثه هذا بالدعاء لنور الدين زنكي بالبقاء، ليكون حامياً للدين، كما يبدو في قوله، من قصيدة قالها في نور الدين، في رمضان سنة ٥٤٣ هـ، مشيداً، ومهنئاً[2]:

أبقاك للدُّنيا وللدّين مَنْ ... خَلّاكَ في ليلهما نيِّرا

حتى نَرى عيسى من القُدْس قَدْ ... نجا إلى سيفك مُسْتنصِراً

ويدعو ابن القيسراني نورالدين زنكي إلى تحرير القدس والأقصى اللذين ينتظران تخليصهما من نير الاحتلال، ويصور ذلك بأنه أكثر ما يتمناه نورالدين نفسه، وما يتمناه ابن القيسراني، وما يتمناه المسلمون جميعاً، كما يبدو في قول الشاعر من قصيدة قالها متغنياً بانتصار نورالدين زنكي في معركة إنّب في سنة ٥٤٤ هـ، ومهنئاً بالنصر، ومطلعها[3]:

هذي العزائمُ لا ما تَدَّعي القُضُبُ ... وذي المكارمُ لا ما قالت الكتبُ

وفيها يقول:

---

(١) خريدة القصر - قسم شعراء الشام ١/١٠٨، ١١٠، كتاب الروضتين ج ١ ق ١/١٢٦، ملخص تاريخ الإسلام/ ٩٦.

(٢) كتاب الروضتين ج ١ ق ١/١٤٨، ١٤٩، شعر ابن منير/ ٩٦، ديوان ابن منير/ ٢٠٧.

(٣) كتاب الروضتين ج ١ ق ١/١٥٢، ١٥٤، مفرج الكروب ١/١٢١، الكامل ١١/١٤٥، زبدة الحلب ٢/٣٠٠، كنز الدرر (الدرة المضية) ٦/٥٥٤، اعلام النبلاء ٢/١٣، ١٥.

فانهضْ إلى المسجد الأقصى بذي لجبٍ
يوليكَ أقصى المُنى فالقدس مُرتقبُ
وائذن لموجك في تطهيرِ ساحلِهِ فإنما أنت بحرٌ لُجُّهُ لجبُ

ولا يكاد ابن القيسراني يترك حدثاً يقع، إلا ويتخذ منه مجالاً للدعوة إلى تحرير بيت المقدس. يذكر ابن القلانسي، وأبوشامة المقدسي، أنه في المحرم من سنة ٥٤٥ هـ قد «تقرر الصلح بين نورالدين وأرباب دمشق، والسبب في ذلك أن نورالدين أشفق من سفك دماء المسلمين، إن أقام على حربها. واتفق أنهم بذلوا له الطاعة، وإقامة الخطبة على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان»(١).

وفرح المسلمون لاتفاق قادتهم في الشام، ورأى ابن القيسراني في ذلك الاتفاق عاملاً مهماً لتحرير بيت المقدس من الاحتلال الصليبي، والقضاء على أولئك الصليبيين الأوروبيين، والخلاص من ضلالهم، معلناً بزوغ فجر النصر والتحرير، كما يبدو في قوله مخاطباً نورالدين، حاثاً إياه على مواصلة الجهاد، من قصيدة مطلعها(٢):
لك الله إنْ حاربتَ فالنصرُ والفتحُ
وإن شئتَ صلحاً عُدَّ من عَزْمك الصلحُ

ومنها:
إذا ما دمشق مَلَّكتْك عنانها تيقَّنَ مَنْ في إيليا أنَّه الذبحُ
متى التفَ نَقْعُ الجحفلين على الهدى
فلا مَهْمَهٌ يحوي الضلالَ ولا سفحُ
إذا سارَ نورُالدين في الجيش غازياً فقولا لليل الإفك قد طلعَ الصبحُ

ويقرر ابن القيسراني أن الحق للقوة، وأن بيت المقدس والأقصى لن يحررا إلا بالسيف، ولا يتم التحرير إلا بالتضحية بالنفوس، وتقديم الدماء الطاهرة

(١) ذيل تاريخ دمشق/ ٣٠٩، ٣١٠، كتاب الروضتين ١/ ٧٠.
(٢) كتاب الروضتين ج ١ ق ١/ ١٧٩، ١٨٠ أو ١/ ٧٠.

الزكية قرباناً على مذبح الحرية، وكم يبدو قول الشاعر معبراً عندما يصور السيوف والرماح وقد قامت بواجبها على خير وجه، لتخليص الأرض، والإنسان، كما يبدو في قوله مادحاً نورالدين زنكي، بعد مقتل (البرنس)، وأسر (جوسلين) من عتاة قادة الصليبيين، وفتح حصون عديدة[1]:

كأني بهذا العزم لا فُلَّ حَدُّه ... وأقصاه بالأقصى وقد قُضي الأمرُ
وقد أصبح البيتُ المقدسُ طاهراً ... وليس سوى جاري الدماء لهُ طُهْرُ
وقد أدت البيضُ الحدادُ فروضَها ... فلا عهدةٌ في عُنقِ سيفٍ ولا نَذْرُ
وإن تَتيمَّمْ ساحلَ البحر مالكاً ... فلا عجبٌ أنْ يملكَ الساحلَ البحرُ
وصَلَّتْ بمعراج النبي صوارمٌ ... مساجدُها شَفْعٌ وساجدُها وَتْرُ

ويشارك العماد الأصفهاني في الدعوة إلى تحرير بيت المقدس، كما يبدو في أشعاره التي مدح بها أبطال المسلمين، من أمثال نورالدين زنكي، وأسد الدين شيركوه، وصلاح الدين الأيوبي، وتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وغيرهم من أبطال المسلمين، ففي سنة ٥٦٣ هـ، كان نورالدين قد أخضع الأمير غازي بن حسان المنبجي، صاحب منبج، حيث ساءت أفعاله، وعصى على نور الدين، فأخذها منه، وتوجه لتهذيب أحوالها، فقال العماد الأصفهاني قصيدة يمدحه فيها، ويهنئه بالنصر في منبج، ويصور هذا الفتح مفتاحاً لكل فتح آت. ويحثه على الاستمرار في إحراز الفتوحات عامة، وفتح بيت المقدس، وتحريره خاصة، كما يبدو في قوله[2]:

بُشْرَى الممالكِ فتحُ قلعةِ منبجٍ ... فَلْيهن هذا النصر كلُّ مُتَوَّجِ
أعطيت هذا الفتح مفتاحاً به ... في المُلْك يفتحُ كلَّ باب مُرْتجِ
وافى يبشِّرُ بالفتوح وراءه ... فانهضْ إليها بالجيوش وعَرِّجِ
أبشر فبيتُ القدسِ يتلو مَنبجاً ... ولمنبجٌ لسواهُ كالأنموذجِ

(١) خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ١/١٨٥، كتاب الروضتين ج ١ ق ١/١٨٥، ١٨٧ أو ١/٧٢، ٧٣، معجم الأدباء ١٩/٦٩، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية/ ١٠٣، اعلام النبلاء ٢/٢٣.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ١٠٢ ـ ١٠٣، كتاب الروضتين ج ١ ق ٢/٣٨٠، ٣٨١ أو ١/١٥١، اعلام النبلاء ٢/٤٨، ٤٩.

ما أعْجزتَك الشُّهبْ في أبراجِها طلباً فكيف خوارجٌ في أبْرُجِ

إلى أن يقول:

فانهضْ إلى البيت المقدس غازياً وعلى طرابلس ونابلس عُجِ

ويشارك الحافظ أبوالقاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر في الحديث عن الاستيلاء على مصر، فأنشأ قصيدة في السنة ذاتها يمدح فيها نورالدين، ويهنئه، ويحثه على تحرير بيت المقدس، وتطهير الأقصى من الشرك وآثاره، فقد أصبحت حلب، ودمشق، والموصل، ومصر، صفاً واحداً، كما يبدو في قوله[1]:

وإنْ بذلتَ لفتح القُدس محتسباً للأجر جُوزيت خيراً غير محتسبِ

والأجرُ في ذاك عند الله مرتقبٌ فيما يثيبُ عليه خيرُ مرتقبِ

والذكرُ بالخيرِ بين الناسِ تكْسِبُهُ خيرٌ من الفضة البيضاءِ والذهبِ

إلى أن يقول:

وطهِّر المسجدَ الأقصى وحَوْزتَهُ من النجاساتِ والإشراك والصُّلُبِ

عساك تظفرُ في الدُّنيا بحسن ثنا وفي القيامةِ تلقى حُسْن منقلبِ

★★★

وظهرت الدعوة إلى تحرير بيت المقدس من خلال رثاء الأهل والأوطان، ففي سنتي ٥٥١ هـ و٥٥٢ هـ وقعت زلازل عظيمة بالشام، وحلب، وشيزر، وغالب بلاد الشام، «وأهلكت كثيراً من أهلها، وهلك بها من هلك من الخلق، وكان نحواً من عشرة آلاف»[2].

أنشأ أسامة بن منقذ أشعاراً «يندب وطنه وأهله الهالكين في الزلازل بحصن شيزر»[3]. وهو ما لا مجال لتفصيل القول فيه هنا. وكتب إليه صديقه طلائع بن

---

(١) خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ١/٢٧٧، كتاب الروضتين ج ١ ق ٢/٤٠٥ أو ١/١٦٠.

(٢) انظر: ذيل تاريخ دمشق/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦، كتاب الروضتين ١/١٠٣ ـ ١٠٥، الكامل١١/٢١٨، النجوم الزاهرة ٥/٣٢٥.

(٣) ديوان أسامة بن منقذ/ ٢٨٧، ٣٠٤ ـ ٣٠٩.

رُزيك قصيدة يتحدث فيها عن تلك الزلازل وآثارها المدمرة، ويعزيه عن أهله[1].

ومع ايمان الشاعر طلائع بن رزيك بالقضاء والقدر، وبأن ما حَلّ ببلاد الشام هو قضاء وقدر من الله، فإنه يحاول أن يعلل ما حدث في بيت المقدس وغيره من ديار الإسلام، ويبين أن أسباب الكارثة التي نزلت بالمسلمين وبلادهم، تعود إلى أن مدينة بيت المقدس كانت محتلة من قبل الصليبيين، على الرغم من مكانتها الدينية، وقدسيتها، فهي القبلة الأولى، وموطن الإسراء والمعراج، وهي المدينة المقدسة التي كان المسلمون يقصدونها، من كل حدب وصوب في العالم الإسلامي. للتعبد، والمجاورة، والعلم، يقول[2]:

إنّ ظنّي والظَّنُّ مثل سهام الـ ... ـرمي منها المُخطي ومنها المصيبُ

إنَّ هذا لأن غدتْ ساحةُ القُد ... س وما للإسلام فيها نصيبُ

منزلُ الوحي قبل بعثِ رسول الله ... ـه فهو المحجوج والمحجوبُ

ويتساءل الشاعر عن سبب الكوارث التي حلت بالشام، كما يبدو في قوله[3]:

أبِذنْبٍ أصابها قدَرُ الله ... ـهِ فللأرض كالأنامِ ذنوبُ

وفي حديث طلائع عن مكانة بيت المقدس وقدسيتها، حث واضح على الجهاد والتحرير. ويصور طلائع مدينة بيت المقدس في ظل الاحتلال، ويعرض بالمحتلين وأفعالهم، يقول[4]:

لو رآه المسيحُ لم يَرضَ فعلاً ... ذَكروا أنَّهُ لهُ منسُوبُ

ويدعو إلى الجهاد، وتوحيد الصفوف بين مصر والشام، للعمل على تخليص بيت المقدس، مما يعاني منه من كروب الاحتلال، يقول[5]:

ولعمري إنَّ المناصحَ للدّ ... ين على الله أجرُه مَحسُوبُ

(١ و٢ و٣) ديوان طلائع/ ٦١، ٦٣، ديوان أسامة/ ٧، ١٥٣، ١٦٥، كتاب الروضتين ١/١٠٦، عيون التواريخ ١٢/٤٩٥.

(٤) ديوان طلائع/ ٦٣، ديوان أسامة/ ١٦٥، كتاب الروضتين ١/١٠٦.

(٥) ديوان طلائع/ ٦٤، ٦٥، ديوان أسامة/ ١٦٥، ١٦٦.

وجهادُ العدوِ بالفعل والقو ل على كلِّ مُسلمٍ مكتوبُ
أو تراها مثل العروسِ ثراها كلُّه من دمِ العِدا مخضوبُ
لطنين السيوفِ في فَلَقِ الصُّبـ ـح على هام أهلها تَطريبُ
ولجمع الحشودِ من كل حِصنٍ سَلَبٌ مُهمَلٌ لهم ونُهوبُ
ويحول الإله ذاك، ومن غا لب ربّي فإنّه مغلوبُ

★★★

وتظهر الدعوة إلى تحرير بيت المقدس، من خلال رثاء الأبطال، ومن ذلك رثاء نورالدين زنكي، كما يبدو في قصيدة للعماد الأصفهاني، يرثي فيها نورالدين، مطلعها[1]:

الدينُ في ظُلَمٍ لغيبة نوره والدهرُ في غُممٍ لفقد أميره

ويتحدث العماد عن فقد حامي الإسلام، وهو الحامي الذي كان يسعى إلى تحرير بيت المقدس، سعياً متواصلاً، وهو الذي صُنع في عهده منبر المسجد الأقصى، لينقل إليه بعد التحرير.

ويشير العماد إلى عزم نورالدين على تحرير بيت المقدس، قبل وفاته، كما يبدو في قوله في قصيدة يرثي فيها نورالدين[2]:

أوَ ما وَعَدْت القُدس أنَّك منجزٌ ميعاده في فتحه وظهوره
فمتى تُجيرُ القُدس من دَنس العِدا وتَقدَّس الرحمنُ في تطهيره

وتظهر الدعوة إلى تحرير بيت المقدس في قصيدة للعماد الأصفهاني قالها في سنة ٥٦٤ هـ، معزياً السلطان صلاح الدين الأيوبي، بعمه أسد الدين شيركوه، ومهنئاً إياه، ومطلعها[3]:

أيايوسف الإحسانِ والحُسنِ خير مَنْ
حَوى الفضل والإفضال والنهي والأمْرا

(١) خريدة القصر ـ بداية قسم شعراء الشام/ ٧٢، كتاب الروضتين ١/ ٢٤٤.
(٢) خريدة القصر ـ بداية قسم شعراء الشام/ ٧٢، كتاب الروضتين ١/ ٢٤٥.
(٣) ديوان العماد الأصفهاني/ ١٥٩، كتاب الروضتين ج ١ و ٢/ ٤٥٣.

ويصوره فيها حامياً للدين، ويشيد بأبيه، ويتحدث عن مناقب عمه شيركوه، ويركز على جهاد شيركوه ضد الصليبيين، ويحث صلاح الدين فيها على مواصلة الجهاد، والعزم على تحرير بيت المقدس، كما يبدو في قوله(1):

وما يرتوي الإسلام حتى تغادروا ... لكم من دماءِ الغادرين بها غَدْرا
فَصبُّوا على الإفرنج سوط عَذابها ... بأن تقسموا ما بينها القتلَ والأسْرا
ولا تُهمِلُوا البيتَ المقدَّس واعزِموا ... على فتحه غازِينَ وافترِعوا البكرا
تُديمون بالمعروف طَيِّب ذكركم ... وما المُلْك إلا أن تديموا لكم ذكْرا
وإنَّ الذي أثرى من المال مُقْتَرٌ ... وإن يُفنه في كسبِ محمدةٍ أثرَى



ويشارك طلائع بن رزيك في الدعوة إلى تحرير القدس، في مجال الفخر والحماسة، كما يبدو في افتخاره بجهاده، وجيوشه، ووقائعه التي انتصر فيها على العدو الصليبي، ويصور جبال القدس قد أصبحت أرضاً قفراً مستوية، بعد أن هاجمتها جيادهم، ويصور القضاء على العدو تصويراً ساخراً، فقد عمَّ أرضها خصب نجم عن ارتواء ثراها بدمائهم، وقضى على صوت النواقيس فيها، كما يبدو في قوله(2).

جَعَلْنا جبالَ القدسِ فيها وقد جَرت ... عليها عتاقُ الخيل كالنفنف السَّهْبِ
فقد أصبحتْ أوعارُها وحُزونُها ... سهولاً تُوطَّا للفوارس والرُّكْبِ
ولما غدَتْ لا ماءَ في جَنَباتها ... صَبَبنا عليها وابلاً من دمٍ سَكْبِ
وجادتْ بها سُحْبُ الدروع من العِدا ... نجيعاً فَأغْنتها الغَداةَ عن السُّحْبِ
وأجرَتْ بحاراً منه فوقَ جبالها ... ولكن بحارٌ ليس تَعْذبُ للشرْبِ
فقد عَمَّها خِصبٌ به من رؤوسهم ... بها ولَكَمْ خِصبٍ أضرُّ من الجَدْبِ

---

(1) ديوان العماد الأصفهاني/ 161، كتاب الروضتين ج 1 ق 2/ 454.

(2) ديوان طلائع (ط النجف)/ 58، 59، (ط مصر)/ 47 ـ 48، خريدة القصر ـ قسم شعراء مصر 1/ 178، 179.

وقد روعتها خيلُنا قبلَ هذه مراراً وكانت قبلُ آمنة السِّرْب
وأخْفى صهيلُ الخيلِ أصوات أهلها فعافتْ نواقيسَ الفرنج عن الضَّرْب

★★★

وتظهر الدعوة إلى الجهاد وتحرير بلاد المسلمين، من خلال الاشعار التحريضية ضد من عاضد الفرنج، فقد ذكر أبوشامة المقدسي أن نورالدين حاصر «دمشق في سنة ٥٤٦ هـ، وذلك لمعاضدة أهلها الفرنج، واستنصارهم بهم». وأضاف ابن القلانسي أن الفرنج قد احتشدوا لإنجاد أهل دمشق، «وقد ضاقت صدور أهل الدين والصلاح، وزاد إنكارهم لمثل هذه الاحوال المنكرة، والأسباب المستبشعة»[١].

وليس هذا فحسب، فقد ذكر أن حاكم دمشق (مجير الدين) ومؤيده، خرجوا في خواصهما وجماعة وافرة من الرعية، واجتمعا بملكهم وخواصه، «وكان الافرنج حين اجتمعوا مع العسكر الدمشقي قد قصدوا بُصرى لمنازلتها، ومضايقتها، ومحاربتها، فلم يتهيأ ذلك لهم. . . ، وراسلوا مجير الدين ومؤيده يلتمسون باقي المقاطعة المبذولة لهم على ترحيل نورالدين عن دمشق، وقالوا: لولا نحن ندفعه ما رحل عنكم»[٢]. فياللعجب فإننا نرى حاكماً مسلماً يتصل بأعداء المسلمين، ويحالفهم، ويقرر دفع مال لهم ذليلاً صاغراً، علماً بأن نورالدين لم يكن يبغي إلا صلاح المسلمين، وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأساري. وطلب من حاكم دمشق التعاضد على الجهاد[٣]. ودعا هذا الموقف الشعراء إلى تحريض نورالدين ضد من خانوا دينهم، وأمتهم، وأرضهم، ومن ذلك ما فعله ابن منير الطرابلسي، فلما كان نورالدين محاصراً دمشق، كتب إليه قصيدة يحرضه فيها على من تعاونوا مع العدو الصليبي، وكتبها إليه من حماة، وقد تخلف لمرض عرض له[٤]. ويصف الشاعر المتعاونين

(١) انظر: خريدة القصر ـ قسم شعراء مصر (حاشية) ١/١٧٣، ذيل تاريخ دمشق/ ٣١٣، كتاب الروضتين ١/٧٧.
(٢) ذيل تاريخ دمشق/ ٣١٤.
(٣) نفسه/ ٣١٣، ٣١٤.
(٤) كتاب الروضتين ١/٧٧.

مع العدو بالنفاق، والكفر، والضلال، «والخداع الخيبري»، ويدعوه إلى القضاء عليهم، ويبين أنه لن تحرر بلاد المسلمين وعلى رأسها بيت المقدس، إلا بعد القضاء على أولئك المتخاذلين، ثم يحث الشاعر على تحرير الأقصى، وتطهيره من كل رجس ودنس، ويصور بلد خليل الرحمن، وغزة هاشم مستجيرة بنورالدين، لتخليصها من الاحتلال وآثاره، يقول[1]:

آثارُهُمْ نَجِسٌ أذال المسجدَ الـ ... أقصى فَصُنْ ما دَنَّسوه وطَهِّرِ
جارَ الخليل ومن بغزَّة هاشم ... بلهامك المتَدَمْشق المُتمصِّرِ

ويصب ابن منير جام غضبه على الحاكم الدمشقي مجيرالدين، ويصفه بأنه مبيد الدين، فقد حارب حزب الله، وتنصر، وقد يتهود، ويصور أنه ما لحق باليهود في بيت المقدس في عهد بختنصر، أقل مما تجرعه مجيرالدين ومؤيده، كما يبدو في قوله[2]:

وأُقسمُ ما ذاقَ اليهودُ بايليا ... وموضعها من بُختنصر أسودُ
كبعض الذي جرّعته فَسَرطْتهُ ... وأيدٌ فيه من عماك المؤيدُ
ولايتُه عزل إليك موجه ... وتصحيفهُ قتلٌ عليك مؤبدُ

ويبين الشاعر في القصيدة ذاتها أنه لا بد من تخليص دمشق من أمثال أولئك الحكام، ويصور دمشق وبيت المقدس تصويراً مؤثراً، ويتمنى أن يرى أعلام النصر والتحرير مرفرفة فوق الأقصى والصخرة، يقول[3]:

دمشقَ دمشقَ إنّما القُدس سرحةٌ ... ومَركزُها صَرحٌ عليها مُمردُ
حموها لكي يُحموا، وقد بلغ المدى ... بهم أجلٌ حتْمٌ وعُمرٌ مُحدَّدُ

ويدعو ابن منير نورالدين زنكي إلى شن غارة شعواء تصلي الكافرين سعيرا، كما يقول هو نفسه، ويدعو إلى تدميرهم والخلاص منهم، في صور

---

(1) كتاب الروضتين ج ١ ق ١/١٩٦، أو ١/٧٨، شعر ابن منير/ ١٠٧، ديوان ابن منير/ ٢٢٩، ٢٣٠.
(2) كتاب الروضتين ج ١ ق ١/١٩٨، شعر ابن منير/ ٦٣، ديوان ابن منير/ ٢٣١.
(3) كتاب الروضتين ١/٧٩، شعر ابن منير/ ٦٥، ديوان ابن منير/ ٢٣٣.

وبيت المقدس، كما يبدو في قوله من قصيدة قالها في المحرم من سنة ٥٤٧ هـ، عندما افتتح نورالدين حصن أنطرسوس، وخلصه من العدو الصليبي، يمدحه فيها، ويهنئه بالفتح، ويدعوه إلى متابعة الجهاد[1]:

باكِرْ بركْزِ قَناً تُنسِّفُ أُسُّها والخيلُ صورٌ كي تُزيرك صُورا
وتُريك لامعة التريكِ بساحةِ الـ أقصى مُطهرة لها تطهيراً
أوَلستَ من قومٍ إذا هزّوا القنا فتلوا معاصمهم لها تَسْويرا

★ ★ ★

يدعو الشاعران طلائع بن رزيك وأسامه بن منقذ إلى الجهاد وتحرير بلاد المسلمين التي احتلها الصليبيون، وعلى رأسها بيت المقدس، فقد كتب طلائع بن رزيك قصيدة إلى أسامة، وفيها يعد الجهاد أهم مهمة يجب أن يقوموا بها، يقول[2]:

وأهَمُّ الأمورِ أمرُ جهادِ الـ كفرِ فاسمع فعندنا التحقيقُ

ويتحدث طلائع عن جهاده ضد الصليبيين، ويبين أنه كان ينتظر شفاء نورالدين زنكي من مرضه، ولن يعوقه أمر عن الجهاد بعد ذلك، يقول[3]:

أنتَ في حسم داءِ طاغيةِ الـ كفار ذاك المرجو والمرموقُ
فاغتنمْ بالجهادِ أجْرَك، كي تلـ قى رفيقاً له، ونعم الرفيقُ

ويجيب أسامة بن منقذ بقصيدة على الوزن نفسه، والقافية نفسها، ويشيد فيها، بطلائع وأفعاله ضد الصليبيين، فهو أمير الجيوش، وهو ركن وثيق للإسلام، ثم يصور صدى دعوة الجهاد هذه لدى نورالدين، يقول[4]:

أسمعَتْ دعوةُ الجهاد، فلبَّا ها مليكٌ بالمكرمات خَليقٌ
مالَهُ عن جهادِه الكُفْرَ والعد لِ وفعلِ الخيرات شغلٌ يَعوقُ

---

(١) كتاب الروضتين ١/٨٧، شعر ابن منير/ ٩٨، ديوان ابن منير/ ٢٤٦.

(٢) ديوان طلائع/ ١٠٣، كتاب الروضتين ١/١١٦.

(٣) ديوان طلائع/ ١٠٣، كتاب الروضتين ١/١١٦.

(٤) ديوان أسامة بن منقذ/ ٨٨، ١٨٩.

ويرسل طلائع بن رزيك قصيدة إلى أسامة بن منقذ، ويحثه على تحرير بيت المقدس، خاصة، كما يبدو في قوله[1]:

فَأَبْلغن قولنا إلى الملك العادل فهو المرجُوُّ والمأمولُ
قُلْ له كم تماطلُ الدَّينَ في الكفار فاحذر أن يغضبَ الممطولُ
سر إلى القُدْس واحتسبْ ذاك في الله فبالسير منك يُشفى الغليلُ
وإذا ما أبطا مسيرُك فالله إذن حَسْبُنا ونعمَ الوكيلُ

فكتب إليه أسامة قصيدة على الوزن نفسه، والقافية نفسها، ويشيد بطلائع في جهاده، وعدله، ويطيل في الحديث عن جهاده ضد الصليبيين[2]. ويرد طلائع بقصيدة داعياً إلى غزو جيوش الكفر في عقر دارها، كما يقول الشاعر نفسه، ويحث نورالدين على الجهاد، ويصور الحالة في الشام، وقد «خيم جيش الكفر فيها»، ويقول مخاطباً أسامة[3]:

فقولوا لنورالدّين لا فُلَّ حدُّه ولا حكمتْ فيه الليالي الغواشمُ
تجهَّزْ إلى أرض العَدُوِ ولا تَهُنْ وتظهر فُتوراً أنْ مضت منك حازمُ

إلى أن يقول:

فقمْ واشكر الله الكريم بنهضه إليهم، فشكرُ الله للخلق لازمُ

ويرد أسامة بقصيدة يشيد فيها بطلائع، ويتحدث عن حمايته الإسلام والمسلمين[4].

ويتحدث طلائع في قصيدة أخرى أرسلها إلى أسامة، عن الصراع مع الفرنج، ويحث على الجهاد، فيقول[5]:

فقولوا لنورالدّين ليس لجائف الجراحات إلا الكيُّ في الطب والبَطُّ

(١) ديوان طلائع/ ١٢٩، ١٣٠، كتاب الروضتين ١/ ١١٩.
(٢) انظر: ديوان أسامة/ ١٤٠ ـ ١٤١، ١٩٠، ١٩٢.
(٣) انظر: ديوان طلائع/ ١٤١.
(٤) انظر: ديوان أسامة/ ٢٢٤ ـ ٢٢٦.
(٥) ديوان طلائع بن رزيك/ ٨٧، كتاب الروضتين ١/ ١٢٠.

وحَسْمُ أصولِ الداءِ أولى لعاقلٍ
لبيبٍ إذا استولى على المُدْنفُ الخلطُ

ويصور أسامة جيوش المسلمين وجهادها بقيادة نورالدين زنكي، ويبين أن غاية الأماني تتمثل في تحرير بيت المقدس، يقول[1]:

ونرتجع القدسَ المطهَّرَ منهمُ ويُتلى بإذن الله في الصخرة الذكرُ

ويتبين من هذه المراسلات الشعرية أن الجهاد كان أهم واجب ينبغي القيام به، وأنه لن يقر للمسلمين قرار إلا بتحرير بيت المقدس خاصة.

★★★

ويدعو العماد الأصفهاني صلاح الدين إلى تحرير الساحل، وتطهير بيت المقدس من رجس الاحتلال، كما يبدو في قوله من قصيدة كتبها إليه عندما كاتب (مؤتمن الخلافة) الفرنج[2]:

يا مُخجلَ البحر بالأيادي قد آنَ أنْ تُفتحَ السواحلْ
فقدِّس القُدس من خباثٍ أرجاس كفر غُتمٍ أراذلْ

ويشيد عمارة اليمني بجهاد صلاح الدين ضد الفرنج، ويحرضه على القضاء على «مُرّي»، ملكهم في بيت المقدس، في قصيدة أنشأها في سنة ٥٦٤ هـ، يقول[3]:

أخَذْتم على الافرنج كل ثنيّةٍ
وقلتمْ لأيدي الخيل مُرّي على «مُرْي»

ويحثه على تحرير بيت المقدس، كما يبدو في قوله من قصيدة أخرى[5]:

قُلْ لابن أيوب وكمْ ناصحٍ أنفعُ ممن هو شاكي السلاحْ

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ/ ٢٠٤.

(٢) انظر: ديوان العماد الأصفهاني/ ٣٢٤، الروضتين ١/ ١٧٨، الكامل ١١/ ٣٤٥ - ٣٤٧، مفرج الكروب ١/ ١٧٧، شفاء القلوب/ ٧١، ٧٢، تاريخ ابن الفرات م ٤ ج ١/ ٧٢، خطط المقريزي ٢/ ١٩.

(٣) كتاب الروضتين ١/ ٦٤.

حاربْ على مثــل نجــوم الــسَّمــاً   فمُــلْكُ مصــرَ ما عليه اصــطلاحْ
فالــقــدسُ قد آذن إغــلاقــه   على يدي يوسـف بالإنــفــتــاحْ

ويصور عمارة بيت المقدس مشتاقاً إلى صلاح الدين، ويحثه على تحريره يقول[1]:

أضَفْتَ إلى أجـرِ الجهـادِ زيارة الـ   ـخـليل فأبْشـرْ أنـت غاز موفـقُ
وهـيَّجـتَ للبيت المقـدَّس لوعـةً   يطولُ بهــا منــه إلـيك التَشَــوُّقُ
تَنْشُّقُ من مَلْقــاك أعــظم نُفحـةٍ   تطيبُ على قلب العدى حين تنشقُ
وغَــزْوُكَ هذا سُلَّمٌ نحــو فتــحِـهِ   قريبــاً، وإلاّ رائــد ومـطرِّقُ
هو البيتُ، إنْ تفتحــهُ والله فاعــلٌ   فمــا بعــده بابٌ من الشــام مُغلقُ

ويشارك الملوك الايوبيون أنفسهم في الدعوة إلى تحرير بيت المقدس، ومن ذلك ما قاله الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب، فقد قال قصيدة يمدح فيها صلاح الدين، ويحثه على الجهاد، ويصور مدينة بيت المقدس تبحث عن رجل كفء، ويصورها فتاة، عروساً بكراً، قد رفضت الكثيرين الذين تقدموا لها، ولكنها رفضتهم لأنهم ليسوا أكفاء، كما يبدو في قول تقي الدين[2]:

جاءتْكَ أرضُ القُدسِ تخطبُ ناكحاً   يا كُفْــأهــا ما العُــذْرُ عن عَذْرائهــا
زُفَّــتْ إلـيك عروسَ خدْرٍ تُجـتـلى   ما بين أعْــبُــدِهــا وبـين إمــائهــا
إيهٍ صلاحَ الــدين خُذْهــا غادةً   بِكْــراً ملوكُ الأرض من رُقَبــائهــا
كم خاطــب لجــمــالهــا قد رَدَّه   عن نَيْلهــا أنْ ليس من أكـفــائهــا

ومن الواضح أن تقي الدين ينهج في هذه الأبيات، وفي هذه الصور، وفي هذه الروح الشعرية، نهج أبي تمام في قصيدته في عمورية «السيف أصدق أنباء من الكتب...»، ويتجلى ذلك في أبيات ابي تمام التي صور فيها عمورية

---

(١) كتاب الروضتين ١/١٩٣.

(٢) خريدة القصر ـ بداية قسم شعراء الشام/ ٨١ ـ ٨٥.

فتاة، وعروساً بكراً فاتنة[1].

★ ★ ★

ويصور العماد الأصفهاني بيت المقدس مظلمة، وهي ترزح في ظل الاحتلال الصليبي، وانها لمنتظرة صباح الحرية، ويتحقق بذلك تطهيره، وتطهير أقصاه المبارك، كما يتحقق مراد نورالدين ومبتغاه، يقول: «وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمد الفتوح في مضمار المنافسة، وكلاهما في وحشة ليل الظلام المدلهم على انتظار صباح المؤانسة، والله تعالى بكرمه يُدْني قطاف الفتحين لأهل الإسلام، ويوفق الخادم نورالدين لحيازة مراضي الإمام». ويختتم الكتاب بقوله: «ونسأل الله التوفيق لاستدناء قواصي المنى، وإقصاء عبدة الصليب الأنجاس من المسجد الأقصى، وان يجعل فتح بيت المقدس مُفتتح مُراده، ومُقترح زناده، ومقترحه في جهاده، وأن يملكه الساحل بجميع بلاده»[2].

★ ★ ★

وظهرت الدعوة إلى تحرير بيت المقدس من خلال شعر الحنين، ومن ذلك ما قاله العماد الأصفهاني، فقد أنشأ قصيدة في التشوق إلى دمشق، ومطلعها[3]:

أجيرانَ جَيْرونَ مالي مُجيرُ   سِوى عطفكُمْ فاعدلوا أو فجوروا

ويمدح فيها صلاح الدين[4]، ويحثه على الجهاد، والاعتماد على الله في تحرير بيت المقس، كما يبدو في قوله[5]:

نُهوضاً إلى القُدس تَشفي الغليـ   ـل بفتْح الفُتوح وماذا عسيرُ

(١) انظر: ديوان أبي تمام ١/٤٧، ٤٨.

(٢) انظر: الروضتين ١/٢١٥، مفرج الكروب ١/٢٣٥.

(٣) خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام/ ١٩، كتاب الروضتين ١/٢٤٥، معجم الأدباء ١٩/١٥.

(٤) انظر: خريدة القصر ـ بداية قسم شعراء الشام/ ٢٧ ـ ٢٩.

(٥) كتاب الروضتين ١/٢٤٧.

سَلِ اللهَ تسهيل صَعْب الخطوب فهو على كلّ شيء قديرٌ

★ ★ ★

واستمرت الدعوة إلى تحرير بيت المقدس تشيع في الشعر، ففي سنة ٥٧٠ هـ، قال العماد الأصفهاني شعراً يمدح فيه صلاح الدين، ويهنئه بفتح بعلبك(١)، ويصور هذا الفتح، وغيره من الفتوح الأخرى محتاجة إلى فتح عظيم يتوجها، وهو فتح بيت المقدس، كما يبدو في قوله(٢):

فَتمـلَّ فَتحك واقصد الفتحَ الذي بحصوله لفتوحك الإتمامُ
دُمْ للعُلى حتى يدومَ نظامُها واسلَمْ يَعزُّ بنصرك الإسلامُ

ويستمر صلاح الدين يعد العدة للتحرير، ويسنمر العماد الأصفهاني، وغيره من الشعراء، في الدعوة إلى تلك الأهداف السامية، وأهمها تحرير بيت المقدس، ففي سنة ٥٧٢ هـ أنشأ العماد الأصفهاني قصيدة يمدح فيها صلاح الدين، ويدعوه إلى فتح بيت المقدس، وتطهيره، وتخليصه من الشرك وأهله، كما يبدو في قوله(٣):

فَسِرْ وافتح القُدس واسْفكْ به دماءً متى تُجرها يَنظفِ
وأهد إلى الإسبتارِ البَتَّار وَهُدَّ السُّقوفَ على الأسقفِ
وخَلِّص مِن الكُفرِ تلك البلاد يُخلّصك ربُّك في الموقفِ

★ ★ ★

ويصعب الأمر على صلاح الدين، وبيت المقدس ما زال محتلاً بأيدي الصليبيين، ويتألم لانصراف المسلمين عن أداء فرض الجهاد. ويبدو هذا المعنى جلياً في رسالة للقاضي الفاضل أنشأها في سنة ٥٧٤ هـ، فيعجب من حماسة العدو، وتخاذل المسلمين، يقول: «وغير خافٍ عن مولانا همة الفرنج

---

(١) انظر: الروضتين ١/٢٤٧، الكامل ١١/٤٢٠، تتمة المختصر ٢/١٢٩.

(٢) كتاب الروضتين ١/٢٤٧.

(٣) انظر: الروضتين ١/٢٦٩، خريدة القصر ـ قسم شعراء مصر ١/١٥، مفرج الكروب ٢/٥٦ ـ ٥٧.

بالقدس براً وبحراً، ومركباً وظهراً، وسلماً وحرباً، وبُعداً وقرباً، وتوافيهم على حماسة، وهو أنف في وجه الإسلام، ومسارعتهم إلى نصرة أهليه بالأرواح والأموال على مر الأيام، ومعاذ الله أن يستبعدوا في الضلال، ونصرف نحن عن الحق، ويضيق في التوسعة على أهله سعة المجال»[1].

★★★

وعاود الحلبيون الاتصال بالفرنج، وأغروهم بصلاح الدين، وراسلوا الحشاشين، وهم في ذلك يتخذون من الفرنج «بطانة دون المؤمنين». ويصور العماد الاصفهاني كيف أصبح البيت المقدس «محلاً للأرجاس، ومضت عليه دهور وملوك لم يحصلوا من رجاء تطهيره إلا على الياس» كما يقول العماد نفسه[2].

ويشارك ابن الساعاتي في الدعوة إلى تحرير القدس، في قصيدة أنشأها في ربيع الأول سنة ٥٧٥ هـ يهنىء السلطان صلاح الدين بفتح حصن بيت الاحزان وتخريبه، وكان بيد الافرنج، ومطلعها[3]:

بجدّك أعطافُ القنا تتعطّفُ   وطرفُ الأعادي دون مجدك يطرِفُ

ويصور صلاحَ الدين «شهاب هدى في ظلمة الشك»، وسيفاً مرهفاً مسلولاً في سبيل الله، ويصور انتصار المسلمين بقيادة صلاح الدين في معركة حصن بيت الأحزان، وقد تركوا الحصن قاعاً صفصفا»، ويربط بين ذلك، وبين تحرير فلسطين، ويؤكد ان صلاح الدين آت محرراً، وما على المحتل الصليبي إلا الرحيل، يقول[4]:

---

(١) كتاب الروضتين ٢/٤.

(٢) نفسه ٢/٢٣.

(٣) انظر: ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٩، سنا البرق الشامي/ ١٧١، الروضتين ٢/١١، البداية والنهاية ١٢/٣٠٣.

(٤) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٩، سنا البرق الشامي/ ١٧١، كتاب الروضتين ٢/١٢، خزانة الأدب/ ٣٦٩، البداية والنهاية ١٢/٣٠٣.

أيسكنُ أوطانَ النبيين عُصْبةٌ تميِنُ لدى أيمانها وهي تحلفُ
نصحتكمُ والنصحُ في الدين واجبٌ ذروا بيت يعقوب فقد جاءَ يوسفُ

ونتساءل هنا: أأرادت مصر أن تعود أيام يوسف عليه السلام، وهي أيام قحط حقاً، أم أن العماد وقع في ذلك لحديثه عن اليوسفين، يوسف عليه السلام، ويوسف بن أيوب[1]؟

وفي المحرم من سنة ٥٧٩ هـ، أنشأ ابن الساعاتي قصيدة يمدح فيها السلطان صلاح الدين، ويحث فيها على تحرير بيت المقدس، مما حل به، وما حلَّ بقبلته الأولى، فيقول[2]:

فليعلم القُدْسُ أنّ الفتح منتظرٌ حلولهُ وعلى الآفاقِ فَليطُلِ
وافاك يوسفُ يا بيتَ الخليلِ فلا تيأس فإنَّك فيه صادقُ الأملِ
وما السواحلُ إلا كالفرات إذا وافى فإنْ لم تُحط عِلْماً به فَسَلِ
فلا تُضيعه فما الدينُ الحنيفُ على خلقٍ سواك من الدنيا بمتكلِ

وهكذا كانت الدعوة إلى تحرير بيت المقدس ذات صدى كبير في شعرنا العربي آنذاك، ولم يترك شعراؤنا مناسبة إلا ودعوا من خلالها إلى تحرير بيت المقدس.

صدى الدعوة إلى وحدة المسلمين في أدب الحروب الصليبية:

لقد ابتدأ العالم الإسلامي بالتجزؤ، منذ منتصف القرن الثالث الهجري، ثم انتشرت في أصقاعه دول وامارات متعددة ومتنازعة. واستمر هذا الأمر في العالم الإسلامي، في القرون التالية، ويهمنا ان نشير، في هذه الدراسة، إلى استمرار تلك الأوضاع في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، وفي القرن السادس الهجري، وفي النصف الثاني من القرن السابع الهجري. وقد كان العالم الإسلامي آنذاك يسوده تمزق سياسي واجتماعي، واقتصادي، كما

---

(١) انظر: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية/ ٤٧١.

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢/ ٣٨٤، شفاء القلوب/ ١٠٣، ١٠٤.

كانت تحكمـه قوى متناقضة فيما بينها، مختلفة سياسياً. وعقائدياً، وفكرياً، فكـانت هناك الخلافة الفاطمية في مصر بسياستها، ومذهبها وفكرها، وكانت هناك الخلافة العباسية في بغداد بسياستها، ومذهبها، وفكرها، وقد كان ذلك التنـازع يؤدي إلى ضعف المسلمين، وطمـع أعدائهم فيهم، فأصبح العالم الإسلامي، في مصر، والشام، والجزيرة، مطمعاً للغزاة من الصليبيين، لتحقيق مكاسب سياسية، واقتصادية، ودينية.

وكـانت بلاد الشام مسـرحـاً لتلك الخـلافات السياسية والمذهبية، بين الخلافة العباسية، والخلافة الفاطمية[1].

كان الأمراء في الشام متفرقين، وهم يُغزون في عقر دارهم، وكان كل منهم «يعتمد على جهوده الخاصة. وبعضهم كان تابعاً لبغداد، والآخر للقاهرة. ولم يهتم أحد منهم بمصير الآخر». وهكذا كان تفرق المسلمين، واشتغال رؤسائهم بالمنازعات الداخلية، وقلة إيمانهم بحرمة الوطن الإسلامي، وقدسية أراضيه، قد أدى كل ذلـك إلى ما لحق بالعـالم الإسـلامي من هزيمـة أمـام الغـزو الصليبي[2]. وبهـذا كانت مصيبـة العـالم الإسـلامي متمثلة في أمـرائـه، و«مطامعهم الخاصة، دون أن تظهر من بينهم الشخصية القوية التي تستطيع جمعهم، وتسير بهم إلى هدف مشترك»[3]

لقد حققت الحملة الصليبية الأولى أهدافها لأن المسلمين كانوا متفرقين متخاصمين، وفشلت الحملة الصليبية الثانية لأن المسلمين كانوا متحدين بقيادة نورالدين.

ومن الطبيعي ان يكون في الاحتلال الصليبي لبيت المقدس، ولغيره من

---

(١) انظر: صلاح الدين ـ جب/ ٤٥ ـ ٦٠، دراسات في حضارة الإسلام/ ٢٩، تاريخ فلسطين القديم/ ١٦٥، ١٦٦، سياسة صلاح الدين الأيوبي/ ٥٤، ٥٥.

(٢) انظر: تراث الإسلام/ ١٤٠.

(٣) انظر: الحرب الصليبية الأولى/ ١٥٤.

بلاد المسلمين في الشام ومصر، تحد للمسلمين وقادتهم، وهو تحد لم يؤد إلى الاستجابة الفعالة في أوائل عهد الاحتلال الصليبي، ولكنه أدى إلى الاستجابة الفعالة حقاً في العهدين الزنكي والأيوبي، في عهد عماد الدين زنكي، وفي عهد نور الدين زنكي، ثم في عهد صلاح الدين الأيوبي، وقد كان ظهور هؤلاء «طبيعياً بل حتمياً استجابة للتحدي الذي أصاب المشرق الإسلامي، ولتخليص المشرق الإسلامي مما حل به»[1]. لقد قام المسلمون، في هذين العهدين، بثورة على الاحتلال الصليبي، وهي ثورة سياسية، واجتماعية، واقتصادية، وفكرية، وقد شارك المسلمون في هذه الثورة من قبل، فتوجههم من الشام إلى بغداد، مع القاضي الهروي، هو لون من تلك الثورة على الخلافة العباسية في بغداد، وعلى ضعفها، وعدم تحركها للقيام بواجبها، ثم توجههم من حلب إلى بغداد، ثائرين على الخلافة العباسية التي لم تتحرك، وطلبهم التحرك للجهاد، ولكن دون جدوى. وقد بلغ الأمر بالمسلمين في ثورتهم أن يقولوا للسلطان السلجوقي: «أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر خمية منك للإسلام»، حتى أرسل إليك في جهادهم»[2]، وكان الامبراطور البيزنطي قد أرسل سفارة إلى الخليفة العباسي، والسلطان السلجوقي، يحرضهم ضد الصليبيين، وقد دعا إلى الايقاع بهم، وترك التراخي في أمرهم، قبل إعضال خطبهم، واستفحال شرهم[3]. وتجدر الإشارة إلى أن الامبراطور البيزنطي قد فعل ذلك لأن الصليبيين لم يسلموه كل الأراضي التي استولوا عليها في آسيا الصغرى، وكانت ضمن امبراطوريته. يذكر ابن الاثير في حوادث سنة ٥٠٤ هـ، أن المسلمين الذين وصلوا إلى بغداد مستنجدين ثائرين، قد «اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم» من المسلمين في بغداد، وقصدوا جميعاً السلطان، وطلبوا منه إنفاذ العساكر للجهاد، وبلغت ثائرتهم أن يمنعوا الصلاة، ويكسروا المنبر[4].

(١) انظر: سياسة صلاح الدين/ ٥٣، ٥٧.

(٢) انظر: الكامل ١٠/ ٤٨٣.

(٣) انظر: ذيل تاريخ دمشق/ ١٧٣، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية/ ١٥٢، ١٥٣، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/ ١٩٦، ١٩٧.

(٤) انظر: الكامل ١٠/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣.

لقد رأى صلاح الدين أن الإعداد للمعركة، والوحدة، والتحرير، يقتضي العمل لإصلاح شؤون بلاد المسلمين، في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية، والمالية، والاجتماعية، والفكرية، والعمرانية، والعسكرية، وبهذا يقف المسلمون وقادتهم على أرض صلبة في مقاومتهم للعدو، وتخليص بلادهم منه. ورأى صلاح الدين أن ضعف العالم الإسلامي كان سبباً في خلق الدويلات الصليبية واستمرار بقائها، ولذا سعى إلى «إعادة الكيان السياسي الإسلامي إلى سابق عهده»، وإحيائه في ظل دولة إسلامية قوية، على أن يكون الحكم وفق الشريعة، وإعلان الولاء للخلافة العباسية[1].

لحق ببلاد المسلمين الكثير من الخراب والدمار، من جراء الاحتلال الصليبي، وتعطل كثير من معالم الحياة في مختلف مجالاتها، وكان عماد الدين زنكي، ثم ابنه نورالدين زنكي، قد بدء العمل على إصلاح البلاد سياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً، وفكرياً، وحربياً، وعمرانياً، وهو ما لا مجال لتفصيل القول فيه في هذه الدراسة.

وتجدر الإشارة إلى أن نورالدين زنكي كان يمثل الروح الجديدة المتوثبة للقتال، وأنه كان قد وضع أساس الوحدة الإسلامية. وفي عهده، تم ضم مصر والشام بقيادة أسد الدين شيركوه. وقد شارك صلاح الدين في صنع تلك الوحدة بين البلدين الإسلاميين[2].

= وانظر مثل ذلك في: الكامل ١١/٥٨ ـ ٥٩، ١٢٧، مفرج الكروب ١/٧٩ ـ ٨١، ١٢٧، ذيل تاريخ دمشق/ ٣٠٩، الروضتين ١/٢٠١ ـ ٢٠٣.

(١) انظر: صلاح الدين ـ جب/١٩١، ١٩٢، ٢٠١، دراسات في حضارة الإسلام/١٣٣.

(٢) انظر: النوادر السلطانية/ ٣٦ ـ ٤٠، مفرج الكروب ١/٥٧٢، التاريخ الباهر/ ٦٩، ١٣٧، ١٣٨، الروضتين ١/١٢٩ ـ ١٣٢، ١٤٢ ـ ١٤٤، ١٥٤، ١٧٣، ٢٣٣، ٢٣٧، ٢٤١، الكامل ١١/٢٩٨ ـ ٣٠١، ٣٢٤ ـ ٣٢٧، ٣٣٥ ـ ٣٤٥، النجوم الزاهرة ٥/٣٣٨، ٣٤٣، ٣٤٧ ـ ٣٥٢، ٣٧٣، ٣٨١، ٣٨٧ ـ ٣٨٩، ٦/٦، شفاء القلوب/ ٢٥ ـ ٣٦، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية/ ٢٤٩، الحرب والسلام/ ١١، ١٣، ١٤، نور الدين والصليبيون/ ٢٢ ـ ٢٥، ٣٥ ـ ٤٢، ٥٧، ٦٩، ٧٢، تاريخ الدولة الفاطمية/ ١٨٣، ١٨٨ ـ ١٩٦، الحركة الصليبية ٢/٦٣٤، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٤٣ ـ ٦٤٧، ٦٥٨ ـ ٦٦٤، ٦٦٦ ـ ٦٧٠، ٦٧٣ ـ =

ويبين العماد الأصفهاني أن فتح مصر سيكون ميسراً لفتح بيت المقدس[1].

إن دخول المسلمين مصر بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين جعل «دولة القدس الصليبية بين شقي الرحى»، وبفضل استيلائهم على مرفأي دمياط والاسكندرية، أخذوا أسطولاً بحرياً»، فقطعوا صلة الصليبيين بأوروبا[2].

وسار صلاح الدين على نهجهم، وسعى لتوحيد بلاد المسلمين في مصر والشام والعراق، للوقوف في وجه العدو الصليبي المحتل، وتحرير بيت المقدس، وغيره من بلاد الإسلام التي احتلها العدو الغازي، ورأى في ذلك السبيل الفعال، ووضعه في المكان الأول في سياسته، وقد قضى في ذلك سنوات طوالاً للوصول إلى الهدف، ولكن عقبات كثيرة وقفت في سبيل هذا الهدف، وتمثلت تلك العقبات في عدد من حكام دمشق، وحكام حلب، وحكام الموصل آنذاك[3]، كما تمثلت في الاسماعيليين الذين حاولوا القضاء على صلاح الدين اكثر من مرة، وذكر أنهم راسلوا الصليبيين[4]. وذكر أن عدداً من امراء دمشق، بعد وفاة نورالدين، صالحوا الفرنج، وهادنوهم على مال، واطلقوا أسراهم.

= ٦٧٩، العرب والروم واللاتين/ ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٧٧، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/ ٥٨٥ ـ ٥٩٢، ٦١٤، تراث الإسلام/ ٨٣.

(١) انظر: الروضتين ١/ ١٥٩ ـ ١٦٣.

(٢) انظر: سنا البرق الشامي/ ١٥٦، ٢/ ٧، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/ ٦٤٥.

(٣) انظر: الاعتبار/ ١٣٩، ١٩٦، ذيل تاريخ دمشق/ ٢٧٢، ٢٧٣، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/ ٣٦٤ ـ ٣٦٧، ٣٩٢، الحركة الصليبية ٢/ ٥٨٥.

(٤) انظر: النوادر السلطانية/ ٥٢، الروضتين ١/ ٢١٠، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٧٥، ٢/ ٢٤، مفرج الكروب ١/ ٢٣٩، ٢٤٠، ٢/ ١١٠، ١١٥، سنا البرق الشامي/ ١٨١، ٢٠٩، رحلة بنيامين التطيلي/ ١٥٣ ـ ١٥٤، الكامل ١١/ ٤١٢، ٤١٩، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٧، ٧٦، شفاء القلوب/ ٨٦، ٩٢، شذرات الذهب ٤/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥، صلاح الدين ـ جب/ ١٢٤، ١٢٧، ١٣٥، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/ ١٩٣ ـ ١٩٥، شعلة الإسلام/ ٦٨ ـ ٧٢، الحركة الصليبية ٢/ ٧١٧، ٧٢١، ٧٢٢، الحرب والسلام/ ١٥، ١٦، سياسة صلاح الدين/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

كتب صلاح الدين، إلى القاضي ابن أبي عصرون مبيناً أن غرضه يتمثل في الجهاد. وتطهير بلاد المسلمين، ويبين أن تلك الهدنة مع الصليبيين «مؤذنة بذل الإسلام»، وطلب من القاضي أن يجرد نفسه ولسانه لإنكار اتصال عدد من حكام المسلمين بالصليبيين ومحالفتهم[1]. يقول صلاح الدين: «إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم، وألف كلمتهم». ورأى صلاح الدين أن «من الحزم جمع المسلمين على سلطان واحد، يقيم الملة، وينصر الشريعة»، وقصد أن يلم «شعث الإسلام وقيام الدين»[2].

وكان صلاح الدين قد استنكر ما فعله أمراء المسلمين من الحلبيين والمواصلة، كما يبدو في كتاب كتبه القاضي الفاضل إلى بغداد، على لسان صلاح الدين، يقول فيه: «والمملوك ـ صلاح الدين ـ بين عدو إسلام يشاركونه في هذا الأسم لفظاً، ولا ينوون لما استحفظوا حفظا، وعدو كفر، فما يجاورهم إلا بلاده، ولا يقارعهم إلا أجناده»، وطلب صلاح الدين من الخليفة أن يأمر ملوك الأطراف جميعاً «أن يكونوا للمملوك على المشركين أعوانا، وأن يتمثل أمر نبينا محمد ﷺ، في أن يكونوا بنياناً فيعضدوه إذا سعى، ويلبوه إذا دعا، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح بيت المقدس الذي طابت النفوس عن ثاره، وطأطأت الرؤوس تحت عاره»، إلى أن يقول: «فإن قعدت بهم العزائم، وأخذتهم في الله لومة لائم، فلا أقل من ألا يكونوا أعواناً عليه يلفتونه عن قصده، حريصين على اتصال المكروه إليه»[3].

كانت القضية التي يواجهها صلاح الدين سياسية من جانب، وكانت أخلاقية ونفسية من جانب آخر، كما كانت اجتماعية واقتصادية من جانب ثالث، ورأى أن التصدي لها لا يقتصر على المجالين السياسي والعسكري، وعليه أن

---

(١) انظر: الروضتين ١/٢٣٣، ٢٣٦، ٢٤٠، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٠، مرآة الزمان ٨/٣٢٤، البداية والنهاية ١٢/٢٨٥، ٢٨٩.

(٢) انظر: الروضتين ١/٢٣١ ـ ٢٣٣، مفرج الكروب ٢/٧، ٨، طبقات الشافعية الكبرى ٧/٣٦١ ـ ٣٦٢، وفيات الأعيان ٧/١٦٦، شفاء القلوب/ ٨٥.

(٣) انظر: الروضتين ١/٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢/٣٩، البداية والنهاية ١٢/٣١١.

يُعنى بالمجال الأخلاقي والنفسي إلى جانب المجالين السابقين، وللعناية بالمجال الخلقي النفسي، استعان بالعلماء (فقهاء المدارس)، والمتصوفة، وأزال المكوس والمظالم[1].

يذكر ابن شداد ان صلاح الدين رأى واجباً عليه وهو الحفاظ على بلاد الشام، ولن يكون ذلك إلا بالوحدة، بين مصر والشام، وخرج صلاح الدين إلى الشام خوفاً من استغلال الفرنج «اختلاف امراء الشام، وشغل بعضهم ببعض»، فلقد «اختلف الامراء، وحادت الآراء، وظهرت الشرور. . . ، وطمعت الاعداء من كل جانب في المسلمين، وكان صلاح الدين يهدف إلى جمع شمل البلاد، والاحسان إلى أهلها، ونصرة الإسلام، ودفع الطغام، وإظهار القرآن، واخفاء سائر الأديان».

وكان قد بلغه أن المواصلة راسلوا الصليبيين كما تقدم، وكانوا قد عقدوا عهداً معه، ولكنهم نكثوا اليمين، فعقد العزم على قصدهم لجمع العساكر الإسلامية على عدو الله. وكتب صلاح الدين إلى الملك الصالح إسماعيل بن نورالدين، وطلب منه الا يستمع إلى من حوله من المفسدين وبين أن قصده يتمثل في جمع الكلمة[2].

★★★

ويتردد صدى العمل لتحقيق وحدة المسسلمين في الأدب العربي، في فترة الحروب الصليبية، وخاصة في رسائل القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير التي أنشأوها حول بيت المقدس.

يصور القاضي الفاضل غاية صلاح الدين في الوحدة جلية كما يبدو في

---

(١) انظر: صلاح الدين ـ جب/ ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، دراسات في حضارة الإسلام/ ١٣٥، ١٣٦.

(٢) انظر: النوادر السلطانية/ ٥٦، الروضتين ١/ ٢٣٠، ٢٤٠، ٢٤٧ ـ ٢٥٠، ٢٥٣ ـ ٢٦٢، ٢/ ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٩، ٣١، ٤٩، سنا البرق الشامي/ ١٩٥، ١٩٦، مفرج الكروب ٢/ ٣٧، ٣٨، الكامل ١١/ ٤١٨ ـ ٤٣١، ٤٣٦، ٤٥٠ ـ ٤٥١، ٤٨٢ ـ ٤٨٨، مضمار الحقائق/ ١٠٨، ١٠٩، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٢، صبح الأعشى ١٣/ ٥١، الحركة الصليبية ٢/ ٧٤٧، سياسة صلاح الدين/ ١٣٤.

قولـه، مخـاطبـاً رسـول قطب الدين ينال بن حسان المنبجي[1]: «اعلم أنني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الإسلام، وتهذيب الأمور، وحياطة الجمهور، وسد الثغور، وتربية ولد نور الين، وكف عادية المعتدين» ولم يكن صلاح الدين يريد «إلا من تكون عليه يد الله، وهي الجماعة». وكان غرضه من ضم الموصل «أن يكون المُوصِلَ إلى القدس وسواحله». كما يبين القاضي الفاضل في بعض رسائله[2].

ويصـور العماد الأصفهاني عمل صلاح الدين، وأنه لن يترك المسلمين يقصد بعضهم بعضاً، وسيجمع «شملهم على الاتفاق والاتحاد»[3].

لقـد هدف صلاح الـدين إلـى توحيد قوى المسلمين، والجهـاد ضد الصليبيين، وعمـل في هذين الميدانين بجـد وإخلاص، ولم يكن راغباً في محاربة بعض امراء المسلمين، إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك، من أجل إتمام عملية الوحدة الإسلامية. يقول القاضي الفاضل، على لسان صلاح الدين، في كتاب كتبه إلى الخليفة في بغداد، في سنة ٥٨١ هـ، مبرراً قتال المواصلة: «وما كنـا بشهادة الله في قتال» المواصلة وغيرهم إلا كمن يقطع «كفه ليسلم سائر جسمه، وكراكب حد السنان، مضطراً في حكمه»[4].

يقـول: «ولا استـودعت الأرض الكـريمـة البذر إلا لتؤدي في حقها يوم حصادها، فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي، فتبلغ الأعداء مرادها، وتقدم الآراء رشادها، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها إلى أن أعطيت قيادها، فكونوا يداً واحدة، وأعضاداً متساعدة، وقلوباً يجمعها ود، وسيوفاً يضمها غمد، ولا

---

(١) أمير من أمراء نور الدين زنكي. وكان صلاح الدين قد حصره في منبج، في سنة ٥٧١ هـ.
(انظر: الروضتين ١/٢٣٧، ٢٣٨، سنا البرق الشامي ١/١٧٩، الكامل ١١/٣٣٨، ٣٤٣، ٤٢٩ـ ٤٣٠، التاريخ الباهر/ ٧٤، مفرج الكروب ٢/٢١.

(٢) كتاب الروضتين ١/٢٣٨، وانظر: سنا البرق الشامي ١/١٧٩، شفاء القلوب/ ٨٥، ٨٦.

(٣) البرق الشامي ٣/١٢٩، وانظر: صلاح الدين ـ جب/ ١٩٤، دراسات في حضارة الإسلام/ ١٣٤.

(٤) كتاب الروضتين ١/١٦، وانظر: البداية والنهاية ١٢/٣١٦، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٢/٢٣٦، القدس الخالدة/ ٢١٩، سياسة صلاح الدين/ ١٣٥، ١٣٦.

تختلفوا فتنكلوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وقوموا على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنمل، فالعداوة محدقة بكم من كل مكان، والكفر مجتمع على الايمان»[1].

ويبين القاضي الفاضل، في رسالة أخرى كتبها، على لسان صلاح الدين إلى الخليفة في بغداد، انهم لا يختارون إلا أن «تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها، لا متحاسدة بعتوها، ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة، لما عز عليه أن يكون كثير المشاركين، ولا ساءه أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة»[2].

كان صلاح الدين قد كتب إلى الخليفة، في غير مرة، وكان يبين له أنه قد نذر نفسه للجهاد المقدس لتخليص الإسلام من الغزاة، واستعادة بيت المقدس، ويؤكد حتمية الوحدة، ويجليها ما جاء في رسالة أخرى كتبها القاضي الفاضل، على لسان صلاح الدين، إلى ديوان الخليفة في بغداد، قال: «وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه. . .، وأنا لا نتمكن بمصر منه. . .، والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الألفة، ويضمن الرأفة، ويفتح بقية البلاد»[3].

عمد صلاح الدين إلى توحيد المسلمين بالقوة أو بغيرها، وكان الحكام في الموصل واصلوا الفرنج، بل سلموا إليهم ثغوراً من ثغور المسلمين، وتواعدوا معهم «ليطلبوا ولاية الخادم من جانب، ويطلبها الفرنج من جانب. . .، ولم ينظروا للإسلام في العواقب»، كما جاء في رسالة كتبها القاضي الفاضل، إلى ديوان الخليفة في بغداد. وقد اقتضى عملهم هذا معالجة الأمر بالقوة أو بغيرها، يذكر العماد الأصفهاني، في حوادث سنة ٥٧٨ هـ، أن صلاح الدين كتب إلى الملوك للوفود إليه والاتفاق معاً، والوقوف صفاً واحداً للجهاد في سبيل الله، على

(١) كتاب الروضتين ١/ ٢٣٠.

(٢) نفسه ٢/ ٤٨.

(٣) كتاب الروضتين ١/ ٢٤٣، وانظر: صلاح الدين ـ جب/ ١٢٠، شعلة الإسلام/ ٦٧.

أن يكـونوا «من أجناد السلطان وأتباعه في جهاد الكفار». واستجاب له حكام حصن كيْفا، والرُّها، وحَرَّان، والرَّقة، وغيرها. وحاصر صلاح الدين الموصل، ثم رأى أن يأخذ قلاعها وما حولها من البلاد، فأخذ سنجار، ونصبين، ثم فتح آمد، وحلب، في سنة ٥٧٩ هـ[1]، ونودي بشعار صلاح الدين في حارم، بعد أن ذكـر أن واليها كاتب الفرنج، واستدعاهـم «للاستيلاء على حارم بشرط أن يعصموه من الملك الناصر»، فانقض عليه جنده، ونادوا بشعار السلطان صلاح الدين[2].

رأى القاضي الفاضل في فتح حلب انتظاماً للشمل الذي كان نثيرا، وأصبح المؤمن بأخيه كثيرا، وأصبحت «الألفة واقعة، والمصلحة جامعة، وأشعة أنوار الاتفاق شائعة»[3].

وتجدر الإشارة هنا إلى الآثار المترتبة على حملة أرناط في سنة ٥٧٨ هـ، التي هاجم فيها مقدسات المسلمين في مكة والمدينة، وهي آثار تمثل بعضها في العمل على توحيد صفوف المسلمين، وتغير شعور صاحبي الموصل وحلب اللذين كانـا يقفـان سوقفـاً مناوئـاً لصـلاح الدين، وقد خجلا من استعانتهما بالصليبيين الذين غزوا مقدساتهم، وتمثل بعضها الآخر في ذيوع شهرة صلاح الدين في العالم الإسلامي، وإثارة الحماسة في نفوس المسلمين للعمل على تحرير بيت المقدس ومقدساته[4].

وكان على صلاح الدين «تدعيم الوحدة بين القوى الإسلامية في شمال الشام والعراق، وبين القوى الإسلامية في مصر» قبل خوض المعركة الفاصلة مع العـدو الصليبي. وكـان العمـاد الأصفهـاني يرى في اتفاق المواصلة مع

---

(١) انظر: الروضتين ٢/٣١، ٣٢، ٣٨ ـ ٤٥، مضمار الحقائق/ ١١٠، ١١١، ١١٥، ١٣٦ ـ ١٤٠، ١٤٢ ـ ١٤٦، الكامل ١١/٤٩٣ ـ ٤٩٩، النجوم الزاهرة ٦/٢٤ ـ ٢٩، ٩٤، البداية والنهاية ١٢/٣١٣، شفاء القلوب/ ١٠٠ ـ ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١١٤، ١١٦، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/٧٠١.

(٢) انظر: الروضتين ٢/٤٦.

(٣) نفسه ٢/٤٣.

(٤) انظر: تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/٧٠٧، صلاح الدين ـ جب/ ١٤٣.

السلطان صلاح الدين بركة وخيراً، فكان أول بركاته أن «فتح البيت المقدس وسائر البلاد، وتجددت الفتوح، وانجدت الملائكة والروح، وامتحت باليسرة العسرة، وصحت بحطين الكسرة، وخص الله السلطان بفضيلة فتح القدس»[٢].



وكانت وحدة المسلمين تبعث الهلع والفزع في نفوس أعداء الإسلام. يذكر العماد الأصفهاني، في حوادث سنة ٥٨٣ هـ، أنه «لما سمع الفرنج باجتماع كلمة الإسلام عليهم، وسير ذلك الجيش إليهم، علموا أنه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله، وأن الايمان كله قد برز إلى الشرك كله»[١]. وقد كان الفرنج يعملون على إشاعة الفرقة والانقسام في العالم الإسلامي، ويذكر أن الملك (آموري) صمم على غزو مصر ليحول دون قيام جبهة متحدة دينياً وسياسياً. وقد بصر الغرب بخطر وحدة المسلمين في مصر والشام بقيادة صلاح الدين. وخطط الصليبيون للاستيلاء على مصر بعد الحملة الثالثة، وبذلك يفصمون عرى الوحدة التي قامت بين مصر والشام.



وفي سبيل توحيد بلاد المسلمين في مصر والشام والجزيرة، هادن السلطان صلاح الدين الفرنج، ففي سنة ٥٧١ هـ، طلب منه الفرنج الهدنة، فأجابهم بعد أن اشترط عليهم أموراً التزموها، وكانوا قد أصيبوا بضائقة اقتصادية، ولعلهم خافوا من صلاح الدين بعد النصر الذي أحرزه في الشام. ووافق صلاح الدين على طلبهم ليتفرغ لتوحيد بلاد المسلمين. وهادنهم في سنة ٥٧٦ هـ أيضاً. ولم تكن تلك الهدنة إلا كسباً للوقت، وإعداداً لرباط الخيل، وتعبئة للنفوس. ويصور القاضي الفاضل كيف أن المسلمين لم يكونوا راغبين في الهدنة، فقد جاء في إحدى رسائله قوله: «وقد علم الله أنا لهدنتهم كارهون، وفي مصلحة

---

(١) كتاب الروضتين ٢/٦٦.

(٢) نفسه ٢/٧٦.

أهل الإسلام، وفي مصالحهم راغبون»[1].

ويذكر المنصور الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه، في حوادث سنة ٥٧٧ هـ، أن السلطان صلاح الدين كان قد عقد هدنة مع الفرنج، ولكنهم نكثوا قبل أن تنقضي الهدنة. وفي سنة ٥٨١ هـ، هادن صلاح الدين أنطاكية «هدنة آذنت بغبطة الإسلام، وخُلِّص من طال إساره من ذوي الإقدام ورجال الشام»، وذلك للتوجه إلى الموصل لتوحيدها مع مصر والشام، كما يقول المنصور الأيوبي نفسه[2].



عزم صلاح الدين على تجنيد قوات المسلمين للتقدم لمحاربة الصليبيين المحتلين، وتحرير بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين المحتلة. ولكنه لم يواجه العدو المواجهة الحاسمة إلا بعد توحيد بلاد المسلمين في الشام ومصر والجزيرة.

ولم يقتصر صلاح الدين على توحيد بلاد المسلمين سياسياً وعسكرياً، فقد سعى إلى توحيدها فكرياً أيضاً، ورأى أن الوحدة الفكرية ضرورية للوصول إلى الهدف المنشود المتمثل في تحرير بلاد المسلمين. وبذلك يبتعد المجتمع الإسلامي عن عوامل الاضطراب والتفكك في المجالات المختلفة: الدينية، والسياسية، والاجتماعية.

وكان نور الدين زنكي قد صمم على توحيد بلاد المسلمين في المجالات المختلفة، فشجع إنشاء المدارس السنية، وغيرها من المراكز الفكرية المختلفة. ونهج صلاح الدين نهج سلفه نور الدين، فأنشأ الكثير من المدارس للوقوف في وجه المذهب الفاطمي وآثاره الفكرية، والدينية، والسياسية. يذكر

(١) انظر: سنا البرق الشامي/ ١٩٥، الروضتين ١/ ٢٥٢، ٢٧٥، مفرج الكروب ٢/ ٣٥، ٣٦، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/ ٦٠، الكامل ١١/ ٤٣٥، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩١، ٣٠٥، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/ ٦٩٦، صلاح الدين ـ جب/ ١٢٩، سياسة صلاح الدين/ ١٩٨.

(٢) مضمار الحقائق/ ٦٧، ٢١٥.

(جب) أنه قد وُجدت بذلك «روابط الكيان الموحد بين سائر الدراسات الأخرى، وبين ما تعنى به المدرسة من دراسات أدبية ودينية»[1]. وكان ذلك يرمي إلى استئصال قوة ذلك المذهب سياسياً وفكرياً، والعمل على نشر المذهب السني، وثقافته، وفكره.

وشارك التصوف والمتصوفة في ذلك، وقد كان اتصالهم الشعبي ذا أثر فعال، وكانوا ذوي تأثير ووحي كبير[2].

لقد خلق استيلاء العدو الصليبي على بيت المقدس، وغيره من بلاد المسلمين، توتراً في العالم الإسلامي. وقاد زعامته الفكرية الكُتّاب، والشعراء، والعلماء، وجردوا حملات لإثارة الناس، وتحريضهم، ودفعهم لتحرير البلاد المحتلة. ويبدو هذا جلياً فيما كتبه أصحاب كتب الفضائل، إذ كتبوا العديد من الكتب في فضائل بيت المقدس. ومثل ذلك ما فعله المفسرون، والمحدثون، والفقهاء، في حثهم على إعلان الجهاد. وما أنشده الشعراء داعين إلى تحرير بيت المقدس. وقد كان أولئك العلماء والأدباء يحظون بمكانة كبيرة عند صلاح الدين[3].

إن توحيد البلاد وتحريرها ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب، فهو صراع في العقيدة، وصراع في أمتين في حضارتيهما وثقافتيهما. ولا شك أنه إذا لم يكن تأصيل للأمة المسلمة في عقيدتها، «فلن تكون انتصاراتهم على الخصم سوى أعمال جزئية معرضة للمد والجزر، والتغير والتبدل». ومن هنا تبدو ضرورة الوحدة الفكرية، بل حتميتها، وهي حتمية بناء «أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي، وتحفظ شخصيتها الحضارية»[4].

★ ★ ★

(١) انظر: دراسات في حضارة الإسلام/ ٢٨، ٣٢.

(٢) انظر: نفسه/ ٣٨، ٣٩.

(٣) انظر: الروضتين ١/٢٦٢، النجوم الزاهرة ٦/٢٤، ٢٥، شذرات الذهب ٤/٢٣٤، سياسة صلاح الدين/ ٥٨، ١٤٧، ١٤٨.

(٤) انظر: نور الدين ـ الرجل والتجربة/ ١٢٩.

ويتردد صدى هذا السعي لتوحيد بلاد المسلمين في الشعر، وهو صدى بارز كما رأيناه بارزاً في النثر، في رسائل القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني وضياء الدين بن الأثير.

لقد شارك الشعراء في الدعوة إلى الوحدة بين مصر، والشام، والجزيرة، وذلك للوقوف صفاً واحداً في وجه العدو الصليبي، وتحرير الأرض، والإنسان. وقد عرف الشعراء أن أهم الأسباب التي أدت إلى احتلال بلاد المسلمين، وعلى رأسها بيت المقدس، تتمثل في تفرق صفوف المسلمين، وانقسامهم، وتنازعهم فيما بينهم. كما تقدم.

ومن أهم الشعراء الذين شاركوا في الدعوة إلى وحدة المسلمين، طلائع بن رُزِّيك وأسامة بن منقذ، فقد سعى الشاعران إلى توحيد مصر والشام، وطلب الملك الصالح طلائع بن رزيك من صديقه أسامة بن منقذ أن يسعى لدى نور الدين زنكي من أجل توحيد مصر والشام بقيادة طلائع ونور الدين. وفي هذا المقام، تبادل الشاعران عدداً من الرسائل الشعرية، فقد كتب طلائع رسالة شعرية إلى أسامة ليدعو نور الدين إلى توحيد مصر والشام، وكأنه سفير للملك الصالح طلائع. ولكن، لماذا لم يكتب طلائع إلى نور الدين مباشرة؟ وهل يرجع ذلك إلى مكانة أسامة لدى نور الدين؟ لعل الملك الصالح كان «يرى في أسامة بن منقذ وسيلة للتقرب إلى نور الدين، لعله يدفع أطماع الصليبيين». ولعل سياسة نور الدين كانت توجه عنايتها إلى توحيد الشام، دمشق وحلب. ولذلك لم تكن لدعوة طلائع نتيجة ملموسة[1] كما تقدم. ولعل الملك الصالح والى الطلب من أسامة ليحث نور الدين على مواجهة الصليبيين حتى يقف الشام صخرة صلبة أمامهم تمنعهم من التوغل في مصر، وتحد من أطماعهم فيها[2]. ويشير طلائع نفسه إلى تلك المهمات التي كان يكلف بها أسامة، كما يبدو في قوله[3].

(١) انظر: أسامة بن منقذ ـ محمد أحمد حسين/ ٦٩.

(٢) انظر: أسامة بن منقذ ـ حسن عباس/ ٢٥٩.

(٣) ديوان طلائع (ط النجف) ١٠٣، (ط مصر)/ ٨١، ٨٢.

ونُـنـاجـيكَ بالـمـهـمَّـاتِ إذ أنـ ـتَ بإلـقـائـهـا إلـيـك خليقُ
وأهـمُّ الأمـور أمـرُ جهـادِ الـ ـكفـرِ فاسمـع عنـدنـا التحقيقُ
ما لِهـذا الـمُـهـمِّ مُثْلُك مجـد الـ ـدين فانـهضْ به فأنـتَ حَقـيقُ
قُلْ له لا عَداه رأيٌ ولا زالَ لديه لكـلِّ خيرٍ طريقُ
أنتَ في حَسْم داءِ طاغية الكُفـ ـار ذاك الـمـرْجُـوُّ والـمـرمـوقُ
فاغـتـنِمْ بالـجـهـادِ أجْـرَكَ كي تُلفـى رفـيقـاً لهُ ونعـمَ الـرفـيقُ

وتجـدر الإشـارة إلى أننـا لا نجـد صدى فعلياً في قصيدة أسامة لتوحيد الصفـوف، ولم تتم الـوحـدة بين مصـر والشام آنذاك، ولعل ذلك راجع إلى الخلافات المذهبية والسياسية بين القادة في البلدين(١).

ومما يمثل الدعوة إلى تلك الوحدة، قول طلائع بن زريك مخاطباً أسامة بن منقذ(٢):

فانـهض الآنَ مُسـرعـاً فبـأمـثـا لك ما زالَ يُدرَك الـمـطلوبُ
والقِ عنـا رسـالـةً عنـد نورالـدّ ين ما في إلـقـائـهـا ما يريبُ
قَصْـدُنـا أن يكـون منّـا ومـنكم أجـل في مسـيرنـا مضـروبُ

ولما أصبحت مصر تابعة لنورالدين، واتحدت بذلك مصر والشام في ظله، بقيادة أسـد الـدين شيركـوه، ومشاركة صلاح الدين، أنشأ العماد الأصفهاني قصيدة يهنىء فيها بملك مصر، ويتغنى بالوحدة بين البلدين، ويدعو فيها إلى غزو الفرنج، وتطهير بيت المقدس، يقول(٣):

بمُلكِ مصـرَ أُهنىء مالـكَ الأمَمِ فاسْعَـدْ وأبشـرِ بنصـر الله عن أمَمِ
أُغْـزُ الفـرنـجَ فهـذا وقتُ غزوهم واحـطمْ جمـوعهم بالذابلِ الحطمِ
وطهِّـر القُـدس من رجسِ الصليب وثـ ـبْ على البغـاث وثُـوبَ الأجـدَل القَطمِ

---

(١) انظر: الوزارة والوزراء/ ٢٣٠، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية/ ١٤٣، ١٨٣.

(٢) ديوان طلائع/ ٦٤، ديوان أسامة بن منقذ/ ١٦٦.

(٣) ديوان العماد الأصفهاني/ ٣٨٠، ٣٨٢، كتاب الروضتين ١/١٧٤، ١٧٥ أو ج ١ ق ٢/٤٤٣، ٤٤٥.

فَمُلْكُ مصرَ ومُلكُ الشام قد نُظِما   في عقد عزٍ من الإسلام منتظم

ويعد العماد الأصفهاني توحيد مصر والشام طريقاً إلى فتح بيت المقدس، وكيف لا يكون ذلك، وقد أصبح المسلمون يداً واحدة، وقلباً واحداً، كما يقول في قصيدة أنشأها يمدح أسد الدين شيركوه، ويهنئه بفتح مصر، وتوحيدها مع الشام[1]:

بالجدِ أدْركتَ ما أدْركتَ لا اللعبِ   كمْ راحةٍ جنيتْ من دوحة التعب
فتحتَ مصرَ وأرجو أنْ تصيرَ بها   مُيَسّراً فتح بيت القدس عن كَثبِ
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من   فتح البلاد فَبادِرْ نحوَها وثبِ

ويحث الحافظ أبوالقاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر نورالدين على تحرير بيت المقدس ومقدساته، بعد أن أصبحت حلب، ودمشق، ومصر، والموصل، تابعة له، كما يبدو في قصيدة قالها في نورالدين مادحاً ومهنئاً، ومبيناً أنه لا عذر له بعد توحيد بلاد المسلمين، إذا لم يتوجه إلى تحرير بيت المقدس[2]:

ولستَ تُعْذَر في تركِ الجهادِ وقد   أصبحتَ تملكُ من مصر إلى حلب
وصاحب الموْصلِ الفيحاء مُمْتثِلٌ   لما تُريدُ فبادِرْ فجّأة النُّوَبِ

---

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٧٩، ٨٠، كتاب الروضتين ١/١٥٩، أو ج ١ ق ٢/٤٠٣، ٤٠٤، مفرج الكروب ١/١٦٦، ١٦٧، تاريخ ابن الفرات ـ م ٤ ج ١/٤٥، سنا البرق الشامي/ ٤١، المختصر ٣/٤٦، تتمة المختصر ٢/١١٦، شفاء القلوب/ ٤٢.

(٢) خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ١/٢٧٧، كتاب الروضتين ١/١٦٠ أو ج ١ ق ٢/٤٠٥.

الفصل الثاني

صورة بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية
في سنة ٥٨٣ هـ



صورة الفتح القدسي

عندما فتح السلطان صلاح الدين حلب في سنة ٥٧٩ هـ، كتب إليه الفقيه مجد الدين بن جهبل الحلبي الشافعي ورقة يبشره بفتح البيت المقدس على يديه، ويعين فيه الزمان الذي يفتحه فيه، وأعطى الورقة للفقيه عيسى الهكاري، ولكنه لم يتجاسر على عرضها على السلطان، وأخبر القاضي محيي الدين بن زكي الدين بذلك. وقد أنشأ القاضي محيي الدين قصيدة يمدح بها السلطان، عندما فتح حلب في صفر من السنة الآنفة الذكر، يقول فيها مبشراً بالفتح القدسي[1]:

وفتحكُم حلباً بالسيف في صفر ... قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

فعجب صلاح الدين من مقالته، ولما تم فتح بيت المقدس، في رجب من سنة ٥٨٣ هـ أكرم صلاح الدين مجد الدين بن جهبل بأن كان أول من درَّس درساً في الفقه، في الصخرة المشرفة، كما أكرم القاضي محيي الدين بأن كان أول من خطب في المسجد الأقصى بعد تحريره من الاحتلال الصليبي[2].

---

(١) انظر: البرق الشامي ٥/١٠٩، سنا البرق الشامي/ ٢٢٩، الروضتين ٢/٤٥، ٤٦، مفرج الكروب ٢/١٤٥، مضمار الحقائق/ ١٤٣، الكامل ١١/٤٩٧، مرآة الزمان ٨/٣٧١، ١٤/١٤٣، ١٥٣، زبدة الحلب ٣/٧٢، المختصر ٣/٦٦، تتمة المختصر ٢/١٤١، النجوم الزاهرة ٦/٩٥، البداية والنهاية ١٢/٣١٤، تاريخ الإسلام/ ١٥٢، روضة المناظر/ ٩٠، الاعلام والتبيين/ ٨٤، مرآة الجنان ٣/٣٧٥، شفاء القلوب/ ١٠٦، ١٣٠، نزهة الناظر/ ١٠٤، الأنس الجليل ١/٣١٧، ٣٣١، لطائف أخبار الدول/ ١٧٢، رحلة الشتاء والصيف/١٩٩، اعلام النبلاء/ ١٣٨، ١٣٩.

(٢) انظر: سنا البرق الشامي/ ٢٢٦، مفرج الكروب ٢/١٤٥، الروضتين ٢/٤٦، المختصر ٣/٦٦، تتمة المختصر ٢/١٤١، الكامل ١١/٤٩٧، مرآة الزمان ١/٣٧٦، تاريخ الخلفاء/ ٤١٨، مرآة الجنان ٣/٣٧٥، شفاء القلوب/ ١٣٠، الدارس ١/ ٢٣٠ ـ ٢٣٢، الانس الجليل ١/٣١٧، ٣٣١، البداية والنهاية ١٢/٣٢٦، اعلام النبلاء ٢/١٣٨، ١٣٩.

يقول العماد الأصفهاني: «ويشبه هذا أنني في سنة ٥٧٢ هـ، طلبت من السلطان جارية من سبي الأسطول المنصور» في أبيات يتنبأ فيها بفتح القدس، ويربط بين طلبه من السلطان، وبين ما يأمل به من كرام السبايا عند فتح القدس، يقول:

يُؤمِّلُ المملوكُ مملوكةً تُبدِّل الوحشة بالأنس
لا زلتَ وهاباً لما حازه سيفك من حورٍ ومن لعس
وإنني آمل من بعدها كرائم السَّبي من القدس

«قال: فجاء الأمر على وفق الأمل، ووهب لي تلك السنة ما سألت. وأعطاني عام فتح القدس ما أملت»[1].

ومما تقدم يتبين لنا كيف تردد صدى التنبؤ بالفتح القدسي في الأدب العربي آنذاك. ومن ذلك أيضاً ما يذكره ابن أبي أصيبعة، في ترجمة الطبيب أبي سليمان داود بن المنى بن أبي فانة[2] أنه قد «ظهر له في أحكام النجوم أن الملك الناصر يفتح البيت المقدس في اليوم الفلاني، من الشهر الفلاني، من السنة الفلانية، وأنه يدخل إليها من باب الرحمة». وقد أرسل الطبيب الآنف الذكر ابنه أباالخير[3] رسولاً إلى الملك الناصر «يبشره بملك بيت المقدس، في الوقت المذكور»، فوصل في غرة سنة ٥٨٠ هـ، وأبلغ الرسالة. وقد «أنعم عليه السلطان بجائزة سنية، وأعطاه علماً أصفر. وقال له: متى يسر الله ما ذكرت، اجعلوا هذا العلم الأصفر فوق داركم، فالحارة التي أنتم فيها تسلم جميعها في خفارة داركم»[4].

ومثل ذلك ما يرويه أبوشامة المقدسي أنه، في سنة ٥٧٣ هـ، قرأ بخط شيخه «أبي الفضائل بن رشيق» بمصر، عقيب موته في السنة المذكورة، «قال:

(١) انظر: سنا البرق الشامي/ ٢٢٦، الروضتين ٢/ ٤٦.

(٢) انظر: عيون الأنباء/ ٥٨٧ ـ ٥٨٩.

(٣) انظر: نفسه/ ٥٥٨، ٥٩٠.

(٤) انظر: نفسه/ ٥٨٨.

رأى إنسان كأن شخصاً ذا جهامة واقفاً على حائط بجامع دمشق»، وهو يقول:

ملك الصَّياصي والنَّـواصي ناصـرٌ   للدّين بعـدَ إياسـه أن يُنـصـرا
وسيفتـحُ البيتُ المقـدَّس بعـدما   يطوى الـطراز له ويقـتـل قيصـرا

يقول أبوشامة: «وهذا قبل أن يفتح صلاح الدين البلاد بعشر سنين»، ثم يضيف: «وهكذا كان الأمر على ما سبق بيانه، فتح هذا الطراز أولاً، ثم فتح البيت المقدس، وكنّى بقيصر عن الإبرنس الذي قتله بيده»[1].

وبعد هذا نتساءل عن التنجيم وما يقوله المنجمون، ومدى الاعتقاد في ذلك، وموقف صلاح الدين منه، ولعل ما يذكره أبوشامة المقدسي يجيب عن هذا التساؤل، يقول: «وهذا نجابة وافقت إصابة، إن صح أنه قال ذلك قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه»، ويقول: «ليس هذا من قبيل علم الحرف، ولا من باب الكرامات، لأنها لا تُنال بحساب»[2].

★ ★ ★

وفي السنة التي سبقت سنة الفتح، أي في سنة ٥٨٢ هـ، استمر الشعر يدعو إلى تحرير مدينة بيت المقدس، ويحث على الجهاد لتحريرها وتحرير غيرها من ديار الإسلام المحتلة.

أنشأ العماد الأصفهاني، في السنة المذكورة، قصيدة يمدح بها الملك المظفر تقي الدين عمر، وأنشده إياها في الثالث من شهر رمضان، في دمشق. ويحث فيها على تحرير بيت المقدس، ويشيد بتقي الدين في جهاده ضد الفرنج، ويبين أن الأيوبيين هم الذين سيحررون القدس، كما يبدو في قوله[3]:

وبَيَّضتَ وجـهَ الـدّين يومَ لقيتهم   وأبيضكم من أسود القصر أشوسُ[4]
وكـم كُفى الإسـلام سوءاً بملككم   كفيتمْ على رغم المعـادين كّل سو

(١) انظر: الروضتين ٢/١٠٤.

(٢) الدارس ١/٢٣٢.

(٣) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٨، ٢٣٩، كتاب الروضتين ٢/٧٢.

(٤) أشوس: أشجع.

ولا يفتحُ البيتَ المقدَّس غيركم وبيتكم من كلِّ عاب مُقدَّسُ
وما عمرُ إلا شبيه سَميِّهِ شديدُ الأعداء ثبْتٌ عَمرَّسُ[1]

ويحث الحكيم عبدالمنعم الجلياني على تحقيق تلك الغاية، من خلال قصيدة بعث بها إلى صلاح الدين، في غرة هذه السنة ـ ٥٨٢ هـ ـ، ويركز فيها على الدعوة إلى الجهاد، ورفع شأن الإسلام، واستئصال الشرك وأهله، ويعظِّم فتح القدس، وتحرير الأقصى، ويصور ذلك الفتح المرتقب بفتح مكة، كما يصور القدس، والأقصى، والصخرة منتظرة صلاح الدين، يقول[2]:

فيا مَلِكاً لم يبقَ للدّين غيره وَهَتْ عُمُدُ الإسلام فاشددْ لها دعما
إذا صفرتْ من آل الاصفر ساحة الـ ـمقدّس ضاهت فتحَ أمّ القُرى قدما
فذا المسجدُ الأقصى وهمتك العُلى وعَزْمَتُك القُصوى ورَمْيَتُك الصمى
وليس كفتح القُدس منية قادرٍ وما أن تلقاها يوسف جزما

ومثل ذلك قوله في قصيدة أُخرى أنشأها في السنة ذاتها، وكان قد حضر بين يدي السلطان، وأنشده قصيدته. وفيها يصور القدس وما آلت إليه في ظل الاحتلال الصليبي، ويدعو إلى تحريرها، كما يصور صلاح الدين وأبناءه وقد قدموا من مصر والشام لتحقيق أمنية المسلمين، ويرى أن على العدو أن يرحل عن أرض فلسطين، كما يبدو في قوله[3]:

الله أكبر أرضُ القُدسِ قد صفرتْ من آل الاصفر إذ حين به حانوا
أسباطُ يوسف من مصر أتوا ولهم من غير تيه بها سلوى وأمنانُ[4]
لهم فلسطين إن يخرج عداتهم عنها وإلا عَدَتْ بيضٌ وخرصانُ
حتى بنيتَ رِتاج القُدس منفرجاً ويصعد الصخرة الغراء عثمانُ[5]

(١) عمرَّس: قوي شديد.
(٢) كتاب الروضتين ٢/١١٦.
(٣) نفسه ٢/١١٦.
(٤) أسباط يوسف: يُقصد بهم هنا أولاد السلطان صلاح الدين.
(٥) لرتاج: الباب المغلق، وعليه باب صغير.
والمقصود ب «عثمان»: ابن السلطان صلاح الدين العزيز عثمان.

واستقبلَ الناصرُ المحرابَ يعبدُ مَنْ ... قد تمَّ من وعــده فتــحٌ وإمــكــانُ
ومـن أحقُّ بُملكِ الأرضِ من مَلكٍ ... كأنــه مَلِكٌ في الــخــلْق حَنّــانُ

ويصور ابن الساعاتي القدس مستبشرة، بعد النصر في طبرية وحطين في سنة ٥٨٣ هـ، ويشيد بصلاح الدين، ويدعوه إلى الاستمرار في الجهاد، ويصور المقدسات الإسلامية قد رضيت عن صلاح الدين، كما يبدو في قوله (١):

قضــيتَ فريضة الإســلام منهــا ... وصَــدَّقــتَ الأمــاني والــظنــونــا
تهــزُّ معــاطف القــدس ابتهــاجــاً ... وتُــرضي عنــك مكــة والحجــونــا
فلو أنَّ الــجــهــادَ يطيقُ نطقــاً ... لنــادتــك ادخــلوهــا آمــنــيــنــا
فألــمــمْ بالــســواحــل فهـي صورٌ ... إلــيك وألــحــق الــهــامَ الــمتــونــا
فقــلبُ الــقُــدس مســرورٌ ولــولا ... سُطاك لكــان مكــتئــبــاً حزينــا

ويُذكر أن شاباً مسلماً كان مأسوراً في بيت المقدس، وهو من أهل دمشق، كتب إلى صلاح الدين أبياتاً يدعوه فيها إلى تحرير القدس، يقول(٢):

جاءتْ إلــيك ظلامــةٌ ... تســعــى من الــبيت الــمُــقــدَّسْ
كلُّ الــمــســاجــد طُهِّــرتْ ... وأنــا على شرفــي مُنَّــجس

تقدم السلطان صلاح الدين يفتح البلاد بعد الانتصار في حطين، وقد استطاع فتحها في فترة قصيرة، ولم تبق إلا القدس، وصور، وطرابلس، بأيدي العدو الصليبي المحتل.

ولم يهاجم صلاح الدين بيت المقدس إلا بعد أن استولى على عسقلان وبيت جبريل، وبعد أن طهر وادي الأردن من العدو المحتل(٣).

---

(١) انظر: ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٦، مفرج الكروب ٢/١٩٨، الروضتين ٢/٨٤، مرآة الزمان ١٤/١٥٢، النجوم الزاهرة ٦/٣٤، شفاء القلوب/ ١٢٦.

(٢) زبدة كشف الممالك/ ٢٠، إتحاف الأخصا المنهاجي السيوطي (خ)/٧٢، (ط)١/ ٢٧٤، الأنس الجليل ١/٣١٨ ـ ٣١٩، أخبار الدول/ ٤٣٠.

(٣) انظر: النوادر السلطانية/ ٨٠، الروضتين ٢/٩٣، الفتح القدسي/ ١١٢، الكامل ١١/٥٤٥ ـ ٥٤٦، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي/ ١٤٢ ـ ١٤٣.

وفي شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ، أخذت جيوش المسلمين بقيادة صلاح الدين تقترب من بيت المقدس، وكانت قادمة من الخليل، وعسكر الجيش الإسلامي بالجانب الغربي، ثم رأى السلطان صلاح الدين وقادته أن المكان غير مناسب عسكرياً، فأمر بالانتقال من الجانب الغربي إلى الجانب الشمالي. ويُذكر أن الجيش كان قد نزل بالجانب الغربي في يوم الأحد، الخامس عشر من شهر رجب، وانتقل إلى الجانب الشمالي، في يوم الجمعة، العشرين منه(١).

يذكر ابن شداد أن صلاح الدين سار معتمداً على الله، ومفوضاً أمره إليه، «منتهزاً فرصة فتح باب الخير الذي حث على انتهازه، إذا فتح، بقوله عليه السلام: «من فتح له باب خير فلينتهره، فإنه لا يعلم متى يغلق دونه»(٢).

ونصب الجيش الإسلامي المنجنيقات، وضايق بيت المقدس «بالزحف، والقتال، وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شماليه»، فلما رأى العدو المحتل ما نزل به، و«ظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل». وعلموا أن مصيرهم سيكون كمصير بني جلدتهم في البلدان الإسلامية الأخرى، عمدوا إلى طلب الأمان، فأبى صلاح الدين أولاً، ثم هدد العدو بهدم قبة الصخرة المشرفة، وقتل أسرى المسلمين، وكانوا قرابة خمسة آلاف، فعقد صلاح الدين مجلساً للشورى، ووافق المسلمون على إعطاء الأمان للفرنج، ثم تسلموا بيت المقدس، يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب(٣).



---

(١) انظر: النوادر السلطانية/ ٨١، الفتح القدسي/ ١٢٤، ١٢٥، الروضتين ٢/٩٢، ٩٤، البداية والنهاية ١٢/٣٢٣، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي/ ١٤٣، ١٤٤.

(٢) النوادر السلطانية/ ٨١، كتاب الروضتين ٢/٩٢.

(٣) النوادر السلطانية/ ٨٢، الفتح القدسي/ ١٢٨، ١٣٠، كتاب الروضتين ٢/٩٢، ٩٤، ٩٥، ٩٨، البداية والنهاية ١٢/٣٢٣.

تحدث كثير من الأدباء المسلمين عن الفتح القدسي، وخصوه بعنايتهم، وعبروا إزاءه عن أحاسيسهم ومشاعرهم، وأحاسيس المسلمين ومشاعرهم، فقد عنى به العماد الأصفهاني في كتابه «الفيح القسي في الفتح القدسي». وتحدث عنه في كتابه «البرق الشامي». وتحدث عنه ابن شداد في كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، وأبوشامة المقدسي في كتابه «الروضتين في أخبار الدولتين»، والقاضي الفاضل في رسائله في: «من ترسل القاضي الفاضل»، و«الفاضل من كلام القاضي الفاضل»، و«الدر النظيم من ترسل عبدالرحيم»، وغيرها. كما تحدث عنه العماد الأصفهاني في رسائله ومبشراته القدسية، وابن الأثير في عدد من رسائله، وابن زكي الدين في خطبته في المسجد الأقصى المبارك، بعد تحريره.

لقد نظر الأدباء إلى هذا الفتح نظرة تعظيم، ويكفي أن نعلم أن العماد الأصفهاني عده هجرة ثانية للتأريخ، بها، فقد بدأ العماد كتابه «الفتح القدسي» بسنة الفتح، وذكر أنه بدأ بالتاريخ به لاستقبال سنة الفتح، وهي سنة ٥٨٣ هـ. ويعلل العماد ما يذهب إليه بأن معنى التواريخ «إما أن تكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الأولى، وإما مستفتحة بمعقب من الدول الأخرى، فلا أمة من الأمم ذوات الملل، وذوات الدول، إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه، ويعولون عليه، ثم ينقله خلفها عن سلفها، وحاضرها عن غابرها، تقيد به شوارد الأيام، وتنصب به معالم الأعلام»[1].

أرخ المسلمون بالهجرة النبوية، ورأى العماد الأصفهاني في الفتح القدسي هجرة ثانية أرخ بها، وهي «هجرةِ الإسلام إلى بيت المقدس، وقائمها السلطان صلاح الدين»، ورأى أنه «على عامها يحسن أن يُبنى التاريخ وينسق، وهي وإن كانت هجرة الإسلام إلى القدس ثانية، فقد كان انثنى عن وطنه منها لما ثنته يد الكفر ثانية». ويعلل العماد صنيعه هذا بأن الشام قد فتح من قبل، وكان الإسلام قوياً، وأما آنذاك، أي في عهد العماد، فقد فتح «والإسلام قد

(١) انظر: الفتح القدسي/ ٤٣ ـ ٤٤.

وهن منه العظم، واشتعل الرأس شيبا. . وقد عاد غريباً كما بدأ غريبا»[1]. ويصوره، وكأن الدنيا الحامل وصلت إلى تمام شهرها، وجاءت بواحدها الذي تضاف إليه الأعداد، ولذا فهو الهجرة الثانية التي يؤرخ بها في نظره[2]. إن ما يذهب إليه العماد الأصفهاني في هذا المجال، يصور عظمة الفتح القدسي في نفسه، وفي نفوس المسلمين جميعاً.



ويصور العماد السنة التي فُتح فيها بيت المقدس بأنها «الزمان الذي تقضت على انتظار إحسانه الأزمنة، وطُهر فيه المكان المقدس»، بعد أن كان ممتحناً في ظل الاحتلال الصليبي[3].

ويصور القاضي الخطيب محيي الدين بن زكي الدين الفتح القدسي فتحاً عظيماً، فهو «الفتح الأسنى، والنصر الأهنى»، و«النعمة العظيمة، والمفخرة العظمى». وهو الفتح الذي «فُتحت له أبواب السماء، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء»، وابتهج به الملائكة والأنبياء، وتبادل التهاني به أهل الخضراء، أكثر مما تبادلها أهل الغبراء، كما يقول ابن الزكي[4]. ويعده الفضيلة الكبرى التي شرف الله بها الأمة الإسلامية، «فكأن الله شَرَّف هذه الأمة، وقال لهم: اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التي بها فضلكم». كما يعده فتحاً «عظيم القدر، جسيم الفخر، فاضل العصر، كامل النصر، ولن يُنسى ذكره إلى يوم الحشر». ويربط ابن الزكي بين هذا الفتح العظيم، والفتوح العظيمة التي حدثت في عهد النبوة، وعهد الخلفاء الراشدين، مثل معارك بدر، والقادسية، واليرموك، وغيرها. يقول

---

(١) الفتح القدسي/ ٤٩، ٥٠. وانظر: شفاء القلوب/ ١٣٩.

(٢) الفتح القدسي/ ٥٣.

(٣) انظر: الروضتين ٢/ ٧٥.

(٤) انظر: الروضتين ٢/ ١١٠، ١١١، شفاء القلوب/ ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢١١ ـ ٢٢٠، وفيات الأعيان ٣/ ٣٦٥ ـ ٣٧١، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/ ٨٧، الأنس الجليل ١/ ٣٣٢ ـ ٣٤٠.

مخـاطبـاً الجيش الإسـلامي المنتصـر: «فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجـزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوح العمـرية، والجيوش العثمـانية، والفتكات العلوية، جددتم بها للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية». ويصـور ابن الـزكي استرداد بيت المقدس بأنه استرداد للضالة المنشودة التي طالما سعى المسلمون للفوز بها، بعد تخليصها من الأمة الضالة، وردها إلى الإسلام بعد أن بقيت محتلة نحو مائة عام[1].

ويصور القاضي الفاضل الزمان وقد افتخر «بعصر السلطان صلاح الدين في بيت المقدس. وفضل الله أصحاب هذا الفتح بهذه «النصرة القدسية» كما يقول القاضي الفاضل نفسه، والعماد الأصفهاني، وأبوشامة المقدسي[2].

ويعده ابن شداد «فتوحاً عظيماً»، وقد شهده خلق عظيم من أهل العلم، وأرباب الخرق والطرق، ويذكر أنه لما شاع قصده ـ صلاح الدين ـ القدس، قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور»[3].

لقد كان هذا الفتح أهم فتح ينظر صلاح الدين إلى تحقيقه، يُذكر أنه لما أراد تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فتح المغرب، قال له صلاح الدين: «لكن فتح بيت المقدس أهم، والفائدة به أتم، والمصلحة منه أخص وأعم، وإذا توجه تقي الدين، واستصحب معه رجالنا المعروفة، ذهب العمر في اقتناء الـرجـال، وإذا فتحنـا القدس والساحل طوينا إلى تلك الممالك المراحل». وأبطل تقي الدين العزم على فتح المغرب[4].

---

(١) انظر: الروضتين ٢/١١٠، ١١١، شفاء القلوب/ ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤.

(٢) انظر: الفتح القدسي/ ١٢٢، الدر النظيم/ ٨٩، ٩١، الروضتين ٢/٩٧، ٩٨، ٩٩، شفاء القلوب/ ١٤٠، ١٤١، صبح الأعشى ٦/٤٩٧، ٤٩٨.

(٣) انظر: النوادر السلطانية/ ٨٢، الروضتين ٢/٩٢، وفيات الأعيان ٧/١٧٩، شفاء القلوب/ ١٢٩، ١٣٨، النجوم الزاهرة ٦/٣٧.

(٤) كتاب الروضتين ٢/٧٠.

ولما انتصر المسلمون في طبرية وحطين، وفتحوا الفتوح الكثيرة في عكا، والناصرة، وصفورية، وقيسارية، ونابلس، وحيفا، وغيرها بقيادة صلاح الدين، قال العماد الأصفهاني: وبعد هذا «ما يتأخر النهوض إلى القدس، فهذا أوان فتحه. ولقد دام عليه الضلال، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صبحه»[1].

كان فتح بيت المقدس غاية الغايات التي كان المسلمون يرنون إلى تحقيقها، وكانوا مستعدين للتضحية بالنفوس في سبيلها. ومما يُذكر في هذا المجال أن المنجمين قالوا لصلاح الدين: «على نجمك أن تدخل بيت المقدس، وتذهب عين واحدة منك، فقال: قد رضيت بأن أعمى، وآخذ البلد»[2].

ويُذكر أنه كانت «كل أفكار صلاح الدين منصبة على بيت المقدس، حيث يقع المسجد الأقصى، ثالث مكان مقدس في الإسلام، والصخرة المشرفة التي عرج منها محمد. ولتكن القدس الثمرة الطيبة لانتصاراته الفذة»، وكان فتح القدس شاغله الأكبر، وقد بلغ منيته بتحرير المسجد الأقصى»[3].



تتردد أصداء الفتح القدسي في الأشعار القدسيات، وتبرز تلك الأصداء جلية في شعر الكثير من الشعراء من أمثال العماد الأصفهاني، وأسامة بن منقذ، والحكيم أبي الفضل عبدالمنعم الجلياني، والرشيد بن بدر النابلسي، وابن الساعاتي، وابن سناء الملك، وسبط بن التعاويذي، وابن جبير، ويوسف بن الحسين بن المجاور، والحسن بن علي الجويني، ومحمد بن أسعد بن علي الجواني، وفتيان الشاغوري، وغيرهم. وأنشأ بعض الشعراء ديواناً خاصاً ببيت المقدس، فقد أنشأ الحكيم عبدالمنعم الجلياني ديوانا سماه «ديوان المبشرات

(١) انظر: الروضتين ٢/٨٩، شفاء القلوب/ ١٢٤.

(٢) انظر: الروضتين ٢/٩٢، شفاء القلوب/ ١٢٨.

(٣) انظر: شعلة الإسلام/ ١٢٠، سيرة القاهرة ـ لين بول/ ٤٤، ٤٥، الناصر صلاح الدين ـ عبدالمنعم ماجد/ ١٠٣، الناصر صلاح الدين ـ الدهان/ ٦٥، صلاح الدين ـ الوكيل/ ١٦٠، تراث الإسلام ـ باركر/ ٨٣.

والقدسيات»، وديواناً آخر سماه «ديوان التدبيج» أو «منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في مدى ذكر الملك الناصر صلاح الدين».

لقد كان هذا الفتح الآية العظمى كما يقول ابن الساعاتي مستهلاً قصيدة له أنشأها مادحاً صلاح الدين عند فتحه البيت المقدس[1]:

أعيًّا وقد عاينتمُ الآية العُظْمى لأية حالٍ تَذْخَرُ النثرَ والنَّظْما
وقد ساغَ فتحُ القُدسِ في كلّ منطقٍ وشاعَ إلى أن أسمعَ الأسل الصُّمَّا

وهو الفتح العظيم الحاسم الذي كان المسلمون بانتظاره، كما يقول الرشيد النابلسي[2]:

هذا الذي كانت الآمال تنتظرُ فليوفِ لله أقوامٌ بما نَذَروا

وهو فتح ما كان يخطر ببال في ظل أوضاع المسلمين من قبل، ولكنه تحقق بعد توحيد بلاد المسلمين، ووقوفهم صفاً واحداً. وقد سار في جميع الأرجاء، كما يقول العماد الأصفهاني مبشراً الخليفة الناصر بالفتح، في قصيدة أنفذها إليه[3]:

أبْشِرْ بفتحِ أمير المؤمنين أتى وصيتُهُ في جميع الأرضِ جَوّابُ
ما كان يخطرُ في بالٍ تَصُّورُه واستُصعِبَ الفتح لمّا أُغلقَ البابُ
وخامَ عنه الملوكُ الأقدمون وقد مَضَتْ على الناس من بَلْواه أحقاب

وبهذا الفتح الذي تمناه الملوك، ولم يستطيعوا تحقيقه قبل صلاح الدين، زال الاحتلال الصليبي الذي صوره العماد الأصفهاني داءً معضلاً لم يشف المسلمون منه إلا في سنة الفتح، كما يبدو في قوله من قصيدة قالها يمدح بها الملك الأفضل بن صلاح الدين[4]:

والقُدسُ أعْضَل داؤه من قبلكم فوفيتمُ بشفاء ذاك المعضلِ

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥.

(٢) عقد الجمان للعيني/ حوادث سنة ٥٨٣ هـ، كتاب الروضتين ٢/١١٨.

(٣) سنا البرق الشامي/ ١٧٤، كتاب الروضتين ٢/١٠٢.

(٤) ديوان العماد الأصفهاني/ ٣٥١، كتاب الروضتين ٢/١٠٧.

دَرَج الملوكُ على تَمنّي فَتْحه زمناً وغُلّتُهم به لَمْ تُبلَلِ
وأتى زمانكم فأمكنَ آخراً ما قد تَعذَّرَ في الزمان الأولِ

ويتردد مثل هذا التصوير في قول ابن الساعاتي مصوراً الاحتلال الصليبي، ومشيداً بالفاتح صلاح الدين[1]:

هو منقذُ البيتِ المُقدسِ بعدما طالتْ فما وجد الشّفاءَ شُكاتُهُ
بيتٌ تأسس بالسكون وإنما عند الزّحاف تحركَتْ سَكَناتُهُ

وقوله مصوراً ما حل ببيت المقدس، ومبيناً السبيل إلى الخلاص من الداء المتمثل في الاحتلال الصليبي[2]:

وما كانَ إلّا الداءَ أعيا دواؤه
وغيرُ الحسام العضب لا يعرفُ الحَسْمَا
فقد أصبحتْ نُجلُ العيونِ بأرضها مخافة هنديّ الظّبا تُنْكرُ السُّقْما

★★★

لقد حار الشعراء في هذا الفتح لعظمته، وهم لم يحاروا وحدهم، بل حار المسلمون جميعاً فيه، وفي ذلك سر عظمته. وقد تساءل العديد من الشعراء عن الفتح: هل أصبح واقعاً بعد أن كان حلماً؟ وتساءل المسلمون عن مثل ذلك، ولكن الشعراء عبروا عما يدور في أذهانهم، وفي أذهان المسلمين، وعبروا عما يحسون به، كما عبروا عما يحس به المسلمون إزاء الفتح. إن هذا التساؤل يعبر عما كانوا فيه من يأس يحيط بهم، فيرون أن قمة أحلامهم المتمثلة في تحرير بيت المقدس قد لا تتحقق، ولكن ذلك الحلم أصبح واقعاً، بعد أن كان حلماً في ظل تفرق المسلمين، وتنازعهم، وتخاذلهم، ومحاربة بعضهم بعضاً، يقول الشريف محمد بن أسعد الجواني[3]:

أترى مَناماً ما بعينيَ أُبصرُ القُدسُ يُفتَحُ والفرنجة تُكْسَرُ

(١) ديوان ابن الساعاتي ١/٦٤، ٢/٤١٠، كتاب الروضتين ٢/١٠٦.

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥، ٣٨٨، كتاب الروضتين ٢/١٠٦، الغيث المسجم ٢/٣٣.

(٣) كتاب الروضتين ٢/١٠٥، تاريخ الخلفاء/ ٤١٨، دول الإسلام ٢/٩٥.

وهكذا يصور الشعراء بل الأدباء عامة الحسرة التي كانوا يحسون بها إزاء تمنيهم فتح القدس، وتحريره من المحتل الصليبي. ويبدو أن اليأس بلغ منهم مبلغاً كبيراً إزاء ذلك. وليس ذلك إلا لما كان المسلمون عليه في تخاذلهم، وانقسامهم قبل أن يتم الفتح، وقبل بروز أبطال المسلمين من أمثال عماد الدين زنكي، ونورالدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، فهذا العماد الأصفهاني يصور ذلك بقوله: «قد انقرضت الملوك الماضية، والقرون الخالية على حسرة تمنيه، وحيرة ترجيه، ووحشة اليأس من تسنيه، وتقاصرت عنه طوال الهمم، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم»[1].

وقد بدت تلك التمنيات جلية في قول العماد الأصفهاني أيضاً: «ونسأل الله التوفيق لاستدناء قواصي المنى، وإقصاء الأنجاس من المسجد الأقصى، وأن يجعل فتح البيت المقدس مفتتح مراده ـ نورالدين ـ، ومقترح زناده، ومقترحه في جهاده، وأن يملكه الساحل بجميع بلاده»[2].

وتحققت الآمال التي كانت تراود نفوس المسلمين، وعادت إلى بيت المقدس قدسيته، وعزته، ومكانته السامية، وطهر من الرجس والآثام. وبفتحه حقق «ما كان في النفس، وبدّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالانس، وجعل عز يومه ماحياً ذُلّ أمس». وفتح الله بيت المقدس الذي عجز الملوك الآخرون عن تمنيه، وهو الفتح «الذي لم يخطر تمنيه بخاطر الملوك، وتوعر على عزائمهم نهج طريقه المسلوك». وكان فتحه نصراً من الله. يقول العماد الأصفهاني: «دعانا الله لفتحه فأحببناه، ووعدنا بالفوز فاجبناه، وأوردنا مشرع صفائه فاستعذبناه، وعرفنا طيب عرفه فاستطبناه، وذخرنا لعصرنا هذا الفخر فاستقبلناه». ويصور العماد كيف كان المسلمون متشوقين للفتح، متلهفين لتحقيقه، يقول: «فما أشوقنا وأشوق القدس إلى قدومه، وما أظمأنا وأظمأه، إلى خصوص الري به وعمومه»[3].

(١) انظر: الفتح القدسي/ ١٨١، كتاب الروضتين ٢/٩٧، مرآة الزمان ٨/٣٩٨، شفاء القلوب/ ١٣٨.

(٢) كتاب الروضتين ١/٢١٥، وانظر/ ١٨١.

(٣) انظر: المصدر نفسه ٢/٩٤، ٩٧، ٩٨، ٩٩.

ويصور القاضي الفاضل اليأس الذي كان قد حل بالمسلمين، مما جعلهم ينظرون إلى أن الفتح القدسي حلم قد لا يتحقق. ولما تحقق، كاد المسلمون لا يصدقون ما حدث. يقول: «واسترد المسلمون تراثاً كان عنهم آبقاً، وظفروا يقظةً بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به على النأي طارقاً»[1].

ويصور الحكيم عبدالمنعم الجلياني، في قدسيته الكبرى، السرعة التي تم فيها فتح بيت المقدس، بأنها سر لم يحط المسلمون بحقيقته، يقول[2]:

تَصاريفُ دهرٍ أغْرَبتْ لمن اهتدى ... وبَسْطَةُ أمرٍ أغربتْ من تمردا
لسرعةِ فتح القُدس سِرٌّ مَغيَّبٌ ... وفي صَرْعةِ الإفرنج معتبر بدا

ويصوره في إحدى قدسياته الأخرى، وكأنه كان في عالم الغيب، وهو ما لا يدركه العالم السفلي. وليس ذلك إلا لعظمة الفتح من ناحية، والتعجب المقرون بالحيرة إزاء ما تم على يد صلاح الدين من ناحية أخرى. يقول[3]:

في باطنِ الغيبِ ما لا تُدْرِكُ الفِكَرُ ... فذو البصيرة في الأحداث يعتبرُ
مَنْ ذا يقولُ لعلَّ القُدْسَ مُنْفتحٌ ... إليك بل سِفْرُ يعقوب له السَّفَرُ

ومن خير ما يمثل الحالة التي كان المسلمون عليها، من فرحة بالفتح، وحيرة إزاءه، قول ابن سناء الملك[4]:

لستُ أدري بأيِّ فتحٍ تُهنّا ... يا مُنيلَ الإسلام ما قد تَمنّى
كلُّ فتحٍ يقولُ إنّي أولى ... وهو أَوْلى لأنه كان أهنا

يذكر العماد الأصفهاني أن الرسل قد وردت للتهنئة بالفتح، من بلاد الشام، وخراسان، والعراق، ومنهم رسول صاحب الري، ورسول همذان

---

(١) الدر النظيم/ ٩٠، رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٠، صبح الأعشى ٤٩٧/٦، شفاء القلوب/ ١٤١.

(٢) كتاب الروضتين ١١٧/٢.

(٣) نفسه ١١٦/٢.

(٤) ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت)/ ٨١٣، ٨١٤، (ط مصر)/ ٣٤٠، مفرج الكروب ٢٣٤/٢، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٩١/٧، شفاء القلوب/ ١٥٠، ١٥١.

وأذربيجان، ورسول صاحب بلاد العجم، وغيرهم(١).

★ ★ ★

يعد الشعراء هذا الفتح فتوحاً، ويعده بعضهم من فتوح الأنبياء، كما نجده عند الحسن بن علي الجويني. يقول العماد: «كان فخر الكُتّاب أبوعلي الحسن بن علي الجويني، المقيم بمصر، من أهل بغداد، ينفذ إليّ قصائده لأعرضها، فرأيت أن أثبت له هذه القصيدة في الفتح، وهي مشتملة على ذكر ملوك الإسلام، وإهمالهم له تسعين عاماً، حتى تجرد سلطاننا، فذكرها»، يقول(٢):

جُنْـدُ السَّمـاءِ لهـذا المَلْكِ أعـوانُ ... من شَكَّ فيهم فهـذا الفتـحُ بُرْهـانُ
متى رأى النّـاسُ ما نحكيه في زَمَنٍ ... وقـد مَضَتْ قبـلُ أزمـانٌ وأزمـانُ
هذا الـفـتـوحُ فتـوح الأنـبياء ومـا ... له سوى الشكـر بالأفعـال أثمـانُ

ويذهب الجويني إلى أن هذا الفتح لو تم في عهد نزول القرآن الكريم، لقيلت فيه آيات بينات. وهو يقصد بهذا تعظيم هذا الفتح القدسي، يقول(٣):

لو أنَّ ذا الفتح في عصر النبيّ لقد ... تَنَـزَّلَـتْ فيه آياتٌ وقـرآنٌ

إنـه لمن الواضح أن الشاعر يعظم الفتح تعظيماً كبيراً. ويربط بين هذه المعركة الحاسمة في التاريخ الإسلامي. والمعارك الحاسمة في عصر النبوة. وهـذا التعظيم من ناحية، وهذا الربط من ناحية أخرى، يعكسان إحساسات الشاعر بالفتح، وهي إحساسات الفرح الغامر بالخلاص من الاحتلال البغيض.

ومن المعـارك التي يربط بينهـا الشعـراء وبين الفتـح القـدسي، معـركة القـادسية، فهمـا معركتان ذواتا شأن كبير في التاريخ الإسلامي، ففي معركة القادسية كان القضاء على أعظم امبراطورية كانت تريد القضاء على الإسلام والمسلمين، وفي معـركـة بيت المقـدس، أو الفتـح القدسي، كان التحرير

(١) انظر: الفتح القدسي/ ١٣١، الروضتين ٢/ ١٢٠.

(٢) كتاب الروضتين ٢/ ١٠٤.

(٣) نفسه ٢/ ١٠٥.

والخلاص من العدو الصليبي المحتل، وهو عدو استعماري استيطاني كان يحتل بلاد الإسلام والمسلمين، وكان يريد القضاء عليهما، واحتلال أرض الإسلام، وعلى رأسها بيت المقدس، وعلى ذلك، فهما معركتان انتهتا بانتصار الإسلام والمسلمين، وهزيمة أعدائهما، وهما معركتان حاسمتان في التاريخ الإسلامي يفتخر المسلمون بهما في كافة أنحاء العالم الإسلامي. ولذا جاء الربط بينهما أمرا طبيعياً.

ويربط الشعراء بين شخصية الخليفة عمر بن الخطاب الذي أحرز المسلمون الانتصار في القادسية، في عهده، وشخصية السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي قاد المسلمين إلى النصر في معركة بيت المقدس، وهو ربط طبيعي بين الشخصيتين اللتين فتحتا بيت المقدس، ففي عهد الخليفة عمر كان الفتح القدسي العمري، وفي عهد السلطان صلاح الدين كان الفتح القدسي الصلاحي، وكلاهما فتح عظيم حقاً.

وتتكرر مثل هذه الإشارات التاريخية في هذا الشعر القدسي، وتتمثل في الإشارة إلى الشخصيات الإسلامية البارزة ذات الدور القيادي الحاسم في تاريخ الإسلام والمسلمين، والشعراء في عملهم هذا، ينظرون نظرة إجلال وتقدير إلى تلك الشخصيات البارزة في التاريخ الإسلامي، وهي نظرة تمنى فيها الشعراء ظهور شخصيات قيادية في عصرهم مثل تلك الشخصيات القيادية السابقة، لتخليص المسلمين من الاحتلال وتحدياته.

وهم بذلك يستلهمون التاريخ، ويعتبرون به، وبأحداثه، وبأعمال قادته، ويدعون إلى الاعتبار بذلك، والسير على نهجه للوصول إلى التحرير، تحرير المسلمين وبلادهم، وعلى رأسها بيت المقدس.

وهم بذلك يذكرون أعداءهم المحتلين بقادة المسلمين السابقين، ورموز بطولتهم، ومعاركهم الحاسمة. وفي ذلك تهديد للعدو، وتقرير بأن مصيره سيكون مصير أعداء المسلمين في العصور السابقة، في معارك الإسلام الحاسمة السابقة.

وهم بذلك يربطون بين ماضٍ مجيد، وحاضر مجيد. وإننا لنلمس في ذلك تمجيداً للسلطان صلاح الدين، كما كان فيه تمجيد للقادة السابقين.

يقول الشاعر الحكيم عبدالمنعم الجلياني، في قدسيته الفتحية الناصرية، نسبة إلى الفتح القدسي من ناحية، والسلطان الناصر صلاح الدين من ناحية أخرى، معبراً عما تقدم الحديث عنه، من ربط بين هذا الفتوح الصلاحي، وفتوح القادسية، وبين هذا الفاتح صلاح الدين، والفاتح عمر بن الخطاب[1]:

أما رأيتُمْ فتوحَ القادسية في ... أكنافِ (لوبيّة) تُجلَى وذا عُمَرُ

ويربط ابن الساعاتي بين الخليفة عمر بن الخطاب، والسلطان صلاح الدين مشيداً بكلٍ من الفاتحين، كما يبدو في قوله[2]:

فليتَ فتى الخطّاب شاهدَ فتحها ... فيشهدَ أن السَّهم من يوسفٍ أصمى

وقد أُوتي الفتحين مالا وبلدةً ... فلم يُبق نصراً ما حواه ولا غُنما

وقوله[3]:

هو الفاتحُ البيتَ المقدَّس بعدما ... تحامَتْهُ ساداتُ الدُّنا ومسودُها

فضيلةُ فتحٍ كان ثاني خليفة ... من القوم مُبديها وأنت مُعيدُها

ويربط الحكيم عبدالمنعم الجلياني بين الفاتحين: عمر بن الخطاب، وصلاح الدين الأيوبي، فقد حقق كل منهما النصر في الفتح القدسي. كما يربط بين صلاح الدين وأبي عبيدة، قائد المسلمين في معركة القدس، في عهد عمر بن الخطاب، ويمزج ذلك بتصوير ما كان عليه أهل القدس، كما يبدو في قوله:[4]:

أبا المُظَفَّرِ أنت المُجْتَبى لهدى ... أُخرى الزمان على خُبْرٍ بخبرته

فلو رآك وقد حُزتَ العُلى عمر ... في قلة التل قَضّى كُنْهَ عِبْرتِهِ

ولو رآك وأهلُ القُدْس في وَلَهٍ ... أبوعبيدة فَدّى من مَسَرَّتهِ

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١١٧.

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥، كتاب الروضتين ٢/١٠٧.

(٣) ديوان ابن الساعاتي ٢/٧١، ٢/٤١٠، كتاب الروضتين ٢/١٠٧.

(٤) كتاب الروضتين ٢/١٠٣.

ويصور ابن جبير كيف خص الله السلطان صلاح الدين بهذا الفتح، بعد أن خص به الفاروق عمر بن الخطاب، في صدر الإسلام، كما يبدو في قوله[1]:

لكم ذَخَرَ الله هذا الفتو ح من الزمن الأول الغابرِ
وخَصَّك من بعد فاروقه بها لاصطناعك في الآخرِ

لقد كانت حروب صلاح الدين شبيهة بفتوحات المسلمين الأولى، وقد عبر عنها الشعراء المعاصرون له، في القرن السادس الهجري «بصور بارعة تشهد بصدق المقارنة»[2].

ويصور الشاعر الجلياني أيام الفتح القدسي، في ظل السلطان الفاتح صلاح الدين، بالأيام في عهد الصحابة، رضوان الله عليهم. ويربط بين السلطان الفاتح صلاح الدين والصديق أبي بكر، والخليفة عمر بن الخطاب، والملك المظفر تقي الدين عمر، كما يربط بين العزيز عثمان بن صلاح الدين، وعثمان بن عفان، ويربط بين الملك الأفضل علي بن صلاح الدين، وعلي بن أبي طالب، كما يبدو في قوله[3]:

دارَتْ بك الملةُ الحُسْنى فنحن على عهدِ الصحابةِ في استمرارِ مِلَّتِهِ
وأنتَ كاسمك صدّيقٌ وصاحبه الـ ـملِكُ المُظَفَّرُ سامٍ في مَبَرَّتِهِ
وفي الثلاثة عثمان يؤيده عَلَا عليٌّ على ايثارِ نصْرَتِهِ

وتتردد مثل هذه المعاني في شعر الشريف محمد بن أسعد الجوّاني، نقيب الأشراف بمصر، كما يبدو في قصيدة قالها في الفتح القدسي. وفيها يصور هذا الفتح فتحاً للرسول محمد ﷺ، ويصور الفاتح بالخلفاء الراشدين في فعالهم، فهو مثل الصديق أبي بكر، والفاروق عمر فاتح بيت المقدس، وهو مثل عثمان في نصرة الإسلام، وهو مثل علي في دفاعه عن النبوة، يقول[4]:

---

(١) الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ـ القسم الثاني/ ٥٩٩، رحلة العبدري/ ٩٥، كتاب الروضتين ٢/ ١٠٦.

(٢) الناصر صلاح الدين ـ الدهان/ ٨.

(٣) كتاب الروضتين ٢/ ١٠٣.

(٤) كتاب الروضتين ٢/ ١٠٥، تاريخ الخلفاء/ ٤١٨.

مَنْ كانَ هذا فَتْحُهُ لمحمدٍ ... ماذا يقالُ له وماذا يُذْكَرُ
يا يوسف الصدّيق أنت لفتحها ... فاروقُها عمر الإمامُ الأطهرُ
ولأنتَ عثمان الشريعةِ بعده ... ولأنت في نصرِ النبوةِ حَيْدَرُ

ويذكر العماد الأصفهاني، في حوادث سنة ٥٨١ هـ، أن من وصايا السلطان صلاح الدين، بعد نزول مرض ألم به، قوله: «إن أدركني الأجل المحتوم، ودنا اليوم المعلوم، فقد خلفت أبابكر، وعمر، وعثمان، وعليا، وكلهم أراه بمرادي في إقامة الجهاد مليا، فعنى بأبي بكر سيف الدين أخاه، وبعمر تقي الدين بن أخيه، وبعثمان وعلي ولديه الملكين العزيز والأفضل»[١].

ويفضل الشعراء هذا الفتح على غيره من الفتوح الأخرى، فهو فتح قد تسامى محلاً، وأنار بلاد الإسلام ضياء، إنه فتح عظيم حقاً، يفتخر به المسلمون في سائر أنحاء العالم الإسلامي، كما يبدو في قول الرشيد بن بدر النابلسي[٢]:

لا تَرْوِيَنْ لفتوحٍ بعدها قصصاً ... وإنْ تَعاظَمَ منها الخُبْرُ والخَبَرُ
توضح الدَّهرُ عن يوم أغرّ به ... يُزْهى ويفتخر الآصال والبُكَرُ
يومٌ تعالى محلاً واستنارَ سناً ... فدون مرتبتيه الأنْجُمُ الزُّهُرُ
بمثل ذا الفَتحِ لا والله ما حُكِيَتْ ... في سالفِ الدَّهر أخبارٌ ولا سِيَرُ

وهو فتح حاسم قضى على ما كان الأعداء المحتلون يكنونه، ويفعلونه، وخلص بيت المقدس مما كان يرزح تحته. وهو فتح كالشمس المنيرة التي تكشف كل ما عداها، إذا ما قورن بالفتوح الأخرى، كما يبدو في قول الشاعر فتيان الشاغوري[٣]:

فَلْيهنِهِ الفتحُ الذي سُدَّت به ... عن مُلْكِهِ أبواب غَدْر الأدْهُرِ
فتحٌ تطأطأ كلُّ فتح دونه ... والشمس تكسِفُ كلَّ جسمٍ نَيِّرِ

---

(١) انظر: الروضتين ٢/٦٥.

(٢) انظر: الروضتين ٢/١١٨، عقد الجمان للعيني/ حوادث سنة ٥٨٣ هـ، شفاء القلوب/ ١٦٦ - ١٦٧.

(٣) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٢.

وقوله مصوراً يوم الفتح وكأنه يوم الحشر، وهو يعبر بذلك عن هوله وعظمته[1]:

وأرَيْتَهُمْ لمـا التقى الجمعـان باليـ ـتِ المُقـدسِ هَوْلَ يوم المحْشَـرِ

ويبلغ الأمـر ببعض الشعـراء أن يصـوروا الفتـح القدسي أعظم من كل الفتـوحات السابقة واللاحقة، وكأنه «لم يكن منذ عصر الصحابة، رضي الله عنهم، له نظير»[2]. وفي هذا مبالغة إلى حد ما، يقول العماد الأصفهاني[3]:

ما كان قطُّ ولا يكـون كفتـحكـم للقُدس في الماضي ولا المستقبلِ

أُوجِـدتمُ منـه الـذي عدم الـورى وفـعـلتمُ في الفتـحِ ما لَمْ يُفعـلِ

أيدي الملوك تقـاصَـرَتْ عن مَفخـرٍ طُلْتُـمْ به فبـلـوا لبـعض الأنـمـلِ

★ ★ ★

ويصـور الشعراء الفتح القدسي ملحمة من الملاحم، فهو ملحمة قادها صلاح الدين، ومن أولئك الشعراء فتيان الشاغوري، إذ يصوره ملحمة كتبت بالدماء، وقد كانت السيوفُ المعربَ الفصيحَ فيها، وكانت الرماح الخطَّ الذي كتبت به، كما كانت السهامُ ما نقط به ذلك الخط. وكان الحبُر الذي كُتبت به دماً، وأما دفترها الذي كتبت فيه فهو ثرى ديار المسلمين. وكانت تلك الملحمة ذاتَ ألحان طالما تاقت الآذان إلى سماعها، وهي ألحان، تمثلت في صهيل الخيول، كما يبدو في قوله[4]:

أنْشـأتَ ملحمـةً تُمِـلُّ مقـاتـلَ الفُرْسـانِ بالعـددِ الـذي لم يُحصرِ

إعـرابُهـا ضَرْبُ الحسـامِ ونقْطُهـا وَقْـعُ السِّهـامِ وخَطُّهـا بالسَّمهـري

والـحـبـرُ بحـرٌ تَعَـطْمطَ مَوْجُـهُ إذ ليسَ ثمَّ سوى الثـرى من دفتـرِ

والـبـيضُ تنـثـرُ وهـي غيرُ خواطبٍ والـسُّمْـرُ ناظمـةٌ وإنْ لم تَشعُـرِ

والـخـيلُ مطربـةٌ كأن صَهيلَهـا شَدْوُ الـنُّحَيْلَة في نسيب البحتـري

---

(1) ديوان فتيان الشاغوري / ١٤٣.

(2) كتاب الروضتين ٢/٩٨.

(3) ديوان العماد الأصفهاني / ٣٥١، كتاب الروضتين ٢/١٠٧.

(4) ديوان فتيان الشاغوري / ١٤٢، ١٤٣.

نَشْوى تميدُ من السرور كأنما صَبحتْ كؤوساً من شراب مُسْكِرِ
فلقد وَأدْتَ الشِّرْكَ يومَ لقيتهمْ وغَدوْتَ للإسلام عِينَ المُنْشِرِ
ورددتَ دينَ الله بعد قُطوبه بالمسجد الأقصى بوجهٍ مُسْفِرِ
وأعدتَ ما أبداه قبلك فاتحاً عمر فأنتَ شريكُهُ في المَتْجرِ

ويصور الشاعر الشاغوري صلاح الدين ربَّ الملاحم، وهي ملاحم يفضلها على كل ما تقدمها من ملاحم، كما يبدو في قوله[1]:

ربُّ الملاحِم لم يُؤرخ مثلها العلماء قِدْ ما في قديمِ الأعْصُرِ

ويقرن بعض الشعراء بين هذه الملاحم التي قادها صلاح الدين في سبيل الإسلام والمسلمين، وما كان في عصر النبوة من ملاحم، كما يبدو في قول الحكيم عبدالمنعم الجلياني، في قصيدة قدسية مخاطباً صلاح الدين[2]:

يا فاتحَ المسجدِ الأقصى عليَّ بهم وقانص الجيش لا يُحصى بقَفْزتهِ
أبْشِرْ بمُلْكٍ كظهر الشمس مُطَّلِعٍ على البسيطةِ فَتَّاحٍ بنَشْرتهِ
حتى يكون لهذا الدّين ملحمةً تحكي النبوة في أيامِ فترتهِ

ويربط بعض الشعراء بين ملاحم صلاح الدين، وملاحم الإسكندر ذي القرنين، ويفضلونها على تلك الملاحم، ومنهم الشاعر الحكيم عبدالمنعم الجلياني، في قصيدته القدسية الفتحية الناصرية، يقول[3]:

هذا المليكُ الذي بُشْرى النبيّ به في فتنةِ البغي للإسلام ينتصرُ
أنْسَى ملاحمَ ذي القرنين واعترفَتْ له الرواةُ بما لم يُنْمِهِ أثَرُ
أُعين إسكندر بالخضر وهو له عونٌ من الله يستغني به الخضرُ
وصنع ذي العَرْش إبداع بلا سبب فلا تقل كيف هذا الحادثُ الخطرُ

ويبدو مثل ذلك مبالغاً فيه كما في قول الرشيد بن بدر النابلسي[4]:

ألْمِمْ بدارِ النّاصرِ الملْكِ الذي في كفِهِ للجودِ سبعةُ أبْحُرِ

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤١.

(٢) كتاب الروضتين ٢/١٠٣.

(٣) نفسه ٢/١١٧.

(٤) نفسه ٢/١١٨.

فإذا مَرَرْتَ بمُـلْكِـهِ وفـتـوحِـهِ فاسْخـرْ بما يُروى عن الإسكندرِ

★★★

وكانت آثار الفتح القدسي عظيمة في نفوس المسلمين، وفي ديار الإسلام كلهـا، وكانت البشرى كبيرة بهذا الفتح العظيم، كما كان الابتهاج به عظيماً كذلك. وقد صور الأدباء تلك البشرى، وذلك الابتهاج، وبرز جلياً في أشعارهم، ورسائلم، وخطبهم.

يصور العماد الأصفهاني السلطان صلاح الدين، وقد جلس بمخيمه ظاهر القدس للهناء، وكانت الوجوه سافرة بنور البشر، والعيون تدمع من فرط المسرة، والقلوب خاشعة لفرحها بالنصر، والألسنة تضرع إلى الله مبتهلة مرددة ترانيم الشكر. ولما «تسامع الناس بهذا النصر الكريم، والفتح العظيم، وفدوا للزيارة من كل فج عميق»[1]. وسُيِّرت كتب البُشرى بالفتح، بطلب من السلطان صلاح الدين. يقول: «لما تم الفتح الأكبر، وخص دعم النجح الأظهر، وقطع دابر المشركين، وحط إقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بحطين، أمرني السلطان بإنشاء كتب البشائر إلى الآفاق، وتقديم البشرى به إلى العراق»[2].

وكتب القاضي الفاضل كتباً أُخرى تهنىء بالفتح القدسي، وتتحدث عن آثاره في مختلف المجالات.

كان أثر الفتح القدسي أثراً عظيماً في نفوس المسلمين، فقد عاد الحق إلى نصابه، وزهق الباطل، وعاد الايمان إلى وطنه بعد أن كان غريباً في ظل الاحتلال الصليبي. وكانت سعادة المسلمين غامرة بذلك، فقد ذُكر أن السلطان صلاح الدين قال: «إن أسعدنا الله على إخراج أعدائه من بيته المقدس، فما أسعدنا، وأيّ يد له عندنا إذا أيدنا»[3]. ويصور العماد كيف «تهلل وجه السعد بنضارة البيت المقدس، وزادت الوجوه بشرا»، يقول: وكان ذلك الفتح «بشرى تجلو الوجوه ببشرها، وتضوع مهاب المحاب بنشرها، ويعرف أهل الشرق

(١) انظر: الروضتين ٢/٩٦.

(٢) انظر: الفتح القدسي/ ١٨٣.

(٣) انظر: الروضتين ٢/٩٤.

والغرب سجال غربها، وتقر عين المؤمنين في البعد والقرب بأنوار قربها، عاد التقديس إلى الأرض التي به وصفت، وأحاطت البركة بالبقعة التي بقوله تعالى ﴿باركنا حوله﴾ عُرفت، وظهرت الصخرة المقدسة وطُهِّرت. . . ، واستبشر المنبر والمحراب بخطيبه وإمامه»[1].

لقد كان هذا الفتح ذا أثر كبير في الإسلام والمسلمين، فبه «صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصائرها، واستتبت عقائد أهله على أبين بصائرها، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه». كما يقول القاضي الفاضل. ويصور أثره وقد أصبحت الأرض المقدسة طاهرة، وكانت طامثاً في ظل الاحتلال الصليبي[2].

وتتردد تلك البشائر بالفتح في أدب أدباء المسلمين، فقد تحدثوا عن الآثار التي نجمت عنه دينياً، وسياسياً، ونفسياً، وفكرياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وعمرانيا. ويصور العماد الأصفهاني تلك الآثار في قول مجمل يشير فيه إلى آثار الفتح في مجالاتها المختلفة، يقول: «. . . وتلي التنزيل، وحق الحق، وبطلت الأباطيل، وتولى الفرقان، وصُفَّت السجادات، وصَفَت العبادات، وأقيمت الصلوات. . . ، وأعليت الرايات، ونطق الآذان، وخرس الناقوس. . . ، وعاد الايمان الغريب إلى وطنه. . . ، وورد القراء، وقرأوا الأوراد، واجتمع الزهاد، والعباد، والأبدال، والأوتاد. . . ، وأملى الحفاظ، وأبكى الوعاظ، وتذاكر العلماء، وتناظر الفقهاء، وتحدثت الرواة، وروى المحدّثون. . . ، ولخص المفسرون. . . ، وانتدى الفضلاء، وانتدب الخطباء، وكثر المترشحون للخطابة، والمتوشحون بالإصابة، المعروفون بالفصاحة»[3]. ومن هذا النص يتبين الأثر جلياً في مجال إقامة الشعائر الدينية

---

(١) انظر: الروضتين ٢/٩٨، ٩٩.

(٢) انظر: رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٨، ١٦٩، الدر النظيم/ ١٧، ٢١، وفيات الأعيان ٧/١٨٠، ١٨٢، صبح الأعشى ٦/٤٩٧، شفاء القلوب/ ١٤١، ١٤٣.

(٣) انظر: الفتح القدسي/ ١٣٨، الروضتين ٢/١٠٨، ١٠٩.

كما كان الحال قبل الاحتلال، كما يتبين في مجال الحياة الفكريه، وعقد مجالس الوعظ، والمجالس الأدبية والعلمية، والمناظرات، وما إلى ذلك.

لقد عُني الشعراء بالحديث عن أثر الفتح دينياً، كما عنوا بآثاره السياسية، فإن أشعارهم القدسية تعد لوناً من ألوان الشعر السياسي الذي يصور الحرب بين المسلمين وعدوهم الصليبي المحتل. وهو لون من الشعر الذي عني به المجتمع المسلم صاحب الحق والأرض، في فترة الحروب الصليبية.

يركز الشعراء المسلمون في قدسياتهم على الحديث عن عودة الايمان إلى وطنه، وإقامة أحكام الله فيه، وإعلان شعائره، وتطهير بيت المقدس من رجس الاحتلال، كما يبدو في قول العماد الأصفهاني، مهنئاً السلطان بفتح القدس، وهو مخيم عليه[1]:

وطَهَّرْتَهُ من رِجسهمْ بدمائهم
فأذهبتَ بالرِّجسِ الذي ذهبَ الرِّجْسا

نَزَعْتَ لباسَ الكفر عن قُدس أرضها ... وألبَستها الدِّين الذي كَشَفَ اللُّبْسا

وعادتْ ببيت الله أحكامُ دينه ... فلا بطركاً أبقيتَ فيها ولا قسًّا

وقد شاعَ في الآفاق عنك بشارةٌ ... بأنّ أذان الله قد أبطلَ النَّقْسَا

ويصور العماد هذا النصر حياة للهدى والايمان، وموتاً للكفر، وقمع طواغيته، يقول مخاطباً صلاح الدين، مشيداً به[2]:

وجاء عَصْرُك والأيامُ مقبلةٌ ... فكان فيه لفيض الكفر إنضابُ

نصرٌ أعادَ صلاحُ الدين رونَقَهُ ... ايجازه ببليغ القول إسهابُ

أحيا الهدى وأمات الشِّرْك صارمُهُ ... لقد تَجلَّى الهدى والشرك منجابُ

بفتحه القدس للإسلام قد فتحت ... في قمع طاغية الإشراك أبوابُ

ومثل ذلك قول الحكيم عبدالمنعم الجلياني[3]:

---

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٢، كتاب الروضتين ٢/١٠٢، عقد الجمان للعيني ٢٥/ حوادث سنة ٥٨٣ هـ، معجم الأدباء ١٩/٢٧، شفاء القلوب/ ١٥٠.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٧٥، سنا البرق الشامي/ ١٧٤، كتاب الروضتين ٢/١٠٢.

(٣) كتاب الروضتين ٢/١٠٣.

أضحى لنشر الهدى في فتح منهجه		وبات يطوى العدى في سَدّ ثغرتِهِ

وقول الحسن بن علي الجويني مصوراً أثر الفتح، ومشيداً بصاحبه[1]:

وهـذه سَنـةٌ أكـرم بهـا سَنـةً		فالكفـرُ في سِنـة والنصـرُ يقـظانُ

ويصـور ابن سنـاء الملك تخليص الإسلام مما كان يرزح تحته في ظل الاحتلال الصليبي، وعودة الحياة إليه، يقول مخاطباً صلاح الدين، مشيداً به[2]:

إنّ دينَ الإسـلام مَنَّ على الـخلـ		ـق وأنت الـذي على الـدّين مَنّـا
أنـتَ أحـييتـهُ وقـد كان ميتـاً		ثم أعـتـقـتـه وقـد كان قنّـا

ويصور ابن جبير الفتح القدسي ثأراً لدين الإسلام من أعدائه الصليبيين المحتلين الذين أرادوا استئصاله من جذوره، كما يبدو في قوله مخاطباً صلاح الدين[3]:

ثأرتَ لدّين الـهـدى في الـعِـدا		فآثـرك الله من ثائـر
فتـحـتَ الـمـقـدَّس من أرضـه		فعـادت إلـى وصـفهـا الـطاهـر
وجئـتَ إلـى قدسـه الـمُـرتَـضـى		فخـلـصـتـه من يد الـكـافـر
وأعـليتَ فيه منـارَ الـهـدى		وأحـييت من رسـمـه الـدائـر

ومـا أجمـل الأبيات التي يصـور فيها الرشيد بن بدر النابلسي آثار الفتح القدسي في نفوس المسلمين، فقد هدأت تلك النفوس واستقرت بعد أن ارتفع علم الايمـان عالياً فوق المسجـد الأقصى، وعادت حرية العبادة إلى سالف عهدها قبل الاحتلال، وأصبح البيت المقدس قبلة للمسلمين يقصدونه من كل حدب وصوب، وزالت آثار الشرك وأهله المحتلين، كما يبدو في قوله[4]:

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١٠٥.

(٢) ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت)/ ٨١٤، (ط مصر)/ ٣٤٠.

(٣) الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ـ القسم الثاني/ ٥٩٩، رحلة العبدري/ ٩٤، ٩٥، كتاب الروضتين ٢/١٠٦.

(٤) عقود الجمان للعيني ٢٥/حوادث سنة ٥٨٣ هـ، كتاب الروضتين ٢/١١٨، شفاء القلوب/ ١٦٦، ١٦٧.

الآن قَرَّتْ جُنوبٌ في مضاجعها ونامَ مَنْ لم يزلْ حِلْفاً له السَّهَرُ
الآن طاب إلى البيت المقدَّس كالـ ـبيت المحرّم إحرام ومعتمرُ
يا بهجة القُدْس أن أضحى به علم الـ ايمان من بعد طيّ وهو منتشرُ
يا نور مسجده الأقصى وقد رُفعتْ بعد الصليب به الآياتُ والسُّوَرُ
الله أكبر صوتٌ تَقشعرُّ له شُمُّ الذّرى وتكادُ الأرضُ تنفطرُ

ويصور ابن الساعاتي آثار الفتح القدسي عند المسلمين واعدائهم، وهي آثار تبدو متضادة، فقد نجمت عنه آثار سرت المسلمين، ولكنها ساءت الأعداء الصليبيين المحتلين، كما يبدو في قوله[1]:

تحلُّ به الأضدادُ واللفظُ واحدٌ فكمْ سَرَّ قلباً في الأنام وكم غَمّا
وتندى مغانيه وما جادها الحيا ولا سحبتْ ريحُ الصَّبا فوقها كُمّا

★ ★ ★

لقد كان هذا الفتح القدسي نصراً من عند الله، عز شأنه وعلا، وليست هذه الفكرة جديدة في فترة الحروب الصليبية، وهي فكرة تتردد في الشعر العربي منذ صدر الإسلام. وقد جاءت هذه الفكرة مرتبطة بالعقيدة الإسلامية، وما جاء في كتابها السماوي العظيم، مبيناً أن نصر المسلمين نصر من عند الله.

وتتردد هذه الفكرة في الأشعار القدسيات، ومن ذلك ما يقوله الحكيم عبدالمنعم الجلياني، في قصيدته الفتحية الناصرية[2]:

وأنجزَ الله للسلطان موعده ونَذْره في كفور دينه البطرُ

ويعد الجلياني هذا النصر معجزاً من ناحية، كما يعده مخلداً للفاتح صلاح الدين من ناحية أخرى، كما يبدو في قوله[3]:

أرى الله فيه معجز النصر مخلصاً لأمر صلاحِ الدِّين في الناس مخلدا

(١) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥.
(٢) كتاب الروضتين ٢/١١٧.
(٣) نفسه ٢/١١٨.

وهو النصر الذي وعد الله به رسوله. وعلى المسلمين أن يتوجهوا إلى خالقهم بالشكر، كما يبدو في قول محمد بن أسعد الحلبي المعروف بالجواني[1]:

قد جاءَ نصرُ الله والفتحُ الذي وُعدَ الرسولُ فسبحوا واستغفروا

ويتحدث الشعر عن مشاركة جند السماء في هذا الفتح القدسي، ومن ذلك ما يبدو في قول الحسن بن علي الجويني[2]:

جندُ السَّماءِ لهذا الملْكِ أعوانُ من شَكَّ فيهم فهذا الفتح بُرهانُ

ويصور القاضي الخطيب محيي الدين بن الزكي التوجه بالشكر إلى الله لما منحه من النصر العزيز، ويبدو جلياً في استهلال خطبته التي ألقاها في المسجد الأقصى بعد تحريره، بالشكر والتحميدات، وقد أطال في تحميداته، واستهلها بالفاتحة، واقتبس آيات قرآنية كريمة في مجال التحميد. ولم يقتصر على ذلك، فقد أورد تحميدات أخرى تناسب المقام الذي كان يتحدث فيه[3]. وقد كان المقام يستدعي الحمد حقاً، بعد أن طال أسر بيت المقدس، وأقصاه، وصخرته، وبعد أن يئس المسلمون من تحرير الأرض المقدسة من المحتل الصليبي.

★★★

ويصور الأدباء الفتح وقد عجزت الألسن عن إعطائه حقه لعظمته، فمهما دبجت الأشعار، والرسائل، والخطب، فإنها لن تستطيع إعطاءه حقه، كل ذلك على الرغم مما قيل من أشعار قدسيات، ورسائل مبشرات وقدسيات، وخطب قدسيات. ويقر الشعراء، والكُتّاب، والخطباء بعجزهم عن ذلك، فالعماد الأصفهاني يعده فتح الفتوح، ويصوره بأنه «قد تعالى أن يحيط به وصف البليغ نظماً ونثراً»[4]. ويصوره القاضي الفاضل «منقبة لا يبلغ إلى وصفها بلاغة موجزة

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١٠٥، دول الإسلام ٢/٩٥، تاريخ الخلفاء/ ٤١٨.

(٢) كتاب الروضتين ٢/١٠٤، وانظر ص ٥٠ من هذا البحث.

(٣) نفسه ٢/١١٠، ١١١.

(٤) نفسه ٢/٩٧.

ولا مسهبة»[1] كما يصوره بحراً «للأقلام فيه سبح طويل»[2].

وتتردد أصداء هذه الفكرة في الشعر في فترة الحروب الصليبية، وهي فكرة تتردد في شعر الحروب في العصر العباسي، عند أبي تمام، والبحتري، وأبي الطيب المتنبي. وتمثل هذه الفكرة تعظيماً للفتح الذي يتحدثون عنه، ويتغنون به. لقد وصف الرشيد بن بدر النابلسي الفتح القدسي فتحاً يجل عن قول كلّ أديب، كما يبدو في قوله معظماً الفتح القدسي[3]:

تجلُّ علياه عن مدحٍ يُحيط به ... وصفٌ وإن نظمَ المُداَّحُ أو نَثَروا

يا نعمةً كبرتْ عند الأنام له ... قَدْراً ففي كلِّ شكرٍ عندها صِغر

لا ترويَنْ لفتوحٍ بعدها قصصاً ... وإن تعاظمَ منها الخُبْرُ والخَبَرُ

ويعد العماد الأصفهاني القول البليغ في الفتح القدسي إسهاباً، كما يبدو في قوله[4]:

نصرٌ أعاد صلاحُ الدّين رونقه ... ايجازه ببليغ القول إسهابُ

★ ★ ★

وتصور الأشعار القدسيات الرباط المقدس بين الأماكن المقدسة في فلسطين والحجاز، الأقصى المبارك، والصخرة المشرفة، والمسجد الحرام، والمسجد النبوي، فالمسجد الحرام، والمسجد النبوي يتلقيان البشرى بخلاص المسجد الأقصى وتحريره، وإعادة إقامة الشعائر الإسلامية فيه، وعودة علم الايمان مرفرفاً فوق أعاليه. والحجر الأسود يتلقى التهاني بخلاص الصخرة المشرفة وتحريرها.

يصور القاضي الفاضل الحجر الأسود يهنىء الصخرة المشرفة بخلاصها

---

(١) كتاب الروضتين ٢/٩٩.

(٢) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٨، الدر النظيم/ ١٧، وفيات الأعيان ٧/١٨٠، صبح الأعشى ٦/٤٩٧.

(٣) عقد الجمان / حوادث سنة ٥٨٣ هـ، شفاء القلوب/ ١٦٦.

(٤) سنا البرق الشامي/ ١٧٤، كتاب الروضتين ٢/١٠٢.

وتحريرها، وبت عصمتها من العدو الصليبي حرباً[1].

ويصور العماد الأصفهاني المسجد الأقصى أخاً للمسجد الحرام، يقول: «فما أسّر البيتَ الحرامَ بفكاك أخيه من الأسر، وإجراء الإسلام فيه، لغسل أوضار الكفر»، وقد «عاد المسجد الأقصى إلى مداناة المسجد الحرام»[2].

وبعد الفتح القدسي، أحرم المسلمون من البيت المقدس إلى البيت العتيق، كما كانوا يحرمون منه قبل الاحتلال الصليبي أيضاً.

إن الرباط السماوي، والرباط الأرضي، بين الأماكن المقدسة في بيت المقدس، والأماكن المقدسة في بلاد الإسلام، يتمثل في تصوير بيت المقدس بأنه «المسجد الأقصى، المؤسس على التقوى، وهو مقام الأنبياء، وموقف الأولياء، ومعبد الأتقياء، ومزار الأبدال، وملائكة السماء. . .، ويتوافد إليه من أولياء الله بعد المعشر المعشر»[3]. وفيه الصخرة المشرفة والأقصى المبارك. وهو أولى القبلتين، وثاني البيتين، وثالث الحرمين، وإليه تشد الرحال، وهو «منزل الوحي، بمحل الإسراء، ومقر سيد المرسلين، وخاتم النبيين بمقام الرسل والأنبياء. . .، وأدام أهل الإسلام بشرف بيته مستمعين[4].

ويصور الأدب الاستجابة لنداءات الصخرة المشرفة التي طالما استصرخت بالمسلمين، فلبى صلاح الدين نداءاتها واستصراخها، يقول العماد الأصفهاني: «وقد كانت الصخرة مستصرخة، ومطايا الكفر بكلاكلها عليها منوخة، فأجيبت دعوتها، وأصيبت حظوتها. . .، ودنا المسجد الأقصي للقاصي والداني»[5]. ويصور أثر تخليصها مما كان يلحق بها في ظل الاحتلال، وتعلق نفوس المسلمين بها فيقول: «ولقد غُسلت من أردان الكفر وأدناسه، وطُهِّرت من أرجاس أنجاسه بمياه العيون التي قذيت، وصقلت بشفاه المؤمنين، وطالما

(١) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٠، الدر النظيم/ ١٨، وفيات الأعيان ٧/ ١٨٠، صبح الأعشى ٦/ ٤٩٧.

(٢) انظر: الروضتين ٢/ ٩٨، ٩٩.

(٣) انظر: الفتح القدسي/ ١٢٢، الروضتين ٢/ ٩٤.

(٤) كتاب الروضتين ٢/ ٩٦.

(٥) نفسه ٢/ ٩٧.

بأيدي الشرك صديت، وأُعيد إليها ذكر الله بعد طول الغربة، وتذكرت بصحبة الأولياء ما سلف لها في عهد الصحابة، رضي الله عنهم، من حسن الصحبة»[1].

وما أجمل الصورة التي يصور العماد بها الصخرة المشرفة وحنينها، كما يبدو في قوله: «وحنت الصخرة حنين جذع المعجزة الأولى في ظلمة ليلها إلى ذلك السراج الوهاج، والحمد لله على سلوك ما وضح من المنهاج، ونضوب ما كان نبع من الأجاج، وخلا بيت الله لقصد الحاج، وصدق الحاج مبشرة بما فضل الله به عصرنا، وعجل به نصرنا. . .» كما يقول[2].

لقد تردد صدى تخليص الصخرة المشرفة، والمسجد الأقصى المبارك، من الاحتلال الصليبي في الأعمال الأدبية، وتردد صدى تعلق المسلمين بهما في بلاد الإسلام، فالقاضي الفاضل يصور كيف خفقت أعلام المسلمين فوق الأقصى، والتقت قُبلهم على الصخرة، وقد أحسوا بالنشوة بالنصر، يقول: «واستقرت على الأعلى أقدامهم، وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قُبَلُهم، وشُفيت بها وإن كانت صخرة كما تُشفى بالماء غُللهم»[3].

لقد بدا الرباط جلياً بين الأماكن المقدسة في ديار الإسلام، وهو رباط سماوي، ورباط أرضي، ويعود ذلك إلى القدسية التي تتحلى بها الأماكن المقدسة لدي المسلمين، كما تقدم.

يصور الشعر بيت المقدس أرض المحشر، ومن ذلك ما يبدو في قول محمد بن أسعد الحلبي المعروف بالجواني، من قصيدة قالها بمناسبة الفتح القدسي[4]:

فُتح الشآم وطُهِّرَ القدس الذي ... هو في القيامة للأنام المحشرُ

---

(١) كتاب الروضتين ٢/٩٨، ٩٩.

(٢) انظر: نفسه ٢/٩٧، ٩٩.

(٣) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٠، الدر النظيم/ ١٨، وفيات الأعيان ٧/ ١٨٠، صبح الأعشى ٦/٤٩٧، ٤٩٨.

(٤) كتاب الروضتين ٢/١٠٥.

وتبدو هذه القدسية جلية في قول ابن جبير من قصيدة قالها مشيداً بالسلطان صلاح الدين، كماتقدم في قوله «فتحت المقدس من أرضه. . .»[1] :

ويربط الشعراء بين البيت المقدس والبيت الحرام، ويصورون قدسية كليهما، ويربطون بين الصخرة المشرفة والحجر الأسود، كما يربطون بين تخليص البيت المقدس وتحريره من الاحتلال الصليبي، وبين البيت الحرام وتخليصه من الأوثان وعبادتها، كما يبدو في قول العماد الأصفهاني، من قصيدة أنفذها إلى الخليفة الناصر بمناسبة الفتح القدسي في سنة ٥٨٣ هـ[2]:

فَفي موافقةِ البيت المقدَّس للـ بيت الحرام لناتيةٌ وإعجابُ
والصخر والحجر الملثوم جانبه كلاهما لاعتمار الخلق محرابُ
نَفى من القُدس صلباناً كما نُفيتْ من بيتِ مكة أزلامٌ وأنصابُ

ويصور ابن الساعاتي ما أحست به مكة والمدينة بالفتح القدسي، كما يصور الضريح النبوي جذلاً بالفتح، يقول[3]:

حَبَا مكةَ الحُسْنى وثَنّى بيثربٍ وأطربَ ذيّاك الضّريحَ وما ضما

وتتردد مثل هذه المعاني الدينية في قصيدة أُخرى لابن الساعاتي يشيد فيها بصلاح الدين، ويصور ما شعر به البيت العتيق إزاء الفتح القدسي، وما شعرت به مدينة الرسول، ﷺ، كما يبدو في قوله[4]:

أحسنتَ بالبيت العتيق ويثربٍ ولك الفعالُ كثيرةٌ حسناتُهُ
هذي سيوفُك مُحرماتٌ دونه لبكائهن تَبسمتْ حُجراتُهُ

وبهذا الفتح القدسي جمع السلطان صلاح الدين بين الصخرة المشرفة، وبين مواضع المناسك ومشاعرها في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، كما يبدو في قول الشاعر فتيان الشاغوري، من قصيدة يمدح بها السلطان، «ويذكر ما

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١٠٦. وانظر ص ٦٠ من هذا البحث.
(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٧٥، ٧٦، كتاب الروضتين ٢/١٠٢، ١٠٣، سنا البرق الشامي/ ١٧٤.
(٣، ٤) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤١٠، كتاب الروضتين ٢/١٠٦.

منحه الله من الفتح المبين، والنصر العزيز»، بمناسبة الفتح القدسي»[1]:

ورددتَ دين الله بعد قطوبِهِ ... بالمسجد الأقصى بوجهٍ مُسْفِرِ
حتى جمعت لمعشر الإسلام بيـ ... ـن الصخرة العُظمى وبين المشعَرِ
فكأنه إنسانُ عينٍ صورةً ... يَلقاك أسودُه بمعنى أنْوَرِ

* * *

وكان من آثار الفتح القدسي فكرياً أن عاد المسجد الأقصى إلى أداء دوره في الحياة الفكرية، وذلك كما فصلت القول فيه في كتابي «الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي»[2]. وأنشئت المدارس، والزوايا، والخوانق، والرباطات. وقد قامت بأداء دورها في الحركة الفكرية في بيت المقدس، وذلك كما فصلت القول فيه أيضاً في كتابي «المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي، دورها في الحركة الفكرية»[3].

يصور العماد الأصفهاني المسجد الأقصى وقد أُقصي منه الصليبيون المحتلون، و«سكن العلماء والفقهاء» مكانهم الذي كانوا يحتلونه. يقول: «ودُرِّس فيه الخلاف والمذهب، والحمد لله الذي تسنى بفضله هذا المطلب»[4]. يُضاف إلى هذا ما تقدم من تصويره للحركة الفكرية في بيت المقدس بعد الفتح القدسي في سنة ٥٨٣ هـ.

وفي حديثه عن «وصف الصخرة المعظمة»، يصور كيف «رتب السلطان في قبة الصخرة إماماً من أحسن القراء تلاوة. . .، وأعرفهم بالقراءات السبع بل العشر». كما يصور بعض مجالس صلاح الدين مع العلماء والأتقياء في بيت المقدس، وإنشاء المدرسة الصلاحية وغيرها من المدارس هناك. ومما يصور هذا الأثر في المجال الفكري قول العماد: «. . . فما ترى إلا قارئا باللسان

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٣، كتاب الروضتين ٢/ ١١٩.

(٢) انظر: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي.

(٣) انظر: المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي.

(٤) كتاب الروضتين ٢/ ٩٨، ٩٩.

الفصيح، وراوياً للكتاب الصحيح، ومتكلماً في مسألة، ومتفحصاً عن مشكلة، ومورداً لحديث نبوي، وذاكراً لحكم مذهبي، وسائلاً عن لفظ لغوي، ومعنى نحوي، أو مُقرِّضاً بقريض . . . »[1].

★★★

ويصور الشعر تحرير بيت المقدس، وغيرها من بلاد الإسلام، عامل أمن واستقرار. ومن ذلك ما نجده في شعر ابن الساعاتي، إذ يتحدث عما نجم عن الفتح القدسي من نشر للأمن، يقول من قصيدة يمدح فيها صلاح الدين، عند فتح القدس، في سنة ٥٨٣ هـ[2]:

لقد سَكَّنَ الدهياءَ أمناً وغبطةً　　فهل كان لفظاً سار أو عسكراً دُهما

ويتحدث الأدب عن إلغاء المكوس، وقد كان الغاؤها عاملاً مشجعاً للمشتغلين بالتجارة. يشير العماد الأصفهاني إلى إطلاق صلاح الدين المكوس، كما يبدو في قصيدة قدسية قالها مهنئاً بفتح القدس، وكان صلاح الدين مخيماً هناك، وفيها يصور بعض ما لحق بالعدو الصليبي إثر الفتح القدسي[3]

فكيف مَكَسْت المشركين رؤوسَهُمْ　　ودَأْبُك في الإحسان أن تُطلق المكْسَا

وكان العماد نفسه قد تحدث في حوادث سنة ٥٧٤ هـ، عما أسقطه السلطان صلاح الدين من «مكس مكة عن الحاج»، وقد اغتبطت النفوس بذلك[4]. ويصور القاضي الفاضل أثر ذلك في النفوس أيضاً، ويربط بين صنيع صلاح الدين والحديث عن بيت المقدس وتحريره من الاحتلال الصليبي. ويبدو ذلك جلياً في حديثه عن «انقطاع المكاسين عن جدة، وعن بقية السواحل»، ثم يقول مخاطباً صلاح الدين: «وغير خافٍ عن مولانا همة الفرنج

---

(١) الفتح القدسي/ ١٤١، ١٤٢، ١٤٥، ١٥١.

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥، الغيث المسجم ٢/٣٣.

(٣) كتاب الروضتين ٢/١٣.

(٤) كتاب الروضتين ٢/٣، النجوم الزاهرة ٦/٢٧٨، شفاء القلوب/ ٩٣.

بالقدس براً وبحراً، ومركباً وظهراً، وسلماً وحرباً، وبعداً وقرباً، وتوافيهم على حماسة، وهو أنف في وجه الإسلام، ومسارعتهم إلى نصرة أهليه بالأرواح والأموال على مر الأيام، ومعاذ الله أن يستبصروا في الضلال، ونُصرف نحن عن الحق، ويضيق بنا في التوسعة على أهله سعة المجال»[1] كماتقدم .

ويتحدث ابن جبير عن صنيع صلاح الدين هذا، يشيد به، ويعد صنيعه من المفاخر «المُزلفة من الله تعالى» . وفي هذا يقول شعراً من قصيدة يمدح فيها صلاح الدين[2] :

رفعتَ مغارمَ مكس الحجا ... ز بإنعامك الشامل الغامِرِ
وأمَّنْتَ أكناف تلك البلا ... د فهان السبيل على العابِرِ
وسحبُ أياديك فياضةٌ ... على واردٍ وعلى صادرِ
فكم لك بالشرق من حامدٍ ... وكم لك بالغرب من شاكرِ

ويتحدث ابن جبير في قصيدته هذه عن الزكاة، وما قد يلحق من مخالفة في تطبيق هذا الواجب على المسلم، يقول[3] :

ألا ناصحٌ مُبْلغٌ نُصحَهُ ... إلى الملك الناصر الظافرِ
ظلوم تَضَمَّنَ مالَ الزكا ... ة لقد تَعِسَتْ صفقةُ الخاسرِ
يُسِرُّ الخيانة في باطنٍ ... ويُبّدي النصيحةَ في الظاهرِ
فَأَوْقِعْ به حادثاً إنّه ... يُقَبِّحُ أحدوثةَ الذاكِرِ
فما للمناكير من زاجرٍ ... سواك وبالعرف من آمرِ
وحاشاك إن لم تُزِلْ رسمها ... فمالك في الناس من عاذرِ
ورفعك أمثالها موسع ... رداء فخارك للناشرِ

---

(1) انظر: الروضتين ٢/٣، ٤ .

(2) الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ـ القسم الثاني/ ٦٠٠، رحلة العبدري/ ٩٥، كتاب الروضتين ٢/٤، نفح الطيب ٢/٣٨٣.

(3) الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ـ القسم الثاني/ ٦٠١، رحلة العبدري/ ٩٥، ٩٦، كتاب الروضتين ٢/٤ .



صورة فاتح بيت المقدس

لقـد أصبـح ذكر صلاح الدين الأيوبي خالداً بتحريره بيت المقدس في سنة ٥٨٣ هـ، من الاحتلال الصليبي. ويتمثل ذلك في مظاهر ومجالات عديدة، ومن أهمها الصدى المتمثل فيما صُنف حول سيرته وجهاده من المصنفات، وما أُنشيء من الرسائل والخطب، وما أُنشد من الشعر الكثير، من مبشرات وقدسيات.

لقد صنفت مصنفات عديدة حول سيرة صلاح الدين وجهاده، ومن أهمها ما صنفـه معـاصـره القاضي بهاء الدين يوسف بن شداد، وهو كتاب «النوادر السلطانية والمحـاسن اليوسفية». ومثله معـاصره العماد الأصفهاني في كتابه «الفيح القسي في الفتـح القـدسي». وكتـابـه «البـرق الشامي»، ففي أولهما يتحدث عن جهاده بين سنتي ٥٨٣ هـ و ٥٨٩ هـ. ويعد ثانيهما تاريخاً لصلاح الـدين. ومنها كتاب«الروضتين في أخبار الدولتين»لأبي شامة المقدسي. وفيه يتحـدث عن الـدولتين الزنكية، والصلاحية. ومنها كتاب «السيرة الصلاحية» ليحيى بن أبي طي الحلبي، وهو كتاب لم يصل إلينا. وصنفت كتب خاصة في سيرته، وسيرة أهل بيته عامة، ومنها: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل الحموي، و«ترويح القلوب في أخبار بني أيوب» للمرتضى الزبيدي، و«شفاء القلوب» في مناقب بني أيوب لأحمد بن ابراهيم العسقلاني الحنبلي، و«أخبار الأيوبيين» للمكين جرجيس بن العميد، و«الدر المطلوب في أخبار بني أيوب» لعبدالله بن أيبك الدوادار.

وسـأركـز في تبين صورة الفـاتـح على الأشعـار القـدسيات، والـرسائل القدسيات والخطبة القدسية دون غيرها. وإذا ما استشهدت بما ورد في المصادر التاريخية، فليس ذلك إلا للتحقق مما ورد في الشعر، والرسائل، والخطبة، حول صورة صلاح الدين، والموازنة بين ما ورد في الشعر، وما ورد في التاريخ.

أنشئت رسائل قدسية كثيرة حول الفتح القدسي، وقد تحدثت عن الفاتح،

ومنها رسائل القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير.

وأما الخطب القدسية، فقد كان من المتوقع أن تكون كثيرة، ولكنه لم يصل إلينا منها سوى خطبة واحدة للقاضي ابن الزكي، في سنة ٥٨٣ هـ.

وفي مجال الشعر، تغنى الشعراء بالانتصارات التي أحرزها المسلمون بقيادة صلاح الدين، وعلى رأسها فتح بيت المقدس. ومن أولئك الشعراء العماد الأصفهاني، وابن سناء الملك، وابن الساعاتي، وعبدالمنعم الجلياني، والرشيد بن بدر النابلسي، وفتيان الشاغوري، وغيرهم. وتجدر الإشارة إلى أن الجلياني أنشأ دواوين شعرية خاصة ببيت المقدس، وبالفاتح السلطان صلاح الدين، ومنها «ديوان المبشرات والقدسيات» و«ديوان التدبيج» أو «ديوان المدبجات» أو «منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في مدى ذكر الملك الناصر» السلطان صلاح الدين. وسأتحدث عن هذه الدواوين بالتفصيل في بحث خاص بعبدالمنعم الجلياني في مبشراته وقدسياته، كما تقدم.

يوصف صلاح الدين بأنه «منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين، خادم الحرمين الشريفين»[1]. يصفه العماد الأصفهاني فيقول: « . . . وهو الذي ملك ملوك الشرق وغل أعناقها، وأسر طواغيت الكفر وشد خناقها، وقطع أصلابها، وجمع كلمة الإيمان وعصم جنابها، ونظم أسبابها»[2].

كان صلاح الدين مهتماً بالجهاد في سبيل الله. وقد قضى حياته مجاهداً للحفاظ على الإسلام والمسلمين. و«كان الجهاد وحبه، والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا كان له اهتمام الا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره، ويحث عليه»[3]. ويبين القاضي الفاضل أن الجهاد في سبيل الله كان من أهم

(١) النوادر السلطانية/ ١٣.

(٢) العتبى والعقبى (عن الروضتين) ٢/ ٢٢٥.

(٣) انظر: النوادر السلطانية/ ٢١، ٨٦، كتاب الروضتين ٢/ ٢٢١، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٢٧.

مقاصده ومراده. ويصوره متأهباً «للخروج نحو الكفار، لا تسأم رايته النصب، ولا جهـة سيره الرفع، ولا جيشه الجر، ولا يصغي إلى قول خاطر الراحة . . . ، ولا يجيب دعـوة الفـراش الممهـد، ولا يعرج على الظل المدد، ولا دمية القصر المشيد» كما جاء في رسالة كتبها في سنة ٥٧٩ هـ[١]. ويصوره، في المنشور الـذي كتبـه على لسان الإمام العاضد الفاطمي، في سنة ٥٦٤ هـ، مجاهداً ويحثـه على الجهـاد لتحرير بيت المقدس وغيره من بلاد الإسلام المحتلة، يقول: «والجهاد أنت رضيع دره، وناشئة حجره، وظهور الخيل مواطنك، وظلال الخيل مساكنك، وفي ظلمات قساطله تجلى محاسنك، وفي أعقاب نوازله تُتلى مناقبك، فشمر عن ساق من القنا، وخض فيه بحراً من الظبا . . . ، وأسل الوهاد بدم العدى، وارفع برؤوسهم الربا، حتى يأتي الله بالفتح . . . »[٢].

كان صلاح الدين يرى أن الجهاد فرض، وكان واثقاً من النصر، يقول: «قد أمرنا الله بالجهاد لأعداء الدين، وافترضه علينا، فنحن قائمون في طاعته بأداء ما افترض علينا من الجهاد، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد، ولو اجتمع علينا أهل الأرض، لتوكلنا على الله تعالى»[٣].

لقد تمثلت أهداف صلاح الدين في توحيد بلاد المسلمين، والجهاد ضد العدو المحتل، ويُصور السلطان في عنايته بالجهاد بأنه كان يتحدث مع جلسائه في «ذكر فضائل الجهاد، وفرائض التأهب له». ولما مرض في سنة ٥٨١ هـ، نذر أنه إن خلصه الله من مرضه «اشتغل بفتح البيت المقدس، ولو ببذل نفائس الأموال والأنفس، وأنه لا يصرف بقية عمره إلا في قتال أعداء الله، والجهاد في سبيله، وإنجاد أهل الإسلام، والإقبال على قبيله «كما يقول العماد الأصفهاني»[٤].

---

(١) كتاب الروضتين ٤٨/٢.

(٢) نفسه ١٦١/١.

(٣) مفرج الكروب ٢٦١/٢، كتاب الروضتين ١٢٩/٢.

(٤) كتاب الروضتين ٦٥/٢. شعلة الإسلام/١٣٤.

ويصور القاضي الفاضل السلطان «آخذا في أسباب الجهاد»، ويبين أن تكاليف الجهاد قضت بـ «فتح الفتوح العظام في أقل الأيام، وفصل القضية بين أهل الإسلام» وأعدائه، ويهنئه القاضي الفاضل، بما فتح الله عليه من محبة الجهاد[1].

كان بعض المسلمين يصفون السنة المجدبة بأنها ليست سنة جهاد، ولكن صلاح الدين كان مستعداً للجهاد في كل الأوقات، حتى في السنة المجدبة، قيل لصلاح الدين، وقد قصد حصار حصن بيت الأحزان في سنة ٥٧٤ هـ: «ليس هذه سنة جهاد، فإن استمنحوك السلامة فامنح، وإن جنحو للسلم فاجنح، فقال السلطان: إن الله أمر بالجهاد، وكفل بالرزق، فأمره واجب الامتثال، ووعده ضامن الصدق، فنأتي بما كلفنا لنفوز بما كفله، ومن أغفل أمره أغفله»[2].

وكان صلاح الدين صابراً محتسباً في الجهاد، كما كان صابراً محتسباً في غير ذلك من الأمور[3].

★ ★ ★

يعبر الأدباء: شعراؤهم، وكتابهم، وخطباؤهم عن هذا الرمز البطولي، في أدبهم القدسي الجهادي.

لقد تغنى شعراء العصر ببطولة صلاح الدين، من أمثال ابن سناء الملك، وابن الساعاتي، والعماد الأصفهاني، والرشيد النابلسي، وعبدالمنعم الجلياني، وفتيان الشاغوري وغيرهم. ويصور الشعر صلاح الدين مجاهداً في سبيل الإسلام، ملبياً داعي الجهاد، دون غيره من الملوك الذين كانوا صُمّاً، لم يصغوا إلى استغاثة الإسلام، وبهذا استطاع أن يطهر القدس، ويخصلها مما

---

(١) كتاب الروضتين ٢/٢، ٣، ١٩.

(٢) نفسه ٢/٥، ٦.

(٣) انظر: النوادر السلطانية/ ٢٤ ـ ٢٧، الروضتين ٢/١٨، مضمار الحقائق/ ١٤١، ١٤٤، النجوم الزاهرة ٦/١١، شفاء القلوب/ ٦٤.

كانت ترزح تحته من احتلال، كما يبدو جلياً في قول أبي علي الحسن بن علي الجويني[1]:

هذا وكم مَلِك من بعده نظر الإسـ ـلام يُطوى ويحوى وهو سكرانُ
تسعونَ عاماً بلادُ الله تصْرُخ والـ إسلامُ أنصارهُ صُمٌّ وعميانُ
فالآن لَبّى صلاحُ الدين دعوتهم بأمر من هو للمعوانِ معوانُ
في نصفِ شهرٍ غدا للشرْك مصطلماً فطُهِّرتْ منه أقطارٌ وبُلدانُ

ويفضل الشعراء صلاح الدين على غيره من الملوك الآخرين الذين لم يخلصوا لدينهم، ولا لوطنهم، ولم تكن تهمهم إلا ذواتهم ومصالحهم، كما يبدو في قول ابن الساعاتي، من قصيدة قالها في فتح طبرية[2]:

يقاتلُ كلُّ ذي مُلْكٍ رياءً وأنتَ تُقاتلُ الأعداء دينا

ومثله قول ابن سناء الملك من قصيدة يمدح فيها صلاح الدين، ويهنئه بالنصر[3]:

قد تَعنيتَ حين أحببت وجه الـ له بالحرب والمحبُّ مُعنّى

وبهذا قضى صلاح الدين على جحافل جيش العدو المحتل، كما يبدو في قول ابن الساعاتي[4]:

أمُشَتِّتَ الأعداءِ وهي جحافلٌ عن شَمْلِ دين جُمعتْ أشتاته

وتصوره الأشعار القدسيات محيياً للهدى، ومميتاً للضلال، فقد أعاد شعائر الدين كما كانت قبل الاحتلال الصليبي، وقمع الشرك وأهله، ولذا فهو جدير بالثناء والتمجيد، كما يبدو في قول ابن سناء الملك[5]:

إنَّ دينَ الإسلامِ مَنٌّ على الخلْـ ـق وأنت الذي على الدّين مَنّا
أنتَ أحْييتَهُ وقد كان مَيتاً ثم أعْتقْتَهُ وقد كان قِنّا

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١٠٥.
(٢) ديوان ابن الساعاتي/ ٤٠٦.
(٣) ديوان ابن سناء الملك (ط مصر)/ ٣٤٠.
(٤) ديوان ابن الساعاتي ١/٦٤، ٢/٤١٠، كتاب الروضتين ٢/١٠٦.
(٥) ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت)/ ٨١٣، ٨١٤ وانظر ص ٥٩ من هذا البحث.

شكَــرَ الله ما صَنعْـتَ على العَــرْ ش وفي عَرْصَــةِ المــلائــكِ أثنى
لك مدحٌ فوقَ الــسمــوات يُنْشَــا ومــحــلٌ فوق الأسِــنَّــةِ يُبــنى

وتصوره ثائـراً-قد أخـذ بالثـأر من أعداء دينه، ونصر الله، وجاهد صابراً محتسبـاً، فكانت تسميته الملك الناصر، ويوازن بينه وقد نذر نفسه للجهاد، وبين غيره من الملوك الذين آثروا راحتهم وملذاتهم، كما يبدو في قول ابن جبير[1] :

وقــمْــتَ بنــصــرِ إلــه الــورى فسَــمَّــاك بالــمــلِك الــنــاصــرِ
وجــاهــدتَ مجــتــهــداً صابــراً فلله دَرُّكَ من صابــرِ
تبــيتُ الــمــلوك على فُرْشِــهــا وتَــرفُــلُ في الــزَّرَدِ الــســابــرِ
وتــؤثِــرُ جاهــدَ عين الجهاد مَنْ على طيب عيشــهــمُ الــنــاضــرِ
وتَــسْــهَــرُ لَيْلك في حقِ مَنْ سيرضيك في جَفْــنــك الســاهــرِ

وتصوره وقد انتصف للدين الإسلامي من العدو الصليبي المحتل، وبذا قويت أركـان الملة المحمـدية كمـا يقـول نجم الدين يوسف المعروف بابن المجاور، ويصوره والداً للدين عطوفاً بأبنائه[2] :

شُدَّتْ قُوى أركــانِ ملةِ أحــمــد وَتَــحــمَّــلَتْ بجهــاده في المــوقفِ
مولــيً غدا للدّين أكــرم والــدٍ حَدِبٍ على أبــنــائــه مُتَــرفِّــرفِ
وعــليه أُنْــزِلَ في الجهــاد مُفصَّــلٌ فلذاكَ يَقْــرأه بســبــعــةِ أحــرُفَ

وما أجمل قول نجم الدين بن المجاور، وهو يصور صلاح الدين محيياً دين محمد، وساتره «من بعد طول تكشف» في اثناء الاحتلال الصليبي، ويصوره كيف قاد حركة الجهاد، وضبطها بالسيف، والعزم، والرأي، كما يبدو في قوله[3]:

---

(١) كتـاب الـروضتين ٢/١٠٦، الـذيل والتكملة ـ السفر الخـامس ـ القسم الثاني/ ٥٩٨، ٥٩٩، رحلة العبدري/ ٩٤، ٩٥.

(٢، ٣) كتاب الروضتين ٢/١٠٣، ١٠٤.

وضَبَــطْتَ ديوانَ الجهـــادِ بعـامـلٍ من عامـــلٍ وبمشـرفٍ من مشـرفي
ويـجهبــذ العَــزْمِ الـــذي لا ينثني وبنـــاظـــرِ الـــرأي الـــذي لم يطرف

ويصور الشعر صلاح الدين مجاهداً في سبيل تحرير مدينة بيت المقدس خاصة، وأنه هو الجدير بتحريرها دون غيره من ملوك المسلمين، وقد طهرها من الاحتلال، ورفع فيها شعار الدين، ونزع شعار الكفر ورموزه، كما يبدو في قول العماد الأصفهاني، من قصيدة هنأ بها صلاح الدين بالفتح القدسي، وهو مخيم عليه[1]:

فلا يَسْتَحِقُّ القُدْسَ غيرُكَ في الورى فأنتَ الـذي من دونهم فَتَحَ القُدْسا
ومِنْ قبل فَتْح القُدْسِ كنتَ مقدَّساً فلا عدمتْ أخـلاقُك الطُهْرَ والقُدْسَا
وطَـهَّـرْتَـهُ من رجـسهمْ بدمــائهمْ فأذهبتَ بالرِّجْس الذي ذهب الرِّجْسَا
نَزَعْتَ لبـاسَ الكُفْر عن قُدْسِ أرضها وألبَسْتَهـا الدِّينَ الذي كَشَفَ اللُّبْسَا
وعــادتْ ببيت الله أحكـــامُ دينــه فلا بَطْرَكـــاً أبـقيتَ فيهـــا ولا قسَّـــا

وبالفتح القدسي العظيم، أحرز صلاح الدين المآثر والمفاخر، وهو الذي آثره الله بهذا الفتح، كما يبدو في قول الشاعر فتيان الشاغوري[2]:

مَضَت الملوكُ ولم تَنـلْ عُشـرَ الذي أُوتـيتَــهُ من مَنْـجـحٍ أو مَفْـخـر
وبــذاك آثَــركَ الإلــهُ عليهــمُ يا مُؤْثـراً أُوزعـتَ شكـر الـمـؤثـرَ

ويصـور فتيان الشـاغـوري تحـرير بيت المقدس، وتطهيره بقيادة صلاح الدين، كما يبدو في قوله[3]:

لِمَ لَمْ تَدنْ شُوسُ الــمـلوكِ وقــد مَلَكَ الســواحُــل في ثلاثـةِ أشهـرِ
واسْـتنفــذَ البيتَ المقــدَّس عنــوَةً من كلِّ ذي نَجِسٍ بكــلِّ مطهَّــرِ

ويصـــور الحكيم عبــدالمنعم الجلياني صلاح الــدين فاتحـاً المسجـد الأقصى، ومنقذاً القـدس من الجبابرة المحتلين[4].

(١) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٢، كتاب الروضتين ٢/١٠١، ١٠٢، عقد الجمان للعيني ٢٥/ حوادث سنة ٥٨٣ هـ، شفاء القلوب/ ١٥٠.

(٢) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٦.

(٣) ديوان فتيان الشاغوري ٢/١٤١. (٤) نظر: كتاب الروضتين ٢/١٠٣.

وبهذا وصل صلاح الدين إلى تحقيق الآمال التي كان يسعى إلى تحقيقها، كما كان المسلمون يسعون إلى تحقيقها، يقول ابن الساعاتي في قصيدة يمدح بها الناصر صلاح الدين بمناسبة الفتح القدسي[1]:

وَصولٌ إلى الغاياتِ والفكرُ قاصرٌ فكيفَ يفوتُ السَّبْقَ من ركبَ العَزْما
ففي لَهواتِ الشِّرك أرسلها شجىً وفي جبهةَ الأيام غادَرَها وَسْما

ويصور العماد الأصفهاني الزمان مفتخراً بعصر صلاح الدين وفتوحاته التي كانت مقدمة للفتح القدسي[2]، ويتغنى الشعراء بتلك الانتصارات والفتوحات، وتتردد أصداؤها في أشعارهم[3].

★★★

تصور الاشعار القدسيات السلطان صلاح الدين ربَّ الملاحم التي تفوق غيرها من الملاحم، وهو الذي بنى دولته بالسيوف، والرماح، وباقتحام المهالك، فدانت له شوس الملوك، واستنقذ البيت المقدس، وملك السواحل، في ثلاثة شهر، وهو الذي عفر تيجان الملوك في التراب، وأذل كل أصعر منهم، ونصر الإسلام، ووأد الشرك، كما يقول الشاعر فتيان الشاغوري مخاطباً صلاح الدين[4]:

بالسيفَ ردَّ السيفُ بحراً من دمٍ ينبوعُهُ من هامةٍ أو مَنْخَرِ
بحرٌ صوارمُهِ القَنَا وقُلوعه راياتُه والسُّفْنُ كلُّ مُضمَّرِ
أرسلتَ من خلل العجاج صواعقاً تَهمي عليهم من فتوق كنهوَرِ[5]

(١) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥.

(٢) انظر: النوادر السلطانية/ ٤٣٨، الروضتين ٢/٩٩، الكامل ١١/٣٦٥، ٥٢٩ - ٥٥٨، ١٢/٥ - ٢٣، ٥٢٧ - ٥٣١، النجوم الزاهرة ٦/٣٥ - ٤٣، طبقات الشافعية الكبرى ٧/٣٤٥ - ٣٤٧، ٨/١٨٦ - ١٨٨، حسن المحاضرة ٢/١٧، ١٨، شفاء القلوب/ ٦٠، ٩٩، ١١٨، ١٢٢ - ١٢٦، ١٥٣، شعلة الإسلام/ ١١٨ - ١١٩.

(٣) انظر: ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٨، مفرج الكروب ٢/٢٠٠، كتاب الروضتين ٢/٨٥، ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٢، ٢٣٣، الروضتين ٢/١٠٢.

(٤) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٦.

(٥) كنهور: قطع من السحاب كالجبال، أو المتراكم منه.

أغلى الأداهم من أَسَرنَ وأرخِصتْ بيضُ الصوارم من نهاب العسكَر
وجعلتَ شرقَ الأرض يَحْسُدُ غَرْبها بك فهو داع دعوة المستنصر

ويصور الشاعر عبدالمنعم الجلياني ملاحم صلاح الدين، وقد أنست ملاحم ذي القرنين(١). كما أنسى عزمه عزم ابن مرداس، كما يبدو في قول الشاعر نجم الدين بن المجاور(٢):

عزمٌ وحلمٌ أنسيامـا كان من عَزْمِ ابن مرداس وحلم الأحنفِ
يا أيُّها الملكُ الذي لطباعِه وسيوفِه خُلقا رضى وتعسفِ
سَنتْ سيوفُك في الرؤوس ختانةً ذهبتْ بمهجةِ كلِّ علجٍ أقْلفِ(٣)

ويصوره العماد الأصفهاني يطرب لمقارعة السيوف في المعركة، كما يبدو في قوله(٤):

قَرْعُ الظُّبى بالظُّبى في الحرب يُطربُهُ لا قينةٌ صَنَعٌ باللّحن مِطرابُ

ويصوره ابن الساعاتي صاحب العزمات القوية التي جاءت بالفتح القدسي المبين، كما يبدو في قوله، في فتح طبرية(٥):

جَلَتْ عَزَماتُك الفَتْحَ المبينا فقد قَرَّتْ عيونُ المسلمينا
لقد جَرَّدْتَ عَزْماً ناصريّاً يُحدِّثُ عن سناه طورُ سينا
وأذعنَ كوكبٌ لما تَهادتْ نجومُ ملوكها لك مُذْ عنينا
فكنت كيوسف الصدّيق حقاً له هوت الكواكبُ ساجدينا

وهي عزمات مسددة في الحروب كما يقول ابن الساعاتي(٦)، وهي عزمات

---

(١) انظر: الروضتين ١١٦/٢ ـ ١١٧.

(٢) نفسه ١٠٣/٢، ١٠٤.

(٣) الأقلف: من لم يختتن.

(٤) ديوان العماد الأصفهاني/ ٧٥، كتاب الروضتين ١٠٢/٢.

(٥) ديوان ابن الساعاتي ٤٠٦/٢، مفرج الكروب ١٩٨/٢، كتاب الروضتين ٨٤/٢، النجوم الزاهرة ٣٤/٦، مرآة الزمان ١٥٢/١٤، شفاء القلوب/ ١٢٦.

(٦) انظر: ديوان ابن الساعاتي ٦٤/١، ٤١٠/٢، الروضتين ١٠٦/٢

تقود إلى النصر كما يقول العماد الأصفهاني في قدسيته التي هنأ بها السلطان بالفتح، وهو مخيم في القدس[1]:

كسرتهمُ إذ صَحَّ عَزْمُك فيهمُ ونكّستَهُمْ إذ صارَ سهمهمُ نكْسَا
بواقعةٍ رَجَّتْ بها الأرض جيشهمْ دماراً كما بست جبالهم بَسَّا

ويصور ابن الساعاتي سطوات صلاح الدين كما يبدو في قوله[2]:

سَلوا الساحل المخشيَّ عن سَطواتِهِ فما كان إلا ساحلاً صادفَ اليمَّا

ويصوره عبدالمنعم الجلياني صاحب العزمة القصوى والرمية المقصدة، وبها كان فتح الفتوح العظمى، ويصوره أسداً منتصراً، كما يبدو في قوله[3]:

أهوى إليهم صلاحُ الدِّين مفترساً وهو الغضنفر عدّى ظفرهَ الظَفَرُ

ومثله قول ابن جبير[4]:

وكَمْ لك من فتكةٍ فيهمُ حَكَتْ فتكةَ الأسَدِ الخاترِ

وقول عبدالمنعم الجلياني[5]:

لكنَّ بأسَ صلاح الدِّين أذهلهمْ بوقعةِ التَّلِّ واستشراء سَوْرَتِهِ
يُعيي الجوارحَ والفرسانَ وهو على بدء النشاطِ عشياً مثل بكرته

قاد السلطان صلاح الدين المسلمين إلى النصر في الكثير من المعارك ومنها «حطين» التي قاد صلاح الدين المسلمين فيها إلى النصر، وهي المعركة التي كانت مقدمة للفتح القدسي. ومن الشعراء الذين خصوها بعنايتهم الشاعر الحكيم عبدالمنعم الجِلياني. يقول في قصيدته التي سماها «القصيدة الفتحية الناصرية»[6]:

يا وقعَةَ التَّلِّ ما أبقيتِ من عَجَبٍ جحافلٌ لم يَفُتْ من جَمعها بَشَرُ

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٤، كتاب الروضتين ٢/ ٨٣.
(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٦.
(٣) كتاب الروضتين ٢/ ١١٦.
(٤) الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ـ القسم الثاني/ ٥٩٨ ـ ٦٠١، رحلة العبدري/ ٩٤ ـ ٩٦كتاب الروضتين ٢/١٠٦.
(٥) كتاب الروضتين ٢/ ١٠٣.
(٦) نفسه ٢/١١٦.

ويا ضُحى السبتِ ما للقوم قِد سَبَتُواْ تهـوّدوا أم بكأسِ الطّعن قد سَكِروا
ويا ضريحَ شُعَيب ما لهـم جثمـوا كَمـدْينَ أم لقُـوا رَجْفـاً بمـا كفـروا
حطُّوا بحـطين ملكـاً كافياً عجبـاً في ساعـةٍ زالَ ذاك المُلْكُ والقَـدَرُ

ويقـول الجلياني في قصيدتـه القدسية الكبرى، مصوراً ما لحق بجبابرة الفرنج، والمصير الذي آلوا إليه، بعد وقعة يوم التل، وهي الملحمة التي يفضلها على غيرها[1]:

ومـا طَرَقَ الأسمـاعَ من عهـد آدم كملحمـة التـلّ التي تلت العِـدا
أتـوا وادياً ما زال ينـفـي خبـائثـاً ويصفى بعقبي الـدار طائفـة الهدى
به جَثَمتْ أصحـابُ لَيْكـةَ وهي في ذُراه وذَا فيه شعـيب تأيّدا

ويصورها العماد الأصفهاني معركة حاسمة قضى فيها صلاح الدين على الكفر وأهله، ويشيد فيها بالسلطان وفرسانه[2]:

سَحَبْتَ على الأرْدُنّ رُدْنـا من القنـا رُدَّيْنـيّةً مُلْداً وخَـطية مُلْسَـا
حَطَطْتَ على حِطينَ قَدْرَ مُلوكـهـمْ ولم تُبْقِ من أجنـاسِ كُفـرِهمُ جِنْسا
ونعمَ مجـالُ الخيلِ حِطينُ لم تكنْ معـارُكهـا للجُـرْد ضَرْسـاً ولا دَهْسَـا
غداةَ أسـودُ الحَـرْب مُعْتقِلو القَنَـا أسـاودُ تبغي من نحـور العِـدا نَهْسَا

ويصور ابن المجاور تحرير الساحل، وما اصبح عليه بعد زوال الاحتلال الصليبي فيقول[3]:

ما للسـواحـل غَيْرُ بحـرك حافظٌ بشَبـا سنـانٍ أو بصفحـة مُرْهَفِ
هذا الـطرازُ الأخضـرُ استفتحتـه فَزهـا بشـوبٍ من عُلاك مُسَجَّـفِ

ويوازن الرشيد النابلسي بين فتوحات صلاح الدين وفتوحات الإسكندر، ويشيد بفتوحه، ويقلل من شأن فتوحات الإسكندر في هذا المجال، كما يبدو في قوله[4]:

(١) كتاب الروضتين ٢/١١٧، ١١٨. وانظر: نفسه ٢/١٠٣.
(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٤، كتاب الروضتين ٢/٨٣، مرآة الزمان ١٤/ ق ١٥٢، النجوم الزاهرة ٦/٣٤، معجم الأدباء ١٩/٢٤، ٢٥.
(٣) كتاب الروضتين ٢/١٠٤.
(٤) نفسه ٢/١١٨.

فإذا مَرَرْت بمـلكـه وفـتـوحـه فاسْخَـر بمـا يُرْوى عن الإسكنـدر

ولم تكن فتوحات صلاح الدين وانتصاراته سهلة المنال، فقد بذل الكثير الكثير في سبيل تحقيقهـا، وقاد المسلمين إلى ثغور الصليبيين التي كانوا قد احتلوهـا، فحـررهـا، وقضى على أركـان دولتهم التي أقـامـوهـا مستعمـرين مستوطنين، ويبدو ذلك جلياً في قصيدة للرشيد بن بدر النابلسي، قالها في فتح القدس، ومنها قوله[1]:

لقـد فَتَـحْـتَ عَصِّـياً من ثغـورهمُ لولاك ما هُدَّ من أركـانهـا حَجَـرُ
تركتَ أرضهم من طول ما عَمـرَتْ منـهـم بِلاقـع لا أُنـثى ولا ذكـرُ

ويصور فتيان الشاغوري كيف تبنى الدول عامة، وكيف بنى صلاح الدين دولتـه خاصـة، فيبين أن بناء الممالك لا يتم إلا بالسيف من ناحية، وبإقامة العدل، ونشر الأمن، ورعاية الرعية رعاية حقه، كما يبدو في قوله[2]:

تُبنى الممـالـكُ بالـوشيجِ الأسمـرِ والبيضُ تلمـعُ في العَجـاج الأكْـدَرِ
وبكـل أجـردَ شَيْظم يعـدو إلى الـ ـهيجـا بمقتحمِ المهـالـكِ مِسْعَـرِ
والعـدلِ والإحسانِ والمعروفِ مُمـ ـلوءَ الحياضِ لمـوسـر ولمُعْسـرِ
والـحلمِ والعفـوِ اللَّذين شذاهمـا مُتَـضَـوعٌ كأريج مِسـك أذْفـرِ
كفعـال مولانـا صلاح الـدِّين ذي المجـد الغُـدامِسِ والعـطاءِ الكـوْثَرِ

ويصور الحكيم الجلياني ملاحمه خارقة وكأنها الأساطير، كما يبدو في قوله[3]:

ولابن أيوب في الافـرنـج ملحمـةٌ دَلَّـتْ عليهـا أسـاطـير وحسبـانُ

ويصور رايته خفاقة فوق البلاد التي حررها، كما يبدو في قوله أيضاً[4]:

أرى الرايةَ الصفراءَ يَرْمي اصطفاقُها بني أصفـرٍ بالـراعفـاتِ اللهـاذمِ
فَتَسبي فِلسـطينـاً وتجبْى جزائـراً وتملكُ من يونـانَ أرضَ الأساحمِ
وتعْنـو لهـا الأمْـلاكُ شَرْقـاً ومَغـربـاً بذا حكمتْ حُذّاقُ أهـلِ الملاحمِ

---

(١) شفاء القلوب/ ١٦٦.
(٢) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤١.
(٣، ٤) كتاب الروضتين ٢/ ١١٦.

ولهـذا كله، توجه الشعراء بتهانيهم للسلطان الناصر صلاح الدين، وهم يعبرون في ذلك عن أحاسيسهم ومشاعرهم، كما يعبرون عن أحاسيس الأمة الإسلامية ومشاعرها إزاء الانتصارات التي أحرزها المسلمون بقيادة صلاح الدين، ومن ذلك ما قاله ابن سناء الملك متغنياً بفتوحات صلاح الدين وانتصاراته، ومعبراً عن أحاسيسه، وأحاسيس المسلمين في جميع بلدانهم، كما يبدو في قوله[1]:

وتَهادَتْ عرائسُ المُدْنِ تُجلَى ... وثمارُ الأموالِ مِنْهنَّ تُجْنى
لا تُخصُّ الشآمُ فيك التهاني ... كلُّ صقْع وكلُّ قطر مُهنى
قدْ مَلكتَ البلادَ شَرْقاً وغرباً ... وحَوَيْتَ الآفاق سَهلاً وحَزنا

ويبدو ابن سناء الملك حائراً في توجيه التهاني إلى صلاح الدين، وقد رأى أن كل فتح جدير بالتهنئة، كما يبدو في قوله مهنئاً بكسر الفرنج، وملك بلاد الشام[2]:

لَسْتُ أدْري بأيِّ فَتْح تُهَنّا ... يا مُنيلَ الإسلام ما قد تَمَنَّى
كُلُّ فتحٍ يقولُ إنّيَ أوْلى ... وهو أوْلى لأنَّه كان أهْنا
أنهنِّيك إذ تملكتَ شاماً ... أم نُهنّيك إذ تملكتَ عَدْنا
قد مَلكْتَ الجنانَ قَصراً فقصْرا ... إذ فَتَحت الشآمَ حِصْناً فَحِصْنا

ومثله قول فتيان الشاغوري[3]:

لم تَخْلُ سمعاً مِنْ هناءِ مُهَنِّىءٍ ... للمسلمين ومِنْ سَماع مُبشِّرِ

وقول ابن الساعاتي[4]، وقول ابن جبير مبشراً صلاح الدين بالنصر، والقضاء على الأعداء الذين تمد رقابهم «إلى سيفه الباتر» كما يقول[5].

---

(١) ديوان ابن سناء الملك/ ٨٢٠، مفرج الكروب ٢/ ٢٣٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/ ٩١.

(٢) ديوان ابن سناء الملك/ ٨١٣، ٨١٤، مفرج الكروب ٢/ ٢٣٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/ ٩١، شفاء القلوب/ ١٥٠.

(٣) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٧.

(٤) انظر: ديوان ابن الساعاتي ٢/ ٤٠٦ ـ ٤٠٨، كتاب الروضتين ٢/ ٨٤ ـ ٨٥.

(٥) الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ـ القسم الثاني/ ٥٩٨، رحلة العبدري/ ٩٤، كتاب الروضتين ٢/ ١٠٥،

وقد تمت كل هذه الفتوحات والانتصارات بالجيوش الإسلامية التي قادها السلطان صلاح الدين، وكانت تلك الجيوش قد نالت عناية كبيرة منه، فقد وضع نظاماً للجيش، رتب به أحواله، وأمراءه، وجنده، وأمواله، وجعل له ديواناً خاصاً عرف بديوان الجيش[1].

وعمل صلاح الدين على أن يكون الجند مرتبطين بعقيدتهم، وكان حريصاً على تربيتهم تربية إسلامية، وتقوية الروح الدينية في نفوسهم.

لقد كان جند المسلمين يحاربون اعداءهم متمسكين بعقيدتهم، متبعين تعاليمها في الجهاد، مبتغين رضا الله وثوابه، وقد كانوا يجاهدون لتحرير بيت المقدس، وغيره من بلاد المسلمين التي احتلها العدو الصليبي، وكانوا يرون في الجهاد: «دينا وحتماً واجباً، فلا يحتاج إلى باعث سلطاني، بل كانوا يمنعون ولا يتمنعون، ويُزجرون ولا ينزجرون»[2].

ومن مظاهر عنايته بالجيش أنه «جعل كأساً مخصوصة تسمى (كأس الفتوة)، وتوزع هذه الكأس على كل من ينتظم في سلك الفتيان، ويعرف من الشبان الشجعان، وهذه الكأس كانت عبارة عن إناء جميل أنيق»[3].

وعني صلاح الدين بالعتاد الحربي، والمؤن التي كانت جيوشه تزود بها. كما عنى بالأسرى المسلمين، وكان في عهده ديوان لهم، وعني بالبريد، وبالجواسيس لاستطلاع أخبار العدو[4].

= ١٠٦، نفح الطيب ٣٨٣/٢، الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٩٣/٣، ٢١٥.

(١) انظر: الروضتين ٢٩٦/١، صبح الأعشى ١١/٤ - ١٦، صلاح الدين - جب/ ٩٧، ١٢٨، ١٥٦، ١٥٧، الحرب والسلام/ ٢، ٢٩، ٣٢، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين/ ١١٩، ١٢٠، صلاح الدين والصليبيون/ ١٠٨ - ١١٢، سياسة صلاح الدين/ ٢٤١.

(٢) مفرج الكروب ١٢/٢، الكامل ٥٤٧/١١.

(٣) انظر: الحرب والسلام/ ٤٨.

(٤) انظر: قوانين الدواوين/ ٣٥٤، الروضتين ٢٠٧/١، ٦/٢، ٨٠، ٢٨٥، نهاية الأرب ٢٨٣/٨، صبح الأعشى ١١/٤، سياسة صلاح الدين/ ٣٦٠، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين/ ٢٥٩ - ٣١٨، صلاح الدين والصليبيون/ ١٢٠ - ١٢٧، صلاح الدين - جب/ ١٧٦، ١٧٧، دراسات في حضارة =

وكانت جيوش صلاح الدين تتكون من الفرقة الأسدية، نسبة إلى اسد الدين شيركوه، والفرقة الصلاحية، نسبة إلى صلاح الدين، ومن فرقه الأخرى فرقة تقي الدين عمر، ابن أخي صلاح الدين، والفرق العسكرية الشامية في دمشق وحلب، والفرق العسكرية العراقية في الموصل، والجزيرة. وكانت هناك قوات أخرى من العرب مثل بني منقذ في شيزر، والتركمان، والأكراد، والمتطوعون، والمشاة. وعني صلاح الدين بالطلائع أو اليزك، كما عني بالكمائن، والغارات الليلية، والحرب الخاطفة والمباغتة[1].

لقد حققت تلك الجيوش الإسلامية الانتصارات، وفتحت الفتوح العظيمة، وأثارت الرعب في نفوس الأعداء، وقضت عليهم، وقد وصفها الشعراء بأنها «جنود الرعب» كما يبدو في قول الشاعر عبدالمنعم الجلياني، من قصيدته القدسية الكبرى[2]:

وأغدى جنود الرُّعب يردي عداته ... وسلم جميع المسلمين مُجَنَّدا
ومن عجبٍ خمسونَ ألف مقاتل ... سبتهم جيوشٌ ليس فيها مَنْ ارتدى

وقول ابن جبير مصوراً تلك الجيوش المنصورة، وحاثاً صلاح الدين على الجهاد[3]:

جنودُك بالرُّعْب منصورةٌ ... فناجزْ متى شئت أو صابر
فكلهمُ غارقٌ هالكٌ ... بتيار عسكرك الزاخر

وقول فتيان الشاغوري مصوراً تلك الجيوش قوية تتضاءل أمامها الجيوش

= الإسلام/ ١١٠، ١١١، الحرب والسلام/ ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٩، ٨٣ ـ ٨٦.

(١) انظر: الروضتين ١٤٣/١ ـ ١٨٦، مفرج الكروب ٢/ ٤٠٠، السلوك ١/ ١٥٠، صلاح الدين ـ جب/ ١٥٥، ١٦٥ ـ ١٧١، دراسات في حضارة الإسلام/ ٩٧، ٩٨، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧ ـ ١٠٩، الحرب والسلام/ ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٤٨، جيش مصر في أيام صلاح الدين/ ٧، ١٣، ١٤، ١٥، ٢٠، ٢٤، ٢٥، ٢٦، صلاح الدين والصليبيون/ ١١٣ ـ ١٢٠، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين/ ١٥٣ ـ ١٦١.

(٢) كتاب الروضتين ٢/ ١١٨.

(٣) الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ـ القسم الثاني/ ٥٩٩، رحلة العبدري/ ٩٤، كتاب الروضتين ٢/ ١٠٦.

الأخرى، وهي التي ترفع راياته صفراً، وتصيّرها حمراً في ساحات الوغى، كما يبدو في قوله[1]:

يغــزو الملوكَ الــرُّعبُ قبـل مسيره ... في عسكــر أفتِــكْ به من عسكــرِ
هو كاســرٌ كســرى ومُـتبــعُ تُبَّـع ... ذُلّاً أحــاط به وقــاسِــرُ قيصــرِ
فلجيشِــه ولـعــزمــه متـضــائِــلٌ ... جيشُ الهِــرَقْـل وعَـزْمـةُ الإسكـندرِ
راياتُــه صُفــراً تَرِدْنَ وتَــنــثــنــي ... حُمْــراً تمــجُّ نجيعَ آلِ الأصـفــرِ

ومثل هذا قول ابن الســاعــاتي في قصيدة قدسية قالهـا عند فتح البيت المقدس، في رجب من سنة ٥٨٣ هـ[2].

فَقُـلْ للحســام اصمتْ أمـام جيوشه ... فغيرُ مُجــابٍ إنْ دَعَــا منهم كَلْمـا

ويصورهم ابن المجاور جنود الله، ويشيد بهم في شجاعتهم، واصطفائهم للجهاد في سبيل دينهم، والدفاع عن حياض بلاد المسلمين، وتخليصها من الأعداء المحتلين، كما يبدو في قوله من قصيدة أرسلها إلى صلاح الدين من مصر، ويذكر العماد أنه عرضها على السلطان في بيت المقدس، يقول[3]:

جاءتْ جنــودُ الله تطلبُ ثارهــا ... وصــدورهــا بل عن قليل تشـتـفي
فانهضْ بهـا وَتَقـاضَ حقَّـك مُوقِنـاً ... إنَّ الإلــه بمــا تُؤمِّــلُه حَفِــيّ
هم فتـيةُ الأتــراك كلَّ مُجَـفْـجَـف ... يَغْشى الكـريهـةَ فوقَ كُلِّ مُجَفْجَف
قومٌ يخــوضـون الحِمـامَ شجـاعـةً ... لا ينــظرون إلــيه من طَرَفٍ خَفـي
إنْ صَبَّحــو الأعــداءَ في أوطـانهم ... تركــوا ديارهُــمُ كقـــاع صفـصـف
أنــتَ اصــطفيتــهمُ لنصــرة ديننــا ... لله دَرُّ الـمـصــطَفَـى والمُصْـطفي

ويصور الجويني جند السماء مشاركين جند الأرض في الجهاد لاعلاء شأن دين الله، ورفع شعائره، كما يبدو في قوله من قصيدة أثبتها العماد الأصفهاني في الفتح القدسي[4]:

(١) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤١.

(٢) ديوان ابن الساعاتي/ ٣٨٥.

(٣، ٤) كتاب الروضتين ٢/١٠٤.

جُنْــدُ السمَّـاءِ لهـذا المُلْك أعـوانُ   مَنْ شكَّ فيهمْ فهـذا الفتـحُ بُرْهـانُ

ومثل ذلك قول العماد الأصفهاني، من قصيدة قدسية يهنىء بها السلطان صلاح الدين بالفتح القدسي، وهو مخيم عليه[1]:

جُنــودُك أمــلاكُ الســمــاءِ وظنُّهمْ   عِداتُـكِ جنُّ الأرض في الفتك لا الإنْسا

إلى أن يقول في القصيدة نفسها:

أقـامتْ بغـاب الســاحلين جنـودُكُمْ   وقــد طردتْ عنـه ذئـابهم الـطُّلْسـا

وقول ابن سناء الملك من قصيدة يهنىء فيها صلاح الدين بكسر الفرنج، وتحرير بلاد الشام في سنة ٥٨٣ هـ[2]:

مَلِك جُنــدُه ملائــكــة الــلّـ   ـه فُرادى جَاءَتْ إلــيه ومَــثْــنَــى

★ ★ ★

ويتحـدث الشعـراء عن صنوف الإسلحة التي استخدمتها تلك الجيوش الإسلامية في فتوحها.

يصور العماد الأصفهاني أثر الرقاق القاطعة، فهي التي بدلت ما كان العدو يتصف به من الخشونة والقسوة. ويصور أثر الرماح الردينية والخطية، كما يبدو في قوله مخاطباً صلاح الدين، مهنئاً إياه وهو مخيم في القدس[3]:

أتَــوْا شُكُسَ الأخــلاق خُشــنــاً فَلَيَّنــتْ   حدودُ الـرقـاق الخُشن أخـلاقهـا الشُّكْسا

ويبـدو مثل ذلك في قول ابن الساعاتي، من قدسية قالها عند فتح بيت المقدس. ويصورها تضيء الليل البيهم نهارا، كما يصور بكاءها ينشر الهدى في البيت العتيق والمسجد النبوي، كما يبدو في قوله[4]:

---

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣١، كتاب الروضتين ٢/١٠١، عقد الجمان للعيني ٢٥/ حوادث سنة ٥٨٣ هـ، شفاء القلوب/ ١٥٠، معجم الأدباء ١٩/٢٤.

(٢) ديوان ابن سناء الملك/ ٨١٥.

(٣) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٤، كتاب الروضتين ٢/٨٣.

(٤) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٦، ٣٨٧.

وشِمْتَ سيوفاً تنهبُ الليلَ وَقْدَةً ... فكلُّ عيانٍ ظنّها النارَ والفَحما
اذا عقمتْ سودُ المنايا قَرعْتَها ... ببيض ذكور تُولِدُ المحِنَ العُقما
تَبسَّمُ وفي وقتِ الفراقِ فإنْ يكنْ ... لِقىً ووغىً فاضت مدامعُها سُجما

وقوله(1):

هذي سيوفُك مُخْرِماتٌ دونه ... لبكائهن تبسَّمَتْ حُجراتُهُ

ويصور العماد السيف طاهراً يحسو دم القائد الصليبي أرناط لاتصافه بالغدر، كما يبدو في قوله(2):

حَسَا دَمَهُ ماضي الغِرار لغَدْره ... وما كانَ لولا غَدْرُهُ دَمُهُ يُحسىَ
فللّه ما أهدى يداً فتكتْ به ... وأطهر سيفا مُعدماً رجسه النجسا
نَسَفْتَ به رأسَ (البرنس) بضربةٍ ... فأشْبهَ راسي رأسه العِهْنَ والبُرسا
تَبوَّغَ في أوْداجه دمُ بغيه ... فصالَ عليه السيفُ يلحسُهُ لحْسَا

وفي سبيل تحرير ديار الإسلام، وعلى رأسها بيت المقدس، عُني صلاح الدين بالأسطول، وأفرد له ديواناً خاصاً عرف بديوان الأسطول(3).

★ ★ ★

وتدعو الأشعار القدسيات إلى تحرير الساحل كما يبدو في قول ابن الساعاتي(4):

فألمِمْ بالسواحل فهي صورٌ ... إليك وألحق الهامَ المتُونا

وقوله(5):

وما السواحلُ إلا كالفرات إذا ... وافى فإنْ لم تُحطْ علماً به فَسَلِ
فلا تُضِعهُ فما الدّينُ الحنيفُ على ... خَلْقٍ سواك من الدنيا بمتكُلِ

ويصور عبدالمنعم الجلياني بعض أبناء صلاح الدين قد جازوا البحر

(1) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤١١.
(2) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٥، كتاب الروضتين ٢/٨٣.
(3) انظر: قوانين الدواوين/ ٣٣٩، الخطط المقريزية ٢/١٩٤، السلوك ١/٣٣٩، صلاح الدين - جب/ ١٥٨، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين/ ٣٤١ - ٣٥٠.
(4) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٧، كتاب الروضتين ٢/٨٥، مفرج الكروب ٢/٢٠٠.
(5) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٤.

للجهاد في سبيل الله، والإغارة على أعداء المسلمين، كما يبدو في قوله من قصيدة أنشأها في سنة ٥٨٢ هـ، وحضر بين يدي السلطان صلاح الدين[1]:

وجاز بعضُ بنيه البحرَ تجفلُ من غاراتهِ الرومُ والصقلابُ واللاّنُ

ويصور الجلياني نفسه الأساطيل الإسلامية تغزو صقلية، كما يبدو في قوله[2]:

تغزو أساطيلنا منها صقليةً فتُذْعَرُ الرومُ والصقلابُ والخَزَرُ

★ ★ ★

ومن ناحية أخرى، فقد عمل صلاح الدين جاهداً للاستيلاء على قلاع العدو الصليبي، وتصيير بعضها معقلاً حصيناً، وهدم بعضها الآخر، ومن ذلك أن المسلمين أخذوا ثغر أيلة (العقبة)، وصيروها معقلاً للجهاد، بعد أن كانت تهدد الحرمين، واليمن، كما جاء في كتاب فاضلي أنشأه في سنة ٥٧٠ هـ[3].

ومن ذلك أيضاً أن العدو الصليبي كان قد انتهز الفرصة في سنة ٥٧٤ هـ، وبنوا حصناً على مخاضة بيت الأحزان للداوية. و«كان على المسلمين منه ضرر عظيم»، وكان العدو الصليبي يقطع الطرق على قوافل المسلمين، وإزاء ذلك كتب صلاح الدين إلى الفرنج مطالباً بهدم الحصن، فطلبوا أن يعطيهم ما غرموه في بناء الحصن، ولكنه أغار عليهم، وعاد بالأسرى والغنائم، ثم خربه في ربيع الأول من سنة ٥٧٥ هـ[4].

وتردد صدى تخريب هذا الحصن في الشعر، فقد هنأ الشعراء السلطان صلاح الدين بالنصر في حصن بيت الأحزان، ومن ذلك قصيدة لابن الساعاتي، أشاد فيها بالسلطان، وتغنى بصنيعه، وخص الحصن بالحديث، يقول[5]:

وقفتَ على حصن المخاض وإنه لموقف حقٍ لا يوازيه موقف

---

(١) انظر: الروضتين ٢/١١٦.

(٢) نفسه ٢/١١٧.

(٣) انظر: نفسه ١/٢٤٢.

(٤) انظر: نفسه ٢/٦، ٨، ١١ ـ ١٤.

(٥) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٩.

إلى أن يقول:

وما رجعت أعلامك الصفر ساعةً ... إلى أن غدت أكبادها السود ترجف
أيسكنُ أوطان النبيين عصبةٌ ... تمينُ لدى أيمانها وهي تحلف
نصحتكمُ والنُّصحُ في الدين واجبٌ ... ذَروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

★ ★ ★

وكان صلاح الدين يحرص، في سياسته العسكرية، على تهيئة أفضل الظروف العسكرية لإحراز النصر، ففي معركة حطين مثلاً، تمكن صلاح الدين من وضع أعدائه في ظروف غير ملائمة، حيث أخرجهم من صفورية المشهورة بغزارة مياهها، ومراعيها، وموادها الغذائية، وقد أصبحوا محاصرين بعيدين عن المياه[1] وقيل إنه أحرز النصر «للخطة العسكرية الجيدة، والسياسة الحكيمة التي اتبعها في إعداده للمعركة، ومشاركته الفعلية فيها، فقد أحسن اختيار أرض المعركة، وزمن وقوعها». وحرم العدو من الماء. يضاف إلى هذا، جيش المسلمين الموحد، وقيادة صلاح الدين التي كانت ذات دور حاسم في إحراز النصر[2].

وتبدو هذه السياسة العسكرية جلية في قصده إلى تحرير المدن الساحلية قبل التوجه إلى تحرير بيت المقدس، وذلك ليحرم أعداءه من قواعدهم البحرية، فلا تصل إليهم الإمدادات من أوروبا، ويصبحون محصورين داخل بلاد الشام. ولم يتوجه إلى تحرير بيت المقدس إلا بعد أن تمكن من تحطيم قوى العدو العسكرية[3].

وتجدر الإشارة هنا إلى سرعة صلاح الدين في تحرير بلاد المسلمين بعد

---

(١) انظر: النوادر السلطانية/ ٩٦، ٩٧، الروضتين ٢/٧٦، الفتح القدسي/ ١٢ - ١٤، مفرج الكروب ٢/١٨٩ - ١٩٤، زبدة الحلب ٣/٩٣ - ٩٥، الكامل ١١/٥٣٦.

(٢) انظر: الروضتين ٢/٧٦، سنا البرق الشامي ١/٢١٠، ٢١١، صلاح الدين - جب/ ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٩٠، دراسات في حضارة الإسلام/ ١٣١، تاريخ الحروب الصليبية - رنسيمان ٢/٧٣٥، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، شعلة الإسلام/ ١١١، الحركة الصليبية ٢/٧٧٣، ٧٧٦، سياسة صلاح الدين/ ٢٩٤، ٣٥٩.

(٣) انظر: الحركة الصليبية ٢/٨١٣، سياسة صلاح الدين/ ٢٩٨، ٣٠٥.

معركة حطين، فقد كان يتبع أسلوب الحرب الخاطفة المباغتة. وقد اعترف له أعداؤه بأنه كان يقاتل ليل نهار، ولم يدع لعدوه وقتاً للأكل والراحة[1].

★ ★ ★

وانتهز صلاح الدين كل فرصة للعمل من أجل إضعاف العدو الصليبي، ففي حوادث أواخر سنة ٥٧٤ هـ مثلاً، ذُكر أنه عندما كان في بانياس، كان يضرم النيران عليهم، فيقضي على محصولاتهم. وذُكر أنه كان يركب كل يوم «بحجة الصيد، وينزل على النهر، ويجرد فرسان الجلاد والقهر، ويسير قبائل العرب إلى بلد صيدا، وبيروت، حتى يحصدوا غلات العدو»، ولم يكن يبرح مكانه إلى أن يعودوا بجمالهم وأحمالها[2].

وفعل صلاح الدين مثل ذلك، في أوائل سنة ٥٧٥ هـ، وكان ما زال نازلاً ببانياس، «فأجمع رأيه مع بقية المسلمين على أن يقتحموا على الكفار ديارهم، ويستوعبوا ما بقي في أيديهم من الغلات في يوم واحد»[3].

وفي معركة حطين، قطع المسلمون طريق ورود الماء على العدو الصليبي، فجعلوا بحيرة طبرية وراء عساكرهم[4].

وهكذا كان صلاح الدين يعمل للاستفادة من إلحاق الضرر الاقتصادي، وكان يعمل على إحكام الحصار الاقتصادي على مواردهم البرية والبحرية[5].

★ ★ ★

وكان صلاح الدين صاحب مواقف سياسية تدل على بعد النظر، فقد حاول الاستفادة من التناقضات التي كانت تبرز بين قادة الصليبيين، ومن ذلك أنه عندما اختلف القائد الصليبي في طرابلس مع الصليبيين الآخرين، حول عرش إمارة طرابلس، كتب إليه صلاح الدين، وأفرج عن فرسانه الذين كانوا في الأسر

---

(١) انظر: شعلة الإسلام/ ١٥٦، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٧.

(٢، ٣، ٤) كتاب الروضتين ٢/٨، ٧٧.

(٥) جيش مصر في أيام صلاح الدين ٨١ ـ ٨٣.

عند المسلمين، وتحسنت العلاقات بين الطرفين، مما أدى إلى انقسامات بين الصليبيين. ويعد ابن الأثير هذا العمل من أعظم الأسباب الموجبة لفتح البلاد التي كانوا يحتلونها، واستنقاذ بيت المقدس منهم[1].

وعمل صلاح الدين على عزل الفرنجةُ في بلاد الشام، إذ استخدم نهجاً دبلوماسياً، وعمل على إقامة علاقات سلام مع خصومه الخارجين قبل افتتاح حملته الحاسمة، كما يذكر جب في هذا المجال[2].

وحاول صلاح الدين جهده اجتذاب تجارة بيزا، وجنوى، والبندقية، إلى مصر، وقد كانت تلك المصالح التجارية ذات دور كبير في الحفاظ على الدولة الصليبية في المشرق الإسلامي، كما ذكر (جب) أيضاً[3]. ويذكر أن أحد الرحالة أعاد تخليص بيت المقدس من أيدي الصليبيين إلى «المدن التجارية الايطالية التي انهمكت في البحث عن الإرباح والسلع دون الاهتمام بمصالح الصليبيين ومملكتهم في بيت المقدس» كما يقول[4].

لقد جمعت المدن التجارية الايطالية بين دورها في الحروب، ودورها في نقل السلع، والمتاجر، والحجاج، والمؤن والأسلحة إلى الاراضي المقدسة[5]، ولكن النظر إلى هذا الاهتمام التجاري على أنه العامل الوحيد الذي كان سبباً في تحرير المسلمين بيت المقدس، غير دقيق.

ولعل ما تحدث عنه هذا الرحالة يعد عاملاً واحداً من عوامل عديدة، ولعله يريد أن يقلل من شأن العوامل الأخرى، وعلى رأسها القوى الإسلامية التي وحدها صلاح الدين، وقادها إلى إحراز النصر.

---

(١) الكامل ١١/٥٢٦، ٥٢٧.

(٢، ٣) صلاح الدين/ ١٤٦.

(٤) انظر: العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى/ ٩، ١٤٣، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣.

(٥) انظر: نفسه/ ١٣١.

جاء في رسالة للقاضي الفاضل، أرسلت إلى الديوان العزيز ببغداد، على لسان صلاح الدين، في سنة ٥٧٠ هـ، أن جيوش «البنادقة، والبياشنة، والجنوية» كانوا تارة غزاة، وكانوا تارة اخرى «سفاراً يحتكمون على الإسلام في الاموال المجلوبة، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلي بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد قُررت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المسالمة على ما نريد»[١].

المقتدي بالسلف

كان صلاح الدين شبيهاً بالخلفاء المسلمين الأولين، مقتدياً بالسلف الصالح. يقول بهاء الدين بن شداد متحدثاً عن يوم وفاته: «وكان يوماً لم يُصب المسلمون والإسلام بمثله منذ فُقد الخلفاء الراشدون»[٢]. ويصوره أبوشامة المقدسي بعمر، يقول: «رأيته هو ونور الدين الشهيد في المتأخرين كالعمرين في المتقدمين، فلا أبعد أنهما من الله حجة على الملوك المتأخرين»[٣].

وكان صلاح الدين تقياً، حريصاً على إظهار شعار الشرع. وكان يحافظ على الصلوات في جماعة، كما كان يداوم على قراءة القرآن وحفظه[٤].

وأنشأ صلاح الدين ديوان الزكاة، وألغى المكوس والضرائب[٥].

إن الواجب على من يقود حركة الجهاد، يقتضي أن تكون تلك الحركة في سبيل الله، وأن تكون مراعية لشريعة الإسلام[٦].

---

(١) انظر: الروضتين ٢٤٣/١، صبح الأعشى ٨١/١٣ - ٩٠ (يذكر نص الرسالة)، السلوك ١٧٥/١، صلاح الدين - جب/ ١٤٦، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى/ ١٩١.

(٢) النوادر السلطانية/ ٢٤٦.

(٣) انظر: شفاء القلوب/ ٦٠، ٦١.

(٤) انظر: النوادر السلطانية/ ٧، ١٠، الروضتين ٢٦٩/١، ٦٤/٢، ٢١٨، ٢١٩، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١١٢، ١١٣، ١١٤، شفاء القلوب/ ٦٢، النجوم الزاهرة ٩/٦، طبقات الشافعية الكبرى ٣٤٠/٧، البداية والنهاية ٢٩٦/١٢، تاريخ الحروب الصليبية - رنسيمان ١٤٨/٣.

(٥) خطط المقريزي ١٠٨/١. وانظر: قوانين الدواوين/ ٣١٠ - ٣١٦.

(٦) انظر: صلاح الدين - جب/ ١٢٤.

ومن مظاهر تقواه أنه كان زاهداً في حياته، وهو في ذلك شبيه بالسلف الصالح. وقد وصفه رسول جاء إليه من حلب، فقال: «رأيته في خيمة صغيرة، على بساط لطيف، وتحته سجادة، وبين يديه مصحف، وهو مستقبل القبلة، وإلى جانبه زرديته، وسيفه بين يديه، وقوسه وتُرْكشه[1] معلق في عود الخيمة، فلما رأيته وقع في خاطري أنه منصور، لأني قد فارقت أصحابي، وهم على طنافس من الحرير»[2].

ويُذكر أنه في سنة ٥٨٤ هـ، بعد فتح حصن كوكب، مر بدمشق، وهو سائر إلى أنطرطوس لفتحها، وقد وجد متولي الديوان (الصفي بن القابض)، قد أعد له داراً جميلة فلما رآها قال: ما يصنع بالدار من يتوقع الموت[3]، وكان صلاح الدين غير مهتم بالمال، فقد ذكر أنه «ملك ما ملك، ومات»، ولم يترك في خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، ومن الذهب الا جراماً واحداً صورياً، وهكذا لم يخلف ملكاً، ولا داراً، ولا عقاراً، ولا بستاناً، ولا قرية، ولا مزرعة، وذكر أنه كان يقول: «إن بقيت الديار لنا، فلنا كلُّ ما فيها، وإن ضاعت منا ضاع ما يملكه كل فرد، واستولى عليه العدو»[4].

ولم يحتفظ صلاح الدين لنفسه بشيء من الغنائم، وبهذا استطاع أن يسوس رجاله ويقودهم، ويقربهم إليه، ويكون لهم قدوةً ومثالاً. لقد كان أصحابه «كأنما هم على قلب رجل واحد، محبة فيه، واعتقاداً، وطواعية»، كما يقول السبكي[5].

وكان صلاح الدين بسيطاً في لباسه، «لا يلبس إلا ما يحل لبسه كالكتان،

---

(١) التركش: الكنانة أو الجعبة التي توضع فيها النشاب.

(انظر: السلوك ١/٢٧١، جيش مصر في أيام صلاح الدين/ ٢٩.

(٢) انظر: مرآة الزمان ٨/٣٣٣، شفاء القلوب/ ٩٠.

(٣) مفرج الكروب ٢/٢٥٤.

(٤) انظر: النوادر السلطانية/ ١٧، الفتح القدسي/ ٦٢٩، الروضتين ٢/٢١٧، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١١٣، ١٢٢، صلاح الدين ـ جب/ ١٩٩.

(٥) طبقات الشافعية الكبرى ٧/٣٤٠.

والقطن، والصوف»[1].

وتحدث المؤرخون والكتاب الغربيون عن زهده، فقد ذكر (لين بول) بأنه كان قد «بالغ في زهده، وورعه، وصرف نفسه عن رغد العيش، وتجافى عن ملذات الحياة، وضيق على نفسه في جميع شؤونه ليكون قدوة لرفاقه»[2].

ويذكر (جب) أن قادته، ورعاياه، كانوا يدهشون بسبب «عزوفه التام عن المقتنيات الشخصية»، واعتباره الغنى شيئاً يستخدم للجهاد، أومنحة لآخرين، وكانت هذه الحقيقة مسجلة بوضوح لدى الصليبيين[3].

ويتردد صدى هذه التقوى، وهذا الزهد، في الشعر، ومنه الشعر الذي قيل حول الفتح القدسي، ومن ذلك ما جاء في رثاء العماد الأصفهاني للسلطان صلاح الدين، فقد تحدث عن تقواه وطاعته لربه، كما يبدو في قوله[4]:

أينَ الـذي كانـتْ له طاعـاتُـنـا   مبـذولـةً ولـربِّـه طاعـاتُـهُ
بالله أينَ النـاصـرُ الملكُ الـذي   لله خالـصـةً صَفَـتْ نيّاتُـهُ

وهو الذي لم يثق بالدنيا العاجلة، كما يبدو في قول العماد[5]:

طلبَ البـقـاءَ لملكـه في آجـلٍ   إذْ لم يثقْ ببقـاءِ مُلْكِ العـاجـلِ

وكان يعمل لإرضاء ربه، كما يقول ابن جبير مخاطباً صلاح الدين[6]:

وتـسـهـرُ لَيْلَكَ في حقِ مَنْ   سَيُرضيك في جَفنِـكِ السـاهـرِ

ويصور الجلياني زهده وتقواه، في أبيات يمدحه بها عند قفوله من غزاة غزة، في سنة ٥٦٧ هـ، كما يبدو في قوله[7]:

(١) انظر: الروضتين ٢/٢١٧، النجوم الزاهرة ٦/٨، شفاء القلوب/ ٦١.

(٢) انظر: صلاح الدين ـ الندوي/ ٣٠.

(٣) صلاح الدين/ ١٢٥.

(٤) ديوان العماد الأصفهاني/ ٨٧، كتاب الروضتين ٢/٢١٥، مرآة الزمان ٨/٤٣١، النجوم الزاهرة ٦/٦٠، شفاء القلوب/ ١٨١، الأنس الجليل ١/٣٩٥.

(٥) ديوان العماد الأصفهاني/ ٣٤٠، كتاب الروضتين ٢/٢١٧.

(٦) الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ـ القسم الثاني/ ٥٩٩، رحلة العبدري/ ٩٥، كتاب الروضتين ٢/١٠٦.

(٧) كتاب الروضتين ٢/١١٥، ١١٦.

أبـا المـظَفَّـرِ فاهْنـأ حَظَّ مُنتخبٍ أُخـرى الـزمـانِ لدينٍ كادَ يَنبتِـرُ
زهـدتَ فيمـا سبى الأمـلاكَ مُنكَدِراً علمـاً بُمـلك نعـيم ما به كَدَرُ
وطِبْتَ نفسـاً عن الـدنيا وزُخـرفِهـا وجئتَ تقـدم حيثُ الهـوْلُ والخـطرُ

ويخاطبه نجم الدين بن المجاور قائلاً(١):

فخـذ الخـراجَ من البسيطةِ كُلِّهـا واسـتـأد فرضـي جزيةٍ ومـوظـفِ
واقـبضْ على الـدنيا بكفِ زهـادةٍ وابسـطْ لرحمتهـا جنـاحَ تعـطفِ

★★★

وكان صلاح الدين وقوراً، متواضعاً لم يتكبر على أحد من أصحابه. وكان يحسن معاملة مجالسيه. وكان قريباً من الناس، رحيماً، بهم، متسامحاً يستجيب للصفح والعفو(٢). وكان يتحلى بالتسامح والوفاء مع أهل البلاد التي كان يحررها، ويعاملهم معاملة حسنة(٣). وكان وفياً يحافظ على العهود والمواثيق(٤)، وخير مثال يذكر في هذا المجال معاملته العدو الفرنجي بعد الفتح القدسي في سنة ٥٨٣ هـ(٥).

ويتردد صدى هذا في الشعر الذي قيل في الفتح القدسي، ومن ذلك ما جاء في قصيدة لابن الساعاتي، يمدح فيها السلطان صلاح الدين، عند فتحه البيت المقدس، وفيها يشيد به في عفوه، وإحسانه، وصفحه، كما يبدو في قوله(٦):

(١) كتاب الروضتين ٢/١٠٤.

(٢) انظر: النوادر السلطانية/ ٢٨ ـ ٣١، ٣٤، الروضتين ٢/٢٢٣، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٣٦، وفيات الأعيان ٧/٢٠٧، الكامل ١٢/٩٧، النجوم الزاهرة ٦/٨، ٩، ١١، شفاء القلوب/ ٦٤، ٦٥، ٩٢، ١١٥، مضمار الحقائق/ ١٣٧، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/١٤٨.

(٣) النوادر السلطانية/ ٣١.

(٤) النجوم الزاهرة ٦/٣٧، طبقات الشافعية الكبرى ٧/٣٤٨.

(٥) انظر: الروضتين ٢/٩٢، ٩٥، ٩٦، وفيات الأعيان ٧/١٨٨، الكامل ١١/٥٤٩ ـ ٥٥١، شفاء القلوب/ ١٢٨، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/٧٥٢، ٧٥٣، شعلة الإسلام/ ١٢٣، الإسلام والحضارة العربية/ ٢٩٧، ٢٩٨، تاريخ فلسطين القديم/ ١٧٥، الحركة الصليبية ٢/٧٨٠، ٧٩٢، ٧٩٣، ٧٩٩، صلاح الدين ـ جب/ ١٤٩، سياسة صلاح الدين/ ٣٠٩.

(٦) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٧.

له عَيْنُ حُسنى لا يُلمُّ بهـا الكـرى وأُذْنُ سَمـاحٍ لم تزل تسمـعُ الوهما
أجلهُـهُـم نَفْسـاً وأشـرفُ همـةً وألـينـهُـم خُلقـاً وأصلبُهم عَجمـا
لإحسـانـه برهـانُ عيسى بن مريمٍ يقينـاً فكم أحيا وكم أنـطقَ البُكمـا

ويصـوره العمـاد الأصفهـاني في إحسانه، كما يبدو في قوله من قصيدة قدسية، هنأ بها السلطان بفتح بيت المقدس، وهو مخيم عليه[1]:

سَجيتُـه الحُسنى وشيمتُـه الـرضى وبَـطْشتُـه الكُبـرى، وعزمته القعْسَى

ويتحدث العماد عن مناقبه، في رثائـه له، فيشيد به في سماحته، كما يبدو في قوله[2]:

دُفِنَ السمـاحُ فليس تُنشَـرُ بعـدما أوْدى إلـى يوم النُّشـورِ رُفـاتُـه

ويصـور فتيان الشـاغوري الممالك تبنى بفعال صلاح الدين من عدل، وإحسان، ومعروف، وغيرها من الفعال، كما تقدم، ويصور الشاغوري تواضع صلاح الدين فيقول[3]:

متـواضـعـاً لله جلَّ جلالُـهُ وبـك اضْـمحلَّتْ سَطْوةُ المتكبِّـرِ

وكان صلاح الدين صاحب مروءة، كريماً يعطي في حالتي السعة والضيق، ولم يترك في خزائنه شيئاً يذكر[4]

ويتـردد صدى كرمـه، وشهامته، ومروءته في الشعر الذي قيل في الفتح القدسي. ويفضل ابن الساعاتي صلاح الدين في جوده على الغيث الهون، كما يبدو في قوله[5]:

---

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣١، كتاب الروضتين ٢/ ١٠١.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٨٨، كتاب الروضتين ٢/ ٢١٥، الأنس الجليل ١/ ٣٩٥، شفاء القلوب/ ١٨٢.

(٣) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٧.

(٤) انظر: النوادر السلطانية/ ١٧، ٣١ ـ ٣٣، مفرج الكروب ٢/ ٢٤٢، الروضتين ٢/ ٢١٧، ٢٢٠، الكامل ١٢/ ٩٦، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٢٣، النجوم الزاهرة ٦/ ٥٢، شفاء القلوب/ ٦١، ٦٢، صلاح الدين ـ جب/ ١٢٥، ١٩٩، شعلة الإسلام/ ٧٣.

(٥) ديوان ابن الساعاتي ٢/ ٣٨٧.

إباءٌ كما أفنى العدا أوجدَ الهدى وجودٌ كما أحيا الغنى قَتَلَ العُدمَا

ويفصل فتيان الشاغوري في الحديث عن كرمه، ويصوره بحراً في جوده، بل بحاراً، ويجمع الشاعر بين وصفه بالجود والشجاعة والفرات، كما يبدو في قوله[1]:

تَنْهَلُّ يُمْناه بجدواه فخَمْـ سُ بنانه للخلق خمسةُ أنْهرِ
كالنيل في مصرٍ وسيْحون وجيْحـ ـون ودجلة والفرات الأكبرِ
البحرُ أنت لك السواحل باعثاً سُحْب الحيا جوداً وقاذف جوهر
فَبِم العُفاةُ يُشبهونك في النَّدى والبأس حارتْ فكرةُ المتفكرِ
كمْ خازنٍ لك مثلُ ألفيْ حاتمٍ كَرَماً ومملوك كألفي عَنترِ

ويصوره العماد الأصفهاني، في قصيدة قدسية أنشدها يوم فتح القدس، بأنه اكثر الناس كرماً، كما يبدو في قوله[2]:

قل للمليكِ صلاحِ الدين أكرم مَنْ
يمشي على الأرضِ أو مَنْ يركبُ الفَرسا

وقوله[3]:

رأيتُ صلاحَ الدّين أفضلَ مَنْ غدا وأشرفَ من أضحى، وأكرمَ من أمسى
وقيل لنا في الارضِ سبعةُ أبحرٍ ولسنا نرى إلاّ أناملهُ الخمسا

★ ★ ★

وكان صلاح الدين عادلاً ناصراً للضعيف، وكان يجلس في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء، والقضاة، والعلماء[4]. وعني باختيار

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٢، ١٤٦.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٢٨، كتاب الروضتين ٢/١٠٢.

(٣) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣١، كتاب الروضتين ٢/١٠١، معجم الأدباء ١٩/٢٤، شفاء القلوب/ ١٥٠، عقود الجمان ٢٥/ حوادث سنة ٥٨٣ هـ.

٤) انظر: النوادر السلطانية/ ١٣، ١٤ ـ ١٦، الروضتين ١/٢٥٢، ٢٦٩، ٢/١٠، ١٩، ٢١٩، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٩، مضمار الحقائق/ ١٠٦، النجوم الزاهرة ٦/١٠، شفاء القلوب/ ٦٠، ٦١، ٦٣، طبقات الشافعية الكبرى ٧/٣٤٧، ٣٦٨.

القضاة، وكان يعمل وفق أحكام القضاء، ويتمثل لأوامره ونواهيه. يذكر ابن جبير أنه قال لأحد المقربين إليه: «ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم. والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة، وأوامره ونواهيه متمثلة، إنما أنا عبد للشرع وشحنته، فالحق يقضي لك أو عليك»[1].

ويتردد صدى عدله في الشعر الذي قيل في الفتح القدسي، ومن ذلك ما يقوله الشاعر ابن الساعاتي، في قصيدة قدسية قالها عند فتح البيت المقدس، مشيداً بصلاح الدين في عدله[2]:

فللحق شمسٌ لا تغام بباطلٍ ... وللعدل فيه آية تنسخ الظُّلما
يعزُّ على الأحداث وطءُ بلاده ... فلو صدَّ حِبٌّ لم يجد عاشقٌ هَمّا

ويصور الشاعر فتيان الشاغوري عدل صلاح الدين واحداً من المقومات التي تبنى بها الممالك، كما تقدم.

ويصوره العماد الأصفهاني عادلاً ناصراً للحق كما يبدو في قوله مخاطباً ابني صلاح الدين: الافضل، والعزيز، في مرثيته للسلطان[3]:

أَبَني صلاح الدّين إنَّ أباكم ... ما زال يأبى ما الكرام أُباتُهُ
لا تقتدوا إلّا بسنّة فضله ... لتطيبَ في مهدِ النعيم سَناتُهُ
وردوا موارد عدله وسماحه ... لتردَّ عن نهج الشَّماتِ شماتُهُ

★ ★ ★

راعي المسلمين

عُني صلاح الدين بالمجتمع الإسلامي عناية كبيرة، ورعاه مدركاً أن تلك الرعاية واجبة شرعياً. وواجبة لتهيئة المجتمع تهيئة حقيقية للوقوف في وجه العدوان الصليبي. وكان نبراسه في هذا كتاب الله، وسنة رسوله، وما رسمه مصدرا التشريع الإسلامي من مواقف واضحة ثابتة في هذا المجال. وكان يهتدي بما جرى عليه صحابة الرسول، وخلفاؤه الراشدون[4].

---

(١) رحلة ابن جبير/ ٢٩٨.

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٧.

(٣) ديوان العماد الأصفهاني/ ٩٢.

(٤) انظر: نور الدين ـ الرجل والتجربة/ ٩٣.

كان صلاح الدين راعياً للمسلمين، ودينهم، وأموالهم، ويبدو مثل ذلك متمثلاً في حديثه مع أخيه الملك العادل، وكان العادل قد طلب منه أن «يكتب له بمدينة حلب، ويجعله ككتاب البيع والشراء، فامتنع السلطان. وقال: إنما تكون حلب إقطاعاً». وقال صلاح الدين لأخيه: «أظننت أن البلاد تباع؟ أو ما علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة للمسلمين، ورعاة للدين. وحراس لأموالهم»[1]. ومن هذا يتضح كيف كان صلاح الدين ينظر إلى بلاد الإسلام، ووجوب رعايتها رعاية حقة. وكيف كان يعمل على حماية المسلمين وحقوقهم. كان صلاح الدين حريصاً على رعاية الفقراء والمساكين[2]،وكان يوصي بتقوى الله، واتباع أوامر الشرع، واجتناب نواهيه، والعمل على استمالة الرعية، والابتعاد عن سفك الدماء. ويبدو مثل ذلك جلياً في وصية كتبها لابنه الملك الظاهر في دمشق، في سنة ٥٨٨ هـ، يقول: «أوصيك بتقوى الله، فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمرك الله به، فإنه سبب نجاتك، وأحذرك من الدماء والدخول فيها، والتقلد لها، فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية، والنظر في أحوالهم، فأنت أميني، وأمين الله عليهم»[3].

ورعى صلاح الدين المسلمين اقتصادياً، فقد أسقط المكوس الديوانية في مصر، بعد توليته الوزارة، وأعلن حرية التجارة، في منشور قرىء من فوق المنابر[4]. وكان أول عمل قام به في دمشق، هو إزالة المكوس اتباعاً لأمر الشرع، كما يبدو في كتاب فاضلي، في سنة ٥٧٠ هـ يقول فيه: «فشرعنا في امتثال أمر الشرع برفعها، وإعفاء الأمة منها بوضعها»[5].

ويذكر العماد الأصفهاني أن السلطان أبطل المكوس الذي كان مفروضاً في

---

(١) انظر: الروضتين ٢/٥٢.

(٢) انظر: النوادر السلطانية/ ٨، ٣٤، الروضتين ٢/٦٥، ٦٦، ٢١٨، النجوم الزاهرة ٦/١١، شفاء القلوب/ ٦٢، ٦٥، صلاح الدين ـ جب/ ١٤٤، ١٩١.

(٣) انظر: زبدة الحلب ٣/١٢٣.

(٤) كتاب الروضتين ١/٢٠٥.

(٥) انظر: نفسه ٢/٢٣٦.

مكة على الحاج، في ٥٧١ هـ، و ٥٧٤ هـ. وكشف «عن حلب المظالم بعد فتحها، وأزال المكوس»، وقد أصدر كتاباً بذلك كتبه القاضي الفاضل، في سنة ٥٧٩ هـ[1]. ويُبين كتاب القاضي الفاضل، مدى حرص صلاح الدين على رعاية الأمة، كما يبدو في الكتاب الفاضلي: «وانتهى إلينا أن بمدينة حلب رسوماً استمرت الأيدي على تناولها، والألسنة على تداولها، وفيها بالرعاة إرفاق، وبالرعايا إضرار». وهو حريص كل الحرص على إبعاد الضرر عن الرعية، كما كان حريصاً على السير في طريق الشرع. ويتحدث في الكتاب الفاضلي، عن أنواع من الضرائب رأى أن «نضرب عنها في أيامنا، ونضرب عليها بأقلامنا، ونسلك ما هو أهدى سبيلا، ونقول ما هو أقوم قيلا، ونكره ما كره الله، ونحظر ما حظره الله». كما أصدر منشوراً لأهل الرقة كتبه القاضي الفاضل أيضاً، وورد فيه أن «يعفى خبر هذه الضرائب من الدواوين». ومما جاء في ذلك المنشور قول يتضمن نقداً سياسياً اجتماعياً لأولئك الذين كانوا ينحرفون عن طريق الشرع، وفيه: «إن أشقى الأمراء من سمن كيسه، وأهزل الخلق، وأبعدهم من الحق من أخذ الباطل من الناس، وسماه الحق». وقد كان هذا دأبه، إذ اقتصر على الرسوم التي يبيحها الشرع[2].

وعمل صلاح الدين على إنشاء المؤسسات الاجتماعية التي ترعى المسلمين في حياتهم، في مسكنهم، وملبسهم، ومأكلهم، ومشربهم. وصحتهم، وفكرهم، فقد أنشأ البيمارستانات، والمدارس والخوانق، والرباطات، والأسواق، والقناطر، والحمامات، والخانات، وغيرها.

ووقف الأوقاف على ما أنشأه من مؤسسات، وذلك لتسيير شؤونها الاجتماعية، والفكرية، وغير ذلك[3].

شهدت مصر والشام نشاطاً فكرياً كبيراً في ظل السلطان صلاح الدين،

---

(١) انظر: الروضتين ١/٢٧٠، ٢/٣، ٤، ٤٧، سنا البرق الشامي/ ٣٠٤، مرآة الزمان ٨/٣٣٨، البداية والنهاية ١٢/٢٩٩.

(٢) كتاب الروضتين ٢/٤٧، ٦٩، البداية والنهاية ١٢/٣١٣، ٣١٤.

(٣) انظر: الروضتين ١/٢٦٩، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، المدارس في بيت المقدس.

وشمل ذلك النشاط الفكري مدينة بيت المقدس، وقد نالت مدينتنا المقدسة عناية خاصة في هذا المجال، في ظل صلاح الدين الأيوبي.

كان صلاح الدين ذا عناية كبيرة بالعلم وأهله، وكان يهتم بالحديث والمحدثين، والفقه والفقهاء، والوعظ والوعاظ، والتصوف والمتصوفة، والشعر والشعراء، والكتابة والكُتّاب، والخطابة والخطباء، وغيرهم من أرباب العلم والثقافة والفكر.

وكان صلاح الدين يحب العلماء ويقربهم، ويحسن إليهم، وكان شغوفاً بمجالسة خواصه من العقلاء وكان مجلسه لا يخلو من ذوي الفضل والنباهة، وكانوا «يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد، ويهزون لمكارمه أعطاف المحامد، فتارة في أحكام شرعية، ومسائل فقهية، وآونة في صناعات شعرية، وألفاظ عربية، ومعان أدبية، ومرة في احاديث الأجواد، وشيم الأمجاد» كما يذكر العماد الأصفهاني[1].

وكان صلاح الدين يذاكر في الأدب والأشعار والفقه، وكان «يستحسن الأشعار الجيدة، ويرددها في مجالسه، حتى قيل إنه كان كثيراً ما ينشد» أشعاراً تعجبه. ويذكر أنه كان شغوفاً بأشعار أسامة بن منقذ. وكان يمنح الشعراء الجوائز القيمة[2].

كان صلاح الدين قد نشأ وترعرع في ظل الثقافة الإسلامية في بعلبك، ودمشق، ودرس القرآن، والحديث، والفقه. وكان يحب سماع القرآن، كما كان «شديد الرغبة في سماع الحديث. وكان يتردد إلى الحافظ السلفي في الاسكندرية، وكان يستمع إلى دروس عبدالله بن أبي عصرون في الجامع الأموي، وقيل إنه كان يحفظ القرآن. وكان يحفظ كتاب «التنبيه» في الفقه،

(١) انظر: الروضتين ٢/٦٥، سنا البرق الشامي (ط بيروت) ١/٢٣٣ ـ ٢٣٤، وفيات الأعيان ٧/٢٠٧، شفاء القلوب/ ١٩٠.

(٢) انظر: كتاب الروضتين ١/٢٤، ٢٦٤، خريدة القصر ١/٧٨، وفيات الأعيان ٧/٢٠٧، ٢٠٨، النجوم الزاهرة ٦/٥٦، شفاء القلوب/ ١٩٠، ١٩١، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية/ ٢٥، ٢٦.

وكتاب الحماسة في الشعر»[1].

يذكر العماد الأصفهاني أنه «عين لسماع الاحاديث النبوية ميقاتاً، وجمع به من أهل العلم والعلماء أشتاتاً، وقد هنأه القاضي الفاضل برحلته في سبيل العلم، وسماعه موطأ مالك، في رسالة كتبها إليه[2].

(1) انظر: النوادر السلطانية/ ٧، ٩، ١٠، كتاب الروضتين ١/٢٦٩، ٢/١٨، ٢٤ ـ ٢٥، ٢١٧، ٢١٩، طبقات الشافعية الكبرى ٧/٣٤٠، ٣٤٧، ٣٤٨، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١١٤، البداية والنهاية ١٢/٣٠٨، شفاء القلوب/ ٦١، ٦٣، ٩٨، السلوك ١/٤٢ ـ ٤٣.

(2) انظر: الروضتين ٢/٢١، ٢٤ ـ ٢٥.



صورة محتلي بيت المقدس

يصـور الأدب العربي الذي قيل حول الفتح القدسي الفرنج الذين غزوا العالم الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين عدواً استعمارياً غازياً، قدم تحت شعار الصليب للقضاء على الإسلام والمسلمين، واحتلال بلادهم في مصر والشام، وهذا هو ما قام به آنذاك، وأنشأ مستعمرات وإمارات صليبية، وهي إمـارة الـرُّهـا، وإمـارة إنـطاكية وإمـارة طرابلس، كمـا أنشأ مملكة بيت المقدس، وجعل مدينة بيت المقدس عاصمة له، وكانت تحدوه أهداف وغايات مختلفة، وهي أهداف وغايات سياسية، واقتصادية، واجتماعية ودينية.

ويصـور الأدب العـربي الـذي قيل حول الفتح القدسي العدو الصليبي المحتل ناشراً الخراب والدمار، وسافكاً الدماء، وهاتكاً الاعراض، وناهباً وسالباً في بلاد المسلمين، وقد ارتكب المجازر في بيت المقدس، واصبحت خالية من سكانها المسلمين[1].

وقـد عمـل الفرنج على تغيير معالم بلاد المسلمين سياسياً، واقتصادياً، وحضارياً، وفكرياً، ودينياً، ويصور الشعر ذلك تصويراً مؤثراً مستنهضاً الهمم، فالأعداء الصليبيون الغازون يفسدون ويفتكون، ويقتلون، وينشرون ذلك كله في بلاد المسلمين، وهذه هي طبيعتهم كما يقول ابن الخياط الدمشقي مصوراً جيوش الفرنجة الذين غزوا بلاد المسلمين في الشام[2]:

بنـو الشِّـركِ لا ينكـرون الفسـادَ ... ولا يعـرفـون مع الجَـورِ قَصـدا
ولا يَرْدعـون عن الـقتـل نَفْسـاً ... ولا يتـركـون من الفَتْـكِ جُهـدا
فكـمْ من فتـاةٍ بهـم أصبحـتْ ... تدُقُّ من الـخـوف نحـراً وخـداً

---

(1) انظر: ذيل تاريخ دمشق/ ١٣٧، النجوم الزاهرة ٥/ ١٤٩، الأنس الجليل ١/ ٣٠٨، القدس الشريف في تاريخ العرب والإسلام/ ٢١، المفصل في تاريخ القدس/ ١٥٦ - ١٥٨، العرب والروم واللاتين/ ٢٦٥.

(2) ديوان ابن الخياط الدمشقي/ ١٨٤، ١٨٥.
وانظر مثل ذلك في: كتاب الروضتين ٢/ ١٠٧، النجوم الزاهرة ٥/ ١٥١ - ١٥٢.

وأم عواتــق ما إن عَرَفْـ ـنَ حَرّاً ولا ذُقْــن بَرْدا
تكــاد عليهــن من خيفــةٍ تذوبُ وتــتــلفُ حُزنــاً ووَجــدا

ويصور القاضي أبوسعد الهروي (وقيل الأبيوردي) ما فعله العدو الغازي بالمسلمين في بيت المقدس من هوان، وقتل، وهتك أعراض، كما تقدم في الفصل الأول.

ولم يردع العدو الصليبي الغازي رادع عما فعله من افعال قبيحة منكرة دون مراعاة لمكانة بيت المقدس، وهي أعمال لا تقرها شريعة، كما تقدم في الفصل الأول أيضاً.

ويصور العماد الأصفهاني ما كان الفرسان الداوية قد قاموا به من تغييرات بالأقصى[1]. كما يصور ما كان الفرنج قد فعلوه بالصخرة المقدسة، فذكر أنهم كانوا قد غيروا رسومها، وبنوا عليها كنيسة ومذبحاً، وستروها بالأبنية، وزينوها بالصور والتماثيل[2].

★ ★ ★

ويصــور الأدب العــربي العــدو الغازي أهل كفر وشرك، ويظهر في هذا المجال الصراع في العقيدة جلياً بين المسلمين والفرنج الغزاة، وقد كانت هذه الحـروب حروبـاً دينية في بعض جوانبها، إذ هدف الفرنج إلى القضاء على الإسلام والمسلمين، وبدا ذلك واضحاً من الخطاب الأول الذي أصدره البابا، موجها الغزاة إلى المشرق الإسلامي، فهم بنو الشرك كما يصورهم الشاعر ابن الخياط الـدمشقي كما تقدم، وهم الذين ألبسوا بيت المقدس ثياباً من الكفر باحتلالهم المدينة المقدسة، وقد بقيت كذلك إلى ان نزع صلاح الدين ذلك اللباس عنها، وألبسها ثياب الإسلام والايمان[3].

---

(١) انظر: سنا البرق الشامي/ ٣١٤، الفتح القدسي/ ١٣٧، الروضتين ٢/١٠٧، ١٠٩.
(٢) انظر: سنا البرق الشامي/ ٣١٥، الفتح القدسي/ ١٤١، الروضتين ٢/١١٣.
(٣) انظر ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٢.

ويصـور ابن سنـاء الملك كيف صمتت أصوات الكفر وأهله بعد النصر العظيم الذي أحرزه المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي، كما يبدو في قوله[1]:

واستحـالتْ شقاشقُ الكفـر صمتـاً حين عادت تلك الشجـاعـة جبنـا

ويصور العماد الأصفهاني ما كان أسد الدين شيركوه يبعثه في نفوس أهل الشرك، كما يبدو في قوله من قصيدة يهنىء بها أسد الدين لما استقل بالوزارة في مصر[2]:

في حَلْقِ ذي الـشِّـركِ من عدوى سطاك شجـى

والقلبُ في شجَنَ والنَّفسُ في شَجَب

ويصور ابن الساعاتي ما أحس به أهل الشرك بعد هزيمتهم أمام المسلمين بقيادة صلاح الدين، فيقول[3]:

ففي لَهَوات الشِّرْكِ أرْسلها شجىً وفي جبهـة الايام غادرهـا وَسْمَـا

ويصورهم العماد الأصفهاني عصبة للشـرك، كما يبدو في قوله من قصيدة يمدح فيها تقي الدين عمر، في سنة ٥٨٢ هـ[4]:

إذا ما تقي الـدين صالَ تسـاقَـطَتْ لأقـدامـه من عُصبـهِ الشِّرك أرؤُسُ

ويصور العماد كيف أمات صلاح الدين الشرك وأهله، وأحيا الهدى وأهله، وقمـع طواغيت ذلـك الشـرك ورموزه، ونفاها من بيت المقدس، مثلما نفيت الأوثان من مكة بعد تحريره القدس[5].

---

(١) ديوان ابن سناء الملك/ ٨١٧، مفرج الكروب ٢/ ٢٣٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/ ٩١.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٨٠، كتاب الروضتين ١/ ١٥٩، مفرج الكروب ١/ ١٦٦، تاريخ ابن الفرات م ٤ ج ١/ ٤٥.

(٣) ديوان ابن الساعاتي ٢/ ٣٨٥.

(٤) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٩، كتاب الروضتين ٢/ ٧١، ٧٢، سنا البرق الشامي/ ٢٨٢.

(٥) انظر ديوان العماد الأصفهاني/ ٧٦.

وتبدو هذه الصورة جلية في النثر الفني الأدبي، فيما كتبه القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير، ومحيي الدين بن الزكي.

يصور القاضي الفاضل العدو الصليبي كافراً تقلص ظل رجائه وقد كان مبسوطاً قبل الفتح القدسي. ويصور ما آلت إليه بيوت الشرك وطوائفه، وهم اصحاب الشمال، إذ يبين كيف نقل الله «بيت المقدس من أيدي أصحاب المشأمة إلى ايدي أصحاب الميمنة»، وكيف جعل ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا، كما يصور كيف ارتفعت كلمة التوحيد، وكانت طرائقها مسدودة، وكيف أُقيمت الصلوات الخمس، وجهرت الألسن بالله اكبر[1].

ويصورهم محيي الدين بن الزكي، في خطبته القدسية التي كانت أول خطبة خطب بها في المسجد الأقصى بعد تحريره من الاحتلال الصليبي، بأنهم أهل الشرك والكفر الذين أذلهم صلاح الدين وقهرهم، ودحض شركهم وإفكهم، كما يصورهم بالأمة الضالة[2].

وبرز الصراع في العقيدة جلياً بين المسلمين، والعدو الصليبي الغازي، وقد برز هذا الصراع في الشعر جلياً، ومن ذلك ما قاله نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور[4] كما تقدم.

ومنه ما قاله مجد الدين محمد بن الظهير الأربلي مشيداً بالأيوبيين[4]:

هُمُ نَصروا التوحيدَ نصراً مؤزراً	به عَزَّ في الآفاقِ كلُّ مُوحد
وهم قَهروا غُلْبَ الفرنج بباسهم	فدانوا لهم بالرغم لا عن تودُّد
وردُّوا إلى البيت المقَّدسِ نُورَهُ	وقد كان في ليلٍ من الشِّرك أسْوَد

(١) انظر مفرج الكروب ٣/٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٢٤٢، وفيات الأعيان ٧/١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٦، صبح الأعشى ٦/٤٩٧، ٤٩٨، ٥٠٠، ٥٠٣، ٨/٢٨٢، ٢٨٥، ٢٨٩، شفاء القلوب/ ١٤٣.

(٢) انظر: الروضتين ٢/١١٠، مفرج الكروب ٢/٢٢١، الأعلاق الخطيرة - لبنان والأردن وفلسطين/ ٢١٣، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٨٧، شفاء القلوب/ ١٣٢.

(٣) انظر كتاب الروضتين ٢/١٠٣.

(٤) نفسه ١/١٩٦.

هاجم الشعراء المسلمون العدو الصليبي الغازي، في عقيدته، ومما يصور هذا ما قاله الحكيم أبوالفضل عبدالمنعم بن عمر بن حسان الجلياني، مشيداً بمنقذ القدس من ناحية، وساخراً من العدو الصليبي، كما يبدو في قوله[1]:

يا مُنْقِذَ القُدس من أيدي جبابرةٍ ... قد أقسموا بذراع الربّ تَدْخُلُه
فما كذبوا كذبهم في وصف ربهم ... وصدَّق الوعد مأموناً محوِّله
لما سَبى القُدس قالوا كيف نتركها ... والرب في حفرة منها تمثله
فكم مليك لهم شق البحار سرى ... لينصروا القَبر والأقدار تخذله

ولأنهم أهل شرك، فإننا نجد العماد الأصفهاني، يصورهم بأنهم أمة النار، كما يبدو في قوله مخاطباً صلاح الدين من قصيدة قدسية[2]:

بَعثتَ إمامَ أُمةِ النار نحوها ... فزارَ أمامَ أرْناطها ذلك الحَبْسا
ولله نَصُّ النُّصْر جاء لنصلِهِ ... فلا قَوْنساً أبْقى ولا قِنْسا

ويبرز هذا الصراع جلياً في النثر أيضاً، ومن ذلك ما جاء في رسالة قدسية كتبها القاضي الفاضل، إلى الخليفة العباسي في بغداد، على لسان السلطان صلاح الدين[3].

ويصور العماد، في كتاب جامع للفتح القدسي الأيمن كتبه على لسان صلاح الدين، إلى أخيه سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب، في اليمن، ما كان عليه بيت المقدس في ظل الاحتلال الصليبي، وقد بقي كذلك إلى أن استفتحه المسلمون في سنة ٥٨٣ هـ، وذلك بنهوض الأمة المحمدية إلى الكفر سرية سريه[4]، للقضاء على أهل النار، كما يصور العماد الصراع في

(١) كتاب الروضتين ٢/١٥١، وانظر ذلك في: ديوان ابن سناء الملك/ ٨١٨، مفرج الكروب ٤/٢٣٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٩١، الروضتين ٢/١٠٥، ديوان طلائع/ ٦٣، ديوان أسامة/ ١٦٥.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٦، كتاب الروضتين ٢/٨٣، ٨٤.

(٣) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٣، ١٧٤، الدر النظيم/ ٢١، مفرج الكروب ٣/٣٣٨، وفيات الأعيان ٧/١٨٢، صبح الأعشى ٦/٤٩٩.

(٤) الفتح القدسي/ ١٩١، ١٩٢.

العقيدة مرتبطاً بالصراع العسكري[1].

ويصور القاضي محيي الدين بن الزكي، في خطبته القدسية، ذلك الصراع في العقيدة، كما يبدو في حديثه عن عبودية المسيح عليه السلام، وهو الذي كرمه الله بنبوته، «فلم يزحزحه عن رتبه عبوديته»، ويشيد بالمسلمين الذين حرروا بيتهم المقدس من معالم الشرك، كما يبدو في قوله: «وشكركم الملائكة المنزلون على ما اهديتم إلى هذا البيت من طيب التوحيد ونشر التقديس والتحميد[2].

★★★

ويصور النثر الفني القدسي الاعداء الصليبيين بأنهم أهل رجس وآثام، وقد اقترن هذا مع الدعوة إلى تطهر بيت المقدس، وأهله، ومقدساته، من الشرك والرجس، والآثام، ومن ذلك قول الحافظ ابي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر، مهنئاً نورالدين زنكي بدخول مصر، وحاثاً على تحرير بيت المقدس، وكان ذلك في سنة ٥٦٤ هـ[3] كما تقدم.

ويدعو العماد الأصفهاني إلى تطهير القدس من الغزاة الصليبيين ورجسهم، كما يبدو في قوله مادحاً نورالدين ومهنئاً بملك مصر[4] كما تقدم.

ويشيد العماد بالسلطان صلاح الدين، إذ استطاع تطهير بيت المقدس من رجس الصليبيين[5]، ويركز الشعراء على الدعوة إلى تطهير المسجد الأقصى من دنس العدو الصليبي الغازي، ومن ذلك قول ابن منير الطرابلسي، مادحاً

(١) انظر الفتح القدسي/ ٦٤.

(٢) انظر: الروضتين ٢/١١١، مفرج الكروب ٢/٢٢٢، ٢٢٤، وفيات الأعيان ٣/٣٦٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٨٧، شفاء القلوب/ ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥.

(٣) انظر: خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ١/٢٧٧.

(٤) انظر: ديوان العماد الأصفهاني/ ٣٢٦، ٣٨٢، الروضتين ١/١٧٥، ١٧٨، ١٧٩، مفرج الكروب ١/١٧٥، ١٧٨، تاريخ ابن الفرات م ٤ ج ١/٧٢، خطط المقريزي ٢/١٩.

(٥) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢١٢، كتاب الروضتين ٢/١٠١، ١٠٢.

نورالدين زنكي، في سنة ٥٤٦ هـ[١]:

آثارهم نجس أذال المسجدَ الـ أقصى فصن ما دنّسوه وطهر

وقوله مادحاً نورالدين أيضاً، ومهنئاً بفتح انطرطوس، وحاثاً على تدمير العدو الصليبي وتطهير الأقصى أيضاً[٢]:

ألقِ العصا فيمن أطاعَ ومَنْ عَصى منهم ودمّر أرضهُم تدميرا
لا يُلههِمْ أن قد مَننْتَ وشُنّها شَعْواء تصلى الكافرين سَعيرا
باكِرْ بِركْز قَناً تُنسّفُ أُسّسها والخيلُ صورٌ كي تُزيرك صُورا
وتريك لامعةُ التّريك بساحة الـ أقصى مطهرةً لها تطهيرا

ويصور أبوعلي الحسن بن علي الجويني تطّهير بلاد المسلمين من الشرك وأهله في نصف شهر، كما يبدو في قوله مخاطباً صلاح الدين[٣]:

في نصف شهر غَدا للشرك مُصطلِماً فَطُهرّتْ منه أقطارٌ وبُلدان

وبهذا خلت ساحات بيت المقدس، ومقدساته من بني الأصفر، كما يبدو في قول الحكيم ابي الفضل الجلياني، من قصيدة قالها مهنئاً السلطان صلاح الدين بعافيته في سنة ٥٨٢ هـ، ورابطاً بين النصر في بيت المقدس، وفتح أم القرى[٤]:

إذا صفرتْ من آل الاصفر ساحةُ الـ ـقدس ضاهتْ فتح أم القُرى قدما

وقوله في مستهل قصيدة أخرى أنشأها في السنة ذاتها[٥]:

الله أكبر أرضُ القُدس قد صفرت من آل الاصفر إذ حين به حانوا

وبهذا أصبح العدو الغازي المحتل عبرة لغيره، كما يبدو في قول الرشيد النابلسي، من قصيدة في الفتح القدسي[٦]:

(١) كتاب الروضتين ٧٨/١.
(٢) نفسه ٨٦/١، ٨٧.
(٣) نفسه ١٠٤/٢، ١٠٥.
(٤، ٥) نفسه ١١٦/٢، وانظر ص ٤١ من هذا البحث.
(٦) كتاب الروضتين ١١٨/٢، شفاء القلوب/ ١٦٦، ١٦٧.

أضحى بنو الأصفر الأنكاس موعظةً فيهـا لأعـدائـك الآيات والنُّـذُرُ
صاروا حديثـاً وكـانـوا قبلُ حادثـةً على الـوَرى يتقيهـا البـدوُ والحضرُ
سلبتـهـم دولـة الـدنيا وعيشتهـا حتى لقـد ضَجرتْ من وَفْدِهم سَقَر
هو الـذي سَلَب الافـرنـج دولتهمْ ومُـلكهم يا ملوك الارض فاعتبـروا

★★★

ويبدو تصويرهم بأنهم أهل رجس وآثام جلياً في النثر الأدبي، فالقاضي الفاضل يصور الأرض طامثة في ظل الاحتلال الصليبي كما يبدو في قوله، في رسالته القدسية: «وأضحتْ الأرضُ المقدسة الطاهرة وكانت الطامثَ».

ومثل ذلك ما جاء في رسالة كتبها إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، في سنة ٥٨٥ هـ، على لسان صلاح الدين، مستنجداً، فقد ذكر أنه طهـر بيت المقـدس «ممن كان يعارض برجْسه تَقديسه، ويزعج ببناء ضلاله تأسيسـه». ويصور بيت المقدس جنة الإسلام، ولكن المسلمين خرجوا منها «خروج أبيهم آدم من الجنة». «وأعقبهم فيها إبليس الكفر»[1]. ويدعو العماد الأصفهاني إلى تخليص الأقصى وتطهيره من الكفر وأهله، يقول في حديثه عن فتـح بيت المقـدس: «. . . وإقصاء الذين أقصاهم الله بلعنته من الأقصى، وجذب قياد فتحه الذي استعصى، وإسكات الناقوس منه بإنطاق الأذان، وكيف كفّ الكفر عنه بأيمان الايمان، وتطهيره من أنجاس تلك الاجناس، وأدناس أدنى الناس».

ويبدو مثل هذا جلياً في حديثه عن غاية صلاح الدين في توجهه إلى بيت المقدس، يقول: «وقصده استئصال نبات الشِّرك وحصده من أرض الله تعالى، وتقدس بتطهير الارض المقدسة بإهلاك الطائفة الطاغية». ويصور تطهير مواقف الأنبياء من أدناس الأرجاس كما جاء في رسالته القدسية التي كتبها إلى الديوان العزيز في بغداد مبشراً بفتح القدس[2]. ويصور العماد القدس وقد تقدست من

(١) مفرج الكروب ٣/٣٣٨، وفيات الأعيان ٧/١٨٢، صبح الأعشى ٦/٤٩٩، ٥٧٨.
(٢) انظر: الفتح القدسي/ ١١٦، ١١٧، ١٣٦، ١٤٧، ١٤٨، ٣٠٩، ٥٨٠.

رجس الفرنج كما يبدو في رسالته القدسية التي كتبها إلى الديوان العزيز ببغداد مبشراً بفتح القدس[1].

ويصور محيي الدين بن الزكي، في خطبته القدسية، تطهير بيت المقدس من «أدناس الشرك وأوضاره». ويقرن ذلك بالدعوة إلى تطهيرالأرض، واجتثاث أصول الكفر وفروعه، استجابة لما تدعو إليه الملة المحمدية[2].

★★★

ويصور الأدب العربي الذي قيل حول الفتح القدسي الجيش الصليبي الغازي، جيشاً جراراً كثير العدد والعدة، فهو كالسيل، أو كالجبال، قدم من أوروبا لغزو العالم الإسلامي، في الشام، ومصر، والجزيرة. ويصور ابن الخياط الدمشقي تلك الجيوش التي غزت بلاد المسلمين في الشام، وعلى رأسها بيت المقدس، معرضاً بها، ومصوراً تلك الجيوش من ناحية، ومعرضاً بالحكام المسلمين، الذين توانوا عن الجهاد من ناحية أخرى، كما يبدو في قوله[3]:

إلى كَمْ وقَدْ زَخرَ المشركون ... بسيْل يُهالُ له السَّيْلُ مَدًّا
وقد جاش من أرض إفرنجةٍ ... جيوشٌ كمثل جبالٍ تردى

ويصورها فتيان الشاغوري بحراً متلاطم الامواج، كما يبدو في قوله[4]:

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهُمْ ... يتذامرون على متون الضُّمَّرِ
وكأنهمْ بحرٌ تدافَعَ مَوْجُهُ ... بظُبىً وزُعفٍ مُحْكمٍ وسَنُّور

ويصورهم أسوداً قبل الهزيمة، ثعالب بعدها، ويستغرب أن تصبح تلك الأسود الآدمية، طعاماً للأسود المفترسة، كما يبدو في قوله[5]:

آضَتْ أُسودهم ثعالبَ ذلةٍ ... فَهم فرائسُ كلِّ ليثٍ قَسْورِ

---

(١) انظر: الروضتين ٢/٩٦، ٩٧.

(٢) انظر: الروضتين ٢/١١٠، ١١١، مفرج الكروب ٢/٢٢٠، وفيات الأعيان ٣/٣٦٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٨٧، شفاء القلوب/ ١٣١، ١٣٢.

(٣) ديوان ابن الخياط/ ١٨٢.

(٤) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٣، ١٤٤.

(٥) نفسه/ ١٤٤.

ماتــوا بغُـلَّتـهــم وأروى منــهــمُ   بيضَ الصــوارمِ بالـدَّمِ المُثعنجـر

وهم جبابرةٌ قبل المعركة، ولكنهم أصبحوا تائهين أذلاء بعدها، بعد أن منوا فيهـا بالهزيمة، فالحكيم أبوالفضل عبدالمنعم الجلياني يصورهم في قدسيته الكبرى، فيقول[1]:

ووقـعــة يوم الـتــل إذ قـبـضت به   جبــابــرةُ الإفــرنـج حَيْرى وَشُـرَّدَا
عليهـم مــن الـبلوى سرادقُ ذلــةٍ   ومَــنْ ذَلَّ ماتــتْ نَفــســه فتـقـيدا

وهم كثيرون أقوياء كالجبال الشماء ذات المسالك الصعبة، ولكن ذلك لم يجد نفعاً أمام الجيوش الإسلامية بقيادة السلطان صلاح الدين الأيوبي، كما يبدو في قول الرشيد النابلسي، من قدسية أنشأها بمناسبة الفتح القدسي[2]:

يومٌ به الـتــأمَ الـكـفــارُ في عددٍ   جَم ولـكــن لكـســرٍ ليس يَنجبِـرُ
فالــرَّوعُ مُتَّصِــلٌ والصبــرُ منفصـل   والـنَّقْــعُ مرتفــعٌ والنَّصــرُ مُنحــزرُ
جاءوا كمــا أقبــلَ الـطودُ الأشَمُّ لَهُ   مِن حيثُ ما سرتَ فيه مسلكٌ وَعِـرُ
وجئتهم مثلمــا انقضَّ القضــاءُ فلا   والله لم يُغْـنِـهــم بأسٌ ولا وَزَرُ

ولكن تلك الجيوش الجـرارة التي أحـرزت نجـاحاً في الحملة الصليبية الأولى بسبب أوضاع العالم الإسلامي كما تقدم، لم تلق مثل ذلك النجاح في ظل العهد الزنكي، ثم في ظل عهد صلاح الدين الأيوبي، فقد مُنوا بالهزائم المريرة في هذين العهدين، ولم تجدِ نفعاً جيوشهم الجرارة، وآلوا غثاءً، كما يبدو في قول الحكيم أبي الفضل عبدالمنعم الجلياني، في قدسيته الكبرى[3]:

وجَـرّوا جيوشاً كالسيول على الصوا   فآضتْ غُثــاءً في الـبــطاح مُمــدَّدا

ويصـور القـاضي الفـاضل الأعداء، في رسالته القدسية، كثيري العدَد والعـدُد، فهم أكثر من الحصى عدداً[4]. ويصـورهم العمـاد الأصفهاني قد «خرجوا عن العد والاحصاء، وانهم كانوا عدد الحصى، وذكر أنهم زادوا على

(١) كتاب الروضتين ٢/١١٧، ١١٨.

(٢) شفاء القلوب/ ١٦٦.   (٣) كتاب الروضتين ٢/١١٧.

(٤) انظر: رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٣، الدر النظيم/ ٢١، مفرج الكروب ٣/٣٣٨، وفيات الأعيان ١٨٢/٧، صبح الأعشى ٦/٤٩٩، ٨/٢٨٤.

خمسين الفا[1]. ويذكر القاضي الفاضل انه لما نازل المسلمون القدس رأوا فيها «جمعاً كيوم التناد»، كما يقول. ويصورهم أولي «عزائم قد تألفت وتألبت على الموت»، قبل ما حل بهم من هزائم، ولكن ذلك كله لم يُجدِ فتيلاً، فقد تحولت سيوفهم إلى عصي، وكلت حملاتهم، وعثرت أقدامهم. وغضت عيونهم[2]. ويصور العماد خروج الفرنج استعداداً لمعركة طبرية في سنة ٥٨٣ هـ، وقد خرجوا في جمع شاك، وجمر ذاك، برماحهم، وسيوفهم، ودروعهم، ويبين أن الفرنج كانوا يرون الشدة والعزيمة في ألويتهم، والنوازل في بيارقهم، والأدواء في داويتهم، والسيف البتار في اسبتاريتهم. ويصور استعدادهم في صفورية. مرتبين جيوشهم. حاشدين حشودهم، رافعين ألويتهم، متسلحين برماحهم وسيوفهم، ثابتي الجأش، رافعي صليب الصلبوت[3].

ويصور جيشهم وهم سائرون إلى طبرية بأنهم «قد ماجت خضارمهم، وهاجت ضراغمهم، وطارت قشاعمهم، وثارت غماغمهم، وسدت الآفاق غمائهم، وهم كالجبال السائرة، وكالبحار الزاخرة، أمواجها متلاطمة، وأفواجها مزدحمة، وفجاجها محتدمة، وأعلامها مصطلمة...».

ويصورهم في كتاب جامع حول الفتح القدسي، على لسان صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام، ظهير الدين طغتكين في اليمن، في تحركهم نحو طبرية، قد استعر جمرهم، وزخر بحرهم، و«أتوا في عددهم وعديدهم، وحدهم وحديدهم، وخيلهم ورجلهم، وطلهم ووبلهم، وفارسهم وراجلهم، وأحزاب ضلالهم، وأبطال باطلهم»، كما يصورهم وكأن «ساكنهم لا يتحرك، وصفهم لا ينفض، وجدارهم لا ينقض، وبنيانهم مرصوص، وطائرهم عن الطيران محصوص»[4].

---

(١) انظر: الفتح القدسي/ ٧٤، ١٢٤، سنا البرق الشامي/ ٢٩٥، ٣١٠.

(٢) انظر: مفرج الكروب ٣٣٨/٣، ٣٤٠، ٤٩٩، وفيات الأعيان ١٨٢/٧، ١٨٤، صبح الأعشى ٥٠١/٦، ٢٨٤/٨، ٢٨٦.

(٣) انظر: الفتح القدسي/ ٦٣، ٦٥، ٧٣، ٩٤، ١٩٢، ١٩٣، سنا البرق الشامي/ ٢٩٣.

(٤) انظر: الفتح القدسي/ ٧٧، ٨١، ١٩٤، ١٩٥.

ويركز الأدب العربي على تصوير ما آلت إليه الجيوش الصليبية في مصيرها. ولا تكاد قصيدة قدسية، أو رسالة قدسية، أو خطبة قدسية، أو كتاب قدسي، يخلو من تصوير ما حل بالعدو الصليبي الغازي من هزائم، وما آلت إليه جيوشهم الجرارة، ويركزون على ما حل بملوكهم وقادتهم، والمصير الذي آلوا إليه، ويسخرون منهم سخرية مريرة.

يصور العماد الأصفهاني الكسرة التي نزلت بهم في معركة حطين، والدمار الذي حلّ بجيوشهم، والموت الذي حط بفنائهم، فما عدت ترى جيشاً جراراً، ولا تسمع أبطالاً كانوا يزأرون[1].

ويصور الجيش الصليبي وصفاً يمور بالسخرية والتهكم، إذ تصوره جبلاً نسفته الريح، كما يبدو في قوله، من قصيدة يمدح بها الملك الظاهر غازي[2]:

جيشُ الفرنج إذا لاقى سَوابقهم　　　كأنّه جَبَلٌ بالريحِ منسوفُ

★ ★ ★

ويفصل القاضي الفاضل في توضيح معالم الصورة التي آل العدو الصليبي اليها، بعد الهزيمة التي مني بها، كما جاء في رسائله العديدة، ومنها رسالته القدسية التي كتبها الى الخليفة العباسي في بغداد، على لسان صلاح الدين، بمناسبة الفتح القدسي في سنة ٥٨٣ هـ، وفيها يصور ما لحق بهم من ذل، كما يبدو في قوله: «وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة، فأدلجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة». ويصور المآل الذي آلوا إليه، على الرغم من كثرة أسلحتهم، وكثرة عدَدهم، ويقابل بين ما كانوا عليه قبل الفتح في شجاعتهم وقوة عزائمهم، وما آلوا إليه بعده، كما يبدو في قوله: «وقد أظفرَ الله بالعدو الذي تَشظَّتْ قناتُهُ شَفَقا، وطارتْ فِرَقهُ فرقاً، وفُلَّ سيفه فصار عصا، وصُدعتْ حصاتُه وكان الأكثر عدداً وحصى، وكَلتْ حملاته، وعثرتْ قَدَمُه وكانت الأرض لها

---

(١) انظر ديوان العماد الأصفهاني ٢٣٤، ٢٣٥، كتاب الروضتين ٢/١٠٧.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٩٧.

حليفـة، وغُضتْ عينـه وكانت عيونُ السيوفِ دونها كسيفه، ونام جفنُ سيفه، وكانتْ يقظتُهُ تُريق نُطَفَ الكرى من الجفون، وجُدعتْ أنوفُ رماحه، وطالما كانت شامخةً بالمنى أو راعفةً بالمنون»، ويصور فرسانه الشجعان مذعنين، لا ملجأ لهم ولا نصرة، وقد ضُربت عليهم الذلة والمسكنة، ويصورهم وقد هزموا هزيمة لا جبر لها، وصُرعوا صرعة لا حياة لكفرهم بعدها، ويصور أسراهم وقتلاهم[1].

ويصـورهـم العمـاد الأصفهـاني قبل ما حلَّ بهم من هزائم بأنهم شديدو العرائك، وقد «خرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت»، وهم يقاتلون جنداً ورعية، وقد كانوا متمادين في طغيانهم، فظاظاً غلاظاً، نزلت الرقة من قلوبهم. وأما بعد معركة حطين، فقد انتشرت جثثهم في ساحة المعركة، يقول: «وعبرتُ بها ـ حطين ـ فلقيتُ أشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة، بالعراء عراة، ممزقة بالمـازق، مفصلة المفـاصـل، مفـرقـة المـرافق، محذوفة الرقاب، مقطوعة الأصلاب، مقطعة الهام، موزعة الأقدام، مجدوعة الآناف، منزوعة الأطراف، وكانوا عبرة لأولي الأبصار»[2].

ويذكر العماد أنه عبر بحطين، فرآها موضع الاعتبار، وقد رأى «الرؤوس طائـرة، والنفوس بائدة، والجسوم رمتها السوافي، والرسوم درستها العوافي»، وأبصر خدودهم «ملصقة بالتراب، وقد قطعوا آرابا»[3]، ويصور تعلقهم بكنيسة القيامـة، وتـأهبهم للدفـاع عنهـا، كما يصورهم وقد «استشاطت شياطينهم، وسـرحـت سراحينـهـم، وطـغت طواغيتهم . . .، وهـاج هائجهم، ومـاج مائجهم . . .، وحضتهم قسوسهم، وحرضتهم رؤوسهم، وحركتهم نفوسهم»[4].

(١) انـظر رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٣، الدر النظيم/ ٢١، مفرج الكروب ٣/٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، وفيات الأعيان ٧/١٨١، ١٨٢، صبح الأعشى ٦/٤٩٩، ٥٠١، ٨/٢٨٤، شفاء القلوب/ ١٤٣، ١٤٤.

(٢) الفتح القدسي/ ٥١، ٨٢، وانظر: سنا البرق الشامي/ ٢٩.

(٣) سنا البرق الشامي/ ٢٩٧، ٢٩٨.

(٤) الفتح القدسي/ ١١٩.

وما أجمل ما يصور به العماد مصير الفرنج بعد الفتح القدسي، في كتاب كتبه عن السلطان صلاح الدين إلى الناصر لدين الله في بغداد، فيحدد الأيام التي لاقوا فيها سوء المصير، وهي من يوم الخميس، الثالث والعشرين من ربيع الآخر، إلى يوم الخميس منسلخه، فيقول: «وتلك سَبعُ ليالٍ وثمانية أيام حُسوماً، سخرها الله على الكفار، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية»، ورايتها إلى الإسلام ضاحكة كما كانت من الكفر باكية، فيوم الخميس الأول فُتحت طبرية، وفاضَ ريُّ النصرِ من بحيرتها، وقضت على جسرها الفرنج فقضت نحبها بحيرتها، وفي يوم الجمعة والسبت كُسر الفرنج الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذ القُرى وهي ظالمة...»[1].

وأمـا ملوكهم وقادتهم، فقد كان مصيرهم مصير جيوشهم، فملوكهم ذلوا وهم يقادون في بحر من الدماء، كما يبدو في قول العماد الأصفهاني[2]:

حَطَطْتَ على حِطّين قَدْرَ ملوكهمْ ... ولَمْ تبقِ مِنْ من أجناسِ كُفرهمُ جنسا

تُقاد بدأماءِ الدماءِ مُلوكهمْ ... أُسارى كسُفنِ اليمِّ نَطَّتْ بها القَلسا

ويصورهم الحسن بن علي الجويني، وقد أصبحوا صيداً في يد صلاح الدين، ويوازن بين صورتهم هذه، وصورتهم من قبل، وقد كانوا سادة صيدا، كما يبدو في قوله[3]:

أضْحتْ ملوكُ الفرنجِ الصِّيدُ في يده ... صَيْداً وما ضَعُفوا يوماً وما هانوا

كمْ مِنْ فحولِ ملوكٍ غُودِروا وهُمُ ... خوف الفرنجةِ ولدانٌ ونسوانُ

ويوازن الجواني بين ملوكهم، وقد كانوا سادة أحراراً، وملكوهم الذين آلوا مقيدين بعد هزيمتهم، كما يبدو في قوله، في قصيدته القدسية[4]:

ومليكُهُمْ في القَيدِ مَصفودٌ وَلَمْ ... يُرَ قبلَ ذاكَ لهم مليك يُؤسَرُ

---

(١) الفتح القدسي/ ٥١٨، ٥١٩.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٤، كتاب الروضتين ٢/ ٨٣، مرآة الزمان ١٤/ ١٥٢، النجوم الزاهرة ٦/ ٣٤.

(٣) كتاب الروضتين ٢/ ١٠٥.

(٤) كتاب الروضتين ٢/ ١٠٥، تاريخ الخلفاء/ ٤١٨.

ويصور ابن سناء الملك الأسرى من ملوكهم، وقد انقلبت المقاييس عندهم، بعد أن كانوا ملوكاً وفرساناً عظماء يتمنون اللقاء في ساحات الوغى، فاصبحوا أذلاء، أرقاء، كما يبدو في قوله موازناً ومقابلاً بين الصورتين، ويبدو ذلك ممزوجاً بالسخرية والتهكم[1]:

وَحَوى الأسرُ كل مَلْكٍ يظنُّ أنَّ الدهر يَفنى ومُلْكُه ليسَ يفنى
والمليكُ العظيمُ فيهم أسيرٌ يَتَثنّى في أدْهم يَتثنى
يحسبُ النومَ يَقظةً ويظن الشخص طَوْداً ويبصرُ الشمسَ دَجْنا
كمْ تمنّى اللقاءَ حتى رآه فَتمنّى لو أنه ما تَمنّى
ظنَّ ظَنّا وكنت أصدقَ في اللّه يقينا وكان أكذب ظَنا
رَقّ من رَحْمةٍ له القيدُ والغل عليه فكلّما أنَّ أنّا

ويركز الشعر على تصوير عدد من ملوكهم وقادتهم الذين كان لهم أثر جلي في الحروب الصليبية، ومنهم (بلذوين)، و(الجوسلين)، و(أرناط)، وغيرهم من الملوك والقادة، فأسامة بن منقذ يتحدث عن كسرهم، وأسرهم، ويعاهد المسلمين على أنه لن تنثنى خيول المسلمين إلا بتحرير القدس، كما يبدو في قوله، من قصيدة يتحدث فيها عن أفعال نور الدين زنكي[2]:

ونحن أسَرْنا (الجوسلين) ولمْ يكُنْ ليخْشَى من الأيام نائبةً تعرو
وكان يظن الغر أنا نبيعه بمالٍ، وكم ظنّ به يهلكُ الغِرُّ
فلما اسْتبحْنَا مُلكهُ وبلادَهُ ولَمْ يبْقَ مالٌ يُستباحُ ولا ثَغرُ
ونحن كسرْنا (البغدوين) وما لمن كسرناه إبلالٌ يُرجّى ولا جَبْرُ
فَسله اللعين الخائنَ الخَائن الذي له الغدرُ دينٌ: ما به صَنعُ الغَدرُ
وقد ضاقت الدُّنيا عليه برحْبها فَلَمْ يُنجِه برٌّ ولَمْ يَحمِه بَحْرُ
أفي غدره بالخيل بعد يمينه بإنجيله بين الأنام لَهُ عُذرُ
دعته إلى نكثِ اليمينِ وغَدرهِ بذمته النَّفسُ الخسيسةُ والمكرُ

إلى أن يقول:

---

(١) ديوان ابن سناء الملك/ ٨١٨.

(٢) ديوان أسامة بن منقذ/ ٢٠٣، ٢٠٤.

ومـا تنثـنّي عنـه أعنـةُ خَيلنـا ولـو طار في أفق السمـاء به النسـرُ
إلى أن يزورَ الجـوسلين مُسـاهمـاً له في دياجٍ ما لليلتـهـا فجـرُ
ونـرتجـعَ القُـدسَ المُـطهَّـر منهمُ ويُتلى بإذن الله في الصخـرة الـذِّكْرُ

ومن الواضح ان أسامة يقابل بين صورتين لأولئك القادة، صورة قبل الهزائم التي كانت تحل بهم، وأخرى بعدها، فهو يصور الجوسلين بأنه لم يكن يخشى نائبة نوائب الأيام، وقد أصبح أسيراً يحاول أن يفتدي نفسه بالمال، ولكن أنّى له ذلـك؟ ويصفهم بأنهم أصحـاب خيانة، وغدر، ومكر وأما أرناط، فيصوره العماد الأصفهاني، في قصيدة قدسية، في غدره وبغيه ونكثه للعهود، وهو الذي عمل على مهاجمة أقدس مقدسات الإسلام والمسلمين في مكة والمدينة، وقد ألحق بالإسـلام والمسلمين الكثير من الأذى، واعتـدى على قوافـل حجيج المسلمين، ولهذا نال جزاءه، إذ قتله صلاح الدين بسيفه. ويركز العماد على تصوير قتله بأسلوب يفيض بالسخرية، والتهكم. ويقرن ذلك بتمجيد صلاح الدين، وتمجيد السيف الذي طهر الأرض من شر أرناط وآثامه، كما يبدو في قوله[1]:

شَكـا يَبَسـاً رأسُ البِرِنْسِ الذي به تَنـدَّى حسـامٌ حاسمٌ ذلـك اليَبْسـا
حسـا دَمَـهُ ماضِي الغـرارِ لغـدرِهِ ومـا كان لولا غَدْرُهُ دَمَـهُ يُحسـى
فللّه ما أهـدى يَداً فتـكَـتْ به وأطهـرَ سيفـاً معـدماً رجْسَهُ النجْسَا
نَسَفْت به رأسَ البـرنس بضـربـة فأشبـه راسي رأسـه العِهْن والبـرسا
تَبـوَّغَ في أوداجـهِ دمُ بَغـيِهِ فصـالَ عليه السيفُ يَلْحسُـهُ لَحْسَـا
بعثتَ إمـامَ أمـةِ النـارِ نحـوهـا فزارَ أمـامَ أرنـاطهـا ذلـك الحَبْسَـا

ويصوره، في قدسية ثانية، يتحدث خلالها عن معركة حطين، بأنه كان عظيم الكفـر والكفار، ويشيد بالسيف الذي برى رأسه. ويصوره في شركه، وغدره، وخبثه، ويصور رأسه وقد اجتثت عن جسده، وهي صورة جديدة مثيرة غريبة، كما يبدو في قوله[2]:

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٥، ٢٣٦، كتاب الروضتين ٢/٨٣، ٨٤، وانظر ص ٨٢ من هذا البحث.
(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٢٩، ٢٣٠، كتاب الروضتين ٢/٨٣.

يا طُهر سَيفٍ برى رأس البرنس فقد أصابَ أعظمَ مَنْ بالشِّرك قد نَجسا
وغاصَ إذا طارَ ذاكَ الرأسُ في دمه كأنه ضفدعٌ في الماء قد غَطَسَا
ما زالَ يعطسُ مزكوماً بغدْرَته والقتل تشميتُ مَنْ بالغدرِ قد عَطَسا
عَرَّى ظُباه من الأغمادِ مهرقة دماً من الشِّرك رداً هابه وكسا
مَنْ سيفه في دماءِ القوم منغمسٌ مِنْ كل مَنْ لَمْ يَزَلْ في الكفر منغمسا

ويسخر الحكيم أبوالفضل عبد المنعم الجلياني من ملوك الصليبيين وقادتهم، فقد كانوا يظنون أنهم ملوك الأرض الذين يخضع لهم الملوك الآخرون، وتزداد سخريته عندما يصور أحد ملوكهم قادماً إلى المشرق الإسلامي لحماية كنيسة القيامة، ويصوره متصرفاً بالعراق وكأنه ملك له، وإذا به يؤول إلى سوءَ المصير، كما يبدو في قوله[1]:

وقالوا ملوكُ الأرضِ طوّعَ قيادِنا إذا الكل منهم في القيود معبدا
وقد أقطعَ الكندُ العراق موقعا فأودع سجنا وسط جلق مؤصدا
وأقسمَ أنْ يَسْقي بدجلة خيله فما ورد الأرْدُن إلا مُصَفَّدا
فما عقدَ الرايات إلا محللا ولا حَلَّلَ الرايات إلا معقدا

ويصور القاضي الفاضل، في رسالته القدسية، كيف خرج «باليان بن بارزان» طالبا تسليم بيت المقدس بالسلام والأمان، وقد بدا ذليلاً. ويقابل القاضي الفاضل بين ما كان عليه القائد الصليبي، وما آل اليه من سوء المصير، يقول: «وفي الحال خرج طاغية كفرهم، وزمام أمرهم ابن بارزان» سائلاً ان يؤخذ البلد بالسلام لا بالعنوة، وبالأمان لا بالسطوة، وألقى بيده إلى التهلكة، وعلاه ذل الملكة (أي ان يصبح مملوكاً) بعد عز المملكة، وطرح جبينه في التراب، وكان لا يتعاطاه طارح». ويصور المفاوضات التي جرت بين المسلمين وعدوهم من أجل التسليم، وكيف قُبل منهم ذلك «عن يدٍ وهم صاغرون»[2].

ويصور العماد الأصفهاني، في حديثه عن فتح بيت الله المقدس، كيف

(١) كتاب الروضتين ٢/١١٧.

(٢) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٨٣، ١٨٤، الدر النظيم/ ٢٩، ٣٠، مفرج الكروب ٣/٣٤١، وفيات الأعيان ٧/١٨٥، صبح الأعشى ٦/٥٠٢، ٨/٢٨٧.

شغل بال باليان هذا عندما سمع بخبر توجه السلطان صلاح الدين نحو القدس لفتحه، ويصوره وقد اشتعل باله بالنيران، وضاقت به وبغيره من القادة منازلهم، وكأن «كل دار منها شرك للمشرك» منهم.

ويصور «إبرنس الكرك» «ناصباً أشر الشرك نصب الشَّرَك». ويصوره بأنه كان «أغدر الفرنجة، وأخبثها، وأفحصها عن الردى، وأنقضها للمواثيق المحكمة وأنكثها». ويصور مصيره بعد معركة حطين، وكيف ضُربت رقبته، وعُجل به إلى النار، مأوى أهل الغدر(١).

★ ★ ★

ويصور الأدب العربي القدسي فرسانهم وكأنهم السيول عدداً، والجبال قوة وثباتاً، وهم الذين قتلوا، ونهبوا، وهتكوا، فكانت سيوفهم ورماحهم داميات، دون أن يلقوا مقاومة حقيقية، في الحملة الصليبية الأولى لانقسام المسلمين، وتفرقهم، واستسلامهم، ومحاربة بعضهم بعضاً.

ويصورهم العماد الأصفهاني ذوي أخلاق خشنة قاسية، ولكنها خشونة وقسوة ذهبت بحد السيف، كما يبدو في قوله(٢):

أَتَـوْا شُكُسَ الأخـلاق خُشْنـاً فَلَيَّنتْ
حدودُ الرّقاق الخُشْن أخلاقَها الشُّكْسَا

طَردْتَهُمُ في الملتقى وعَكَستَهُمْ
مجيداً بحكم العَزم طرْدَكَ والعَكْسَا

ويركز الأدب في حديثه على فرقتين عسكريتين من أهم فرق الجيوش الصليبية، وهما الداوية، والاستبارية، وقد اشتهر فرسان هاتين الفرقتين بالقوة والشجاعة، وقد ألحقوا بالمسلمين أذى كبيراً، وكان لهم دور بارز في الحروب الصليبية، إلى حد أصبحوا فيه حماة الصليبيين في الشام.

يدعو العماد الأصفهاني السلطاني صلاح الدين إلى القضاء على

(١) الفتح القدسي/ ٥٩، ١١٧، وانظر: ١٢٦، ١٢٧، ١٩٧، ١٩٨، سنا البرق الشامي/ ٣١١.
(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٤، كتاب الروضتين ٢/ ٨٣.

الاستبارية كما يبدو في قوله من قصيدة أنشأها في سنة ٥٧٢ هـ[١]:

فَسِرْ وافتح القُدس واسْفُكْ به ... دماءً متى تُجرِها تَنظَفِ
وأهْدِ إلى الاسبتارِ البَتّارَ ... وهُدَّ السقوفَ على الأسقفِ
وخَلِّص من الكفر تلك البلادَ ... يُخلِّصْكَ رَبُّك في الموقف

ويصور الحكيم عبدالمنعم الجلياني فرسان هاتين الفرقتين أقوياء متحدين، وكأنهم سد شديد الحصانة والمنعة. ولكن ذلك لم يُجد فتيلاً أمام جيوش المسلمين بقيادة صلاح الدين، في سنة ٥٨٣ هـ، كما يبدو في القصيدة الفتحية الناصرية مصورة فرسانهم هؤلاء، مازجة ذلك بالسخرية والتهكم[٢]:

مالي أرى مَلِكَ الإفرنج في قفص ... أين القواضب والعسّالة السُّمُرَ
والإسْبتارُ إلى الداويّه التأموا ... كأنهم سدُّ يأجوج إذا استجروا
والنَّفس مولعة عُجْباً بسيرتها ... وفي المقادير ما تُسلى به السِّيَرُ

ويصور فتيان الشاغوري المصير الذي آل إليه فرسان الداوية في المعارك الحامية الوطيس، كما يبدو في قوله[٣]:

كم أُودِعَتْ دَوِّيَةً داويّةً ... صُدعوا بها في المعركِ المسْتوْعِر
جعلت لها الشارات في آنافنا ... أرج العَرار وطيب عَرْف العَبهر

ويصور العماد الأصفهاني، في حديثه عن البيت المقدس، الفرسان الدَاوية، والاسبتارية، مقبلين على القتال، متلهفين عليه، وأيديهم «على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة»، و «في كل قلب من الفئتين من نار حرصه التهاب»[٤]، كما يقول العماد في تصويره إقبالهم على القتال. ولكن ذلك كله لم يُجد نفعاً في معركة حطين، أو عند الفتح القدسي، أو غيرهما من المعارك الحاسمة. لقد كانوا شجعاناً كما يصورهم فيما تقدم، قبل هزيمتهم في سنة

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٣٠٤، خريدة القصر ـ قسم شعراء مصر ١/١٥، كتاب الروضتين ١/٢٦٩، مفرج الكروب ٢/٥٦.

(٢) كتاب الروضتين ٢/١١٦.

(٣) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٥.

(٤) الفتح القدسي/ ١٢٥.

٥٨٣ هـ، ومن ذلك تصويره فرق الفرنج العسكرية، وقد «وثبوا في وثبات الآساد، وحملوا في ثبات الأطواد». ويضيف العماد قوله بأنه لولا «أن الله أصحب أصحابنا التوفيق، لكاد الكفر ينجو، والإسلام لا يدرك ما يرجو». هذا ما كان قبل المعركة، وهذه هي الصورة التي صورهم بها قبل المعركتين الحاسمتين: حطين وبيت المقدس، ولكن أولئك الفرسان آلوا بعدها إلى أسوأ مصير، بين قتل، وأسر[1].

ويصورهم العماد يلبسون الزردي من هامة الرأس حتى القدم، وكأن الواحد منهم «قطعة من حديد»، وهو مقبل على المعركة[2].

★ ★ ★

ويصور الأدب العربي أسراهم مصفدين بعد أن أدار عليهم صلاح الدين «رحى طحونا»، فنزلت بهم صروف الأحداث، وخانهم الزمان، كما يقول ابن الساعاتي[3]. ويصورهم وقد حل بهم الفناء، إما قتلاً، وإما أسرا، كما يبدو في قول العماد الأصفهاني، في إحدى قدسياته[4]:

أفناهم قتلهم والأسر فانتكسوا   وبيتُ كُفرهم من خبثهم كنسا

ويصورهم عبدالمنعم الجلياني وقد سيقوا أسرى، وبيعوا بأبخس الأثمان، كما يبدو في قوله[5]:

أتوا كحبال أُبرمت لإسارنا   فَسُقناهم فيها قطينا مجددا

وساموا تجارا تشترينا غواليا   فبعناهُمُ بالرخص جهراً على الندا

وقول فتيان الشاغوري مصوراً بعض أسرى صلاح الدين[6]:

(١) انظر: سنا البرق الشامي/ ٢٩٢، وانظر/ ٢٩٨.

(٢) انظر: الفتح القدسي/ ٢٤٩، سنا البرق الشامي/ ٢٩٧، ٣٠٩.

(٣) انظر: ديوان ابن الساعاتي/ ٤٠٦، الروضتين ٢/٨٤ـ٨٥، مفرج الكروب ٢/١٩٨، شفاء القلوب/ ١٢٦ ـ ١٢٨.

(٤) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٠، كتاب الروضتين ٢/٨٣.

(٥) كتاب الروضتين ٢/١١٧.

(٦) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٦.

أغلى الأداهم مَنْ أسَرتَ وأُرخصِتْ بيضُ الصَّوارم مِن نهاب العسكرِ

★★★

ويصورون صليب صلبوتهم بين الأسرى، فابن سناء الملك يصور كيف ظل معبودهم اسيراً لدى السلطان صلاح الدين، وهو أسير مستضام، ويدعوه الشاعر إلى ان يجعل النار سجناً لذلك الاسير[1]. والحكيم أبوالفضل عبدالمنعم الجلياني، يصور صليب صلبوتهم منكسا، وقادتهم أسرى، كما يبدو في قوله، في قصيدته الفتحية الناصرية[2]:

بَيْنا سَبَاياه تُجلى في دمشق إذا مَلْكُ الفرنج مع الأتراك مُحتجَزُ
إزاءه زعماءُ الساحلين معاً مُصفدين بحبلِ القهْرِ قد أسروا

ويصفون صليب الصلبوت، وكان قد اخذه صلاح الدين، ثم سيره ابنه الأفضل إلى الديوان العزيز ببغداد، بأنه ذهب يزيد على العشرين رطلا مرصعاً بالجواهر[3]. ويصور القاضي الفاضل، في رسالته القدسية، كيف أُسرت سَراتهم، وكيف أُسر مليكهم، وبيده صليب الصلبوت، يقول: «وأُسر الملك وبيده أوثق وثائقه، وآكدُوصَلْة بالدين وعلائقه، وهو صليب الصلبوت»، ويصور مكانة ذلك الصليب في نفوسهم، فقد كانوا يقاتلون تحته أصلب قتال وأصدقه، ويرونه ميثاقاً عليه اشدَّ عقد وأُوثقه، ويعدونه سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه[4].

ويصور العماد الأصفهاني أسراهم بعد معركة طبرية، عندما جلس السلطان لعرض أكابر الأسرى، وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى، ومنهم عدة من ملوكهم وقادتهم، وعدة كثيرة من الداوية والاسبتارية. ولكثرة أسراهم «لم تكف أطناب الخيم لقيده وشده. ولقد رأيت في حبل واحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس، وفي بقعة واحدة مائة أو مائتين يحميهم حارس». وعمل صلاح

(١) ديوان ابن سناء الملك/ ٨١٨، مفرج الكروب ٢/ ٢٣٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/ ٩١.

(٢) كتاب الروضتين ٢/ ١١٧.

(٣) انظر: العتبى (والعقبى عن الروضتين) ٢/ ٢٢٥.

(٤) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٦، ١٧٧، الدر النظيم/ ٢٣، ٢٤، مفرج الكروب ٣/ ٣٣٩، وفيات الأعيان ٧/ ١٨٣، صبح الأعشى ٦/ ٥٠٠، ٨/ ٢٨٥، وانظر: الفتح القدسي/ ٧٤.

الـدين على تطهير الأرض من الداوية والاسبتارية[1]. ويصور العماد صليبهم الأعظم أسيراً.

وكان الفرنج في خروجهم من القدس قـد «اقتسمتهم أيدي السبي أيدي سَبَا، وتفرق الغانمون بجمعهم في الوهاد والربا»، كما يقول العماد الأصفهاني[2].

★ ★ ★

ويصـور الأدب سبـاياهم كثيرات جميلات، وهن مثل القنافي قد ودهن وتثنيهن، أو هن آنسات مثل الظباء، كما يصورهن ابن الساعاتي، في قصيدته التي قالهـا في معركة طبرية[3]. ويصور العماد الأصفهاني سباياهم قد ملأت الدنيا، وبيعت في سوق النخاسة بأبخس الأثمان، كما يبدو في قوله[4]:

سَبـايا بلادُ الله ممـلوءةٌ بهـا   وقَدْ شريَتْ بَخساً وقد عُرضت نَخسَا
يُطافُ بهـا الاسـواقَ لا راغب لهـا   لكثـرتهـا كم كثـرةٍ توجبُ الـوكسَـا

ويصـور العمـاد الأصفهـاني ما أحـرز المسلمـون من سبـايا غانيات، مصبيات، وجواري لطيفات، ناهدات متنهدات، فريدات متفردات، ناعمات شقيات، قينـات نقيات، ساحـرت مسحورات، مخدرات مهتوكات، موقرات منهوكات. ويصور نساء الفرنج محجوبات هتكن، ومالكات ملكن، وعزيزات منـحـن، وبـخيلات تسمحن، وحييات توقحن، ومصـونـات ابتـذلن، وعقيلات امتهن، وعذراوات افترعن، وغاليات استرخصن، وعاليات استنزلن، ومليحات «مقبلات أوايب، طويلات الذوائب، ثقيلات الروادف، خفيفات المعاطف»، كما يقول[5].

★ ★ ★

(١) انظر: الفتح القدسي/ ٨٠، ٨١، ٨٣، ٨٦، ٩٣، ١٩٦، ١٩٧، سنا البرق الشامي/ ٢٩٧.
(٢) انظر: الفتح القدسي/ ٨٤، ١٣٥، ١٩٧، ٥١٩، سنا البرق الشامي/ ٢٩٦، ٢٩٧.
(٣) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٦ ـ ٤٠٨، كتاب الروضتين ٢/٨٤ ـ ٨٥، شفاء القلوب/ ١٢٦ ـ ١٢٨.
(٤) ديوان العماد الأصفهاني/ ٣٣٥، كتاب الروضتين ٢/٨٣.
(٥) انظر: الفتح القدسي/ ٩٣، ١٣٥، ١٣٦، سنا البرق الشامي/ ٣٠١.

ويصـور الأدب العـربي حصونهم، وقلاعهم، وأبراجهم التي احتلوها أو أقاموها. ولكن صورتها لا تبدو جلية في الشعر الذي قيل حول تحرير البيت المقدس، ولكنها تبدو جلية في النثر، ففي الشعر نجد عدداً من الشعراء يشيرون إلى الحصون والقلاع من خلال قصائد المديح التي قالوها في أبطال الحروب الصليبية من المسلمين من امثـال نورالـدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وغيرهما، مهنئين بالانتصارات في المعارك التي أدت إلى فتح حصون وقلاع عديدة، ومن ذلك أن ابن القيسراني أنشأ قصيدة يمدح فيها نور الدين زنكي، في سنة ٥٤٥ هـ، ويحث فيها على تحرير بيت المقدس.

وفي هذه القصيدة، ورد ذكـر عدد من المواضع من حصون وأبراج[١]، وجاء فيها أن نورالدين كان «إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر تكفيه عشـر سنين خوفاً من نصرةٍ تتجدد للفرنج على المسلمين، فتكون الحصون مستعـدة غير محتـاجة إلى شيء»[٢]. ولم يذكر ابن القيسراني شيئاً عن تلك الحصون والقلاع والأبراج، ولم يذكر فيها أنطاكية، وعزاز، وهذا يؤيد ما تقدمت الاشارة إليه، فالحديث عن الحصون والقلاع والأبراج لا يبدو جلياً في الشعر العربي الذي قيل في موضوع الدراسة هذه. ومن ذلك أيضاً أن ابن القيسراني قال قصيدة يمـدح فيها نور الدين زنكي، ويهنئه بفتح حصن (إِنِّب) في سنة ٥٤٤ هـ، ويحث فيها على تحرير بيت المقدس. ويكتفي الشاعر بالاشارة إلى يوم إنّب، وإلى أن فتوحات نورالدين وانتصاراته عمت معاقل عديدة[٤]. وذكر أنه في سنة ٥٧٥ هـ، فتح السلطان صلاح الدين الايوبي حصن بيت الأحزان. ويمدح ابن الساعاتي صلاح الدين عندما خرب الحصن، ويركز على الإشادة ببطله، ويهنئه بالنصر.

---

(١) انظر: خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ١/١٥٨، وانظر: ١/١٥٧ ـ ١٥٩، الروضتين ١/٧٢، التاريخ الباهر/ ١٠٣.

(٢) كتاب الروضتين ١/٧٢.

(٣) انـظر: الـروضتين ١/٥٩، وانـظر مثل ذلك في: خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ١/١٠٨ ـ ١١٠، الروضتين ١/٨٦ ـ ٨٧، شعر ابن منير/ ٩٨، ديوان ابن منير/ ٢٤٥.

وكل ما نجده في القصيدة يتمثل في الحديث عن وقوف صلاح الدين على حصن المخاضة، وانتصاره هناك، وتخريب الحصن[1]. ويشير فتيان الشاغوري إلى ملك حصون أنطاكية، وحصن برزيه، وأثر ذلك على الصليبيين، كما يبدو في قصيدته القدسية، يقول[2]:

لمـا مَلَكْـتَ حصـونَ أنـطاكـية ... يئس الصَّليبُ وحزبُهُ من مُظهِـرِ
بَرَزَتْ إلـى بُرزيه عزمتـك الـتي ... مدَّتْ يداً عن مطلب لم يَقصُـرِ
فَتَـنـاولـتـه بأيدهـا من باذخٍ ... في الأفـق ذي مثـل يروع مُسـيَّرِ

★★★

وأما في النثر الفني، فتبدو الصورة جلية، كما نجد في كتابات القاضي الفاضل، أو العماد الأصفهاني، أو ابن الأثير، أو غيرها من الكتابات الأخرى.

يتحدث العماد الأصفهاني عن حصن (بيت الأحزان) مثلاً، وهو حصن من حصون الداوية، في حوادث سنة ٥٧٥ هـ، وهو ما ورد ذكره في الشعر كما تقدم، ويحدد العماد موقعه، فيقول: «والحصن مبني دونها، أي المخاضة من الغرب»، ويبين أن السلطان صلاح الدين خيم بالقرب من المخاضة». ثم يشير إلى أن صلاح الدين، توجه إلى قلعة صفد، وهي قلعة للفرسان الداوية، وقد «أمر بقطع كرومها، وحمل أخشابها»، ثم عاد، وزحفوا إلى حصن بيت الاحزان. ويبين أن وقت الزحف كان بعد العصر، كما يبين أن السلطان وزع جوانب البرج عليه وعلى أمرائه لنقبها، ويصور البرج بأنه «كان محكم البناء، فصعب نقبه» حتى يوم الأحد، إذ تم نقبه في ذلك اليوم وكان النقب ثلاثين ذراعاً طولاً، وثلاث أذرع عرضاً، وكان عرض السور تسع أذرع، وحشي بالحطب ليلة الاثنين، وحُرق»، ولكن دون جدوى، ولم يتأثر البرج، فأطفئت النيران، ليتسع النقب. ويصف العماد كيف أُطفئت النيران، وكيف وُسِّع النقب، فيقول: «فرأيت الناس للقرب حاملين، ولأوعية الماء ناقلين، حتى أغرقوا تلك الثقوب، فخمدت، فعاد نقابوها، فقد بردت، فخرقوه، وعمقوه، وفتحوه، وفتقوه، وشقوا

(١) كتاب الروضتين ٢/١٢.

(٢) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٧، ١٤٨.

حجره، وفلقوه، ثم حشوه، وعلقوه، واستظهروا فيه يوم الثلاثاء والأربعاء، ثم أحرقوه». وانقض جداره في يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الأول، فكان انتصار المسلمين[1]. ويبين تفصيلات كثيرة، حول الحصن نفسه، وحول المعركة وسيرها، وتاريخها، وتحديد أيامها، وغنائمها، وأسراها، ويفصل كيف تم تخريب الحصن، والمدة التي استغرقها تخريبه، وهي تفصيلات لا نجدها في الشعر، بل لا نتوقع أن نجد مثل ذلك، فالشعر لا يتحمل التفصيلات التي يمكن أن يتحملها النثر الأدبي، كما هو واضح في حديث العماد الأصفهاني النثري من ناحية، وشعر ابن الساعاتي كما تقدم، من ناحية أخرى.

ويصف القاضي الفاضل هذا الحصن نفسه، في رسالة كتبها إلى بغداد، ويصور عرض حائط الحصن، وحجارته العظيمة التي يزيد عددها على عشرين ألف حجر، ويحدد تكلفة الحجر الواحد منها، ويبين انواع الحجارة التي حشيت بين الحائطين، يقول: «ووضعت له عظام الحجارة، كل فص منها، من سبع أذرع إلى ما فوقها وما دونها، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر لا يستقر الحجر في مكانه، ولا يستقل في بنيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم المرغم بها أنوف الجبال الشم، وقد جعلت سفينه بالكلس الذي إذا أحاطت قبضته بالحجر مازجة بمثل جسمه وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه، وأوعز إلى خصمه من الحديد بأن لا يتعرض لهدمه»[1]. ثم يصف النار التي اشتعلت فيه، فاقتلعت حجارته، ومحيت رسومه، كما يبدو في قوله: «والنار به مُطيفة، وعليه مشتملة وعذبات ألسنتها على تاجه مسدلة، ومن خلفه مسبلة، ونارهم قد أطفأها الله بنار تلك الواقدة، ومنعتهم قد أذهبها الله بتلك الأبرجة الساجدة. . .، ونفحاتها حميمية وقودها الناس والحجارة. . .، فولجت النار من موالج يضيق منها الفكر. . .، وقذفت بشرر كالجمالات الصفر»، إلى أن يقول: «تقدم الخادم صلاح الدين فاقتلع بيده الأحجار من أسسها، ومحا حروف النيران من طرسها»[2].

---

(1) انظر: الروضتين ٢/٨، ١١، مضمار الحقائق/ ٢٦ ـ ٢٩، سنا البرق الشامي/ ٣٢٢، البداية والنهاية ١٢/٣٠٠، ٣٠٣.

(2) انظر: الروضتين ٢/١٣، البداية والنهاية ١٢/٣٠٤.

ويصفه في رسالة أخرى، ويبين أنه كان فيه «نحو الف زردية، وكان المقاتلة فيه ثمانين فارساً بغلمانهم، وخمسة عشر مقدما للرجال، مع كل مقدم خمسون رجلًا، وكان فيه أصحاب صناعة كالبناء، والمعمار، والحداد، والنجار، والصيقل، والسيوفي، وصانع أنواع الاسلحة. وكان فيه أكثر من مائة أسير من المسلمين، كما كانت فيه أقوات ولحوم تكفي لسنين عديدة. ويصف الكاتب المعركة في أول أيامها، وكيف تمت عملية النقب، وحشيت الثقوب بالأحطاب والنيران إلى أن وقعت الواقعة، وانشقت الأبرجة فهي يومئذ واهية». ثم يصف اشتعال النيران في أرجاء الحصن، وَاحتراق مقدم الحصون، وكيف أصبح الحصن أثراً بعد عين[1]. ومن الواضح أيضاً أن القاضي الفاضل يفصل في وصف الحصن وبنائه، واحتراقه وتخريبه، وأثر ذلك في النفوس، وتحديد عدد مقاتليه، والصناع فيه، وغيرهم، كما تقدم.

ومن الحصون التي تقدمت الإشارة إليها في الشعر حصن «بُرْزيه»، وهو الحصن الذي أشار اليه فتيان الشاغوري، واكتفى بالاشارة إليه فحسب، ولكننا نجد في النثر تفصيلات في الحديث عنه، حيث نجد وصفاً تفصيلياً له، في كتابات القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني. كتب القاضي الفاضل كتاباً إلى السلطان، يبشر بفتح هذا الحصن، ويصفه بأنه «هو الذي تضرب به الأمثال، وتضرب عنه الآمال، ويكاد يحزن إذا قادت أيدي السلاسل أزمة الجبال»، وقد كان للكفر درعاً حقيقياً طالما كانت تهزأ بالنصال[2].

ويفصل العماد الأصفهاني في وصف هذا الحصن، فيتحدث عن موقعه، وعما يلحق بالمسلمين من الجور، ثم يتحدث عن توجه صلاح الدين إليه، ونصب المنجنيقات عليه، وقد فرق عسكره ثلاث فرق تتناوب على قتال أهله، إلى أن تسلمه المسلمون «ظهر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة»[3]. ويفصل الكاتب في حديثه عن فتح هذا الحصن في كتابه الفتح

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١٣.

(٢) كتاب الروضتين ٢/١٣١، ١٣٢، وفيات الأعيان ٧/١٩١، ١٩٢.

(٣) كتاب الروضتين ٢/١٣١.

القدسي. ويصف الحصن بأسلوبه الادبي المنمق بأنه «أحصن القلاع وأفرعها، وأحسن التلاع وأرفعها، وأسمى الرواسي وأسماها، وأسنم الرواسخ وأسناها». ويصوره بأنه «قلعة شماء في الذرى لا تكاد من سموها ترى، وهي على سن من الجبل عال مترامية في السماء ارتفاعاً». ويصف المنجنيقات المنصوبة، ويبين أنها لم تتمكن من الوصول إلى أعلى مواضع في القلعة، ولذا مال السلطان إلى الزحف، وتقسيم عسكره إلى فرق ثلاث[1]. ويتحدث الكاتب عن صاحبة هذا الحصن، وهي زوجة الابرنس صاحب أنطاكية، ولم يكتف العماد الاصفهاني بكتابه هذا، فقد أنشأ كتاباً من كتب البشائر العمادية، يبشر فيه بفتح هذا الحصن، يصفه بأنه «لا يمكن وصف ما هو عليه من الحصانة»[2].

ويصور القاضي الفاضل حصن الكرك في العديد من الرسائل، ويتحدث عن حصاره فيقول: «وأما الكرك فكفات المنجنيقات عليه متظافرة، وحجارتها على من فيه حاجرة، وقد جدعت أنوف الأبرجة، وكل جوانبها وعرة المرتقى». ويصفه في كتاب آخر مستلهما القرآن الكريم، فيصور عذاب الله واقعا بالحصن، وأهله، «ماله من دافع، وأن دليل النصر قد ظهر وما دونه مانع، وأما المنجنيقات، فقد نكأت في الأبراج بالهدم، وفي الأعلاج بالهتك»[3].

ويصف العماد الأصفهاني حصن كوكب، ارتفاعاً، وحصانة، وهو حصن للفرسان الاستبارية يقول: «وجئنا إلى كوكب، فوجدناها في مناط الكوكب كأنها وكر العنقاء، ومنزل للعواء، قد نزلتها كلاب عادية، ونزعت بها ذئاب غادية». ويصف القتال ومحاصرة الحصن، وكان الفصل شتاء، كما يصف ما أبداه الفرنج من ضروب الشجاعة. إلى أن تسلم المسلمون الحصن

(١) انظر: الفتح القدسي/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩، ٢٥٠ ـ ٢٥٤، الروضتين ٢/١٣١.

(٢) انظر: الروضتين ٢/٥٥، ٥٦.

(٣) انظر: الفتح القدسي/ ٢٧٣، ٢٧٤، سنا البرق الشامي/ ٣٢٢، الروضتين ٢/١٢٠، ١٣٤، ١٣٦، صبح الأعشى ٤/١٥٥.

بالأمان[1]. ويصفه العماد في كتاب الفتح القدسي باسلوب مصنوع منمق، مستلهما التراث الشعري، فيصوره بأنه «حصن لا يرام، وركن لا يضام، ومعقل لا يسامى ولا يسام، وذروة لا تفرع، ومروة لا تقرع، وعقيلة لا تفترع، وبكر لا تخطب، وقلعة لا تطلب[2].

ويصف القاضي الفاضل هذا الحصن في كتاب كتبه بلسان السلطان صلاح الدين إلى سيف الإسلام باليمن، بأنه «كرسي الاسبتارية، ودار كفرهم، ومستقر صاحب أمرهم، وموضع سلاحهم وذخرهم». ويتحدث عن موقعها الاستراتيجي، ووقت النزول عليها. ويصور النصر وأثره على الإسلام والمسلمين، ويصف الشتاء، وهو الفصل الذي فتحت فيه كوكب، كما يصف العدو الصليبي[3].

ويصف العماد قلعة الفولة بفلسطين، فيذكر أنها أحسن قلعة وأحصنها، وهي حصن حصين من حصون الداوية، «ومكان مكين، وركن ركين، ولهم بها منبع منيع . . . ، وفيها مشتاهم ومصيفهم، ومربط خيولهم، ومجر ذيولهم، ومجرى سيولهم، ومجمع إخوانهم، ومشرع شيطانهم».

وكان الداوية فيها قد «هاجوا إلى الهيجاء، وطروا في القتلى والأسراء، فنعب الغراب على طول الفولة بدماء أهلها المطلولة، فهي غاب غابت أسودها الحماة، وغيل غالت ليوثه عداتها العداة»[4].

وكان الصليبيون قد أنشأوا العديد من الحصون، والقلاع، والأبراج لحماية انفسهم ومملكتهم في بيت المقدس، وأشير هنا إلى ما كانوا قد أنشأوه في

---

(١) انظر: الفتح القدسي/٢٧٣، ٢٧٤، سنا البرق الشامي/٣٢٢، الروضتين ٢/١٢٠، ١٣٤، ١٣٦، صبح الأعشى ٤/١٥٥.

(٢) انظر: الفتح القدسي/ ١٧٧، ٢٠٤.

(٣) انظر: الروضتين ٢/١٣٦، ١٣٧، صبح الأعشى ٧/٢٣ - ٢٧، ٣٤١ - ٣٤٤.

(٤) سنا البرق الشامي/ ٣٠٢.

مملكة بيت المقدس كما كانوا يسمونها، فقد انشأوا ابراجاً ثلاثة ضخمة، وهم يحاصرون بيت المقدس، وهي برج صهيون، وبرج آخر بباب العمود، وثالث عند الطرف الشمالي الغربي من الأسوار[1].

ثم أنشـأوا قلاعاً في كل من الشوبك ومعان، وبذلك أضحى ملك بيت المقدس الصليبي يتحكم في الطرق بين دمشق والحجاز ومصر، وأقاموا قلاعاً وحصوناً ضخمة في مملكة بيت المقدس الصليبية[2].

---

(١) انظر: تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣٣٤/٣، ٦٢٤، ٦٢٥، بلادنا فلسطين ـ بيت المقدس ١٦٤، ١٦٥.

(٢) انظر: بلادنا فلسطين: بيت المقدس ١٧١/١، ١٨٠، ١٨٦، الديار اليافية ٥٩١/٢، في ديار الجليل ٧٨/١، ٥١٩.

الفصل الثالث

صورة بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية (القدسيات)

بعد الفتح القدسي

(٥٨٤ ـ ٦٤٨ هـ)



صدى محاولات الفرنج استرداد بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية :

أحدث تحرير بيت المقدس من الاحتلال الصليبي، في سنة ٥٨٣ هـ، صدى كبيراً لدى الغزاة، وكانت الصرخة لإنقاذه «مدوية يتجاوب صداها في العالم النصراني» كما يقول لامب[١]. وقامت الحملة الصليبية الثالثة لاحتلاله ثانية. وقاد جيوشهم ريتشارد قلب الأسد، ملك انكلترا، وفيليب أغطس، ملك فرنسا، وفردريك بربروسا، امبراطور ألمانيا[٢].

يذكر ابن الأثير، ويتابعه ابن واصل الحموي، أن «فردريك بربروسا» أرسل إلى «قلج أرسلان» السلطان السلجوقي، قائلاً: «ما قصدُنا بلادك، وإنما قصدُنا البيت المقدس»[٣]. وكان الامبراطور فردريك قد عمل على استثارة الفرنج للثأر لكنيستهم بالقدس. كما يقول العماد الأصفهاني[٤]. وأرسل إلى صلاح الدين رسالة مطالباً ببيت المقدس، وقال في رسالته: «خذ الموعظة من فرعون، وسلّم

---

(١) شعلة الإسلام/ ٣٢٣، وانظر: الحركة الصليبية ٢/ ٨١٢، ٨١٣، ٨١٤.

(٢) انظر: النوادر السلطانية/ ١١٥، ١٢٣، ١٣٦، ١٣٧، ١٥٧، ١٥٨، ١٦١، الكامل ١٢/ ٤٨، ٦٣، الفتح القدسي/ ٣٣٠، ٣٨٩، ٤٧٤، ٤٨٤، الروضتين ٢/ ١٥٠، ١٥١، ١٥٤، ١٨٢، ١٨٣، مفرج الكروب ٢/ ٢٨٨، ٣٢٢، ٣٣٣، ٣٤٩، المختصر ٣/ ٧٦، ٧٨، تتمة المختصر ٢/ ١٥٢، ١٥٤، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، البداية والنهاية ١٢/ ٣٣٤، ٣٤٦، شفاء القلوب/ ١٦٠، ١٦٣، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/ ٢٩ ـ ٤٣، ٧٥ ـ ٧٩، ٩٥ ـ ١٠٩، شعلة الإسلام/ ٣٩٦.

(٣) انظر: الكامل ١٢/ ١٨، ٤٩، مفرج الكروب ٢/ ٣١٨، الفتح القدسي/ ٣٣٠، الروضتين ٢/ ١٥٦، شفاء القلوب/ ١٦٣.

(٤) كتاب الروضتين ٢/ ١٥١.

بيت المقدس». ورد عليه السلطان صلاح الدين بقوله: «لم يبق أمامهم من شيء إلا أن نعمل دائبين للاستيلاء على صور، وطرابلس، وأنطاكية، وعرض عليهم تسليمها، مقابل أن يعيد إليهم صليب الصلبوت، ويطلق سراح أسراهم، ويسمح لكاهن من كهنتهم «بتأدية الطقوس الدينية في كنيسة القيامة»، ويسمح لرهبانهم بالعودة إلى الأديرة التي تركوها قبل الفتح الإسلامي الأول. ويسمح بزيارة كنيسة القيامة بأمان. ولكن فردريك رفض ذلك»[1].

كان البابا «آنوسنْت الثالث» قد أعلن عن «وجوب تخليص مدينة بيت المقدس، واستردادها. وكانت هتافات الناس تلح على ضرورة الاستيلاء على الأرض المقدسة» كما يقول لامب. وكان هذا البابا يرى «أن فتح بيت المقدس يجب أن يكون دعامة حكمه»[2].

ولما تمكن الفرنج من احتلال عكا[3]، دارت مفاوضات بين المسلمين والفرنج، فطلبوا إعادة مملكة بيت المقدس، وصليب الصلبوت، مقابل السماح بخروج المسلمين، وخروج حاميتها[4]. وساءت أحوال المسلمين، فاستطاع الصليبيون الاستيلاء على حيفا، وقيسارية، وعادت المفاوضات ثانية بين الطرفين. وطالب ريتشارد بما طالب به في المفاوضات السابقة، فرفض المسلمون[5] وخرب صلاح الدين عسقلان، والرملة، واللد، وأبراجها وتحصيناتها حتى لا يستفيد منها العدو. ثم توجه إلى مدينة بيت المقدس للدفاع عنها، فقواها، وحصنها، وعمر سورها[6]. وقصد ريتشارد بيت المقدس

---

(١) شعلة الإسلام/ ١٤٦.   (٢) المصدر نفسه/ ٣٩٦.

(٣) انظر: النوادر السلطانية/ ١٠٣ ـ ١٧٥، الفتح القدسي/ ٢٩٦، الكامل ١٢/ ٣٢ ـ ٦٨، الروضتين ٢/ ١٨٩، المختصر ٣/ ٧٦ ـ ٨٣، مفرج الكروب ٢/ ٢٩١ ـ ٣٦٤، النجوم الزاهرة ٦/ ١١٢، البداية والنهاية ١٢/ ٣٣٦، ٣٤٥، دول الإسلام/ ٩٧-٧٩٩ شفاء القلوب/ ٦٠-١٧١، السلوك ج١. ق ١/ ١٠٥، الأنس الجليل ١/ ٣٣٦، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/ ٥٤ ـ ٧١، شعلة الإسلام/ ١٥٥ ـ ٢٢٥.

(٤) انظر: الفتح القدسي/ ٢٨١، البداية والنهاية ١٢/ ٣٤٤، ٣٤٥.

(٥) انظر: النوادر السلطانية/ ١٨٢، شفاء القلوب/ ١٧٣.

(٦) انظر: النوادر السلطانية/ ١٨٦ ـ ١٨٩، الفتح القدسي/ ٥٥٠ ـ ٥٥٢، ٥٦٥، الروضتين ٢/ ١٩١، ١٩٢، =

لاحتلاله، ولكنه فشل، وعاد خائباً. وعادت المفاوضات بين الطرفين، وأصر الصليبيون على إعادة مملكة بيت المقدس كما كانت قبل تحريرها في سنة ٥٨٣ هـ. ويبدو ذلك جلياً في رسالة ريتشارد إلى صلاح الدين. يقول: إن المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد، وخرجت من يد الفريقين بالكلية، وتلفت الأموال والأرواح من الطائفتين، وليس هناك حديث سوى القدس، والصليب، والبلاد. «والقدس متعبدنا، ما ننزل عنه، ولو لم يبق منا إلا واحد، وأما البلاد، فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له، وهو عندنا عظيم، فيمن به السلطان علينا، ونصطلح، ونستريح من هذا العناء الدائم»[1]. ورفض صلاح الدين ذلك، قائلاً: «القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا، ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه، ولا نقدر التلفظ بذلك بين المسلمين. وأما البلاد، فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها. . .، وأما الصليب، فهلاكه عندنا قربة عظيمة، ولا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها»[2].

وحاول ريتشارد احتلال بيت المقدس مرة أخرى، ولكن دون جدوى، نظراً لاستعداد المسلمين، وتحصينهم المدينة، ومهاجمتهم عدوهم. ويصور العماد الأصفهاني استعدادات المسلمين، ويذكر أن صلاح الدين فرق الأبراج والأبدان على الأمراء والأجناد، وذوي القوة والاستعداد[3]. ويصور ابن شداد حث صلاح الدين على الجهاد. يقول: «. . . ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم

= ١٩٦، مفرج الكروب ٢/٣٦٩ - ٣٧١، الكامل ١٢/٦٩ - ٧٢، ٧٤، ٨٦، المختصر ٣/٧٩، ٨٠، ٨٣، تتمة المختصر ٢/١٥٦، شفاء القلوب/ ١٧٢، ١٧٣، دول الإسلام/ ٩٩، السلوك ج ١ ق ١/١٠٥ - ١٠٩، تاريخ الحروب الصليبية - رنسيمان ٣/١١٤ - ١١٧.

(١) انظر: النوادر السلطانية/ ١٩٤، مفرج الكروب ٢/٣٧٢ - ٣٧٣، الروضتين ٢/١٩٣، تاريخ الحروب الصليبية - رنسيمان ٣/١١٥، شعلة الإسلام/ ٢٤٠.

(٢) النوادر السلطانية/ ٣١٥، الروضتين ٢/١٩٣.

(٣) الفتح القدسي/ ٥٦٥، ٥٩٢، ٦١١، مفرج الكروب ٢/٣٧٥، ٣٨٠، كتاب الروضتين ٢/١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٧١.

على الجهاد، فذكرت ما يسر الله من ذلك. وكان مما قلته أن النبي، ﷺ، لما اشتد به الأمر، بايعه الصحابة، رضوان الله عليهم، على الموت في لقاء العدو، ونحن أولى من تأسى به، ﷺ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة، والتحالف على الموت[1]. وحث صلاح الدين نفسه جند الإسلام على الحفاظ على المسلمين وبلادهم، كما يبدو في قوله: «. . . وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم، فإن لويتم أعنتكم، والعياذ بالله، طوى البلاد كطي السجل للكتاب، وكان ذلك في ذمتكم، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا. . .، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم»[2].

اختلف الصليبيون في التقدم إلى بيت المقدس[3]. واختلف المسلمون، وقالوا إنهم يخشون من محاصرتهم فيه كما حوصروا في عكا. وأنقذ المسلمين مما كانوا فيه من خلاف، اختلافُ الصليبيين حول التقدم إلى بيت المقدس، وقرارهم الانسحاب[4].

وتجددت المفاوضات بين الطرفين، وترددت الرسل. وطلب ملك الانكليز أن يعيد صلاح الدين لهم عسقلان، ويهب لهم كنيسة بيت المقدس، وأن يمكن النصارى من زيارتها وحجها بلا شيء، ولكنه امتنع من إعادة عسقلان. واستمرت المفاوضات، وأرسل ملك الانكليز رسالة إلى السلطان صلاح الدين حول مقاسمة البلاد. وانتهت المفاوضات بأن تكون الصخرة والقلعة للمسلمين، والباقي مناصفة، وكان صلح الرملة، في يوم الثلاثاء، الحادي

---

(١) النوادر السلطانية/ ٢٦٦، كتاب الروضتين ٢/ ١٩٨، البداية والنهاية ١٢/ ٤٣٨.

(٢) النوادر السلطانية/ ٢١٦، الروضتين ٢/ ١٩٨، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٧١، البداية والنهاية ١٢/ ٣٤٨، ٣٤٩.

(٣) انظر: النوادر السلطانية/ ٢١٦ ـ ٢١٨، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١١٧، ١١٨، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/ ١١٩ ـ ١٢٢.

(٤) النوادر السلطانية/ ١٦٨، ٣٥٦، الفتح القدسي/ ٣٠١، ٣٠٣، ٣١٧، ٣٢٣، ٣٢٤، مفرج الكروب ٢/ ٣٨٧، ٣٨٩، ٣٩٠، ٤٠١، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١١٥، ١٧١، ١٧٣، الروضتين ٢/ ١٩٨، ١٩٩، شفاء القلوب/ ١٧٥، السلوك ج ١ ق ١/ ١٠٩، تاريخ الحروب الصليبية ٣/ ١٣٠ ـ =

والعشرين من شعبان، سنة ٥٨٨ هـ، وضمن الصلح للصليبيين حرية الحج الى بيت المقدس[1].

ويصور العماد الأصفهاني، في كتاب كتبه إلى ديوان الخلافة، كيف أفضى الأمر إلى عقد الهدنة، ويبين أن الأعداء كانوا قد أجمعوا على «قصد بيت المقدس»، ولكنهم «عرفوا أن المرمى بعيد المرام، وأنهم لا يستطيعون مقاومة عسكر الإسلام، فنكصوا على أعقابهم». ثم استقرت المهادنة، ووضعت الحرب أوزارها.

ويدعو العماد إلى عدم الاغترار بعقد الهدنة. وكان السلطان صلاح الدين قد عزم على الحج، وطلبوا منه ألا يترك البلاد في ذلك الوقت. يقول العماد: «... هذه البلاد إذا تركتها على ما بها من الشعث، لم تبرم مرر حبلها المنتكث. وهذه المعاقل التي في الثغور، حفظها من أهم الأمور، ولا يغتر بعقد الهدنة، فإن القوم على ترقب المكنة، والغدر دأبهم، وملء البغي إهابهم»[2].

★★★

ويتردد صدى هذه الأحداث في الأدب العربي، ولكنه صدى باهت في الشعر، جلي في النثر، فقد قلت الأشعار في هذا المجال، واكتفت بالحديث عن قصد الفرنج بيت المقدس، والهدنة، بينما تتحدث رسائل العماد الأصفهاني، والقاضي الفاضل عن هذه الأحداث، وتصورها، وتصور صداها في النفوس، وتصور المواقف، كما تصور الأحاسيس والمشاعر.

يذكر أبوشامة المقدسي أن الشاعر الرشيد بن بدر النابلسي، قال أبياتاً تدور حول «قصد الفرنج للسلطان بالقدس»، وفيها ينعى على الفرنج الذين لم يعتبروا

= ١٣٣، شعلة الإسلام/ ٢٤٥، ٢٤٦.

(١) انظر: النوادر السلطانية/ ٢٠٢، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٣٥، مفرج الكروب ٢/ ٤٠٥، ٤٠٦، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٧٤، ١٧٥، الروضتين ٢/ ٢٩٤، تاريخ ابن الفرات م ٤ ج ٢/ ٧٢ـ ٧٥، السلوك ج ١ ق ١/ ١٠٩، ١١٠، الأنس الجليل ١/ ٣٨٩.

(٢) الفتح القدسي/ ٦٠٦ ـ ٦٠٨، ٦١١، الروضتين ٢/ ٢٠٧.

بما فعله بهم المسلمون، ويعرض بهم، ويصفهم بالذل، والجهل، والسفه، كما يدعو السلطان صلاح الدين للحفاظ على بيت المقدس، يقول[1]:

ويحَ الفرنجةِ بل ويلَ امهم أو ما ... فيهم لبيبٌ على العلاتِ يعتبرُ
فكمْ نثرتهمْ ضربا إذا انتظموا ... وكمْ نَظمتهمْ طعناً إذا انتشروا
كَمْ قد سَقَيْتهُمْ ذُلّاً فلا عَجَبٌ ... إنْ عَرْبدوا سَفَهاً فالقومُ قد سكروا
إن يمموك فلا بدع لجهلهمُ ... تَسعى إلى الأسْدِ في غاباتها الحُمُرُ
زاروا نُموراً ولا تُغنى وقاحتهمْ ... إذا أُسودُك في أبطالهم زأروا
فحامِ عن حَوْطةِ البيت المقدَّس لا ... خوف وحاشاك من خوفٍ ولا ضررُ
هو الشريفُ وقد ناداك معتصماً ... فما على مجده من بعدها حَذَرُ
وسوف تستغفرُ الأيامُ هَفْوتها ... وتحصدُ الفئة الأوغاد ما بَذروا

ويصور الشاعر نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور الهدنة التي عقدت بين السلطان صلاح الدين، وبين ملك الانكليز، فيعرض بالملك الانكليزي، ويهدده، وينذره، ويبين أن عليه أن يكون قصياً عن البيت المقدس، ويصفهم بالغدر، فلا يثق المسلمون بأنه قد تم صلح حقيقي بينهم وبين أعدائهم الغزاة، يقول[2]:

القُدس ما فيه لسرجك مَطْمعٌ ... كلّا ولا نور الإله بمنطفي
والمسجدُ الأقصى فَعَنْهُ تَقصَّ من ... وَقْع الدبابيس الأليمةِ تعرفِ
واستفتِ نفسَك فهي أخبثُ ناصحٍ ... واتْرُكْ متابعةَ اللجاجَ المتلِفِ
قد قلتُ لما قيلَ صلحٌ قد جَرَى ... هذا حديثُ مُخرَّفٍ ومُحرِّفِ
سَلَفٌ تَولّى السيفُ عَقد شُروطه ... أخْبِبْ به من مُسلمٍ ومُسلِّفِ
ظَنّوه سِلْماً وهو في أرواحهم ... سِلْمٌ إلى أجلٍ لهم متخلفِ

ويشيد الشاعر ابن الساعاتي بالسلطان صلاح الدين، ويصوره منقذاً للبيت المقدس، ولولاه لكان قد وقع ثانية في براثن الاحتلال، كما يبدو في قوله[3]:

(1) الروضتين ٢/١٩٤.
(2) نفسه ٢/٢٠٤.
(3) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤١١، مفرج الكروب ٢/٤٠٤، كتاب الروضتين ٢/٢٠٢.

لولاك أمَّ البيتَ غيرَ مدافع وأسالَ سَيْلَ نداه في بَطحائه
وبكت جفون القدس ثانية دماً لترنم الناقوس في أفنائه

★★★

ويصور القاضي الفاضل، في رسالته التي كتبها، على لسان صلاح الدين، إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن، يستنجد به أثناء حصار الفرنج عكا، في الثامن والعشرين من شعبان سنة ٥٨٦ هـ، يصور قدوم ملك الألمان فردريك بربروسا في جيوش جرارة، وأموال وفيرة، كما يصور مصير فردريك، ويشير في رسالته إلى جهاد صلاح الدين، وفتح بيت المقدس، وهو منة الله العظمى على الإسلام(١).

وفي رسالة ثانية كتبها إلى ملك المغرب، في شعبان من سنة ٥٨٦ هـ أيضاً، يوضح القاضي الفاضل أسباب ما حل بالمسلمين وبلادهم، في أواخر عهد صلاح الدين. ويتمثل ذلك في قدوم آلاف من جيوش الفرنج، للعمل على استرداد بيت المقدس، بل احتلاله ثانية، يقول مصوراً استنجاد الفرنج بالشام بالفرنج في الغرب: «فأجابوهم رجالاً وفرساناً، وشيباً وشباناً، وزرافات ووحداناً، وبراً وبحراً، ومركباً وظهراً، وركبوا إليهم سهلاً ووعراً، وبذلوا ماعوناً وذخراً، . . . خرج كلٌ يلبي دعوة بطركه. . . ، وخرجت لهم عدة ملوك»(٢). ويصور الكاتب الصراع في العقيدة بين المسلمين والصليبيين، ثم يصور الإمدادات التي كانت تصل إلى العدو فيقول: وكانت «لا تشرق شارقة إلا طلعت على العدو من البحر طالعة تعوض من الرجال من قُتل، وتخلف من الزاد ما أكل، فهم في كل يوم في حصول زيادة. . . ، أعطاهم البحر ما منعهم البر»، ويصور مراكبهم، وحصارهم عكا(٣).

ويتحدث القاضي الفاضل، في كتاب من الكتب التي كتبها إلى السلطان

(١) كتاب الروضتين ٢/ ١٧٠، ١٧٢، مفرج الكروب ٢/ ٥٠١، ٥٠٢.
(٢) انظر: الروضتين ٢/ ١٧٢، مفرج الكروب ٢/ ٥٠٧.
(٣) كتاب الروضتين ٢/ ١٧٢، مفرج الكروب ٢/ ٥٠٧ ـ ٥٠٩.

صلاح الدين، أثناء محاصرة عكا، عن فتح بيت المقدس، ويبدي تخوفه على الصخرة والأقصى، ويشير إلى «عدم القدرة على المرمة لقبة الصخرة، والمسجد الأقصى، وبالغفلة عن مرمتهما، وبفقدهما في أشتية القدس العظيمة الجليلة المثلجة، لا يؤمن سقوطهما، وافتضاح القدرة في العجز عن إعادتهما»[1] .

ويتحدث العماد الأصفهاني عن توجه السلطان صلاح الدين إلى بيت المقدس، في رمضان سنة ٥٨٧ هـ، بعد الهزيمة التي حلت بالمسلمين في عكا. وقد رتب مصالح القدس، وبقي فيها أياماً رحل بعدها[2]. ثم عاد إليها في الثالث والعشرين من ذي القعدة، من السنة ذاتها، وكان معه العماد الأصفهاني نفسه، والقاضي بهاء الدين بن شداد. وشرع في تحصينها، وعمارتها، وحفر خندقها، وتجديد سورها وأبراجها. ويصورها العماد وقد أصبحت «من أحسن المدن، وأحصنها، وأحكمها»، وذلك للحفاظ عليها. يقول: «ورتبنا بناء سورها على جوانب أودية وسفوح، متى تم لم يبق فيها لطامع من طموح. وهذا أمر الله وفي طاعته، ولحفظ بيته، ولنصرة دينه، ولإعلاء كلمته، ولحماية أمته». وبذلك يبقى بيت المقدس مع الإسلام على مر الدهور[3] .

ويصور العماد ما أحاط بالمدينة المقدسة من أخطار تتمثل في عودة الصليبيين الغزاة إليها، فيقول: «. . . هذا الكفر قد أناخ بكالكله، وحفل بجحفله، وبرز إلى الإسلام بكليته، وعراه ببليته، وقامت قيامته لقيامته». وقد أغذ الغزاة السير لقصده ووردہ. ويقرن العماد حديثه هذا مع الحديث عن مكانة بيت المقدس وقدسيته، ويدعو إلى «استدعاء ذوي الحمية من الأقاصي والأداني»، ويبين أنهم إن لم ينهضوا في الربيع القابل، من سنة ٥٨٨ هـ، صعب الأمر، واحتدم الخطب[4].

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١٦٦. (٢) الفتح القدسي/ ٥٥١، ٥٥٢.

(٣) انظر: الفتح القدسي/ ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٥، ٥٧٨، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣.

(٤) الفتح القدسي/ ٥٧٨.

ويصـور البيت المقـدس «يُقـدَّسُ ويُسبـحُ، ويُعـرب عن فضيلة منجـده ويفصـح، فقد وصل الرجال الواصلون بالنُجح رجاءه، الحامون بحفر خندقه أرجاءه». وكان قد وصل الحجارون، والجصاصون من الموصل، للعمل في الخندق، ويضيف قائلاً: «وهذه لا شك مقدمة لما وراءها من نتائج النجدات». ويصـور العـدو منتـظراً نجـدات بحـرية[1]. ويتحـدث العماد عن ولاية بيت المقدس، في رسالته هذه. كما يتحدث عن صدور منشور بالولاية لحسام الدين النجمي. ويستهـل العمـاد ذلك المنشور بالتحميد، والصلاة على الرسول، وآله، وأصحابه، ثم يتحدث عن تطهير المسجد الأقصى، كما يبدو في قوله مصوراً الصراع في العقيدة: «الحمد لله الذي أقصى من المسجد الأقصى من داناه من الكفر ودنسه، ونزه البيت المقدس من رجس أعدائه المشركين بأيدي أوليائـه المـوحـدين، وطهـره، وقـدسه، وأنطق محرابه بتلاوة الذكر المبين». ويتحدث عن الفتح القدسي وآثاره. ويبين ما ينبغي على الوالي الجديد عمله، من سداد لثغـرهـا، ورعـاية لأمـورهـا، وعمـارة لسورها، وإسكان لمواطنها، «وتعميرها بالعُدة، والعِدة، والشدة، والقوة، والبأس»[2]. ثم يصورالنجدة التي قدمت من مصـر «نجدة لأهل القدس على الكفر وأهله». ولكن هذه النجدة نُكبت، فقد فاجأها العدو «والصبح لم يُبـد إضاءة، والخيط الأبيض من الخيط الأسـود، لم يتبين» كمـا يقـول العمـاد. وكـانت تلك النجدة قد نامت حتى الصباح، بعد وصولهم إلى مكان ظنوا أنهم قد جازوا «مظان المخافة»[3].

ويصور العماد تلك الحالة التي كان المسلمون عليها، في كتاب كتبه، على لسـان صلاح الـدين، إلى الخليفة في بغداد، فيبين أنها تتمثل في أن «مرابطة أهل الكفر مستمرة»، وأن الحرب سجال بين الطرفين[4].



(١) الفتح القدسي/ ٥٦٥، ٥٧٩.

(٢) نفسه/ ٥٨٠.

(٣) نفسه/ ٥٩٣، ٥٩٤. وانظر: ٥٩٥، ٥٩٦.

(٤) نفسه/ ٦٠١.

أصبحت مدينة بيت المقدس مجال صراع بين أبناء صلاح الدين، خاصة بين الأفضل، والعزيز، من أبنائه، وكأن المسلمين قد تبدلوا بحرب الفرنج حرب بعضهم بعضا، كما يقول الذهبي(١). ذُكِر أن الملك الأفضل بن صلاح الدين، ملك «دمشق، والساحل، والبيت المقدس»، وغيرها من الأعمال، بعد موت والده في سنة ٥٨٩ هـ. وفي سنة ٥٩٠ هـ، حاصر الملك العزيز بن صلاح الدين دمشق، فاستنجد الأفضل بعمه الملك العادل، وانتهى الأمر بعقد الصلح. و «استقرت القاعدة على أن يكون البيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز»، وعاد العزيز إلى مصر(٢). وذُكر قبل ذلك، أنه كان قد أُشير على الملك الأفضل بن صلاح الدين، بإخلاء بيت المقدس، لنواب الملك العزيز، «حذراً من تكاليفه وأثقاله»، وهو يحتاج إلى أموال، ورجال، ونواب، وكلفة عظيمة»، فاستجاب لذلك، وفوض القدس وعمله إلى العزيز. ولكنه رجع عن ذلك بتحريض من نوابه، خوفاً من محاسبة العزيز لهم، لتعديهم على الأوقاف لعمارة القدس ومصالحه(٣).

خشي الملك العزيز من غدر الفرنج، وفسخ الهدنة التي عقدوها مع والده، فجهز «العساكر إلى البيت المقدس لكل ما في المكنة»، وأرسل الغلات من مصر(٤).

وجرت خلافات في البيت الأيوبي، وانتهى الأمر بالصلح، بتدخل القاضي الفاضل، واستقر الأمر على أن يكون بيت المقدس، وجميع البلاد بفلسطين، وطبرية، والأردن للأفضل(٥).

---

(١) دول الإسلام/ ١٠٥.

(٢) الكامل ١٢/١٦، ١٠٩، ١١٠، كتاب الروضتين ٢/٢٢٨، ٢٢٩، الذيل على الروضتين/ ٦، البداية والنهاية ١٣/٩.

(٣) العتبي والعقبي (عن الروضتين) ٢/٢٢٨، مفرج الكروب ٢/١٤، ١٥، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢١، ٢٢٢، النجوم الزاهرة ٦/١٢٠، السلوك ج ١ ق ١/١١٥، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/١٢٤.

(٤) الفتح القدسي/ ٦٣٠، ٦٣١، العتبي والعقبي: انظر: الروضتين ٢/٢٢٥، السلوك ج ١ ق ١/١١٥.

(٥) الكامل ١٢/١١٨، ١١٩، ١٢٠، العتبي والعقبي: انظر: الروضتين ٢/٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٤، الذيل على =

وفي سنة ٥٩٣ هـ، «انقضت مدة هدنة الفرنج التي عقدوها مع الملك الناصر»، فخرجوا، والتقوا بالملك العادل، فهزمهم، وكتبوا إلى ملك الألمان في صقلية، وعملوا على استثارته، ودعوه إلى استرداد بيت المقدس[1].

واستمر الصراع على بيت المقدس، بين أبناء البيت الأيوبي، إلى أن ملك الملك العادل مصر، في سنة ٥٩٦ هـ، فأقطع دمشق، والأردن، وفلسطين، لولده الملك المعظم عيسى[2].

كتب البابا آنوسنت إلى الملك العادل يحذره، ويطلب منه التنازل عن بيت المقدس[3]. وتكررت محاولات الفرنج لاحتلال بيت المقدس ثانية، ففي سنة ٦٠٠ هـ، عزموا على «قصد البيت المقدس، واستنقاذه من المسلمين». وعمل العادل على منعهم من قصد بلاد الإسلام. وانتهى الأمر بالصلح بين الطرفين، في سنة ٦٠١ هـ، وتقررت الهدنة ثانية بين الملك العادل والفرنج، في سنة ٦٠٧ هـ[4].

ومما يؤسف له أننا لا نجد صدى فعلياً لهذه الأحداث في الشعر العربي آنذاك، ولكن الصدى برز في النثر بجلاء، كما تقدم.

★★★

= الروضتين/ ٧، ١٤، ١٥، ٤٧، مفرج الكروب ٥٢/٣، ٥٤، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٢، مرآة الزمان ٤٥٨/٨، ٤٥٩، النجوم الزاهرة ١٢٣/٦، ١٢٤، ١٢٥، ١٤١، ١٤٢، البداية والنهاية ١١/١٣، ١٥، ١٧، شفاء القلوب/ ٢٤١، السلوك ج ١ ق ١٢٦/١.

(١) خطفة البارق وعطفة الشارق: انظر: الروضتين ٢٢٣/٢، شفاء القلوب/ ٢٣٦.

(٢) انظر: الكامل ١٢٥/١٢، ١٤٤، مفرج الكروب ٣/ ٧٠، ٧٦، مرآة الزمان ٤٤٣/٨، ٤٦١، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٢، النجوم الزاهرة ١٤١/٦، ٢٢٣، شفاء القلوب/ ٢٤٢، السلوك ج ١ ق ١٣٥/١، ١٣٦، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٩٧، تاريخ ابن الفرات م ٥ ج ٦٧/١، ٦٨.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢٥٨/٣.

(٤) الذيل على الروضتين/ ١٠، الكامل ١٢٦/١٢، ١٩٤، ١٩٥، مفرج الكروب ١٥٩/٣، ١٦٢، المختصر ٩٣/٣، ١٠٦، تاريخ ابن الفرات م ٥ ج ١٣/١، ١٤، ٢٠، ٢١، البداية والنهاية ٣٦/١٣، ٣٧، السلوك ج ١ ق ١٦٣/١، ١٦٤، خطط المقريزي ٢٣٥/٢، دول الإسلام/ ١٠٧، ١٠٨، شفاء القلوب/ =

صدى خراب بيت المقدس في سنة ٦١٦ هـ، في أدب الحروب الصليبية :

لم يزل البيت المقدس «ملحوظاً بالعمارة والتحصين، من عهد السلطان ـ صلاح الدين ـ رحمه الله، إلى سنة ست عشرة وستمائة، فإنه خُرب في المحرم منها»[١].

يذكر ابن واصل الحموي، في حوادث سنة ٦١٤ هـ، أن الفرنج اجتمعوا في عكا، وعزموا على «قصد القدس الشريف، وانتزاعه من أيدي المسلمين، واسترداد كل ما أُخذ لهم من البلاد الساحلية». وكان جمعهم عظيماً، ولم يجتمع لهم بعكا مثله، منذ موت صلاح الدين[٢]. ويذكر الذهبي أن الفرنج أقبلوا «بفارسهم وراجلهم من البحار، وخرجوا إلى عين جالوت، ليأخذوا القدس»[٣].

وفي السنة ذاتها، سير الملك العادل ابنه الملك المعظم عيسى ليمنع الفرنج عن قصد بيت المقدس[٤]. وذكر أن الملك المعظم نزل على عقبة اللبن، بين نابلس والقدس، خوفاً على القدس[٥]. ولما دخل الفرنج دمياط، ورأى الملك العادل تخريب حصن الطور، نقل المعظم ما كان فيه من العدد والذخائر إلى القدس، وغيرها[٦].

= ٢١٤، الأنس الجليل ١/ ٤٠٠، ٤٠١، صلاح الدين ـ جب/ ٢٠٥، ٢٠٨.

(١) انظر: مرآة الزمان ٨/ ٦٠٢، ١٤/ ٢٧٢، الذيل على الروضتين/ ١١٦، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٤٥، البداية والنهاية ١٣/ ٨٣، شفاء القلوب/ ٣٠٥، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/ ٢٠٢، نهاية الأرب ٢٧/ ١٨.

(٢) مفرج الكروب ٣/ ٢٥٤، المختصر ٣/ ١١٧، تاريخ ابن الفرات م ٥ ج ١/ ٢١٩ ـ ٢٢٠، السلوك ج ١ ق ١/ ١٨٦.

(٣) دول الإسلام/ ١١٦.

(٤) الكامل ١٢/ ٣٢٢، مفرج الكروب ٣/ ٢٥٦، ٣٢٤، مرآة الزمان ٨/ ٣٣٨، المختصر ٣/ ١٢٢، تتمة المختصر ٢/ ٢٠٣، شفاء القلوب/ ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٨١، السلوك ١/ ١٨٦، ١٨٧، صلاح الدين ـ جب/ ٢١٠، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/ ٢٦٣.

(٥) مرآة الزمان ٨/ ٥٨٣، البداية والنهاية ١٣/ ٧٦.

(٦) الذيل على الروضتين/ ١٩، وانظر: مرآة الزمان ٨/ ٥٨٤، ٥٨٥، ١٤/ ٢٨٨، كنز الدرر (الدر المطلوب) =

وكان الفرنج قد تشاوروا حول ما يبدأون بقصده، فأشار قسم منهم بقصد مصر أولاً، وقالوا: «إن الملك الناصر صلاح الدين، إنما استولى على الممالك، وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه ديار مصر، وتقويته برجالها، فالمصلحة أن نقصد أولاً مصر، ونملكها، وحينئذ فلا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس، وغيره من البلاد»[1]. وكانوا يرون أن الاستيلاء على مصر «هو الخطوة الأولى في الطريق إلى بيت المقدس»، وهو البداية المؤدية إليه، وأنه لا يمكن استرداد بيت المقدس إلا بعد مصر أولاً، وقبل كل شيء، وبهذا كانوا يرمون إلى تحطيم قوة المسلمين العسكرية قبل الزحف على بيت المقدس، وذلك بالاستيلاء على مصر أولاً، كما تقدم[2]. وبهذا يفقد المسلمون «أغنى إقليم لديهم، ولن يستطيعوا المحافظة على اسطولهم في شرق البحر المتوسط، ولن يكون بوسعهم الإبقاء على بيت المقدس في أيديهم زمناً طويلاً»[3]. قال أبو المظفر سبط بن الجوزي للملك الأشرف موسى بن الملك العادل: «المسلمون في ضائقة، وإذا أخذ الفرنج الديار المصرية، ملكوا إلى حضرموت، وعفوا آثار مكة، والمدينة، والشام». فرحل الأشرف للجهاد ضد الفرنج في مصر[4]. وكان الفرنج قد عبروا النيل إلى بر دمياط في العشرين من ذي القعدة، سنة ٦١٥ هـ، وحاصروها، ثم دخلوها في السابع والعشرين من شعبان، سنة ٦١٦ هـ، وبذلك «أشرف الإسلام، وجميع أهله، وبلاده، على خطة خسف في شرق الأرض وغربها». أقبل التتار من الشرق، وأقبل الفرنج من الغرب. وعاد الملك المعظم عيسى من مصر، وخرّب البيت المقدس، وكان ذلك في أول المحرم، وقيل في سابعه[5]. وقيل إن الأمراء الأيوبيين اتفقوا على

= ١٩٥/٧، صلاح الدين ـ جب/ ٢١١، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢٦٦/٣.

(١) مفرج الكروب ٢٥٨/٣.

(٢) شعلة الإسلام/ ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٣، العدوان الصليبي على مصر/ ٢٧.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢٦٧/٣، الحركة الصليبية ٨٩٢/٢.

(٤) انظر: الذيل على الروضتين/ ١٠٨، ١١٥، ١٢٨، النجوم الزاهرة ٢٤٠/٦.

(٥) انظر: مرآة الزمان ٥٩٢/٨، ٥٩٣، ٦٠١، ٦٠٢، ٢٧٢/١٤، دول الإسلام/ ١١٧، ١١٩، الكامل ٣٢٠/١٢ ـ ٣٢٧، البداية والنهاية ٧٩/١٣، ٨٠، ٨٣، السلوك ج ١ ق ١٨٨/١، ١٨٩، ٢٠٤، شفاء =

خراب بيت المقدس، وقالوا: «قد خلا الشام من العساكر، فلو أخذه الفرنج، حكموا على الشام»، وقيل: لو أخذ الفرنج بيت المقدس، «لقتلوا كل من فيه، وحكموا على دمشق، وبلاد الشام، فالجأت الضرورة إلى إخرابه، فشرعوا في السور»[1].

وقيل: وكان الملك الكامل بن الملك العادل، سأل أخاه، الملك المعظم، «أن يعطيه القدس، وكوكب، والطور، ليعطيها للفرنج عوضاً عن دمياط، فأسرَّها في نفسه»، ثم خَرَّب المعظم القدس حتى لا ينتفع بها الفرنج. وبقي بيت المقدس خراباً إلى أن توفي الملك المعظم سنة ٦٢٤ هـ[2].

ويعلل ابن واصل الحموي ما فعله الملك المعظم عيسى، بأنه خشي «أن تصل من البحر أمم عظيمة من الفرنج، إذا سمعوا بقوة أصحابهم، وتمكنهم من الديار المصرية، والملك الكامل مشغول، بمحاربة من بديار مصر من الفرنج، فيقصدون البيت المقدس، وهو عامر، فيملكونه، ولا يمكن بعد ذلك استنقاذه منهم»، في ظل مثل تلك الأوضاع، وقد هدمه الملك المعظم ما عدا برج داود[3]. وبذلك «أصبحت مدينة بيت المقدس مفتوحة لا يمكن الدفاع عنها، ما لم يتم تسويرها مرة ثانية»[4]. وذُكر أنه لم يبق في «الشام سوى عساكر قليلة، مما أدى إلى اتخاذ قرار بتجريد القدس من الوسائل الدفاعية، وبنقل جميع المخازن الحربية منها»[5].

= القلوب/ ٢٢٦، ٣٠٢، ٣٠٥، مفرج الكروب ٣/ ٢٥٨ - ٢٦١، ٤/ ١٥ - ٢٠، ٢٣ - ٢٤، ٣٢، ٣٣، الأعلاق الخطيرة/ ١٦١، المختصر ٣/ ١١٨، ١٢٠، ١٢٢، تتمة المختصر ٢/ ١٩٩ - ٢٠٠، ٢٠٣، التاريخ المنصوري/ ٧٥، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ٣٩١ - ٣٩٣، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٢٢، ٢٣٨ - ٢٤٢، ٢٤٤، اتحاف الأخصا - ابن حجر الهيثمي/ ٢٣٤.

(١) مرآة الزمان ٨/ ٣٩٥، الذيل على الروضتين/ ١١٥، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٤٤، الأعلاق الخطيرة/ ١٤٧.

(٢) الأعلاق الخطيرة/ ٢٢٣.

(٣) مفرج الكروب ٤/ ٣٢، مرآة الزمان ٨/ ٣٩٥، وانظر: المختصر ٣/ ١٢٢، تتمة المختصر ٢/ ٢٠٣، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/ ٢٠٢، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٤٥، السلوك ١/ ٢٠٤.

(٤) شعلة الإسلام/ ٤١١.

(٥) صلاح الدين - جب/ ٢١٢.

ويذكر ابن واصل أنه قد انتقل أكثر المقيمين في بيت المقدس، ولم يبق فيه إلا القليل من الناس. ونُقل ما كان فيه من آلات القتال. وعَظُم ذلك على المسلمين، «وتأسفوا عليه غاية الأسف»[1]!

وذُكر أن بيت المقدس كان قبل تخريبه «على أتم الأحوال من العمارة، وكثرة السكان». وكان لتخريبه أثر كبير في نفوس أهله، وفي نفوس المسلمين جميعاً، فقد ذُكر أنه وقعت ضجة مثل يوم القيامة، «وخرج النساء، والمخدرات، والبنات والشيوخ، والعجائز، والشبان، وقطعوا شعورهم، ومزقوا ثيابهم، بحيث امتلأت الصخرة، ومحراب الأقصى، من الشعور. وخرجوا هاربين وتركوا أموالهم وأثقالهم، وما شكوا أن الفرنج تُصبحهم، وامتلأت بهم الطرقات فبعضهم إلى مصر، وبعضهم إلى الكرك، وبعضهم إلى دمشق. . .، ومات خلق عظيم من الجوع والعطش، وكانت نوبة لم يكن في الإسلام مثلها، كما يقول سبط ابن الجوزي، وأبوشامة المقدسي، وغيرهما[2].



يتردد صدى تخريب بيت المقدس في سنة ٦١٦ هـ، في الأدب العربي، ولكنه صدى باهت، فلم يكن موازياً للحدث الجلل الذي ثارت بسببه نفوس المسلمين، وخرجوا إلى الأقصى والصخرة. ومُزقت الثياب، وقُطعت الشعور، وغير ذلك مما تقدم ذكره. وكل ما نجده، أو ما وصل إلينا من الشعر، في هذا المجال، أبيات قليلة. أقول ذلك على الرغم مما يشير إليه أبوالمظفر سبط بن الجوزي، إذ يذكر أن الشعراء أكثروا في ذم ما حدث، وفي ذم الملك المعظم عيسى. وقول ابن الجوزي يلفت النظر، ويدعو إلى التساؤل: أين ذلك القول الكثير؟ وهل قيل شعر كثير حقاً، ولكنه لم يصل إلينا؟ ولِمَ لمْ تثبت منه المصادر التاريخية والأدبية إلا أقل القليل؟ إن أبا المظفر سبط بن الجوزي نفسه، لم

(١) مفرج الكروب ٤/٣٢. وانظر: المختصر ٣/١٢٢، دول الإسلام/ ١١٩، الحضرة الانسية/ ٢٣٤.

(٢) مرآة الزمان ٨/٦٠١، ٦٠٢، ١٤/٢٧٢، الذيل على الروضتين/ ١١٥، ١١٦، النجوم الزاهرة ٦/٢٤٤، ٢٤٥، البداية والنهاية ١٣/٨٣، شفاء القلوب/ ٣٠٥، الأنس الجليل ١/٤٠٢، شذرات الذهب ٥/٦٥، ٦٦.

يذكر إلا بيتاً واحداً، في هذا المجال، وهو أحد بيتين من مقطوعة لم يُعرف قائلها، فقد ذكر: فقال بعضهم[1]:

في رجب حَلَّلَ الحُميّا وأخرب القُدس في المُحرَّمْ
واستخدمَ القبطَ والنصارى وبعدَ ذا وزر المُكرَّمْ

فلم يرو السبط إلا البيت الأول فقط. وعندما ذكر هذا البيت أضاف معقباً: «من أبيات، ولم يعذره أحد»[2].

ومما قيل في ذلك مقطوعةُ أنشدها قاضي الطور، مجد الدين محمد بن عبدالله الحنفي، ينعى فيها ما حلّ بالبيت المقدس من خراب، ويبدي أسفه، وحزنه لهذه المصيبة العظمى، ويوازن بين هذا العهد الذي تم فيه خراب بيت المقدس، والعهد السابق الذي كان عامراً فيه، ويتمنى أنْ يفتديه بنفسه، كما يبدو في قوله[3]:

مَرَرْتُ على القُدس الشريف مُسَلِّماً على ما تَبقَّى من رُبوعٍ كأنْجمِ
ففاضَتْ دموعُ العين مني صبابةً على ما مضى من عصرنا المتقدِّمِ
وقد رامَ عِلْجٌ أن يُعفّي رسومَهُ وشمَّر عن كفّي لئيم مُذَمَّمِ
فقلتُ له شلّت يمينُك خلِّها لمعتبرٍ أو سائلٍ أو مُسلِّمِ
فلو كانَ يُفدى بالنفوس فَدَيْتهُ بنفسي وهذا الظنّ في كلّ مُسْلِمِ

وتفرد ابن الشَعّار الموصلي برواية قصيدة قيلت في تخريب بيت المقدس، في سنة ٦١٦ هـ، وهي لمحمد بن المبارك القَرْقساني، وكان خطيباً في بيت المقدس، عندما خربه الملك المعظم عيسى[4]. ويصور الشاعر مصاب القدس الجلل، وأثره في نفوس المسلمين، ويصور نفسه حزيناً للمصير الذي

---

(١) مرآة الزمان ٨/٦٠٢، ١٤/٢٧٢، الذيل على الروضتين/ ١١٦، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٢٠٢، النجوم الزاهرة ٦/٢٤٥، البداية والنهاية ١٣/٨٣، شفاء القلوب/ ٣٠٩، شذرات الذهب ٥/٦٦.

(٢) مرآة الزمان ٨/٦٠٢.

(٣) مرآة الزمان ٨/٦٠٢، ١٤/٢٧٢، الذيل على الروضتين/ ١١٦، النجوم الزاهرة ٦/٢٤٥، البداية والنهاية ١٣/٨٣، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٢٠٢، شذرات الذهب ٥/٦٦.

(٤) عقود الجمان ٦/٢٦١.

آل إليه بيت المقدس، وقد لبس ملابس الحداد لما حَلّ بالمدينة. ويتحدث عن الأقصى المبارك، والصخرة المشرفة، وما حَلّ بهما بعد تخريب القدس، كما يتحدث عن المدارس وأثر ذلك عليها، كما يبدو في قوله[1]:

مُصابُ القُدْس قد سَلَبَ الرُّقادا ... وقد لبسَ الخطيبُ به حِدادا
وقاضية قَضَى نحباً وإن لم ... يمتْ لخراب ما أعلى وشادا
ونادى المسجدُ الأقصى أيرضى ... بهذا الفعل من فرض الجهادا
ومنبرُه الشريفُ يئنُّ خوفاً ... ومما حَلّ بالمحراب مادا
ولا تَرْقى لصخرته دموعٌ ... فكمْ قد أقْرحَتْ أسفاً فؤادا
وأصبحت المدارسُ مُعولاتٍ ... تُريق محابرُ الفتيا المِدَادا
وما عن عَيْن سلوانٍ سُلوٌّ ... لساكنه ولو ملك البلادا
وبيتُ خليله وجلٌ لما قد ... أصاب سواه يرتعدُ ارتعادا

ويصور الشاعر أثر ذلك في نفوس الأعداء، يقول[2]:

وعندَ قُمامة اليومَ التهاني ... تتيهُ ككاعبٍ جاءتْ تهادى
ولكن الكنائسَ ضاحكاتٌ ... تعالى الله يفعلُ ما أرادا

ويخاطب الزائرين للبيت المقدس، مطالباً إياهم بالبكاء، وافتراش الرماد، ويصور الارتباط بين بيت المقدس ومكة، وقد لبست مكة الحداد، كما يبدو في قوله[3]:

ألا يا زائريه ابكوا ونوحوا ... على الإسلام وافترشوا الرمادا
فلو بكت العيونُ دماً عليه ... تقاضى رُزْؤه الباكي ازديادا
فمكةُ ثاكلٌ عَبْرى فَلَما ... ألمَّ بأختها لبستْ سوادا

ويختم الشاعر قصيدته مصوراً الحدث الجلل، مستنكراً ما حدث، فيقول[4]:

أبعدَ خراب بيت القُدس خطبٌ ... أشدُّ ولو توسدنا القتادا
على الدنيا وما فيها عفاءٌ ... ولو نلنا بها السَّبْعَ الشِّداد

---

(١) عقود الجمان ٦/٢٦١ - ٢٦٢.
(٢، ٣، ٤) نفسه ٦/٢٦١ - ٢٦٢.

صدى التنازل عن بيت المقدس في سنة ٦٢٦ هـ في أدب الحروب الصليبية :

تقدم القول أن الملك الكامل طلب من أخيه الملك المعظم بيت المقدس، ليعطيها للفرنج عوضاً عن دمياط.

يذكر رنسيمان أنه قد قدم أسير فرنجي (وقيل أسيران)، من قبل الملك الكامل، يعرض على الفرنج هدنة قصيرة الأمد، ويذكر أن المسلمين مستعدون للتنازل عن بيت المقدس، وتقرر قبول الهدنة، ورفض مناقشة شروط الصلح الأخرى[١].

لم تستطع دمياط الصمود، فقد «نفد ما عند أهلها من الأقوات، واشتد بها الغلاء، واشتد بأهلها الجوع»، وانتشر الوباء، ووصلت إلى الفرنج نجدات من البحر، واستولى الفرنج عليها، وطمعوا في ملك مصر، «وظنوا أنهم يملكون بملكها البيت المقدس، وسائر بلاد الشام»[٢]. وتقدمت الإشارة إلى أن الملك الكامل كان يريد الصلح، لتخليص دمياط، ولذا أرسل أسيراً أو اثنين لعرض التنازل عن بيت المقدس، على الفرنج، والتنازل عن قلب فلسطين، والجليل، ويحتفظ المسلمون بالقلاع الواقعة وراء نهر الأردن، وإعادة صليب الصلبوت، فرفض الفرنج هذا العرض[٣].

لقد كان هذا العرض عرضاً مثيراً للدهشة والقلق، فإنه يتضمن عودة «المدينة المقدسة، وبيت لحم، والناصرة، وصليب الصلبوت» إلى الفرنج دون قتال، كما يقول رنسيمان[٤]. ومن المستغرب أن يعارض (بلاجيوس) مبعوث البلاط البابوي، ويطرك بيت المقدس آنذاك، قبول هذا العرض. ومن المستغرب أيضاً أن البابوية «أخذت تعمل على ألا ينجح الامبراطور فردريك

(١) تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٢٨٥.

(٢) مفرج الكروب ٤/٣٢، ٣٣.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٢٨٦، وانظر ٣/٢٩٥، ٢٩٦.

(٤) تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٢٨٦، وانظر: شعلة الإسلام/ ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، الحركة الصليبية ٢/٩٣٢.

الثاني في استرداد المدينة حتى لا يكسبه ذلك شرفاً ونصراً في معركته ضدها. لذلك أخذت البابوية ترسل الرسل والخطابات الى السلطان الكامل تحرضه على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور»[1].

لقد كانت الرسل مترددة بين الطرفين في طلب الصلح، في الوقت الذي كان القتال يجري فيه بينهما. وبذل المسلمون «القدس، وعسقلان، وطبرية، واللاذقية وجبلة، وجميع ما فتحه السلطان الناصر صلاح الدين، من الساحل، ما عدا الكرك والشوبك، ليسلموا دمياط، ويرحلوا عن الديار المصرية». ولكن الفرنج لم يرضوا بذلك، وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن الأسوار التي خربت في بيت المقدس، وقالوا: «لا بد من تسليم الكرك والشوبك إليهم، ولم يتم الأمر بينهم». واضطر المسلمون إلى قتال عدوهم، وسَلِمَ بيت المقدس، وغيره من البلاد، من الاحتلال الصليبي ثانية[2].

ولما توجه الفرنج للزحف من دمياط إلى الجنوب، وقعوا في مأزق، وأحاطت بهم المياه من جميع الجهات، بعد أن فتح المسلمون الترع من كل مكان، وأحدقت بهم العساكر، وقطعوا عليهم خط الرجعة، وأحرز المسلمون النصر، فراسل الفرنج المسلمين «يطلبون منهم الأمان، ليسلموا إليهم دمياط، من غير عوض»، فاستجاب الملك الكامل، وأعطاهم الأمان، وكان ذلك في السابع عشر من رجب، سنة ٦١٨ هـ. وسُلمت المدينة إلى المسلمين، «وكان يوم تسلمها يوماً مشهوداً، عاد به الدين الإسلامي جديداً بعد أن كانت قد ساءت به الظنون»[3]. وسلم بيت المقدس من الاحتلال ثانية، وفشلت الحملة الصليبية الخامسة.

---

(١) انظر: الحركة الصليبية ٢/٩٦٤.

(٢) انظر: مفرج الكروب ٤/٩٥، الكامل ١٢/٣٢٩، المختصر ٣/١٢٩، تتمة المختصر ٢/٢١١، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٢٠٩، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ٣٩٤، السلوك ١/٢٠٦، ٢٠٧، الخطط المقريزية ١/٣٥٢، البداية والنهاية ١٣/٩٥، صبح الأعشى ٥/٤١٣، شفاء القلوب/ ٣٠٦، الأنس الجليل ١/٤٠٤، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٢٨٤ ـ ٢٨٧، ٢٩٥، ٣٠٠، ٣٠٢، صلاح الدين ـ جب/ ٢١٣، العلاقات بين الشرق والغرب ـ عبدالمنعم ماجد/ ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، إمارة الكرك/ ٢٠١ ـ ٢٠٦.

(٣) انظر: مفرج الكروب ٤/٩٦ ـ ٩٩، الذيل على الروضتين/ ١٢٩، ١٣٠، الكامل ١٢/٣٢٩، ٣٣٠،

وتجدر الإشارة إلى أن العديد من الشعراء هنأوا الملك الكامل وإخوته بتحرير دمياط، وقد أكثروا، ومنهم ابن عُنين، وبهاء الدين زهير، وراجح الحلي، وغيرهم[1]. ولكنهم لم يشيروا في قصائدهم إلى ما كان الملك الكامل قد عرضه على الفرنج، من تسليم لبيت المقدس، وغيره من بلاد المسلمين. ولعل الموقف المتمثل في التغني بالنصر، لم يسمح بالإشارة إلى عرض التنازل عن بيت المقدس، ولم يكن الحديث عن ذلك متلائماً والمقام الذي أنشد فيه الشعراء قصائدهم. ولعل خشيتهم من الملك الكامل منعتهم من الحديث عن ذلك أو الإشارة إليه، فقصروا أشعارهم على المديح والتهاني.

وما كاد الخطر الصليبي يزول، حتى تفرقت العساكر الإسلامية، ثم عاد الخلاف يُطل بأنيابه بين أبناء البيت الأيوبي، وهو الخلاف الذي سنراه يؤدي إلى التنازل عن بيت المقدس. يذكر أبوشامة المقدسي أن القلوب قد تغيرت، فأصبح الكامل والأشرف متصادقين، واتفقا على المعظم. مما جعل الأخير يتفق مع جلال الدين خوارزم شاه، لما بلغه اتفاق أخويه عليه. وبدت الوحشة بين الطرفين. وفي سنة ٦٢٣ هـ، قدم محيي الدين يوسف بن الجوزي، رسولاً من الخليفة إلى المعظم، طالباً منه الرجوع عن موالاة الخوارزمي، والصلح مع إخوته.[2].

= النجوم الزاهرة ٦/٢٤١، ٢٤٢، النجوم الزاهرة في حلى القاهرة/ ٣٩٥، المختصر ٣/١٢٩، ١٣٠، تتمة المختصر ٢/٢١١، ٢١٢، شفاء القلوب/ ٣٠٦، ٣٠٧، الأنس الجليل ١/٤٠٤، صلاح الدين ـ جب/ ٢١٣، شعلة الإسلام/ ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، الحركة الصليبية ٢/٩٣٨، ٩٣٩، ٩٤٠.

(١) انظر: ديوان ابن عنين / ٢٩ ـ ٣٢.
ديوان البهاء زهير / ٩٩ ـ ١٠٢.
مفرج الكروب ٤/١٠٠ ـ ١٠٥، الذيل على الروضتين/ ١٢٩، ١٣٠، شفاء القلوب/ ٣٠٧ ـ ٣٠٩.

(٢) انظر: الذيل على الروضتين/ ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٤٢، ١٤٧، ١٤٨، مفرج الكروب ٤/١١٦، ١٢٧ ـ ١٢٩، الكامل ١٢/٤٢١، ٤٢٢، ٤٦٣، ٤٦٤، النجوم الزاهرة ٦/٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٤، ٢٦٦، المختصر ٣/١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٧، تتمة المختصر ٢/٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٨، ٢١٩، شفاء القلوب/ ٣١٠، صلاح الدين ـ جب/ ٢١٣، ٢١٤، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٢٦.

لقد كان رد الفعل لدى الملك الكامل، تجاه التحالف بين الملك المعظم عيسى، وجلال الدين خوارزم شاه، سيئاً جداً، وتمثل في اتصال الملك الكامل بالامبراطور فردريك الثاني، والتنازل عن بيت المقدس. يذكر ابن واصل، في حوادث سنة ٦٢٤ هـ، أنه لما تأكدت الوحشة بين الملك المعظم، وأخويه الملك الكامل، والملك الأشرف، أرسل الكامل رسولاً (وهو الأمير فخر الدين يوسف بن صدر الدين شيخ الشيوخ) إلى الامبراطور فردريك، وطلب منه القدوم إلى عكا. و «وعده أن يعطيه بيت المقدس، وبعض الفتوح الناصري» فاستجاب الامبراطور، وتجهز لقصد الساحل.[1].

وذُكر أن الامبراطور فردريك، كان قد أرسل رسولاً إلى الملك المعظم أيضاً، طالباً منه القدس والساحل، فرفض المعظم قائلاً: «قل لصاحبك ما أنا مثل الغير (هكذا)، ما له عندي سوى السيف»، ثم بدأ يتجهز للدفاع عن القدس[2].

وأما الملك الكامل، فكان يستقبل الهدايا مع رسل الفرنج، ويبعث الهدايا معهم أيضاً[3].

وفي سنة ٦٢٤ هـ، توفي الملك المعظم، وولي بعده ابنه الملك الناصر داود[4].

وترددت الرسل بين الملك الكامل، والملك الأشرف، من ناحية،

---

(١) مفرج الكروب ٤/٢٠٦، ٢٠٧، وانظر: المختصر ٣/١٣٧، ١٣٨، تتمة المختصر ٢/٢١٩، شفاء القلوب/ ٣١٠، صلاح الدين ـ جب/ ٢١٥، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٢٧، الحركة الصليبية ٢/٩٥٦.

(٢) مرآة الزمان ٨/٤٢٤، كنز الدرر ٧/٢٨٤، البداية والنهاية ١٣/٣٢٧، المكتبة الصقلية/ ٥١٠، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٢٧، شعلة الإسلام/ ٤٣٨.

(٣) السلوك ١/٢٢٣، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٢٧.

(٤) انظر: الذيل على الروضتين/ ١٥٢، مفرج الكروب ٤/٢٠٨، ٢٢٤، مرآة الزمان ٨/٦٤٤، الكامل ١٢/٤٧١، النجوم الزاهرة ٦/٢٦٧، المختصر ٣/١٣٨، شفاء القلوب/ ٣١١، التاريخ المنصوري/ ١٥٣، الأنس الجليل ١/٤٠٥.

والامبراطور فردريك من ناحية أخرى[1]. وبينما كان الملك الكامل مشتغلاً بمراسلة الامبراطور فردريك، بشأن القدس، اتفق الكامل والأشرف على انتزاع دمشق من الناصر داود، وحاصر الأشرف دمشق، فيا للعجب! ولهذا سير الناصر داود رسولاً إلى جلال الدين خوارزم شاه[2].

إنني أذكر هذا لأن له صلة مباشرة مع التنازل عن بيت المقدس، بل إن هذا الحديث هو أساس الموضوع. ولا شك أن هذا الخلاف في البيت الأيوبي، كان ظاهرة سلبية تجاه المسلمين، فقد هدد ذلك الخلاف العالم الإسلامي عامة، والبيت المقدس خاصة. ولكنه كان ظاهرة ايجابية تجاه الفرنج. ومما زاد في أثر هذا الخلاف، تجاه المسلمين، بروز الخطر المغولي، إلى جانب الخطر الصليبي، وهما خطران كبيران هددا العالم الإسلامي.

وقدم الامبراطور فردريك إلى عكا، في سنة ٦٢٥ هـ، ومعه جموع كثيرة من الألمان وغيرهم من الفرنج. وكتب فردريك الى الكامل يطلب منه أن يسلمه القدس، وجميع ما فتحه صلاح الدين[3]. «ولم يمكن دفع الامبراطور ومحاربته، لما تقدم بينهما من الاتفاق، فراسله الكامل، ولاطفه» كما يقول ابن واصل[4].

ويُذكر أن الملك الكامل جمع امراءه واستشارهم، فرأى أحدهم أن يبقي دمشق على الملك الناصر داود، وأن يطلب الملك الأشرف، ثم قال: «ونقاتل هذا العدو، فإما لنا، وإما علينا، ولا يقال عن السلطان إنه أعطى الفرنج

(١) الكامل ١٢/٤٨٢، المختصر ٣/١٤٠.

(٢) مفرج الكروب ٤/٢٣٠ ـ ٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٩ ـ ٢٤٠، وانظر: الذيل على الروضتين/ ١٥٤ ـ ١٥٦، الكامل ١٢/٤٨٣، ٤٨٤، النجوم الزاهرة ٦/٢٧٢، المختصر ٣/١٤٠، ١٤١، تتمة المختصر ٢/٢٢٢، التاريخ المنصوري/ ١٥٨، ١٦١، ١٦٢، السلوك ١/٢٢٧، ٢٢٨، الأنس الجليل ١/٤٠٦.

(٣) مفرج الكروب ٤/٢٣٣، ٢٣٤، الأعلاق الخطيرة/ ٢٢٣، ٢٢٤، الكامل ١٢/٤٧٨، ٤٨٢، المختصر ٣/١٣٨، ١٤١، تتمة المختصر ٢/٢٢٢، السلوك ١/٢٢٦، الأنس الجليل ١/٤٠٥، المكتبة العربية الصقلية/ ٣١٥، ٤١٨، ٤١٩.

(٤) مفرج الكروب ٤/٢٤٢، شفاء القلوب/ ٣١١.

القدس[1]. وهذا هو الرأي الذي كان على الملك الكامل أن يعمل به، ولكنه بدلاً من ذلك، قبض على الأمير الذي أشار بالقتال، وسيره إلى مصر، وحبسه فيها[2].

وترددت الرسل بين الكامل وفردريك. وانتهى الأمر بينهما «أن يسلم إليه القدس على شريطة أن يبقى خراباً، ولا يجدد سوره، وأن لا يكون للفرنج شيء من ظاهره البتة، بل يكون جميع قراياه للمسلمين. وللمسلمين وال عليها يكون مقامه بالبيرة، من عمل القدس، من شماليه. وأن الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة، والمسجد الأقصى، يكون بأيدي المسلمين»، وشعارهم فيه ظاهر، ولا يدخلها الفرنج إلا للزيارة فقط. «واستثنى الفرنج قرايا معدودة هي طريقهم إذا توجهوا من عكا إلى القدس»، تكون بأيديهم، خوفاً من المسلمين، وقد تسلمه الفرنج في أول ربيع الآخر، من سنة ٦٢٦ هـ[3]. وكان ذلك في الوقت الذي كان فيه الناصر داود محصوراً في دمشق، يحاصره عمه الملك الأشرف[4].

ويحاول بعضهم التبرير لهذا العمل الشنيع، فقد قيل: إن الملك الكامل لو لم يف للامبراطور فردريك بما وعد، لفتح باب محاربة مع الفرنج، واتسع الخرق[5] ولكن، متى كان فتح باب الجهاد ضد الغزاة المعتدين مبرراً للتنازل عن حقوق الإسلام والمسلمين؟ أليس الجهاد بواجب على المسلمين عندما

(١، ٢) الأعلاق الخطيرة/ ٢٢٤.

(٣) انظر: الروضتين ٢/٢٠٦، دول الإسلام/ ١٣٢، التاريخ المنصوري/ ١٦٣، ١٦٤، السلوك ١/٢٢٨، ٢٢٩، شذرات الذهب ٥/١١٨، المكتبة العربية الصقلية/ ٥١٩، شعلة الإسلام/ ٤٣٨، ٤٣٩، الحركة الصليبية ٢/٩٦٦.

(٤) مفرج الكروب ٤/١٣٤، ١٣٥، ٢٤١ ـ ٢٤٢، الذيل على الروضتين/ ١٥٤، وانظر: المختصر ٣/١٤١، تتمة المختصر ٢/٢٢٢، الكامل ١٢/٤٨٢ ـ ٤٨٣، مرآة الزمان ٨/٤٣١ ـ ٤٣٢، زبدة الحلب ٣/٢٠٥، الأعلاق الخطيرة ٣/٢٢٣، مختصر تاريخ الدول/ ٢٢٤، التاريخ المنصوري/ ١٧٦، ١٧٧، شفاء القلوب/ ٣١١، ٣٤٧، البداية والنهاية ١٣/١٢٣، ١٢٤، السلوك ١/٢٢٩، ٢٣٠، الأنس الجليل ١/٤٠٦، المكتبة العربية الصقلية/ ٣١٥، ٣١٦، ٤٢٠، ٥١٠، ٥١٣، ٥١٤.

(٥) مفرج الكروب ٤/٢٤٢، وانظر: شفاء القلوب/ ٣١١.

يُغزون في عقر دارهم؟ وإذا كان المسلمون في حالة ضعف، فإنه لا يحق لهم التنازل عن حقوقهم في بلادهم وأرضهم ومما يدمي القلب ما ذكره بعض. المؤرخين قائلاً: «. . . فرأى ـ الملك الكامل ـ أن يرضي الفرنج بمدينة القدس خراباً، ويهادنهم مدة». وحلف الطرفان، وعقدت الهدنة[1].

ومما يستغرب أن هدف فردريك كان يتمثل في الحفاظ على جاهه، وكرامته، وناموسه عند الفرنج الذين كان قد وعدهم بالبيت المقدس. يقول: «لولا أني أخاف انكسار جاهي عند الفرنج، لما كلفت السلطان شيئاً من ذلك، وما لي غرض في القدس، ولا غيره، وإنما قصدت حفظ ناموسي عندهم»[2]. وهذا أمر مستغرب حقاً، إنه يريد الحفاظ على كرامته، ومكانته، ووعوده، مع أنه غير مؤمن بالارتباط ببيت المقدس أو غيره من البلاد، كما يقول، ولكن الحاكم المسلم لا يجد غضاضة في التنازل عن بيت المقدس، وغيره من بلاد المسلمين.

ويُذكر أن الملك الكامل يعد «إلى حد كبير مسؤولاً عن افتقار المسلمين إلى روح المهاجمة». بينما «كان مستعداً لأن يقاتل، وأن ينغمس في كل مؤامرة، في سبيل توحيد الممتلكات الأيوبية تحت سلطانه»[3].

لقد كان في التنازل عن القدس كثير من «سوء الذكر، وقبح الأحدوثة»، وهو يناقض الذكر الطيب الذي ناله صلاح الدين بفتحه بيت المقدس. ومن الغريب أن يصدر مثل هذا القول عن الملك الكامل نفسه[4].

لقد كانت هذه الفعلة الشنيعة «من الوصمات التي دخلت على المسلمين»[5]. ويُذكر أن الأئمة والمؤذنين الذين حضروا من القدس، ذهبوا إلى

---

(١) مفرج الكروب ٤/٢٤٢، ٢٤٣.

(٢) مفرج الكروب ٤/٢٤٣، السلوك ١/٢٣٠، شفاء القلوب/ ٣١٢، المكتبة العربية الصقلية/ ٥١٤، ٥٢٠ ـ ٥٢١، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٣٦.

(٣) تاريخ الحروب الصيليبية ١/٣٦٥.

(٤) انظر: الكامل ١٢/ ٤٨٠، دول الإسلام/ ١٣٢، النجوم الزاهرة ٦/٢٧١، ٢٧٢، البداية والنهاية ١٣/١٢٣، المكتبة الصقلية/ ٣١٥، ٣١٦، ٣٢٤، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٢٨.

(٥) الذيل على الروضتين/ ١٥٤.

مخيم الكامل، «أذّنوا على بابه في غير وقت الأذان. . .، فعز عليه ذلك، وأمر بأخذ ما كان معهم. . .، وزجرهم، وقيل لهم: امضوا إلى حيث شئتم، فعظم على أهـل الإسـلام هذا البلاء. واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار[1]. وعُدّ فعل الكامل هذا خروجاً عن الدين[2]. ويذكر سبط بن الجوزي أنه «أُقيمت القيامة في جميع بلاد الإسلام»، وأقيمت المآتم[3].

وشق هذا على المسلمين، فقد كان من أعظم المصيبات في الإسلام، وكان طامة كبرى حصل بسببها «وهن عظيم، وإرجاف شديد»[4].

كان لهذه الوصمة أثر كبير ف نفوس المسلمين. يذكر ابن واصل الحموي، وهـو معاصر للأحداث، أن السلطان الكامل أرسل رسولاً إلى بيت المقدس ينادي بخروج المسلمين من مدينتهم، ودورهم، لتسليمها للفرنج، فلما نودي بالخـروج، «وقع في القدس الضجيج والبكاء، وعظم ذلك على المسلمين، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل». ولكنه يحاول التبرير لفعلته فيقول: «إن الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره، وانه إذا قضى غرضه، واستتبت له الأمور، كان متمكناً من تطهيره»[5]. ولكنه تبرير لا جدوى منه. وهذا التبرير «سلوى تافهة» كما يقول رنسيمان[6]. وإذا كان الأمر كما حاول أن يقول الكامل، فهل تقتصر المدينة على مقدساتها، علماً بأن تلك المقدسات رازحة في ظل الاحتلال؟ أين أهلها، وما مصيرهم؟ وماذا عن منع المؤذنين من النداء بالأذان، في وقت الفجر، إعظاماً للامبراطور، واحتراماً له، خلال زيارته إلى

---

(١) السلوك ١/٢٣١.

(٢) إتحاف الأخصا ـ السيوطي/٢٨٥، إتحاف الأخصا المنسوب إلى ابن حجر الهيثمي/٢٣٩ ـ ٢٤١.

(٣) مرآة الزمان/ ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧.

(٤) دول الإسلام/ ١٣٢، وانظر: نهاية الأرب عن المكتبة الصقلية/ ٥٠٢، ٥٠٣.

(٥) مفرج الكروب ٤/٢٤٣، وانظر: الكامل ١٢/٤٨٣، النجوم الزاهرة ٦/٢٧٢، شعلة الإسلام/ ٤٤١، المكتبة العربية الصقلية/ ٥١٤، ٥٢٠، صلاح الدين ـ جب/ ٢١٦.

(٦) تاريخ الحروب الصليبية ٣/٣٣٢.

بيت المقـدس؟ وكان القاضي الذي رافق الامبراطور، في زيارته، قد أوصى المؤذنين بعدم الأذان في تلك الليلة، بطلب من السلطان. ولكن، ياللعجب، إن الامبراطور لم يكن راضياً عن منع الأذان، فقد قال للقاضي: «أخطأت فيما فعلت، والله إنه أكثر غرضي في المبيت في القدس أن أسمع آذان المؤذنين، وتسبيحهم بالليل. لقـد أخـطأتم. تبـطلون شعـائر دينكم لأجلي»[1]. ويذكر رنسيمان أنه جرى احتفال بدخول فردريك بيت المقدس. وقد سلمه القاضي مفاتيح المدينة باسم السلطان[2]. وذكر أن الامبراطور فردريك كان قد استأذن السلطان الكامل في زيارة القدس، فأذن له! فزارها وزار المقدسات فيها، وكان يرافقه القاضي بأمر من السلطان. ومما يثير النفس قول فردريك لقسيس أراد دخول الأقصى: «ما الذي أتى بك إلى ها هنا، والله لئن عاد أحد منكم يدخل بغير إذني، لآخذن ما في عينيه، نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل، وعبيده. وإنما تصدق علي وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه، ولا يتعـدى أحد منكم طوره»[3]. أقول: ولم الاستئذان في زيارة القدس بعد أن تنازل عنها الكامل؟ ولِمَ كل هذا التذلل الظاهر الذي يبديه فردريك، إذ يعد نفسه عبداً من عبيد السلطان؟ ولِمَ يعد التنازل عن بيت المقدس صدقة تصدق السلطان بها على الفرنج؟! إنه أمر غريب حقاً. ثم رحل الامبراطور إلى عكا، وقيل إلى يافا، بعد أن أقام ليلة أو ليلتين في بيت المقدس[4].

كما تجدر الإشارة إلى أن المملكة الصليبية في الشرق الإسلامي، بقيت تتخذ عكا قاعدة لها، ولم تنقل قاعدتها إلى بيت المقدس، بعد أن تسلموها في سنة ٦٢٦ هـ[5].

---

(١) مفرج الكروب ٤/٢٤٤، ٢٤٥، وانظر: مرآة الزمان ٨/٦٥٦، ٦٥٧، السلوك ١/٢٣١، شفاء القلوب/ ٣١٣، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٣٥، شعلة الإسلام/ ٤٤٤، ٤٤٥، المكتبة الصقلية/ ٥١٥، ٥١٦.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية ٣/٣٣٣، ٣٣٤، وانظر: شعلة الإسلام/ ٤٤٣.

(٣) مفرج الكروب ٤/٢٤٤، مرآة الزمان ٨/٦٥٥، السلوك ١/٢٣١، شفاء القلوب/ ٣١٣.

(٤) مفرج الكروب ٤/٢٤٥، مرآة الزمان ٨/٦٥٧، النجوم الزاهرة ٦/٢٧٢، السلوك ١/٢٣٢، شفاء القلوب/ ٣٠٣، المكتبة الصقلية/ ٣٢٤.

(٥) انظر: الحركة الصليبية ٢/٩٧٦، ٩٨٧.

وتجدر الإشارة إلى أن الامبراطور فردريك كان يلقب نفسه بألقاب عديدة، ومنها لقبه «مالك ألمانيا... ومملكة الشام القدسية». وكان يصف نفسه بأنه المنصور بالله، وأنه «معز إمام رومية»، و«الناصر للملة المسيحية»، كما ورد في كتاب وصل إلى الملك الكامل، كما يذكر ابن نظيف الحموي[1]، في حوادث سنة ٦٢٧ هـ[2]. ومما يُذكر من ألقابه أيضاً، أنه «حافظ بيت المقدس، ملك ملوك النصرانية، حامي الممالك الفرنجية»[3].



أعلن الملك الناصر داود الحداد العام لما تعرض له الإسلام من فعل شنيع، أساء إلى الإسلام والمسلمين، وفرّط في حقوقهم، وحقوق دينهم، وحقوق بلادهم، وطلب الناصر داود من سبط بن الجوزي أن يعقد مجلسا في الجامع الأموي، في دمشق، فاستجاب، وعقد مجلساً تحدث فيه عن فضائل بيت المقدس. «وما ورد فيه من الأخبار والآثار». ويصور الصغار، والعار، والذل الذي لحق بالمسلمين من جراء تسليم بيت المقدس إلى العدو الصليبي. وحضر الناس ذلك المجلس، وحضره السلطان الناصر داود نفسه، ولم يتخلف أحد في دمشق عن الحضور[4].

لقد كان صدى التنازل عن بيت المقدس كبيراً، وبدا ذلك الصدى جلياً في حديث سبط بن الجوزي، في مجلسه هذا، وفيه يصور انقطاع الزائرين للبيت المقدس، والمجاورين هناك. ويصور إحساسات المسلمين إزاء

(١) بوالفضائل محمد بن علي بن عبدالعزيز بن علي بن مزهر بن بركات بن علي بن نظيف الحموي الكاتب المكي.

(انظر مقدمة التاريخ المنصوري).

(٢) التاريخ المنصوري/ ١٨٩، ١٩٠، عقد الجمان للعيني ـ حوادث سنة ٦٢٦ هـ. وانظر: العدوان الصليبي على بلاد الشام/ ١٢٠.

(٣) عقد الجمان للعيني ـ حوادث سنة ٦٢٦ هـ. وانظر: العدوان الصليبي على بلاد الشام/ ١١٩، ١٢٠.

(٤) مفرج الكروب ٤/٢٤٥، ٢٤٦، المختصر ٣/١٤١، ١٤٢، تتمة المختصر ٢/٢٢٢، ٢٢٣، السلوك ١/٢٣٣، شفاء القلوب/ ٣١٢، الأنس الجليل ١/٤٠٦.

المصيبة العظمى. ويستنكر ما حدث استنكاراً شديداً، ويخص السلطان الكامل بالاستنكار، ولكنه يستنكر مواقف ملوك المسلمين الآخرين. ومما قاله في مجلسه ذاك: «انقطعت عن بيت المقدس وفود الزائرين، يا وحشة المجاورين، كم كانت لهم في تلك الأماكن من ركعة، كم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة. تالله لو صارت عيونهم عيوناً لما ونت، ولو تقطعت قلوبهم أسفاً لما شفت. أحسن الله عزاء المؤمنين. يا خجلة ملوك المسلمين. لمثل هذه الحادثة تُسكب العبرات. لمثلها تنقطع الملوك من الزفرات. لمثلها تعظم الحسرات»[1].

ويصور ابن واصل الحموي هذا كله، وكان ممن حضروا المجلس الذي عقده سبط بن الجوزي، يقول: «وحضرت أنا هذا المجلس»[2]، ويصف ذلك المجلس بأنه «كان يوماً مشهوداً»، وقد علا فيه ضجيج الناس، وعويلهم، وبكاؤهم[3].

ويذكر ابن واصل أنه سمع يومئذ السبط يورد قصيدة تائية، ومطلعها[4]:

أعيني لا تَرْقَى من العَبَرَاتِ   صِلي في البُكا الآصال بالبكراتِ

ويضيف: إن الشاعر قد «وازن بها قصيدة دعبل بن علي الخزاعي، وضمنها بيتاً من القصيدة، وهو[5]:

مدارس آيات خلت من تلاوة   ومنزل وحي مقفر العرصات

---

(١) انظر: مرآة الزمان ٨/٦٥٤، ٦٥٧ مفرج الكروب ٤/٢٤٥، ٢٤٦، المختصر ٣/١٤١ ـ ١٤٢، تتمة المختصر ٢/٢٢٢، ٢٢٣، شفاء القلوب/ ٣١١ ـ ٣١٣، كنز الدرر ٦/٢٩٣ ـ ٢٩٤، السلوك ١/٢٣٠ ـ ٢٣٢، الأنس الجليل ١/٤٠٦ ـ ٤٠٧، اتحاف الأخصا ـ السيوطي/ ٢٣٦ ـ ٢٤٠.

(٢) مفرج الكروب ٤/٢٤٦.

مفرج الكروب ٢/٢٤٦. وانظر: المختصر ٣/١٤٢، تتمة المختصر ٣/٢٢٣، السلوك ١/٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، البداية والنهاية ١٣/١٢٣، ١٢٤، الأنس الجليل ١/٤٠٦، ٤٠٧.

(٤) الروضتين ٢/٢٠٥، نهاية الأرب ٢٧/٣٣.

(٥) شعر دعبل الخزاعي/ ٧٨، ٢٩٧. وانظر: الروضتين ٢/٢٠٦، تتمة المختصر ٢/٢٢٣، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٢٩٥، شفاء القلوب/ ٣١١، السلوك ١/٢٣٣.

ويذكر ابن واصل أنه قد علق بذهنه بيت من القصيدة التي أوردها السبط، وهو:

على قبـة المعـراج والصخـرة التي تفـاخـر ما في الأرض من صخرات

«فلم ير في ذلك اليوم إلا باك أو باكية» كما يقول[1].

قد يوحي قول ابن واصـل الحمـوي، بأن سبط ابن الجـوزي هو قائـل القصيدة، فهو يذكر بأنه عارض بها قصيدة لدعبل الخزاعي، وضمنها بيتاً من قصيدة الشاعر الأخير. ولهذا نجد (عبداللطيف حمزة) ينسبها إلى ابن الجوزي نفسه[2]. وقد يوحي قول ابن واصل أيضاً بأن السبط لم يكن قائل القصيدة، إذ يستخدم ابن واصل لفظة «يورد»، وهي لا تعني أن القصيدة للسبط. يقول ابن واصل: «ومما سمعته يومئذ يورد قصيدة تائية وازن بها قصيدة دعبل الخزاعي»[3].

ويذكـر أبـوالفـداء: «ومن جملة ما أنشد قصيدة تائية ضمنها بيت دعبل الخزاعي»[4]. وقد يوحي هذا القول أيضاً بأن سبط بن الجوزي هو قائلها، وقد لا يوحي بذلك، فلعله أنشد قصيدة ليست له.

ويذكر ابن الوردي: «. . . ، فعمل مجلس وعظ. . . ، وأنشد قصيدة دعبل الخزاعي»[5]. وهذا يبين أن القصيدة التي أُنشدت هي قصيدة للشاعر العباسي دعبل الخزاعي. هل أنشد السبط قصيدة دعبل التي مطلعها[6]:

مدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوةٍ
ومـنــزلُ وحي مُقْفــرُ العَــرَصــاتِ

(١) مفرج الكروب ٤/٢٤٦. وانظر: الروضتين ٢/٢٠٥، تتمة المختصر ٢/٢٢٢.

(٢) الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية/ ٩٣.

(٣) مفرج الكروب ٤/٢٤٦.

(٤) المختصر ٣/١٤٢.

(٥) تتمة المختصر ٢/٢٢٢.

(٦) شعر دعبل/ ٧٨، ٢٧٩، مفرج الكروب ٤/٢٤٦.

وهل أنشد قصيدة ابن المجاور التي ضمنها بيتاً من قصيدة دعبل، ونسبها ابن الـوردي إلى دعبل؟ وإذا صح الافتراض الثاني، وهو أقرب إلى سياق ما ذكـرتـه المصـادر المشـار إليهـا، فإنه يبدو أن الأمر لعله قد اختلط على ابن الوردي. فالقصيدة ليست من شعر الخزاعي، ولكنها ضُمنت بيتاً من قصيدته، وقـد قالهـا ابن المجـاور معارضاً قصيدة دعبل، كما ورد في قول ابن واصل الحموي، وهو معاصر لسبط بن الجوزي، وكان حاضراً في ذلك المجلس.

يُضاف إلى هذا كله، أن القصيدة هذه غير موجودة في شعر دعبل الخزاعي.

•ينسبهـا أبـوشـامـة المقـدسي إلى شهاب الدين أبي يوسف يعقوب بن محمد بن المجاور[1]، وهي له فيما أُرجح، وفقاً لما تقدم.

وفي هذه القصيدة يضعنـا أبـوشـامـة المقدسي أمام مشكلة أُخرى، فهو يذكرها في حوادث سنة ٥٨٨ هـ، بعد أن يتحدث عن الهدنة بين المسلمين والفـرنـج، في عهد السلطان صلاح الدين، في تلك السنة. يقول: إن بيت المقدس لم يزل عامراً محصناً من عهد صلاح الدين حتى سنة ٦١٦ هـ، حيث خُرّب. كما تقدم. ثم يقول: «ورثاه الرئيس الفاضل شهاب الدين أبو يوسف يعقوب بن محمد المجاور»[2]، وهذا القول قد يوحي بأن هذه القصيدة قيلت لما حل الخراب ببيت المقدس، في سنة ٦١٦ هـ. ولكن أباشامة نفسه، عندما يتحدث عن خراب بيت المقدس، في ذيل كتابه الروضتين، لا يذكر إلا مقطوعة قالهـا القـاضي مجـد الـدين محمـد بن عبـدالله الحنفي، وبيتـاً واحـداً قاله مجهول[3]. بينما يذكر قصيدة ابن المجاور، في كتابه الروضتين. ويقتصر عدد من المؤرخين والكُتّـاب، في حديثهم عن خراب بيت المقـدس، على ذكـر المقطوعة التي قالها قاضي الطور الحنفي الآنف ذكره، والبيت الذي نُسب إلى

---

(١) كتاب الروضتين ٢/٢٠٥، ٢٠٦.

(٢) نفسه ٢/٢٠٥.

(٣) الذيل على الروضتين ١١٥، ١١٦.

مجهـول، فابن تَغْـري بَرْدي، والعيني، ذكر كل منهما المقطوعة والبيت[1]. وسبط بن الجوزي، وابن كثير، وعز الدين أحمد بن ابراهيم الحنبلي، اقتصر كل منهم على ذكـر البيت[2]. وابن العماد، يذكر المقطوعة، ويذكر البيت، ويضيف إليه بيتاً آخر[3]. ولم يذكر آخرون بيتاً واحداً من الشعر، فلم يشيروا إلى المقطوعة أو البيت، ومنهم ابن واصل، وأبوالفداء، وابن الوردي، وابن سعيد، ومجير الدين العُلَيْمي الحنبلي[4]. ولو كان ابن المجاور قد قال قصيدته، في سنة ٦١٦ هـ، عن خراب القدس، ألا يشير إلى ذلك مؤرخ أو كاتب آخر سوى أبي شامة المقدسي؟

وإذا عدنا إلى القصيدة ذاتها «أعيني لا ترقى من العبرات. . .»، فإننا نجد فيها حديثاً عن تشتيت أهل بيت المقدس، وهدم المجد الذي حققه السلطان صلاح الدين، بفتح بيت المقدس، في سنة ٥٨٣ هـ، يقول[5]:

لقـد أشْمتـوا عكـا وصـور بهـدمهـا	ويا طالـمـا غادَتْـهُـمـا بشـمـات
لقـد شتـتـوا عنهـا جمـاعـةَ أهْلِهـا	وكـلُّ اجـتـمـاع مؤذنٌ بشَـتـات
وقـد هدمـوا مجـدَ الصـلاح بهدمها	وقـد كان مجـداً باذخَ الغُـرُفـات
وقـد أخمـدوا صَـوتـاً وصيتـاً أثـاره	لهـم عُظمُ ما والـوا من الغَـزَوات

هل تبين هذه الأبيات أن القصيدة قيلت عند خراب بيت المقدس، في سنة ٦١٦ هـ، أم أنها قيلت عند التنازل عنه في سنة ٦٢٦ هـ؟

إن هدم بيت المقدس، وتشتيت أهله، جرى في سنة ٦١٦ هـ. وجرى مثل ذلك التشتيت في سنة ٦٢٦ هـ أيضاً، عندما نودي بخروج أهلها منها، وتسليمها للامبراطور فردريك، كما جرى هدم المجد الذي حققه صلاح الدين. وتجدر

(١) النجوم الزاهرة ٦/٢٤٥، عقد الجمان/ حوادث سنة ٦١٦ هـ.

(٢) انظر: مرآة الزمان ٨/٦٠٢، البداية والنهاية ١٣/٨٣، شفاء القلوب/ ٣٠٥.

(٣) شذرات الذهب ٥/٦٦.

(٤) انظر: مفرج الكروب ٤/٣٢، المختصر ٣/١٢٢، تتمة المختصر ٢/٢٠٣، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٩٣، الأنس الجليل ١/٤٠٢.

(٥) كتاب الروضتين ٢/٢٠٦.

الإشـارة إلى أن السلطان الكامل اشترط، عند التنازل عن القدس. أن تبقى خراباً، وأغلب الظن أن الشاعر يشير إلى هدم السلطان الكامل ذلك المجد الـذي بنـاه السلطان صلاح الدين، لا هدم الملك المعظم لها، لأن الملك الكامل تنازل عنها، وسلمها للعدو، وأما الملك المعظم، فقد هدمها خوفاً من استيلاء العدو الصليبي عليها.

يُضـاف إلى هذا أن الملك الناصر داود، اتخذ من فعلة الملك الكامل طريقاً للتشنيع عليه، كما تقدم. وكان هذا في سنة ٦٢٦ هـ. ولم يكن الناصر داود يتولى الحكم في دمشق، في سنة ٦١٦ هـ.

ولعله يمكن بهذا تغليب الظن، بل الترجيح، بأن القصيدة هذه، قد قيلت في سنة ٦٢٦ هـ، عند التنازل عن بيت المقدس.

وتجدر الإشارة إلى أن محمد كامل حسين، يذكر أن القصيدة قيلت في سنة ٦٢٦ هـ[1]، بينما يذكر أحمد بدوي أنها قيلت في سنة ٦١٦ هـ[2]. وقد اقتصر كل منهما على الإشارة إلى التاريخ الذي ذهب إلى أن القصيدة قيلت فيه، دون مناقشة الأمر.

★ ★ ★

ولكن، لم كل هذا البكاء، وما جدواه؟ لقد تحدث المؤرخون والأدباء عن البكاء والضجيج في بيت المقدس، وفي دمشق. ولِمَ يقتصر الملك الناصر داود على الطلب من سبط بن الجوزي أن يعقد مجلساً وعظياً رثائياً بكائياً من ناحية، واستنكـارياً مشنعاً على الملك الكامل من ناحية أخرى؟ ولِمَ لم يعمل على إعداد القوة. ورباط الخيل، ولِمَ لم يعمل على توحيد القوى الإسلامية للوقوف في وجه العدو الصليبي؟ وأغلب الظن أن الناصر داود أراد التشنيع على عمه السلطان الكامل، إذ كان في حالة نزاع معه.

(١) انظر: دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين/ ١٠٠.

(٢) انظر: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية/ ٤٧٥.

ويسبب الصدى الذي ثار في العالم الإسلامي، للتفريط بالبيت المقدس، وغيره من بلاد المسلمين في الشام، ذُكر أنه في هذه السنة، ٦٢٦ هـ، أُرسلت رسل إلى بلاد الإسلام، للتخفيف من شأو الثورة في العالم الإسلامي، بعد التنازل عن بيت المقدس للفرنج. وكان السلطان الكامل قد عمل على «تسكين قلوب الناس، وتطمين خواطرهم من انزعاجهم لأخذ الفرنج القدس»، وقيل «تسكين العالم الإسلامي عقيب الصلح على القدس». وكان قد أُشير على السلطان الكامل أن يرسل رسولاً إلى الخليفة «في نعي البيت المقدس، والعذر عنه، فقال الملك الكامل: نحن مماليك هذا البيت المقدس، وآباؤنا وخدمتنا له معروفة، ما نرائي ولا نُماذق»[2]، أليس هذا القول غريباً؟ ويُذكر أنه أُرسل رسولان أيضاً، إلى الملك الأشرف «يخبرانه خبر الصلح مع الفرنج»، وكان يصحبهما رسول الاسبتارية[3]!

★ ★ ★

يتردد صدى التنازل عن بيت المقدس، في الشعر العربي، ولكنه صدى، اقتصر على قصيدتين، وعدد من المقطوعات التي وصلت إلينا.

تقدم القول أن سبط ابن الجوزي، في حديثه عن التنازل بيت المقدس، في سنة ٦٢٦ هـ، يذكر أن الشعراء أكثروا «في حديث القدس»، ولكنه لم يرو إلا مقطوعة واحدة لشاعر مجهول[4]. ويصنع مثله عز الدين أحمد بن إبراهيم العسقلاني[5]، فهو يذكر أن الشعراء قد أكثروا في الحديث عن تسليم القدس، في سنة ٦٢٦ هـ، ولكنه لم يرو إلا مقطوعة أخرى لشاعر مجهول أيضاً[6]، إضافة إلى المقطوعة التي رواها سبط ابن الجوزي. ويذكر ابن واصل الحموي

(١) انظر: التاريخ المنصوري/ ١٧٩، السلوك ١/ ٢٣٢.

(٢) التاريخ المنصوري/ ١٨٣.

(٣) التاريخ المنصوري/ ٢٠٣. وانظر: تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب/ ١١٥٤.

(٤) انظر: مرآة الزمان ٨/ ٦٥٤، ٦٥٥.

(٥) صاحب شفاء القلوب في مناقب بني أيوب.

(٦) انظر: شفاء القلوب/ ٣١٢.

بيتين آخرين من الشعر، أرسلهما صلاح الدين بن شعبان الإربلي[1]، إلى السلطان الكامل، وكان صلاح الدين هذا رسوله إلى الامبراطور فردريك[2].

إنه أمر يدعو إلى التساؤل: هل قيل شعر كثير، ولكنه لم يصل إلينا؟ إن ما وصل إلينا من الشعر الذي قيل في تصوير تلك المصيبة، لا يمكن أن يُعدّ موازياً للحدث الجلل. إن المصيبة التي نزلت بالمسلمين من جراء التنازل عن القدس، استثارت مشاعرهم واحاسيسهم، فحزنوا، وبكوا، وضجوا، واستنكروا وأذّنوا في غير وقت الأذان، أمام خيمة السلطان الكامل، وشنعوا عليه، كما تقدم. لقد كان من المتوقع أن تستثير هذه المصيبة مشاعر المسلمين وأحاسيسهم، وأن يعبروا عما أحسوا به إزاءها، وعما أحس به المسلمون أيضاً. ولكن ذلك لم يحدث، ولم يجد صداه في أشعار الشعراء، على الصورة التي كنا نتوقعها، بل الصورة التي ينبغي أن ترتفع إلى مستوى الحدث ذاته. وهو أمر يدعو إلى التساؤل: هل كان الشعر العربي لا يعبر عن الهزائم بوضوح؟ وإذا ما عبر عنها، كان تعبيره قاصراً كماً. هل كان الشعراء يخشون من الملك الكامل وسطوته؟ ربما كان بعضهم، وربما أكثرهم، يخشى منه، ولكن، ماذا عن الملك الناصر داود نفسه، وقد كان أديباً، شاعراً وكاتباً، وكان يقف موقفاً عدائياً من عمه الملك الكامل؟ لماذا لم يقل شعراً، أو ينشىء رسالة، يصور أحاسيسه ومشاعره إزاء التنازل عن بيت المقدس؟ ولماذا اقتصر على الطلب من سبط ابن الجوزي أن يعقد مجلس الوعظ الآنف ذكره؟ ولماذا لم يقل الشعراء الذين كانوا يعيشون في ظل الملك الناصر داود، في الشام، شعراً يصور الأحداث؟

يذكر أن القصيدة التي أنشدها، أو أوردها، سبط ابن الجوزي، في المجلس الذي عقده في دمشق، تقع في ثلاثمائة بيت، ولكنه لم يصل إلينا منها سوى سبعة وعشرين بيتاً فقط[3]. وأشار عدد من المصادر إلى تلك القصيدة دون

---

(١) انظر: مفرج الكروب ٥/١٦٦، الوافي بالوفيات ٣/٦٣.

(٢) انظر: مفرج الكروب ٥/١٦٦، وفيات الأعيان ١/١٨٦، الوافي بالوفيات ٧/٦٣.

(٣) كتاب الروضتين ٢/٢٠٥، ٢٠٦، السلوك ١/٢٣٣، شفاء القلوب/ ٨٠.

تحديد عدد أبياتها[1].

★★★

تصور قصيدة ابن المجاور هذه الحالة التي كان المسلمون عليها في ذلك الوقت، كما تصور واقعهم المستسلم آنذاك. ومما يعبر عن ذلك الواقع لجوء الشاعر إلى الحزن والبكاء معبراً عن إحاسيسه ومشاعره الحزينة أيضاً، كما يبدو في قوله[2]:

أعـيـنـي لا تَرْقَـي من الـعَـبَـرات	صِلي في البكـا الآصـال بالبكرات
لعـلَّ سيولَ الـدَّمْـعِ يُطْفِىء فيْضُها	تَوقَّـدَ ما في الـقلب من جَمَـرات
ويا قلبُ أسعـرْ نارَ وجـدِك كُلَّمـا	خَبَتْ بادكـارٍ يبعـثُ الحَسَـرات
ويا فمُ بُحْ بالـشَّـجْـو منـك لعـلَّه	يُروِّح ما ألـقـى من الـكُـرُبـات

ومن الواضح أن شعر الشاعر جاء باكياً، وجاء لوناً رثائياً يستثير الوجدان، ولكن اللجـوء إلى هذا اللون الـرثـائي البكائي غير مجد، وهو لون قد يُشيع الاستسلام في النفس. وكان يجدر بالأدب في مثل تلك الحالة، أن يشارك في توجيه المسلمين إلى الإعداد، وحثهم على الجهاد، وإشاعة روح المقاومة في نفـوسهم، بعـد أن يستل روح الهزيمة والاستسلام منها. وعليه أن لا يكتفي بالتعبير عن المشاعر والأحاسيس الحزينة. ولكننا نجده معبراً عن الاسترسال في البكاء من البكور حتى العشي، لعل ذلك يستطيع أن يخفف من بعض ما تحس النفوس به إزاء المصيبة التي حلت بالمسلمين وبلادهم. ويعمد الشاعر إلى التأثير في النفوس بصورة أكبر، فيلجأ إلى استخدام أسلوب النداء، وهو ينادي نفسه، بل ينادي أعضاء جسمه، فمرة يلجأ إلى مخاطبة عينيه، وأخرى يلجأ إلى مخاطبة قلبه، وثالثة يلجأ إلى مخاطبة فمه، إنه يطلب من عينيه الاستمرار في البكاء، ويطلب من قلبه إشعال نار الوجد والحزن. كما يطلب من فمه التعبير

(١) انظر: مفرج الكروب ٤/٢٤٦، المختصر ٣/١٤٢، تتمة المختصر ٢/٢٢٢، السلوك ١/٢٣٣، الأنس الجليل ١/٤٠٦، ٤٠٧.

(٢) كتاب الروضتين ٢/٢٠٥.

عما حدث، والبوح بما تحس به السريرة.

ويتحدث الشاعر ابن المجاور عن مكانة المدينة المقدسة في نفسه، وفي نفوس المسلمين عامة، وهي قدسية تدعو إلى الحفاظ عليها، والجهاد في سبيلها. ويخص المقدسات الإسلامية فيها: المسجد الأقصى، والصخرة المشرفة، بالحديث. ويصور مكانتها عند المسلمين. ويعبر عن أحاسيسه ومشاعره إزاء ما حل بتلك المقدسات الإسلامية، ولكنه يعبر عنها مسترسلاً في اللجوء إلى البكاء، كما يبدو في قوله[1]:

على المسجدِ الأقصى الذي جلَّ قَدْرُه
على موطنِ الإخباتِ والصَّلَواتِ
على منزلِ الأملاكِ والوحي والهدى
على مشهدِ الأبدال والبَدَلاتِ
على سُلَّمِ المعراجِ والصخرة التي
أنافَتْ ما في الأرض من صَخَراتِ
على القبلة الأولى التي اتجهتْ لها
صلاةُ البرايا في اختلاف جهاتِ
على خير مَعْمورٍ وأكرمِ عامرٍ
وأشرفِ مبنيّ لخير بُناةِ

ويصور المقدسات قد عفت في ظل الاحتلال الصليبي، بعد أن كانت مقصد المسلمين للتعبد، من كل حدب وصوب في أنحاء العالم الإسلامي، كما يصورها مكاناً للخير والإحسان، فيتحسر الشاعر ويأسى لما حل بمدينته المقدسة ومقدساتها، كما يبدو في قوله[2]:

عفا المسجدُ الأقصى المباركُ حوله الـ
رفيع العماد العالي الشُرُفات
عفا بعدما قد كان للخير موسماً
وللبِّر والإحسان والقُرُبات
يُوافي إليه كلُّ أشعث قانتٍ
لمولاه بَرّ دائمِ الخَلَوات
خَلا من صلاةٍ لا يملُّ مقيمُها
تُوَشَّحُ بالآيات والسُّوَرات
خَلا من حَنين التائبين وحُزْنهم
فمن بين نُوّاجٍ وبين بُكاة

---

(١) كتاب الروضتين ٢/٢٠٥، ٢٠٦.

(٢) نفسه ٢/٢٠٦.

ويدعو ابن المجاور إلى البكاء على مصير بيت المقدس، ويخاطب المقدسات الإسلامية في الحجاز، في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، طالباً منها البكاء على المصير الذي لاقته المقدسات الإسلامية في بيت المقدس، وهو يربط بذلك بين المدن الإسلامية المقدسة: القدس، ومكة، والمدينة، وهو رباط سماوي من ناحية، وأرضي من ناحية أخرى، يقول[1]:

لِتَبْكِ على القُدس البلادُ بأسرها ... وتعلن بالأحزان والتَّرحاتِ
لِتَبْكِ عليها مكةٌ فهي أُختُها ... وتشكو الذي لاقتْ إلى عَرَفاتِ
لِتَبْكِ على ما حَلَّ بالقُدْس طيبةٌ ... وتشرحه في أكرمِ الحُجُرات

ويمثل توجه الشاعر إلى الانصراف نحو الشكوى، فوق جبل عرفات، وفي مقام رسول الله، ﷺ، لما حَلّ بالمسلمين، ومدينتهم المقدسة، وسائر بلادهم، على أيدي عدد من حكامهم المستسلمين المتعاونين مع العدو الصليبي المحتل، يمثل في أحد مظاهره، افتقاراً إلى الشخصية القدوة المثلى، وهي شخصية الرسول، ﷺ، الشخصية القائدة الهادية إلى طريق الخلاص. كما يمثل تشفعاً، وتضرعاً، وتوسلاً إلى رسول الله، وهذا ما تلجأ إليه النفوس، بل يلجأ إليه الشعراء، عند نزول المصائب بالمسلمين. وهم يلجأون إلى الاستغاثة والدعاء، وهذا ما كان شائعاً في فترة الحروب الصليبية، أو في قسم من مراحلها، وأخص الفترة التي كانت الهزائم تحل بالمسلمين فيها. وأيّ هزيمة أكبر من التنازل عن بيت المقدس، القبلة الأولى، ومسرى رسول الله ﷺ؟

حقاً لقد كان المسلمون بحاجة إلى الشخصية القيادية المثلى، بعد موت السلطان صلاح الدين، إذ قُسّمت البلاد بين ملوك الأيوبيين، واستشرى النزاع في البيت الأيوبي، مما أدى إلى حلول المصائب والكوارث بالمسلمين، ودينهم، وأرضهم، وإلا لما وجدناهم يفرطون بقدسهم، ودينهم، وأرضهم.

ويصور الشاعر تشتيت أهل بيت المقدس، ويندد بمن كانوا سبباً فيما حَلّ ببيت المقدس، ويعرّض بهم، فقد هدموا صرح المجد الذي كان السلطان

---

(١) كتاب الروضتين ٢/٢٠٦.

صلاح الدين قد بناه، كما تقدم في الحديث عن تاريخ هذه القصيدة.

ويصور المجد الذي كان صلاح الدين قد حققه، ممثلاً بالفتح القدسي، في سنة ٥٨٣ هـ، فيقول[١]:

أما علمت أبناءُ أيوب أنَّهمْ بمَسْعاته عُدّوا من السَّرَواتِ
وأنّ افتتاحَ القُدسِ زهرةُ مُلكهم وهل ثَمرٌ إلّا من الزَهَراتِ

ويختتم ابن المجاور قصيدته هذه بالبكاء، كما استهلها به، ويلجأ إلى التراث الشعري القديم، ويختار قصيدة معبرة، من شعر دعبل الخزاعي، لترديد ما جاء فيها، معبراً عن الحزن العميق، كما يبدو في قوله[٢]:

فَمَنْ لي بنُوّاحٍ يَنحْنَ على الذي شَجاني بأصواتٍ لهنّ شَجاة
يُرددنَ بيتاً للخُزاعيّ قالَهُ يُؤبِّنُ فيه خيرة الخيرات
مدارسُ آياتٍ خَلَتْ من تلاوة ومنزلُ وحي مقفرُ العَرَصات

فابن المجاور يرثي بيت المقدس، ويبدو حزيناً، والخزاعي يرثي آل البيت، ويبدو حزيناً كذلك. ومما تجدر الإشارة إليه أن ما قاله دعبل يمثل قمة من قمم الحزن في الشعر العربي، ويمثل ارتباطاً وثيقاً بآل البيت. وهو حزن يشيع في هذا اللون من شعر دعبل، ويعبر عن المصائب التي نزلت بآل البيت. وكذلك يبدو ابن المجاور في شعره، فقصيدته هذه تمثل قمة في الحزن، والبكاء، كما تمثل ارتباطاً وثيقاً بالمدينة الإسلامية المقدسة خاصة، وبلاد المسلمين عامة.

وابن المجاور في قصيدته هذه، يبدو متأثراً بالمعاني التي شاعت في قصيدة دعبل الخزاعي، وفيها ينهج نهجه في الوزن، والقافية أيضاً. ولا غرو في ذلك، فهما يتحدثان في مجال الحزن وتصويره لما حلَّ من المصائب في نظر كلا الشاعرين.

ويتفرد ابن الشعار الموصلي برواية قصيدة للشاعر أبي محمد عبدالرزاق بن

(١، ٢) كتاب الروضتين ٢/٢٠٦.

رزق الله بن أبي بكر بن خلف الرَّسْعَنيّ[1]، أنشدها لما «سمع الخبر بتسليم البيت المقدس إلى الفرنج»[2]. ويصور الشاعر فيها المصاب الجلل وأثره في نفوس المسلمين، ويصور المآتم التي أقيمت في بلاد الإسلام إزاء ذلك الحدث. ويوازن بين مواقف المسلمين، ومواقف الفرنج إزاء المصيبة الكبرى، ويستنكر تلك الفعلة الشنيعة، ويُعرّض بفاعليها، ويبدو وكأنه لا يصدق ما يحدث، ويتمنى لو أنه غُيِّب في قبره قبل نزول هذه المصيبة بالإسلام والمسلمين، كما يبدو في قوله[3]:

تَعالَوْا نُقيمُ الحزنَ في مجمع الأنس	ونصبغُ أثوابَ المصيبةِ بالنَّقْس
ونَعْمَلُ للإسلام أعظَمَ مأتمٍ	كما أن عُبّاد الطواغيت في عُرس
ونبكي دماً بعد الدموع وإنَّهُ	قليلٌ على ما قد أُصبنا من القُدس
أيُؤخَذُ والإسلامُ فيه بقيةٌ	فواعَجَبا أين النَّخاةُ من الحُمْس
مناماً أرى أم يقظةً ما سمعتُهُ	أحقاً عبادَ الله أم خانني حِسّي
لئن تَمَّ هذا الأمرُ لا تَمَّ إنه	لأشْهَى إلى نفسي حُلوليَ في رَمسي
لئلا أرى داعي الضلال مُصوّتاً	على المسجد الأقصى يُؤذنُ بالنَّقْس
لعمركَ هذا الرُزءُ لا هُلْكُ هالكٍ	ولا سَلْبُ مالٍ ولا عَدَمُ النَفْس

وهذا اللون من الشعر رثائي بكائي يستثير الوجدان والمشاعر أيضاً، ولكنه يقرن ذلك بالاستنكار، والتعريض، كما يقرنه باستثارة همم «النخاة من الحمس»، كما يقول. إن الشاعر في هذا اللون البكائي من الشعر، يبلغ به الأمر أن يتمنى الموت، قبل أن يرى ما يحدث من مصائب تحل بالإسلام، وفي هذا يأس كبير، وتشاؤم لما كان عليه المسلمون آنذاك. وكان على الشاعر أن

(١) ولد برأس عين في سنة ٥٨٩ هـ، ونشأ فيها، واشتغل بالعلم. ثم قدم الموصل طالباً العلم. كان فقيها، محدثاً، شاعراً. وله مصنفات في العروض، والفقه، وغيرها. توفي في سنجار سنة ٦٦١ هـ، وقيل ٦٦٠ هـ.

(انظر: عقود الجمان لابن الشعار الموصلي ٤/١٣٠ ـ ١٣٧، تلخيص مجمع الآداب ج ٤ ق ١٩٢/١ ـ ١٩٤، ذيل طبقات الحنابلة ٢/٢٧١ ـ ٢٧٦. تكملة إكمال الإكمال/ ١٥٤ ـ ١٥٦، معجم البلدان ١٣/٣ ـ ١٤).

(٢، ٣) عقود الجمان لابن الشعار الموصلي ٤/١٣٠، ١٣٦.

يتحدث عن تنظيم صفوف المقاومة، والحث على الجهاد.

وأُنشىء عدد من المقطوعات الشعرية تصور ما حَلّ ببيت المقدس عند تسليمها في سنة ٦٢٦ هـ، وهي ثلاث مقطوعات تتكون كلٌّ منها من بيتين فقط، نُسبت اثنتان منها إلى مجهول، وأنشأ ثالثتها صلاح الدين بن شعبان الإرْبليّ، وهو رسول السلطان الكامل إلى الامبراطور فردريك، بعد أن قُررت أسس الصلح بين السلطان الكامل، والامبراطور فردريك.

وفي أولاها يعبر الشاعر المجهول عن أحاسيسه ومشاعره تجاه التنازل عن بيت المقدس، وكان من شروط تسليمها أن تبقى خراباً كما تقدم. وهي أحاسيس كلها حزن، وذلك لسوء المصير الذي آلت إليه القدس. وفيها يلجأ الشاعر إلى البكاء، شأنه شأن غيره من الشعراء الآنفي الذكر، يقول[1]:

عَزيزٌ علينا أن نرى القُدس تَخْربُ ... وشَمْسُ مبانيه تزولُ وتَغْرُبُ
وقلتُ له: منا الدُّموعُ لأنَّه ... على مثله تجري الدُّموع وتسكبُ

وفي ثانيتها تعريض بأولئك الحكام الذين تنازلوا عن بيت المقدس، ويَعدُّ قائلها ما حدث وصمة عار في جبين كل من فرط بحقوق الدين، والمقدسات، وسائر ما فرطوا به من أراضي المسلمين في الشام، يقول[2]:

إنْ يَكُنْ بالشآم قلَّ نَصيري ... وتَهدَّمتُ ثم دامَ هُلوكي
فلقد أصبحَ الغَداة خرابي ... سمةَ العارِ في حياة الملوك

يذكر عز الدين أحمد بن إبراهيم الحنبلي العسقلاني أنَّ «فقيراً بات بالقدس، فسمع قائلا يقول في الليل»، وذكر البيتين السابقين[3].

وفي ثالثتها يتحدث قائلها صلاح الدين الإربلي عن تقرير القواعد مع الامبراطور فردريك، وقد استحلف الإربلي رسول الملك الكامل، الامبراطور

(١) مرآة الزمان ٨/٦٥٥، شفاء القلوب/ ٣١٢، نفح الطيب ٢/١٦.
(٢) مرآة الزمان ٨/٤٥٤، ٤٥٥، شفاء القلوب/ ٣١٢، نهاية الأرب ٢٧/٣٩، نفح الطيب ٢/١٦.
(٣) انظر: شفاء القلوب/ ٣١٢، ٣١٣.

على تلك القواعد، وكان ذلك في عكا، في سنة ٦٢٦ هـ، ثم كتب الإربلي إلى الملك الكامل بذلك، يقول[١]:

زَعَمَ اللعين الانبرورُ بأنّه ... سِلْمٌ يدومُ لنا على أقواله

شربَ اليمينَ فإنْ تَعرَّض ناكثاً ... فلنأكلنَّ لذاك لحمَ شماله

★ ★ ★

واستمرت الهدنة بين المسلمين والفرنج، واستمر السلطان الكامل والامبراطور فردريك يتبادلان الرسائل، وبقي الأمر كذلك إلى أن توفي السلطان الكامل في سنة ٦٣٥ هـ[٢]. ولكن العلاقة تجددت في عهد الملك العادل سيف الدين بن الملك الكامل[٣]، ثم في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، فقد تبادل الطرفان الرسائل والهدايا[٤].



واستمر النزاع في البيت الأيوبي قائماً، بعد التنازل عن بيت المقدس، في سنة ٦٢٦ هـ، يقوده الملك الكامل، ويشعل أُواره، دون النظر إلى ما فعل من فعلة شنعاء. وقد استمر ذلك النزاع، وانعكس أثره على بيت المقدس[٥].

وكتب الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى إلى شيخ الإسلام عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم السُّلَمي المتوفي في سنة

---

(١) انظر: وفيات الأعيان ١/١٨٦، مفرج الكروب ٥/١٦٦، الوافي بالوفيات ٣/٦٣.

(٢) مفرج الكروب ٥/١٥٣ ـ ١٥٥، الذيل على الروضتين/ ١٦٦.

(٣) مفرج الكروب ٤/٢٧٨، ٢٧٩، ٥/١٧، ١٧٢، ١٧٤.

(٤) مفرج الكروب ٤/٢٤٦، مرآة الزمان ٨/٦٨٥، النجوم الزاهرة ٦/٢٨٣.

(٥) انظر: مفرج الكروب ٥/١٥٣ـ١٥٥، ١٧٢، ١٧٣، ١٩٢، ٢٠٢ـ٢٠٥، ٢١١ـ٢١٥، ٢١٩ـ٢٢٢، ٢٢٨ ـ ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٩ ـ ٢٤١، مرآة الزمان ٨/٧١٨، ٧٢٥، ٧٢٦، الذيل على الروضتين/ ١٦٥، ١٦٨، ١٦٩، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/٢٢٥، الفوائد الجلية/ ١٠٨، ١٠٩، المختصر ٣/١٥٨، ١٥٩، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، تتمة المختصر ٢/٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، النجوم الزاهرة ٦/٢٩٩، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٦، شفاء القلوب/ ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٢، البداية والنهاية ١٣/١٥٢، ١٥٤، السلوك ١/٢٨٧.

٦٦٠ هـ[1]، يشكو إليه «ما لقي الإسلام من إهلاك النسل والحرث . . . ، ويحثه على أن يوضح للسلطان الملك الصالح ما تعين عليه من فرض الجهاد، ويرغبه في إعلاء دين الله وإعزازه، ويحرضه على تعجل النصر الذي تكفل الله بإنجازه». ويبين الناصر داود في رسالته، أن مصيبة نزلت بالمسلمين في مدينة نابلس، قتلت فيها المشايخ، وسبيت الحلائل والصبيان، وكان ذلك اليوم يوماً «ضرب فيه الكفر بجرانه، وتبختر تيهاً بين أنصاره وأعوانه»، ويصور ما حل من فجيعة «هجمت على القلوب من أسماعها، فودت لو أنها سبقت بالمنون»، ثم يقول شعراً:

ألا ليتَ أُمـي أيِّمٌ طولَ عُمْـرِهـا ... فلم يَقْضِهـا ربي لمـولىً ولا بَعْـلِ
ويالـيتهـا لمـا قَضـاهـا لسيدٍ ... لبيب أريبٍ طيِّبِ الفَـرْعِ والأصْـلِ
قضـاهـا من الـلاتي خُلِقْن عَواقـراً ... فمـا بُشِّـرَتْ يومـاً بأُنثى ولا فَحـلِ
ويا ليتـهـا لمـا غَدَتْ بي حامـلاً ... أُصيبتْ بما اجتنَّتْ عليه من الحَمْلِ
ويا ليتـني لمـا ولِـدْتُ وأصبحتْ ... تُشَـدُّ إليَّ الشَّـدْ قَمِيّاتُ بالـرَّحْـلِ
لحقتُ بأسـلافي فكنتُ ضجيعهمْ ... ولم أرَ في الإسـلام ما فيه من خَلِ

ويختتم رسالته هذه بقوله: «ألا وان الإسلام بدا غريباً، وسيرجع غريباً كما بدا، وتقاصرت الهمم عن إسعاده حتى لا يرى له مُسعدا»[2].

---

(١) انظر: فوات الوفيات ٢/٣٠٥ ـ ٣٥٢، طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٠٩ ـ ٢٥٥، الذيل على الروضتين/ ٢١٦.

(٢) الفوائد الجلية/ ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، وانظر: ذيل مرآة الزمان ١/١٥٨، المختصر ٣/١٩٦، تتمة المختصر ٢/٢٨٦، ٢٨٧، شفاء القلوب/ ٣٥٨، صبح الأعشى ٤/١٧٥.

صدى الفتح القدسي الثاني في سنة ٦٣٧ هـ، في أدب الحروب الصليبية :

لم يحاول ملوك الأيوبيين خلال السنوات الإحدى عشرة، بين سنة ٦٢٦ هـ، وسنة ٦٣٧ هـ، أن يحرروا بيت المقدس ويخلصوها من الاحتلال، على الرغم من أنها بقيت غير محصنة، وأسوارها مهدمة، ولم يكن للصليبيين فيها ملك قوي، ولا جيش كبير[1]، إذ بقيت المملكة الصليبية تتخذ من عكا قاعدة لها، ولم تنقل قاعدتها إلى القدس، بعد أن تسلمها الامبراطور فردريك كما تقدم. وذلك بسبب النزاع المستمر في البيت الأيوبي، كما تقدم أيضاً، فقد شغلوا به بدلاً من أن يقوموا بواجب الجهاد المفروض على المسلمين لتخليص بلاد الإسلام، ومقدساته.

لقد كانت مدينة بيت المقدس مدينة مفتوحة غير محصنة منذ تخريبها في سنة ٦١٦ هـ، ثم تسليمها إلى الفرنج في سنة ٦٢٦ هـ، وكان للمسلمين أن يدخلوها، ويشرفوا على مقدساتهم فيها. وبقيت المدينة المقدسة على ذلك الوضع[2].

وفي سنة ٦٣٧ هـ، انتهز الفرنج الفرصة، وأرادوا تحصين بيت المقدس، مخالفين بذلك نصوص الاتفاق بين الملك الكامل والامبراطور فردريك، وكان من شروط ذلك الاتفاق أن يبقى بيت المقدس خراباً فقد عمروا قلعة في غربية، وجعلوا براج داود واحداً من أبراجها. وكان هذا البرج قد بقي، ولم يخرب في سنة ٦١٦ هـ[3]. وكانت البابوية، بعد انتهاء أجل الهدنة، قد دعت إلى حملة صليبية خوفاً على بيت المقدس. ولاقت تلك الحملة استجابة، ثم وصلت إلى عكا سنة ٦٣٧ هـ[4].

---

(١) انظر: الحركة الصليبية ٢/٩٧٦، ٩٨١.

(٢) انظر: نفسه ٢/٩٧٦، ٩٨٧.

(٣) انظر: مفرج الكروب ٥/٢٤٦، الأعلاق الخطيرة لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٥، المختصر ٣/١٦٥، شفاء القلوب/ ٣٥١، السلوك ١/٢٩١، الأنس الجليل ٢/٥، المكتبة الصقلية/ ٥١٦.

(٤) انظر: تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٧٠ ـ ٣٧٢، الحركة الصليبية ٢/٩٨٧.

تختلف الروايات حول تحرير بيت المقدس في سنة ٦٣٧ هـ، فقد ذكر ان الملك الناصر داود توجه إلى بيت المقدس، وحاصر القلعة، ونصب عليها المنجنيقات، واستمر محاصراً لها، وذُكر أنه حاصرها واحداً وعشرين يوماً، وطلب العدو الأمان على أن يسمح لهم بالرحيل، فمنحهم الناصر الأمان. ثم هدم القلعة، واستولى على بيت المقدس، وأعاده إلى حظيرة الإسلام(١).

لقد استطاع الملك الناصر داود أن يفعل ذلك، قبل أن يتمكن الصليبيون القادمون إلى عكا من إعداد العدة بشكل كامل، فسمعوا بما جرى، واجتمع الصليبيون القادمون، والصليبيون الذين كانوا في الشام من قبل، للتباحث حول الأمر، ولكنهم انقسموا على أنفسهم، فرأى قسم منهم أن يقصدوا مصر، ويستولوا على دمياط والاسكندرية، ثم مقايضتهما ببيت المقدس، ورأى قسم آخر أن يقصدوا دمشق، ورأى قسم ثالث أن يقصدوا صفد لاحتلالها، وتحصينها لتصبح قاعدة حصينة لهم، ومركزاً لعملياتهم ضد دمشق والقدس. ورأى قسم رابع أن يقصدوا بيت المقدس مباشرة. واستقر الرأي على قصد عسقلان لاحتلالها وهدمها، ثم قصد دمشق لاحتلالها(٢).

واستعد القادة الأيوبيون لما علموا بذلك، فحصن الملك الصالح إسماعيل دمشق، وأرسل الملك العادل الثاني عسكراً كبيراً إلى غزة للدفاع عن عسقلان(٣).

قصد الصليبيون عسقلان، ثم اندفع قسم منهم إلى غزة للقضاء على العسكر الإسلامي المصري، ولكنهم منوا بهزيمة ساحقة، وانسحب بقية

---

(١) انظر: مفرج الكروب ٥/٢٤٧، الأعلاق الخطيرة لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٥، المختصر ٣/١٦٥، تتمة المختصر ٢/٢٤٧، مسالك الأبصار ج ١٦ ٣/ ٥٥٣، السلوك ١/٢٩١؛ عقد الجمان للعيني ـ حوادث سنة ٦٣٧ هـ، شفاء القلوب/ ٣٥١، الأنس الجليل ٢/٥، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٧٦، ٣٧٧، الحركة الصليبية ٢/٩٨٧.

(٢) انظر: تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٧٢، ٣٧٧، الحركة الصليبية ٢/٩٨.

(٣) النجوم الزاهرة ٦/٣٢٢.

الجيش الصليبي إلى يافا، فعكا[1].

ويذكر رنسيمان أن الناصر داود زحف على بيت المقدس، وأنه لم يكن لها أسباب دفاع تقيها من الهجوم، ولهذا لم يصادف الناصر داود صعوبة في إعادة المدينة إلى المسلمين. ويضيف بأن «العساكر المرابطين بالقلعة ظلوا يقاومون سبعة وعشرين يوماً، حتى نفدت مؤنهم، فأذعنوا» في السابع من كانون أول سنة ١٢٣٩م/ ٦٣٧ هـ، وحصلوا على أمان بالرحيل إلى الساحل[2]، كما تقدم.

وتذكر رواية أخرى أن الناصر داود كان قد قسم جيشه إلى فرق، وعقد لكل منها راية، وعين جانباً من جوانب القدس لكل فرقة. وتذهب هذه الرواية إلى أنه انتظر حتى كانت ليلة عيد من أعياد العدو المحتل، وكانوا مشتغلين بالاحتفالات، فشنت القوات الإسلامية هجوماً عنيفاً، دكوا فيه الحصون، ودمروا القلعة، ثم رفعوا أعلامهم فوقها[3].

ويؤيد الملك الناصر داود نفسه الرواية الأولى، وذلك في رسالة كتبها إلى الخليفة العباسي في بغداد، بعد الفتح القدسي الثاني، في سنة ٦٣٧ هـ. يقول متحدثاً عن نفسه، مخاطباً الخليفة: «. . . فنزل العبد عليهم بطائفة من عسكره، وراوحهم، وغاداهم بالمناوشة في أصائل الحصار وبُكره»، إلى أن يقول: «ونصب عليهم المجانيق. . . ، وأحدث النَّقَّابون في الأسوار نقوباً سفرت نقابها، ورمى الزراقون في الستائر نيراناً هتكت حجابها». ثم يتحدث عن لجوء الفرنج إلى برج داود، وأنهم كانوا قد «سَيَّروا رسولاً يطلب لهم الأمان على نفوسهم وأموالهم». فلم يستجب لهم، ثم طلبوا الأمان ثانية، فاستجاب لهم[4].

(١) انظر: تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦.

(٢) انظر: نفسه ٣/٣٧٦، ٣٧٧.

(٣) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٥، وانظر: السلوك ١/ ٢٩١، إتحاف الأخصا ـ السيوطي/ (ط) ١/ ٢٨٨.

(٤) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١.

ولم يلق هذا الفتح القدسي اهتماماً من عدد من المؤرخين، فلم يتحدثوا عنه في حوادث سنة ٦٣٧ هـ :

إن تحـرير بيت المقـدس هذا لم يكن متوقعاً في ظل الواقع السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي الذي كان ملوك الأيوبيين سبباً فيه، بل كانوا سببه في خصوماتهم ومنازعاتهم[1].

★★★

لم يلق هذا الفتح القدسي الثاني صدى فعلياً في الأدب العربي. ويتساءل المرء: لِمَ لَمْ يلق تخليص بيت المقدس صدى يذكر في هذه المرة، ولِمَ لمْ نجد الشعراء والكُتّاب يشيدون بالملك الناصر داود، محرر بيت المقدس، في سنة ٦٣٧ هـ، ولَمْ يشيروا إلى التنازل عنه من قبل الملك الكامل؟ ولِمَ لَمْ يقل الملك الناصر داود نفسه شعراً في ذلك، ولِمَ لمْ يقل شعراؤه شعراً يخلدون به هذا الفتح القدسي الثاني؟ ولِمَ لَمْ ينشىء الكُتّاب رسائل يتحدثون فيها عن هذا الفتح؟ ومن الشعراء والكُتّاب الذين اتصلوا به، وكتبوا له، واشتغلوا بخدمته فخر القضـاة أبـوالفرج نصر الله بن هبة الله بن محمد بن عبدالباقي بن هبة الله بن الحسن بن يحيى بن علي، المعروف بابن بُصاقة الكاتب، المتوفى نحو سنة ٦٥٠ هـ[2]. ويذكر الملك الأمجد حسن بن الملك الناصر داود أن ابن بُصاقة أفنى في خدمة الناصر داود ووالده من قبله، «عصري الشبيبة والمشيب، وقام في دولتيهمـا مقـام الشاعر المُفْلق، والمُصْقع الخطيب، وتحمل عبء وزارة الدولتين»، ويصفه الناصر داود بأنه «البليغ الذي أعطته البلاغة أزمَّة قيادها»[3].

ويذكر أنه كان خصيصاً بالملك المعظم عيسى بن الملك العادل، ثم بابنه الملك الناصر داود. وتوجه معه إلى بغداد، في سنة ٦٣٣ هـ، كما يّذكر أن له ديوان شعر ورسائل شاهده ابن الشَعّار الموصلي بظاهر مدينة حلب، في سنة ٦٤٧ هـ، وعَلّق عنه قطعاً من شعره. وقيل إنه كان «أكتب أهل زمانه بلا مدافع،

= من أمثال سبط بن الجوزي، وابن تغري بردي، والذهبي، وأبي شامة المقدسي (انظر: مرآة الزمان ٧٢٤/٨ - ٧٣٢، النجوم الزاهرة ٣١٥/٦ - ٣١٨، دول الإسلام/ ١٤٢، الذيل على الروضتين/ ١٦١ - ١٦٩).

(١) انظر: صلاح الدين - جب/ ٢٢٣.

(٢) انظر: عقود الجمان لابن الشعار الموصلي ٤٩/٩ - ٥٤، فوات الوفيات ١٨٧/٤ - ١٩٢، بدائع البدائة/ ٢٧١، الفوائد الجلية/ ٤٣، ٤٤، البداية والنهاية ١٨٤/١٣، شذرات الذهب ٢٥٢/٥.

(٣) الفوائد الجلية/ ٤٥، ٥٠.

وأعرفهم بالقواعد الانشائية، وأجودهم ترسلاً، وأحسنهم عبارة، وأطولهم باعاً[1].

ومنهم مُسْند الشام تقي الدين أبومحمد إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليُسْر شاكر بن عبدالله بن محمد بن عبدالله، التنوخي، المعري، الدمشقي الكاتب، المتوفى في سنة ٦٧٢ هـ[2]. ويذكر أنه كتب الإنشاء، للناصر داود. وكان متميزاً في كتابة الإنشاء وأن له شعراً جيداً[3].

ومنهم الشيخ شمس الدين محمد بن سعد بن عبدالله بن سعد بن مفلح ابن هبة الله المقدسي، الصالحي، الحنبلي، المتوفى في سنة ٦٥٠ هـ[4]. ويذكر أنه كتب للملك الناصر داود. وكان أديباً حسن النظم والنثر، من المعروفين بالأدب والكتابة. وهو شاعر محسن، وله شعر[5].

وإذا كان هؤلاء وغيرهم من المعروفين في الكتابة والشعر، فَلِمَ لَمْ يكتبوا رسائل، أو ينشئوا شعراً حول هذا الفتح، لا سيما أن الفاتح هو الملك الناصر داود؟ ولِمَ لَمْ يطلب منهم الناصر داود أن يكتبوا رسائل وبشائر بالفتح إلى الخليفة في بغداد، وإلى سائر بلاد الإسلام، كما فعل صلاح الدين في الفتح القدسي، في سنة ٥٨٣ هـ، إذ طلب من القاضي الفاضل أن يكتب رسالة قدسية، إلى الخليفة في بغداد، كما طلب من العماد الأصفهاني أن يكتب كتب البشرى بالفتح، كما تقدم؟ هل اكتفى الملك الناصر داود بكتابة الرسالة القدسية التي كتبها بنفسه، وأرسلها إلى الخليفة في بغداد؟ وهل كتبت رسائل وكتب بشرى، ولم تصل إلينا؟ وهل قيل شعر يخلد الحدث، ولم يصل إلينا أيضاً؟

---

(١) عقود الجمان ٩/٥٠.

(٢، ٣) انظر: فوات الوفيات ١/١٧٠ ـ ١٧٢، النجوم الزاهرة ٧/٢٤٤، ذيل مرآة الزمان ٣/٣٨. المنهل الصافي ٢/٣٨٣ ـ ٣٨٦، الدليل الشافي ١/١٢٢، البداية والنهاية ١٣/٢٦٨، شذرات الذهب ٥/٣٣٨.

(٤، ٥) انظر: فوات الوفيات ٣/٣٥٨، الوافي بالوفيات ٣/٩١، مرآة الزمان/ ٥٢٣، النجوم الزاهرة ٧/٢٦ ـ ٢٧، ذيل طبقات الحنابلة ٢/٢٤٨، شذرات الذهب ٥/٢٥١.

ولعل الشعراء والكُتّاب الذين كانوا يعيشون في ظل الملوك الأيوبيين الآخرين، في مصر والشام، ممن كانوا يعادون الملك الناصر داود، كانوا يخشون من القول في فتح تم على يدي ملك كان يعاديه ملوك أيوبيون آخرون، في مصر والشام.

يذكر المنهاجي السيوطي أن الناصر داود «أمر بكتابة البشائر إلى سائر الممالك بهذا الفتح المبين، والنصر العزيز، فكتب، وعادت الأجوبة عنها»[1].

★ ★ ★

إن كل ما وصل إلينا مما قيل من شعر في هذا الفتح القدسي، يقتصر على ثلاثة أبيات قالها الشاعر جمال الدين يحيى بن مطروح، المتوفى سنة ٦٥٠ هـ، وقيل ٦٤٩ هـ[2]. وقيل إنها «قصيدة طويلة مشتملة على أبيات كثيرة»[3]، ولم يصل إلينا منها سوى ثلاثة أبيات. وقد نُسبت هذه القصيدة إلى ابن نباتة المصري[4]، وهي ليست له، فقد ولد ابن نباتة هذا في سنة ٦٨٦ هـ[5]، بينما قال ابن مطروح هذه الأبيات في سنة ٦٣٧ هـ.

كان ابن مطروح قد صحب محيي الدين بن الجوزي، وهما يسعيان في سبيل الصلح بين ملوك البيت الأيوبي المتنازعين، ثم خاف ابن مطروح على نفسه عندما سمع بما حدث للملك الصالح نجم الدين أيوب[6]، واستجار بمحيي الدين بن الجوزي، فأجاره. ثم سافرا للإصلاح بين الملك العادل

(١) اتحاف الأخصا ـ المنهاجي السيوطي ـ خ/٨٢، (ط) ١/٢٨٩، إتحاف الأخصا ـ المنسوب إلى ابن حجر الهيثمي/ ٢٤٢، إتحاف الأخصا المنسوب إلى ابن عبدالظاهر/ ٧٨.

(٢) انظر: وفيات الأعيان ٦/٢٥٨ ـ ٢٦٦، مرآة الزمان ٨/٧٨٨ ـ ٧٨٩، ذيل مرآة الزمان ١/١٩٧ ـ ٢٢٠، الروضتين ٢/٢٠٦، الذيل على الروضتين/ ١٨٧، مفرج الكروب ٥/٢٠٩، ٢١٩، ٢٤٥ـ٢٤٧، ٢٥١، النجوم الزاهرة ٧/٢٧ ـ ٢٩، عقود الجمان لابن الشعار الموصلي ١٠/٨، عيون التواريخ ٢٠/١٢، ٣٨، ٤٥، ٥٤ـ٦١، ٤٠١، المختصر ٣/١٧٦، تتمة المختصر ٢/٢٧١ـ٢٧٣، البداية والنهاية ١٣/١٨٢، المقتطف من أزاهر الطرف/ ٩٧، ١١٤، ١١٨، ١٤٣، ٢٣٠، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٤٠١.

(٣، ٤) اتحاف الأخصا ـ المنهاجي السيوطي (ط) ١/٢٨٩.

(٥) انظر: الدرر الكامنة ٤/٢٩١، حسن المحاضرة ١/٥٧١، ابن نباتة المصري/ ١٠٦ وما بعدها.

(٦) انظر: مفرج الكروب ٥/٢١١ ـ ٢١٥، ٢٢٨ ـ ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٤. مرآة الزمان ٨/٧٢٥، ٧٢٦، =

والملك الصالح إسماعيل، وبين الملك الناصر داود. واتفق حدوث الفتح القدسي الثاني عند وصول ابن الجوزي وابن مطروح إلى الملك الناصر داود، «فقال جمال الدين يمدح الملك الناصر داود، ويذكر مضاهاته بفتح القدس لعمه الملك الناصر صلاح الدين يوسف، مع اشتراكهما في اللقب والفعل، وهو معنى لطيف مليح»، كما يقول ابن واصل الحموي[1]. يقول ابن مطروح[2]:

المسجدُ الأقصى له عادةٌ سارتْ فصارتْ مثلاً سائرا
إذا غَدا للشرك مستوطنا أن يبعثَ الله له ناصرا
فَناصرٌ طَهرَّه أولاً وناصرٌ طهَرَّه آخرا

★★★

ويشيد به ابنه الملك الأمجد مجد الدين أبومحمد الحسن بن الملك الناصر داود[3]، ويصفه بأنه «السلطان الملك الناصر. . . صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين، ناصر الإسلام وحصنه، ذخر الإمام وَرُكنهُ، مؤيدُ الملة وعزُّها، غياث الأمة وكَنْزُها، كهفُ الشريعة وحسامُها». ويسترسل الملك الأمجد في إشادته بوالده محرر بيت المقدس، فيصوره موضحاً للحق، وممهداً له، ومظهراً للعدل، ومحيياً للعلوم، وأنه «جامعُ كلمة الايمان، ورافِعُها، مُفرِّقُ كلمة الكفر وواضِعُها». ويشيد به في مكارمه، ويفضله على غيره من الملوك الآخرين[4].

ويصوره صاحب مواقف مشهودة في الإسلام، يقول: «. . . لا جرم أن له في الإسلام مواقف مشهودة، ومشاهد تعددت فهي غير معدودة، جعل دأبه المحاماة عن الإسلام وأهله، ولم يتخذ إلا رؤوس المشركين، أغماداً لرمحه

= المختصر ٣/١٦٤، ١٦٥، تتمة المختصر ٢/٢٤٦، النجوم الزاهرة ٦/٣٠٦، شفاء القلوب/ ٣٧١، ٣٧٢، السلوك ١/٢٨٧.

(١) مفرج الكروب ٥/٢٤٧.

(٢) الفوائد الجلية/ ٢٣، مفرج الكروب ٥/٢٤٧، مرآة الزمان ٨/٧٨٩، شفاء القلوب/ ٣٥١.

(٣) انظر: الفوائد الجلية/ ٢.

(٤) نفسه/ ٦، ٧. وانظر: ٢١، ٢٢.

ونَصْله. ونصر دين الله، فارتضاه له ناصرا، وطَهَّرَ به ويسميه بيته المقدس أولاً وآخرا»[1]. ثم يروي الأمجد أبيات الشاعر جمال الدين بن مطروح الآنفة الذكر.



وكتب الملك الناصر داود نفسه رسالة حول الفتح القدسي الثاني، وأرسلها إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله، في بغداد، يبشره بهذا الفتح، وهو الفتح الناصري الداودي، كما يصفه مجير الدين العُلَيمي الحنبلي، نسبة إلى الفاتح نفسه الملك الناصر داود[2].

وفي هذه الرسالة يبشر الملك الناصر داود الخليفة العباسي بفتح بيت المقدس وتطهيره من العدو الصليبي. ويستهلها بالدعاء للديوان النبوي في بغداد، يقول في دعائه رابطاً ذلك بالفتح: «وفتح بعزمه مُسْتغْلَق الحصون، وأذاع ببركته سر النصر المصون، وأطلع البشائر ببابه يانعة الثمار، ناضرة الغصون»[3].

ويتحدث الملك الناصر عن الفتح القدسي، ويبين أن الهدنة بين المسلمين والصليبيين، منذ عهد الملك الكامل بن العادل، قد انتهى أجلها، وأن العدو الصليبي كان قد استغل الفرصة، وعمر القلعة والبرج، في أثناء الهدنة، كما يبدو في قوله: «وينهي أنه طالع المقام الشريف بأمر الهدنة وانقضاء مدتها، وانفساخ عُقْدتها، وعند ذلك أخلى الفرنج ـ خذلهم الله ـ القدس الشريف من سكانه، وانتقل كل منهم عن وطنه إلى ما صيّره من أوطانه». ثم يبين أنه قد أقام قائد من قوادهم (أو كند من كُنُودهم) في بيت المقدس، ويصفه بأنه «فارس مشهور من فرسانهم، وطاغية يُذْكر من شجعانهم». وكان ذلك الفارس قد «عَمَّر قلعة القدس، في مدة الهدنة، وحَصَّنها، وملأها بالعَدَد،

(١) الفوائد الجلية/ ٢٢.

(٢) الأنس الجليل ٢/ ٥.

(٣) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٦.

والآلات، وشَحنهـا، ووصلها ببرج يقال له «برج داود»[1]. ثم يتحدث الملك الناصر عن تحصين القلعة والبرج تحصيناً قوياً، وسترهما «بالستائر المخلَّدة، والخشب المسنَّدة، والعَمَد الممددة»[2]. وقد كان هذا مخالفاً لنصوص المعاهدة بين المسلمين والفرنج، كما تقدم، وكأن الفرنج بذلك قد «أوقدوا للحرب نار الشيطان الموصدة، لا بل نار الله الموقدة» كما يقول الملك الناصر داود نفسه[3]. ولهذا نازل الملك الناصر بيت المقدس، وحاصره، وطاول في حصاره، راجياً أن يسلم الفرنج المدينة المقدسة دون إراقة دم، ودون «قتل مُوَحِّدٍ يُفتدى من المشركين بأمم». ولكن الفرنج «تجمعوا على الضلال، وتألبوا، وحادوا عن طريق الرشاد، وتنكبوا»، فقاتلهم المسلمون بقيادة الملك الناصر داود[4].

ويصور الملك الناصر كيف أن الفرنج أرادوا الممانعة، وعمدوا إلى المصابرة، وظنوا أن حصونهم، في القلعة والبرج، مانعتهم من كل سوء، ولكن الله أتاهم من حيث لم يحتسبوا، وجزاهم بما كسبوا، ونصر المسلمين، ومَكَّنَهم، وعادت أعلام الإسلام الشريفة لترتفع في بيت المقدس، كما يبدو في قول الناصر داود معبراً عن إحساسه بالنصر، ومعبراً عن إحساسات المسلمين بذلك أيضاً: « . . . وطلعت على الأسوار المنيفة من الأعلام الشريفة الراية التي أعادت بسناها آية الليل، لكن من آياته النهار إبصارا، وأعظم من النيِّرين الشمس والقمر، ضياء وأبْدارا»[5].

ويتحدث الناصر داود عن استيلائه على القلعة، ويصورها وقد «تبرجت له أبراجها المصونة وتجلت، ومدت له أرضها، فألقت ما فيها وتخلت»[6]. ولهذا يصور العدو الصليبي قد لجأ إلى برج داود، بعد استيلاء المسلمين على القلعة،

---

(1) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٦، ٢٢٧.

(٢، ٣) نفسه/ ٢٢٨.

(٤) نفسه/ ٢٢٨، ٢٢٩.

(٥) نفسه/ ٢٢٩، ٢٣٠.

(٦) نفسه/ ٢٣٠.

راجين حقن دمائهم، وسلامتهم. ولكنهم «دخلوا منه سجناً لا حصنا، ونزلوا به قبراً عَجَّلَ لهم، وهم في قيد الحياة، دفنا» كما يقول الناصر داود نفسه مصوراً المصير الذي آل إليه العدو الصليبي[1].

ويصور الناصر النصر الذي أحرزه المسلمون، والآثار التي ترتبت عليه، فيقول: «... فافترق شمل تثليث الشرك باجتماع ثلاثة التوحيد، وعطف الله على حزب الايمان بالنصر، وعاد على حزب الطغيان بالكسر، وأضحى الباطل وقد عاوده ذله، ورد الله الحق إلى نصابه، واليه يرجع الأمر كله[2].

ويربط بين المقدسات الإسلامية: المسجد الأقصى في بيت المقدس، والمسجد الحرام في مكة المكرمة، والمسجد النبوي في المدينة المنورة، ويصور اجتماع «شمل المساجد الثلاثة بما منح الله من التأييد»[3].

ويربط بين هذا الفتح القدسي، والفتح القدسي السابق مشيداً بالفتح والفاتح، مخاطباً الخليفة: «والعبد يظن أن الله تعالى ما أعاد هذا البيت إلى العدو بعد فتوحه...، إلا ليُسَطِّر فتحه في سيرة مولانا أمير المؤمنين، كما سَطَّره في سيرة أمير المؤمنين جده»[4]. وهو ينهج في ربطه بين المقدسات من ناحية، وربطه بين الفتوح من ناحية أخرى نهج الشعراء والكُتّاب في حديثهم عن الفتح القدسي، في سنة ٥٨٣ هـ، كما تقدم.

ويتحدث الناصر عن تردده في هدم القلعة أو بقائها معقلاً في بيت المقدس، كما يبدو في قوله مخاطباً الخليفة: «والعبد متردد بين أن يجعل عين هذه القلعة بالهدم أثراً، وعيانها بالردم خبرا، ليخمد سرر شرها، ويؤمن غائلة أمرها، وينقطع رجاء الكافر من نزالها وحصرها، وبين أن يبقيها معقلاً لهذا البيت الشريف، وموئلاً للمجاورين فيه من طائفة الدين الحنيف». ثم هدم القلعة والبرج، وجعل البرج «مسجداً للركوع والسجود، لا معقلاً للجموع والحشود، ومعبداً يلتزم بمزاره، لا حصناً يعتصم بأسواره»[5].

---

(١) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٣٠.

(٢، ٣، ٤) نفسه/ ٢٣١. (٥) نفسه/ ٢٣٢.

ويصور البرج بأنه كان برجاً «عظيم المقدار والحجم»، وهو في منعته يباري الجبل، وفي رفعته يُباري النجم، ويصوره شاهقاً «ينقلب البصر عن نظره خاسئاً وهـو حسير»، وهـو حصين جداً، فقد «بني بالصُّفّاح والعمد، وتأنق بانوه في إحكامه فما طال عليهم الأمد». ويصوره مبالغاً في وصف حصانته كما يبدو في قولـه مستلهمـا من القرآن الكريم: «لو حضره يأجوج ومأجوج ما استطاعوا أن يظهروه، ولا استطاعوا له نقبا، فكأن الله قد ألان لداود الصخر، كما ألان له الحديد في بنيانه، أو كأنه استعان في إتقانه بجن سليمانه»[1].

ويلاحظ أن الكاتب الملك الناصر داود، يركز على الحديث عن الحدث ذاته، وهو الفتح القدسي الثاني. ولا شك أن حديثه عن الفتح، يمثل إشادة بمن قاد إلى النصـر والفتـح. وعنـدمـا يتحـدث الكاتب عن نفسه، يشيد بها رأياً وشجاعة، ويصور الجيش الإسلامي مصابراً شجاعاً في معترك الوغى، ومنهم النقـابـون، والـزراقـون. ويتحـدث عن أسلحـة الجيش الإسـلامي: النبـال، والنصال، والمنجنيقات، وهي منجنيقات «تزاحم الحصون بمناكبها»، وهي إذا قاتلت بلدة «أخذت بكظمها، وقضت برغمها، وأنزلتها على حكمها» كما يقول الكاتب. «يصورها وقد «سحرت أعينهم، إلا أن الله ما أبطل سحر عصيها، ولا سحر حبالها»[2].

ويصور الناصر العدو الصليبي، فيشيد بهم من ناحية، ويُعرِّض بهم من ناحية أُخرى، كما يبدو في قوله مصوراً جيش العدو، فهم «طائفة من شجعان الأبـطال، وأبـطال الشجعـان، ومن المشهـورين بالشـدة والبـأس إذا التقى الجمعان»، ولكنهم أهل غي وضلال، وقد «وطنوا على القتل نفوسهم، يتهافتون على الحرب تهافت الفراش...». ويصورهم بعد الهزيمة التي منوا بها، وقد مَكّن الله[1] ايدي المؤمنين من نواصيهم، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم[3]، وقـد «ضـربت عليهم الـذلـة والمسكنة»، ويصورهم أهل

(١) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٧، ٢٢٨.

(٢) نفسه/ ٢٢٨، ٢٢٩.

(٣) الصياصي: القلاع.

الشرك، والطغيان، والباطل[١].

ويتحدث الناصر عن الخليفة، ويبدي ارتباطه به، وتقديره له، ويشيد به، ثم يتحدث عن شوقه إلى الخدمة في ظله، كما يتحدث عن طاعته وولائه له. ولكنه يبالغ حين يقول: «العبد يُقبِّل العتبة الشريفة التي تسر بتقبيلها القلوب، وتقر بتقريبها العيون، وتود لو اكتحلت بإثمد ترابها الجفون»[٢].

(١) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين / ٢٣١.

(٢) نفسه / ٢٢٦، وانظر: ٢٣٢، ٢٣٣.

التنازل عن بيت المقدس ثانية في سنة ٦٤١ هـ:

في أواخر شهر رمضان سنة ٦٣٧ هـ، سار الملك الناصر داود، والملك الصالح نجم الدين أيوب، بعد الإفراج عنه، إذ كان معتقلاً لدى الناصر داود في الكرك، إلى القدس، «واجتمعا عندَ الصخرة وتحالفا، فيقال إنهما اتفقا على أن تكـون الديار المصرية للملك الصالح نجم الدين أيوب، والشام والشرق للملك الناصر»(١). وهذا الاجتماع عند الصخرة المشرفة يدل على المكانة التي كانت مدينة بيت المقدس تتبوأها في نفوس المسلمين.

ولما تولى الملك الصالح نجم الدين أيوب الأمر في مصر، في ذي القعدة من هذه السنة، بطلب من الأمراء فيها، وكان قد توجه إلى مصر مع الناصر داود، تحلل مما اتفق عليه، وتأول أنه حلف مكرهاً. ثم عاد الناصر إلى بلاده. وغير تحالفه، فاتفق مع ملوك الأيوبيين بالشام الذين كانوا يناوئون الملك الصالح نجم الدين، وتم ذلك في سنة ٦٣٨ هـ(٢). واشتد النزاع في البيت الأيوبي، ففي سنة

(١) مفرج الكروب ٢٥٧/٥، ٢٥٨، ٢٥٩، وانظر: المختصر ١٦٦/٣، تتمة المختصر ٢٤٧/٢، شفاء القلوب/ ٣٧٣، السلوك ٢٩٣/١، ٢٩٤.

(٢) مفرج الكروب ٢٥٩/٥ ـ ٢٦٢، ٢٦٤ ـ ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٨، وانظر: المختصر ١٦٦/٣، ١٧٤، تتمة المختصر ٢٤٧/٢، دول الإسلام ١٤٢/٢، مسالك الأبصار ج ١٦ ٣/١ ٥٣٤، شفاء القلوب/ ٣٧٤، السلوك ٢٩٦/١ ـ ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، الأنس الجليل ٥/٢.

وتجدر الإشارة إلى ما يذكره عز الدين بن شداد، إذ يذكر أن الملك الصالح اسماعيل أعطى بيت المقدس للفرنج فيما أعطاهم من البلاد، في سنة٦٣٨هـ، يقول: «ولم يزل القدس في يد الملك الناصر داود إلى أن اتفق مع الملك الصالح اسماعيل، صاحب دمشق، والملك المنصور ابراهيم، صاحب حمص، على مصالحة الفرنج ،ليعينوهم على قتال الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر، وأعطوهم صفد، والشقيف، والقدس، وغيرها»، في السنة المذكورة. و «دخل الفرنج القدس، ورفعوا الصليب على الصخرة، وأخرجوا من فيه من المجاورين إلى الخليل» (الأعلاق الخطيرة ـ لبنان ولأردن وفلسطين/ ١٤٧، ٢٣٤).

ولكن العديد من المؤرخين، لا يتحدثون عن تسليم بيت المقدس في سنة ٦٣٨ هـ. ويقتصرون على الحديث عن تسليم الشقيف وصفد في هذه السنة (انظر: ذيل الروضتين/ ١٧٠، المختصر ١٦٩/٣، تتمة المختصر ٢٥٠/٢، دول الإسلام ١٤٣/٢، النجوم ٣٣٨/٦، المنهل الصافي ٤٢١/٢، البداية والنهاية ١٥٥/١٣).

٦٣٩ هـ، التقى عسكر الملك الصالح أيوب، وعسكر الملك الناصر داود، في جبال القدس، واقتتلا، وهُزِم عسكر الملك الصالح[1]. وقد أدى هذا النزاع بين الأيوبيين إلى الاتصال بالفرنج، والاستعانة بهم، فقد اتصل الملك الصالح إسماعيل، صاحب دمشق، بالفرنج، وطلب مساعدتهم ضد الملك الصالح نجم الدين أيوب، فاشترطوا عليه أن يسلمهم الشقيف، وصفد، فاستجاب إلى طلبهم، وسلمهم الحصنين[2]. واشتد إنكار المسلمين لهذه الفعلة الشنيعة، وأنكرها العلماء، ونددوا بالصالح اسماعيل، ومنهم الشيخ عزالدين عبدالعزيز بن عبدالسلام، خطيب جامع دمشق، والشيخ جمال الدين أبوعمرو بن الحاجب، وأكثرا من التشنيع عليه، فعزل الشيخ عزالدين، ومنعه من الافتاء، وحبسه، وحبس ابن الحاجب، ثم أمرهما بملازمة بيتهما، واضطرا إلى مغادرة دمشق، فغادرها عزالدين إلى مصر، وغادرها ابن الحاجب إلى الكرك، ثم إلى مصر[3].

= ويذكر المقريزي أن الصالح إسماعيل أعطى الفرنج صفد، والشقيف، كما أعطاهم مناصفة صيدا، وطبرية وأعمالها، وجبل عاملة، وسائر بلاد الساحل، في سنة ٦٣٨ هـ. ويذكر في حوادث السنة ذاتها أن الصالح إسماعيل استنجد بالفرنج «على أن يعطيهم جميع ما فتحه السلطان صلاح الدين يوسف» (السلوك ١/٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٨، ٣٠٩).

ويتحدث ابن واصل عن تسليم حصني الشقيف وصفد في سنة ٦٣٩ هـ، وليس في سنة ٦٣٨ هـ. ولم يتحدث عن تسليم بيت المقدس في هاتين السنتين. (انظر: مفرج الكروب ٥/٢٧٥ ـ ٣٠٨).

ويذكر سبط بن الجوزي، في حوادث سنة ٦٣٩ هـ، أن الملك الناصر داود كان في القدس، وأقام فترة هناك (انظر: مرآة الزمان ٨/٧٣٦، البداية والنهاية ١٣/١٥٧).

ويذكر أبوشامة المقدسي، في حوادث سنة ٦٣٩ هـ، أن «الأرض المقدسة» كانت تابعة للملك الناصر داود آنذاك (انظر: ذيل الروضتين/ ١٧١).

(١) مفرج الكروب ٥/٣٠٠، ٣٠١، السلوك ١/٣٠٩.

(٢) مفرج الكروب ٥/٣٠١، ٣٠٢، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٣٤٧، وانظر: مرآة الزمان ٨/٧٤٥، ذيل الروضتين/ ١٧٠، النجوم الزاهرة ٦/٣٣٨، تتمة المختصر ٢/٢٥٠، دول الإسلام ٢/١٤٣، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ١٤٧، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٩، البداية والنهاية ١٣/١٥٥، الأنس الجليل ٢/٦، شذرات الذهب ٥/١٨٩، صلاح الدين ـ جب/ ٢٢٤، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٧٨.

(٣) مفرج الكروب ٥/٣٠٢، ٣٠٣، الذيل على الروضتين/ ١٧٠، مرآة الزمان ٨/٧٣٢، المختصر ٣/١٦٩، =

لقد أدى النزاع في البيت الأيوبي بين الصالح نجم الدين أيوب، وعمه الصالح عماد الدين إسماعيل ومحالفيه من الأيوبيين، إلى التفريط ببيت المقدس، فكان الصالح أيوب قد استعان بالخوارزمية، فاستعان الصالح اسماعيل ومحالفوه بالفرنج، واتفق معهم على «تسليم البيت المقدس إليهم، على أن يكون الحرم بما فيه من المزارات لهم، وعلى تسليم طبرية، وعسقلان، وكوكب إليهم، وأن يأذنوا لهم في عمارتها، فتسلم الفرنج ذلك كله، وعمروا قلعتي طبرية وعسقلان، وحصنوهما. وأخذ بيت الاسبتار كوكب، وعزموا على عمارتها. ودخل الفرنج القدس، وتسلموا الصخرة المقدسة، والأقصى، وما في الحرم الشريف من المزارات»، كما يذكر ابن واصل في حوادث سنة ٦٤١ هـ. وفي هذه السنة دخل ابن واصل بيت المقدس، ورأى فيه «الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة، وعليها قناني الخمر». ورأى جرساً معلقاً بالأقصى. وقد «أبطل بالحرم الشريف الأذان والإقامة»[1]، فتصورا!

ويعقب مجير الدين العُليمي الحنبلي على ما فعله الناصر داود، وكان قد حرر بيت المقدس في سنة ٦٣٧ هـ، كما تقدم، ثم كان ممن تنازلوا عنه، وفرطوا به، يقول: «وكان الناصر داود فتح بيت المقدس، في سنة ٦٣٧ هـ، ثم فعل هذه الفعلة القبيحة، وقد انتقم الله منه فيما بعد، فنعوذ بالله من سوء الخاتمة، والضلال بعد الهداية»[2].

= تتمة المختصر ١٧١/٢، دول الإسلام ١٤٣/٢، ١٤٤، النجوم الزاهرة ٣٣٨/٦، ٣٤٦، ٣٤٧، البداية والنهاية ١٥٥/١٣، السلوك ٣٠٤/١، المنهل الصافي ٤٢١/٢، ٤٢٢.

(١) مفرج الكروب ٣٣٢/٥، ٣٣٣، ٣٣٤، وانظر: مرآة الزمان ج ٨ ق ٧٤٥/٢، ٧٤٦، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٣٤، المختصر ١٧٢/٣، تتمة المختصر ٢٥٣/٢، ٢٥٤، النجوم الزاهرة ٣٢٢/٦، شفاء القلوب/ ٣٢٥، ٣٧٥، ٣٧٦، السلوك ٣١٥/١، نزهة الأنام ـ حوادث سنة ٦٤١ هـ، الأنس الجليل ٦/٢، ٧ وانظر: صلاح الدين ـ جب/ ٢٢٦، ٢٢٧، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣٨٩/٣.

(٢) الأنس الجليل ٦/٢، وانظر: ٩، ١٠.

الفتح القدسي الثالث:

لقد استنجد الصالح نجم الدين أيوب بالخوارزمية، فاستجابوا، وساروا في أوائل سنة ٦٤٢ هـ، ويُذكر أنه لما سمع الملك الناصر بمسيرهم، عاد من القدس إلى الكرك، واعتصم به. وخرج الفرنج الذين كانوا في بيت المقدس، في ربيع الأول من هذه السنة، عندما سمعوا باقتراب الخوارزمية[1].

استولى الخوارزميون على طبرية، واجتازوا نابلس، ثم اتجهوا جنوباً نحو بيت المقدس. ولما عرف الفرنج ذلك، أدركوا الأخطار التي تحيق بهم، وعمل بطريرك بيت المقدس، ومقدما الداوية والاسبتارية على تعزيز الحامية هناك، غير أن الفرنج لم يجرؤوا على البقاء هناك. وصل الخوارزميون بيت المقدس، وهاجموه، ودخلوه، ويذكر أنهم اقتحموا المدينة في سنة ٦٤٢ هـ الموافق ١١ يوليو سنة ١٢٤٤ م[2].

ويذكر أن الفرنج في بيت المقدس، كانوا قد استنجدوا بالفرنج في أنطاكية، وطرابلس، وعكا، وقبرص، ولكن دون جدوى، ولم تصل نجدات من الفرنج. ثم استغاثوا بالملك الناصر داود، وطلبوا منه تأمين خروجهم، فتدخل، وأُعطوا الأمان على أن يسلموا القلعة. ويُذكر أنه خرج ستة آلاف منهم، وقصدوا يافا، ولكن قُضي على أكثرهم قبل وصولهم إليها.

وهكذا خرجت المدينة المقدسة من أيدي الفرنج، وعادت إلى الإسلام والمسلمين[3].

ويوصف هذا الفتح بالفتح الصلاحي النجمي، كما يقول مجير الدين

---

(١) مفرج الكروب ٥/٣٣٦، ٣٣٧، وانظر: الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٣٤، النجوم الزاهرة ٦/٢٢٣.

(٢) مفرج الكروب ٥/٣٣٧، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٣٤، ٢٣٥، السلوك ١/٣١٦، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٩١ ـ ٣٩٣.

(٣) انظر: صلاح الدين ـ جب/ ٢٢٧، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان، ٣/٣٩٢، ٣٩٣، ٤٦٦، الحركة الصليبية ٢/٩٩٧، ٩٩٨.

العّليمي الحنبلي، نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب[1]، إذ تم الفتح في عهده.

---

(١) الأنس الجليل ٢/٨.

الفصل الرابع

القدسيات : الدراسة الفنية



القدسيات (في الشعر)

دراسة فنية

التجربة الشعرية:

ينقل الشاعر إلينا تجاربه التي عاشها، تلك التجارب التي يعبر فيها عما تحس به نفسه ذاتياً وجماعياً. والشاعر يستمد معانيه من التجربة الحسية التي عاشها، «بحيث ترتسم صور المحسوسات في خياله، ثم يستطيع خياله أن يقيم ضروب العلاقات بينها»(1). وهذه التجربة هي «الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور تفكيراً ينم عن عميق شعوره وإحساسه»(2). وفيها يفضي الشاعر بذات نفسه، ويفضي بالحقيقة كما يحس بها في خواطره وتفكيره. وليس من الضروري ان يعاني الشاعر التجربة بنفسه حتى يصفها(2). وهي بصورة أخرى «حدث وجداني أو عاطفي، حدث ينبع من نفس صاحبه، ومن عقله، ومن كل حواسه ودخائله النفسية والفكرية الظاهرة والباطنة»(3). إن «الشاعر الحق هو الذي تتضح في نفسه تجربته، ويقف على أجزائها بفكره، ويرتبها ترتيباً قبل أن يبدأ الكتابة»(4).

لقد عاش عدد من شعراء القصائد القدسيات الحدث، بل الأحداث التي تتمثل بالاحتلال من ناحية، والتحرير والنصر من ناحية أخرى، ولا يعني هذا أنهم جميعاً قد عاشوا الأحداث واقعاً، فقد كان بعضهم بعيداً عن مسرح الأحداث، فلم يشاهدها، ولم يشارك فيها، ولكن هذا لا يعني أنه لم يحس بها، ولم يعشها وهو بعيد عن مسرح الأحداث تلك.

إذا صح ان القاضي الهروي قد قال القصيدة التي قيلت في رثاء بيت المقدس، في سنة ٤٩٢ هـ، فإنه قد عاش الحدث، وانفعل به، ثم توجه إلى

---

(1) انظر: منهاج البلغاء/ ٣٨، تاريخ النقد عند العرب/ ٥٥٣.

(2) انظر: النقد الأدبي الحديث/ ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦.

(3) في النقد الأدبي/ ١٣٨، ١٣٩.

(4) انظر: النقد الأدبي الحديث/ ٣٨٤، الحياة الأدبية في الشام/ ٣٤٨.

بغداد مع المستنفرين، بل إنهم توجهوا بصحبته، ثم أنشد القصيدة معبراً عن إحساساته ومشاعره، مستمداً معانيه من التجربة التي عاشها، مفضياً بذات نفسه، وبالحقيقة التي يحس بها، ويعرفها، وهي تجربة تنم عن الانفعال بالحدث، والتفاعل معه.

والشاعر محمد بن المبارك القَرْقساني، عاش الحدث المتمثل في تخريب بيت المقدس في سنة ٦١٦ هـ، عندما خربه الملك المعظم عيسى، فقد كان الشاعر آنذاك الخطيب في بيت المقدس. وقد تأثر بالحدث، وانفعل به، وبدا شديد الحزن والألم لما حلَّ بالبيت المقدس، فعبر عنه، كما عبر عن إحساساته ومشاعره إزاء تلك التجربة الواقعية، وعبر عن الصراع الذي يحس به في نفسه وعقله إزاء الحدث. وهو قد كان يرى أن على المسلمين وقادتهم العمل على حماية البيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين.

وعاش ابن المجاور، شهاب الدين يعقوب بن محمد الحدث الذي يتمثل في التنازل عن بيت المقدس، في سنة ٦٢٦ هـ، ورثاه بقصيدة عبر فيها عن تجربته التي أحس بها.

ومن جهة أخرى، فقد كان الشاعر عبدالرزاق الرَّسعني، بعيداً عن مسرح الأحداث المتمثلة في التنازل عن بيت المقدس، في السنة المذكورة، فلم يكن في بيت المقدس أو قريباً منه، غير أنه تمثل الحدث وكأنه يعيشه، فعبر عن إحساساته ومشاعره إزاء ذلك. يقول ابن الشعار الموصلي، أنشدني لنفسه ـ الشاعر المذكور ـ وقد سمع الخبر بتسليم البيت المقدس إلى الفرنج[1]. وقد جاء تعبيره عن تلك التجربة متسماً بالتأثر، والانفعال، والحزن.



وفي مجال التعبير عن تجربة الفتح القدسي، أشير إلى أن عدداً من الشعراء حضروا الفتح، وأن عدداً منهم كان غائباً يوم الفتح القدسي العظيم، ولكنهم

---

(١) عقد الجمان لابن الشعار الموصلي ٤/١٣٦.

حضروا بعد الفتح، فقد اجتمع الكثير من شعراء المسلمين في بيت المقدس، حيث قدموا للتهنئة بالنصر. وممن هنأ السلطان صلاح الدين بالفتح، العماد الأصفهاني، فقد ذكر أنه هنأه «بفتح القدس، وهو مخيم عليه»[1]. وأنشده قصيدة أخرى في الفتح القدسي «يوم فتح القدس»: «قال العماد: وأنشدته يوم فتح القدس قصيدة» أولها[2]:

استوحشَ القلبُ مُذْ غبتُمْ فما أنِسا   وأظلمَ اليومُ مُذْ بنتُمْ فما شَمسا

ومن الشعراء الذين لم يحضروا الفتح القدسي، ولم يشاركوا فيه، ولم يشاهدوا أحداثه الجويني، أبوعلي الحسن بن علي الذي كان مقيماً بمصر، وكان ينفذ قصائده إلى العماد الأصفهاني ليعرضها على السلطان صلاح الدين. يقول العماد: «وكان فخر الكتاب أبوعلي الحسن بن علي الجويني، المقيم بمصر، من أهل بغداد، ينفذ إليّ قصائده لأعرضها، فرأيت أن أثبت له هذه القصيدة في الفتح، وهي مشتملة على ذكر ملوك الإسلام، وإهمالهم له تسعين عاماً، حتى تجرد له سلطاننا»، ومطلعها[3]:

جُنْدُ السَّماء لهذا المَلْك أعوانُ   مَنْ شَكَّ فيهم فهذا الفتحُ بُرهانُ

ولم يشارك عبدالمنعم الجلياني في المعركة أيضاً، ولكنه أنشأ القدسيات الطوال العديدة، ومنها القدسية الكبرى، والقصيدة الفتحية الناصرية. يقول العماد: «وللحكيم أبي الفضل - الجلياني - قصائد قدسيات طوال، كثيرة الفوائد. وقد وقف أبوشامة على بعضها، وأثبتها في كتابه الروضتين[4]. وقد صنع الجلياني كل هذا، وهو لم يشارك في الفتح، ولم يشاهد أحداثه. ولكنه استطاع أن ينشىء أشعاره القدسيات، بل ديوانه المسمى «ديوان المبشرات والقدسيات». وقد أنشأ شعراً في هذا المجال أكثر مما أنشأ غيره من الشعراء. واستطاع أن يعبر عن الحدث، وعن إحساساته ومشاعره إزاءه، بل عن

---

(١) انظر: ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٠ - ٢٣٦، الروضتين ٢/ ١٠١، معجم الأدباء ١٩/ ٢٢، شفاء القلوب/ ١٥٠.

(٢) انظر: ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٢٧ - ٢٣٠، الروضتين ٢/ ٨٨، سنا البرق الشامي/ ٣٠٣.

(٣) كتاب الروضتين ٢/ ١٠٤.

(٤) نفسه ٢/ ١١٥ - ١١٧.

إحساسات المسلمين ومشاعرهم بصدق. وكان الجلياني قد عاش أحداث الصراع حول بيت المقدس خاصة، وبلاد الشام ومصر عامة، في مراحله المختلفة، ومن الممكن القول بأن العديد من الشعراء الذين كانوا غائبين يوم الفتح القدسي، قد عاشوا أحداث الصراع بين المسلمين والفرنج.

ومن هؤلاء أيضاً الشاعر فتيان الشاغوري. فقد ذكر أنه أنشد قدسيته: «تُبنى الممالكُ بالوشيج الأسمر...»، مشيداً بالفتح والفاتح، في قلعة دمشق[1].

ويذكر العماد الأصفهاني أن «نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور»، أنشأ قصيدة، يذكر فيها فتح يافا، ويذكر الهدنة بين المسلمين والفرنج، في سنة ٥٨٨ هـ، وأنفذها إلى العماد، فعرضها العماد على السلطان بالقدس، ومطلعها[2]:

الوقتُ أضيقُ من سماعِ قصيدةٍ   موسومةٍ لصفات أغيد أهيف

ومن الواضح أن ابن المجاور لم يكن في بيت المقدس آنذاك. ولكن الأمر يختلف عما كان عليه بالنظر إلى الفتح القدسي، والمشاركة في أحداثه، ومعايشته، فابن المجاور يتحدث عن مفاوضات بين المسلمين والفرنج، لعقد الهدنة، ولا يتحدث عن حرب، كما كان الأمر في يوم الفتح القدسي.

إن عدم حضور عدد من الشعراء الفتح القدسي، وعدم مشاركتهم فيه، وعدم مشاهدتهم أحداثه ومعركته، يدعو إلى التساؤل عن تعبيرهم عن تجربة لم يشهدوها، وعن مدى صدقهم في التعبير عن تلك التجربة.

إن دراسة ما قاله أولئك الشعراء، الذين تقدم ذكرهم، ممن لم يحضروا الفتح، تبين أنهم استطاعوا التعبير عن إحساساتهم ومشاعرهم، والتعبير عن إحساسات المسلمين ومشاعرهم، وكانوا صادقين في ذلك، صدقاً واقعياً، وصدقاً فنياً. وذلك جلي في حديثهم عن الفتح، أو الفاتح، أو المصير الذي آل إليه العدو الصليبي.

---

(١) انظر: ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٠ - ١٤٤.   (٢) كتاب الروضتين ٢/ ١٠٣.

لقد كان أولئك الشعراء الذين لم يحضروا يوم الفتح، يعايشون أحداث الصراع بين المسلمين وأعدائهم المحتلين، على الرغم من عدم وجودهم يوم الفتح في بيت المقدس. وربما كان هذا عاملاً أشاع الصدق في أشعارهم.

إن التعبير عن التجربة لا يشترط المشاهدة، والمشاركة، والمعاناة الواقعية.



تنبه بعض القدماء على الحقيقة الشعرية واختلافها عن الحقيقة الواقعية. وربط الأدباء والنقاد بين الشعر، والصدق أو الكذب فيه، وتساءلوا عن مدى صدق الشاعر، أو عدم صدقه، في التعبير عن التجربة التي عاشها، وعبر عنها. وقد تباينت مواقف النقاد من هذا الموضوع، فمنهم من يرى أن يكون الشعر صادقاً بعيداً عن الكذب، ومنهم من يرى أن أعذب الشعر أكذبه. لقد رأى الفريق الأول أنه ينبغي للشاعر أن يكون صادقاً في التعبير عن نفسه وإحساساتها، وفي التعبير عن تجربته، وفيما يعبر عنه من الأحداث التاريخية ومنهم ابن طباطبا، فالصدق عنده صدق في التعبير عن ذات النفس ومكنوناتها، وهو ما يسمى الصدق الفني، وهو عنده صدق في التعبير عن تجربة الشاعر، وصدق تاريخي، وصدق أخلاقي، فهذا الشاعر لا ينسب الشجاعة إلى جبان، أو الكرم إلى بخيل. وهو صدق تصويري يتمثل في الصدق في التشبيه. وبهذا كان الصدق عنده من أهم العناصر التي ينبغي أن تتوافر في الشعر[1]. وعندما يتحدث ابن طباطبا عن ملاءمة الشعر لمعانيه، يذهب إلى أنه يُقتضي في الأشعار «أشياء هي قائمة في النفوس والعقول، فيحسن العبارة عنها، وإظهار ما يكمن في الضمائر منها... ، ويبرز ما كان مكنونا»، وترتاح النفوس لصدق القول، وقد «تَضمن صفات صادقة، وتشبيهات موافقة»[2].

ويذهب كثير من النقاد المذهب الثاني، فقدامة بن جعفر يعد «الكذب

---

(١) انظر: عيار الشعر/ ٦، ١١، ١٦، ١٧، ١٢٠، ١٢١، ١٢٨، تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ ٣٤، ٣٥، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ٢٠٧.

(٢) انظر: عيار الشعر/ ١١، ١٦، ١٧، ١٢٠، ١٢١، ١٢٨، مفهوم الشعر/ ٤٤، ٤٥، ٤٦.

مرادفاً للغلو»، ولا يوصف الشاعر عنده «بأن يكون صادقاً، بل إنما يراد منه إذا أخذ في معنى من المعاني كائناً ما كان أن يجيده»[1]. وهو بهذا يتخذ من الجودة مقياساً. ولكن هل يكون الشعر منافياً للحقيقة؟لا يكون الشعر كذلك. ويفسر هذا القول حازم القرطاجني، متابعاً قدامة، يقول: «يجب أن يقصد في مدح صنف صنف من الناس إلى الوصف الذي يليق به، وأن يعتمد في مدح واحد واحد ممن يراد تقريظه ما يصلح له من تلك الفضائل وما تفرع منها، وأن لا يُجعل الشيء منها حلية لمن لا يستحقه»[2]. ولكن حازماً لا يخرج قضية الصدق والكذب من طبيعة الشعر جملة، ويركز على أهمية التخييل ووظيفته فحسب. فلا ينبغي على الناقد «أن يتساءل عما إذا كانت القصيدة صادقة أو كاذبة، وإنما عليه أن يتساءل ـ أولاً ـ عن موقعها من المتلقي، وتأثيرها في انفعالاته، وقدرتها على توجيه سلوكه». والشعر عنده لا يعد شعراً «من حيث هو صدق، ولا من حيث هو كذب، بل من حيث هو كلام مخيل». كما يذهب إلى أن «المعاني الصادقة هي أفضل ما يستعمل في الشعر، لأنها تحرك النفوس إلى ما يُراد منها تحريكاً أشد من تحريك الأقاويل البادية الكذب». والصدق عنده أنجع في الشعر «إذا وافق الغرض». ويبين حازم أن «للأقاويل الشعرية مواطن حقيقة بتوخي الصدق، ومواطن لا يليق بها ذلك»[3].

وتبدو عناية حازم منصبة على الصدق الفني، فإنه يبين أن «الغرض المقصود بالأقاويل المخيلة، أن ينهض السامع نحو فعل الشيء الذي خُيِّل له فيه أمر ما. . .، سواء صدق بما يخيل إليه ذلك أم لا، كان الأمر في الحقيقة على ما خُيِّل له أو لم يكن»[4].

يرى العديد من النقاد أنه لا يطالب الشاعر بالصدق الواقعي، ووصف

---

(1) انظر: نقد الشعر/ ٦٨. (٢) منهاج البلغاء/ ١٧٠، وما بعدها.

(٣) انظر: منهاج البلغاء/ ٦٢، ٦٣، ٧١، ٧٢، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، مفهوم الشعر/ ٧٤ ـ ٨٢، النقد الأدبي الحديث/ ٢٣١، ٢٨٦.

(٤) انظر: منهاج البلغاء/ ٧٤، ٨٥، تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ ٣٥، ٣٦، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩.

دقائقه، ويرون أن مقياس براعته تكمن في «اقتداره على الصناعة والصياغة»، أي الجمع بين جودة الكلام، وحسن صياغته[1].

والصدق الفني لا يعني مطابقة الأشياء للوقائع الفعلية. إن الإشارات التي يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة، هي فقط تلك الإشارات التي يتحقق فيها نظام خاص، وعلاقات بالغة التعقيد بحيث انها تطابق كيفية تركيب الأشياء في الواقع. وان معظم الإشارات في الشعر، لا يتحقق فيها هذا النوع من النظام[2]. وإن الشعر «لا يعيبه كذب الإشارات فيه، ولا يشفع له صدقها». وهو «أسمى صور اللغة الانفعالية. . .، ويختلف قبول الكلام في الشعر عن تصديق القضايا العلمية»[3].

إن للشاعر أن يتخيل كما يشاء، فلا يقال له كذبت أو صدقت، لأن له أن «يعبر عن خياله وشعوره حسب مشيئته الفنية». وفي الشعر لا يُهتدى «بمصابيح المنطق، ولا بمصابيح الواقع الخارجي، ولكن يُهتدى بالواقع النفسي للشاعر»[4].

وإذا نظرنا في الأشعار القدسيات التي قيلت في رثاء بيت المقدس، أو في تصوير الهزيمة التي حلت بالإسلام والمسلمين، وجدناه صادقاً صدقاً واقعياً، وصدقاً فنياً، في تعبير قائليه عن إحساساتهم ومشاعرهم إزاء المصيبة العظمى التي نزلت بالمسلمين، والتعبير عن إحساسات المسلمين ومشاعرهم عامة، في بيت المقدس خاصة، وفي بلاد الشام عامة.

لقد كان الأبيوردي، أو القاضي أبوسعد الهروي صادقاً في تصوير الفاجعة، وفي تصوير إحساساته ومشاعره إزاء الفاجعة، في مرثيته «مزجنا دماءً بالدموع السواجم. . .»، وقد كان الشاعر صادقاً صدقاً واقعياً، وصدقاً تاريخياً. ويؤكد هذا ما تحدثت به في الفصل الأول. وكان الشاعر صادقاً صدقاً فنياً، في

---

(١) انظر: نقد الشعر/ ١٤، الموازنة/ ٣٩٥، الصناعتين/ ١٠٣، النقد الأدبي الحديث/ ٢٢٣، ٢٢٤.

(٢) مبادىء النقد الأدبي/ ٣٤٥.

(٣) انظر: نفسه (المقدمة)/ ٢٦، ٢٧.

(٤) في النقد الأدبي/ ١٣٣.

تعبيره عن مكنونات نفسه، وإفضائه بها، وفي تعبيره عن إحساسات الناس بآلامهم، وأحزانهم، وقلقهم على مصائرهم. ومصائر أمتهم، وأرضهم، ودينهم. وكان الشاعر صادقاً في تصوير موقفه من الحكام، وتعريضه بهم، لأنهم تخلفوا عن أداء واجب الجهاد. وهو في هذا لا يعبر عن نفسه فحسب، بل إنه يعبر عن مواقف المسلمين من أمثال أولئك الحكام.

وهكذا كان الشاعر محمد بن المبارك القَرقساني، في رثائه بيت المقدس بعد تخريبه في سنة ٦١٦ هـ، حيث يصور مشاعره وإحساساته إزاء «مصاب القدس»، وكان صادقاً في تصويره ذاك، صدقاً واقعياً، وصدقاً فنياً. ومما يوضح هذا أن القَرقساني خطيب بيت المقدس قد لبس الحداد لما نزل بالمدينة المقدسة من مصيبة، وأن ساكنيها لا يستطيعون سُلُوَّها، ولو ملكوا البلاد جميعاً.

وكان ابن المجاور، شهاب الدين يعقوب بن محمد، وعبدالرزاق بن رزق الله الرَّسعني، صادقين في التعبير عن إحساساتهما ومشاعرهما، إزاء الفعلة الشنيعة المتمثلة في التنازل عن بيت المقدس، في سنة ٦٢٦ هـ. ويؤكد صدق الشاعرين الواقعي من ناحية، والفني من ناحية أخرى، ما يذكره المؤرخون إزاء الحدث. يذكر سبط بن الجوزي أنه لما وصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الفرنجة، «قامت القيامة في جميع بلاد الإسلام، وإشتدت العظائم، بحيث أقيمت المآتم». ولما نودي بخروج المسلمين من بيت المقدس، «اشتد في البكاء، وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان»[1]. وهذا هو الواقع الذي صوره الشاعران في قصيدتيهما: «أعيني لا تَرْقي من العَبَرات...»، لابن المجاور و«تَعالوا نقيم الحزن في مجمع الأنس...» للرَّسعني. وقد كان تصوير الشاعر متطابقاً مع الواقع إلى حد ملموس. وهما يصوران حالة المسلمين وواقعهم إزاء المصيبة. كما يصوران موقفيهما من الحكام الذين تنازلوا عن بيت المقدس، يعبران عن مواقف المسلمين أيضاً، فابن المجاور يصور المتنزلين عن بيت المقدس قد هدموا المجد الصلاحي، والرَّسعني يستنكر الحدث، «والإسلام

(١) مرآة الزمان ج ٨ ق ٢/ ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، السلوك ١/ ٢٣١، ٢٣٢.

فيه بقية». ولهـذا يتمنى لو أنـه يحـل في رمسه قبل أن يرى مثل هذه الفعلة النكراء. ومن الواضح أن ما يعبر عنه الشاعران، يتسم بالصدق، كما تقدم. وهو تعبير يدعو إلى الثورة في النفوس، كما يدعون إلى التخلص من ذلك الواقع، وهي الوظيفة التي ينبغي على الشعر أن يقوم بها. وإلى جانب ذلك، فإن هذا الشعر يصور الواقع بكل ما فيه من لجوء إلى القدر، ويأس، وبكاء، واستغاثة، تقابلها دعوة إلى الصمود والمقاومة.

ويبدو مثل هذا جلياً في المرثية المنسوبة إلى الأبيوردي، فقد حاول فيها أن يرسم الطريق إلى التحرير. ويقود إليها، فيدعو إلى «غارة عربية تطيل عليها الروم عض الأباهم». وبهذا يمكن القول بأن الشعر قد قام بوظيفته السياسية والاجتماعية.

وإن لم يكن الشعر الذي قيل في الهزيمة، قد قاد إلى ما ينبغي القيام به كماً وكيفاً، فإن الشعر الذي قيل في التعبير عن الدعوة إلى الجهاد والوحدة، في سبيل التحرير، قد قام بما ينبغي القيام به، وهو يرسم طريق الخلاص بجلاء، كما نجد في أشعار ابن القيسراني، وابن منير الطرابلسي، وأسامة بن منقذ، وطـلائـع بن رُزيك وعبـدالمنعم الجلياني، وغيرهم، فإنهم قد عاشوا تجربة حقيقية واقعية تتمثـل في رؤية العـالم الإسلامي محتلاً، فأحسوا بإحساسات ومشـاعـر عبروا عنها بأشعارهم التي رسموا فيها الطريق المثلى. وهي طريق الجهـاد، وطـريق الوحدة، للوصول إلى تحقيق الأهداف والأماني التي تراود نفـوسهم، بل تراود نفـوس المسلمين جميعاً. وقد جاءت أشعارهم بمستوى الأحداث. وقد كان اولئك الشعراء صادقين في تعبيرهم عن تجاربهم الواقعية التي عاشوها، وتمثلوها وآمنوا بها، ودعوا إليها، للخلاص من الاحتلال في بيت المقـدس، وغيره من بلاد الإسلام. وقد كانوا صادقين واقعياً وفنياً أيضاً، في دعوتهم إلى تحرير الأرض، والالتزام بالدفاع عن الأمة وآمالها، ودينها، للوصول إلى النصر العظيم. ولا شك أنهم كانوا صادقين أيضاً في التعبير عن إحساسات المسلمين ومشـاعـرهم، تلك الإحساسات والمشاعر التي كانت تصطرع في نفوسهم، وترنو إلى الخلاص والتحرير.

وكان الشعراء الذين أنشأوا القدسيات الكثيرة التي تغنوا فيها بالنصر والفتح القدسي، صادقين في التعبير عن إحساساتهم ومشاعرهم، والتعبير عن الأمة الإسلامية جميعاً، صدقاً واقعياً، وصدقاً فنياً، وقد صوروا ما كانوا يحسون به إزاء الحدث العظيم.

لقد كان أولئك الشعراء صادقين في تصويرهم الفتح وحديثهم عنه، كما كانوا صادقين في تصويرهم للفاتح المجاهد صلاح الدين، وكانوا صادقين في حديثهم عن العدو الصليبي، والمصير الذي آل إليه. وإذا عُدنا إلى كتب التاريخ، وجدنا تطابقاً إلى حد ما، بين حديث الشعر عن الفتح، وحديث المؤرخين عنه، وكذلك كان الأمر في حديثه عن الفاتح صلاح الدين، وفي حديثهم عن المصير الذي آل إليه المحتل. ولما كنت قد فصلت القول في هذه المحاور الثلاثة، والتعبير عنها، في الفصل الثاني، فإنني أكتفي بذلك تجنباً للتكرار.

لقد عبر شعراء القدسيات عن ذلك الحدث الذي نبع من نفوسهم، وعقولهم، وحواسهم، ودخائلهم النفسية حقاً. وقد نقلوا إلينا تجربتهم التي عبروا فيها عما أحسوا به. وكان في «طبيعة التجربة، والتعبير عنها» ما حملنا على تتبعها في أشعارهم تلك، وذلك «لأننا نتوقع أن نرى فيها ما يتجاوب وطبيعة التجربة التي جعلها أولئك الشعراء موضع خواطرهم، ليجلوا صورتها»[1].

(١) انظر: النقد الأدبي الحديث/ ٣٨٤.



بنية القصيدة

يرى النقاد والأدباء أن القصيدة العربية ذات بناء يتكون من مقومات عديدة تتلاقى وتتكامل لإقامة ذلك البناء. وهو «بناء يتركب من العناصر والقوى التي تتظاهر على نحو يتم فيه تكامل المعاني الشعرية المتبلورة في حقائق لغوية، فالعـالم الذي تتألف منه القصيدة عالم متجانس تتلاقى أفكاره، وتتعاقب في حركة مطردة»[1].

ولعل أهم مقومات بناء القصيدة تتمثل في مقدمتها، ومطلعها واستهلالها، وموضوعها، وخاتمتها.

ولعل اطراد المقدمة في القصيدة القديمة من الظواهر التي لفتت انتباه غير واحد من القدماء والمحدثين فعنوا بها.

وقد يلحظ أن الشعراء في فترة الحروب الصليبية قلما استهلوا قصائدهم في شعر الجهاد بالمقدمة الطللية، وهم قد ابتعدوا عنها في القدسيات التي صورت الهزيمة التي حلت بالمسلمين على أيدي الغزاة الصليبيين. ويبدو هذا جلياً في قصيدة الـرثاء المنسوبة إلى الأبيوردي، أو القاضي زين الدين الهروي. وقد ابتعد الشاعر عن المقدمة الغزلية في قصيدته التي تصور المصيبة الجلل التي حلت بالإسلام والمسلمين في بيت المقدس خاصة، وفي بلاد الشام عامة. وفي ذلـك انسجـام مع إحسـاسـات الشـاعـر نفسـه من ناحية، وإحساسات المسلمين التي يعبـر الشـاعـر عنهـا، ويصـورهـا، من ناحية أخـرى. وهي

(١) انظر: بناء القصيدة العربية/ ٢٦.

إحساسات تنبع من الألم والحزن، وتفيض بهما، وتصور الحالة النفسية التي تمر بالشاعر خاصة، والمسلمين عامة. وهي تتناقض مع الإحساسات التي تعكسها المقدمة الغزلية وتصورها. وهذا الأمر ليس جديداً في الشعر العربي، في الفترة التي أتحدث عنها، فقد كان شعراء العربية يبتعدون غالباً عن المقدمات الغزلية في مراثيهم، منذ العصر الجاهلي. لقد ابتعدوا عن المقدمات الغزلية غالباً، في رثائهم للأشخاص، وفي رثائهم للمدن.

وكما بدا هذا جلياً في القصيدة الآنفة الذكر، فإنه يبدو جلياً أيضاً في قصيدة ابن المجاور التي رثى فيها مدينة بيت المقدس بعد تنازل الملك الكامل الأيوبي عنها: «أعيني لا تَرقى من العبرات...». ويبدو ذلك جلياً أيضاً في قصيدة محمد بن المبارك القَرْقساني، وكان خطيباً في بيت المقدس عند خرابها في سنة ٦١٦ هـ: «مصاب القدس قد سلب الرقادا»[١].

وإذا كان الابتعاد عن المقدمات، والولوج إلى الموضوع مباشرة، متمثلاً في قصيدة الرثاء، فإنه يبدو متمثلاً أيضاً في قصيدة المديح القدسية. ويبدو هذا الابتعاد عن المقدمات، جلياً في الشعر القدسي الذي قاله الشعراء متغنين بالنصر العظيم الذي توج بتحرير بيت المقدس، في سنة ٥٨٣ هـ. وتزيد هذه القصائد القدسية على عشرين قصيدة قالها أشهر الشعراء في العصر الأيوبي، من أمثال ابن الساعاتي، وابن سناء الملك، والحسن بن علي الجويني، ومحمد بن أسعد الحلبي الجواني، والرشيد بن بدر النابلسي، وفتيان الشاغوري، والحكيم عبدالمنعم الجلياني، وابن المجاور، وغيرهم.

أنشد هؤلاء الشعراء قصائدهم القدسيات مشيدين بالفاتح صلاح الدين، والفتح القدسي العظيم. وقد ابتعدوا فيها عن المقدمات الغزلية باستثناء ابن الساعاتي في قصيدة له مطلعها[٢]:

غُصونُ الحِمى شَفَّ المُعنَّى قَدودُها فهل لأحاديث الغضى من يُعيدُها

(١) عقود الجمان ٦/٢٦١.

(٢) ديوان ابن الساعاتي ١/٧١.

والعماد الأصفهاني في عدد من قصائده، ومنها قصيدته القدسية التي مطلعها[1]:

أطيبُ بأنفاسٍ تطيبُ لكم نَفْسا وتعتاضُ من ذكرا كُمُ وحشتي أُنْسا

وابتعد العماد عن المقدمات الغزلية في قصائد أخرى[2].

وهذا الابتعاد عن المقدمات الغزلية، ليس جديداً في شعر الجهاد، كما تقدم. وخير من يُتمثل بهما في هذا المجال أبوتمام، وأبوالطيب المتنبي اللذان نهج شعراء العربية في فترة الحروب الصليبية نهجهما، وحذوا حذوهما، وعارضوهما وكأن التأثر بهما أصبح ظاهرة عامة. وهي مسألة سيفصل القول فيها. إن الابتعاد عن المقدمات الغزلية في هذا الشعر القدسي، يمثل اهتماما بالموضوع ذاته. وهل يجد شعراء المسلمين حدثاً أكثر أهمية من تحرير مقدساتهم خاصة. وشامهم ومصرهم عامة؟

يتفق هذا النهج الذي انتهجه الشعراء في قدسياتهم مع ما يذهب إليه النقاد والأدباء، في هذا العصر، إذ يذكر ابن الأثير أن القاعدة التي ينبغي أن تحتذى في المبادىء والافتتاحات، تتمثل في أنه «يجب على الشاعر إذا نظم قصيداً أن ينظر، فإن كانت مديحاً صِرْفاً لا يختص بحادثة من الحوادث، فهو مخير بين أن يفتتحها بغزل أو لا يفتتحها بغزل، بل يرتجل المديح ارتجالاً . . .، وأما إذا كان القصيد في حادثة من الحوادث كفتح مَعْقِل، أو هزيمة جيش، أو غير ذلك، فإنه لا ينبغي أن يبدأ فيها بغزل، وإن فعل ذلك دَلّ على ضعف قريحة الشاعر، وقصوره عن الغاية». ويضيف قوله: «إن الغزل رقة محضة، والألفاظ التي تُنظم في الحوادث المشار إليها من فحل الكلام، ومتين القول، وهي ضد الغزل، وأيضاً فإن الأسماع تكون متطلعة إلى ما يقال في تلك الحوادث،

(١) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٠، معجم الأدباء ١٩ / ٢٢د عقد الجمان للعيني ٢٥ / حوادث سنة ٥٨٣ هـ.
(٢) انظر: ديوان العماد الأصفهاني ٢٢٧، كتاب الروضتين ٢ / ٨٨، سنا البرق الشامي / ٣٠٣.

والابتداء بالخوض في ذكرها، لا الابتداء بالغزل، إذ المهم واجب التقديم»[1].

ومن الواضح أن ابن الأثير يربط بين افتتاح القصيدة أو مطلعها من ناحية، وموضوعها من ناحية أخرى. ويعلل ما يذهب إليه بطبيعة الغزل من ناحية، وطبيعة شعر الحرب من ناحية أخرى، كما يعلله بحالة المتلقي النفسية. ومن الواضح أيضاً أنه يرفض البدء بالغزل إذا كان موضوع القصيدة فتحاً أو هزيمة، وإلا كان الشاعر ضعيف القريحة، مقصراً عن الغاية[2]. ويرى ابن الأثير أن يجعل المتكلم «مطلع الكلام من الشعر والرسائل دالاً على المعنى المقصود من ذلك الكلام، إن كان فتحاً ففتحاً، وإن كان هناء فهناء، أو كان عزاء فعزاء، وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني، وفائدته أن يُعرف الكلام، ما المراد به»[3].

ويذهب حازم القرطاجني أيضاً إلى أن يجعل الشاعر «مبدأ كلامه دالاً على مقصده، ويفتتح القول بما هو عمدة في غرضه». وهكذا المبادىء «دالة على غرض الكلام» كما يقول، وهي «الطليعة الدالة على ما بعدها، المتنزلة من القصيدة منزل الوجه والغرة»[4].

ويذهب التبريزي إلى مثل ذلك، فعلى الشاعر أن يبتدىء «بما يدل على غرضه»[5]. ويشترط صفي الدين الحلي أن يكون المطلع دالاً على ما بنيت القصيدة عليه من غرض الشاعر[6].

ويذهب إلى مثل ذلك أبوطاهر البغدادي، ويرى أنه «ينبغي للشاعر إذا ابتدأ قصيدة مدحاً، أو ذماً، أو فخراً، أو وصفاً. أو غير ذلك، من أفانين الشعر،

---

(١) المثل السائر ٣/٩٧.

(٢) انظر: قضايا الشعر في النقد العربي/ ١١٦، ١١٧، ١٢١، ١٢٢، اتجاهات النقد في القرنين السادس والسابع الهجريين/ ١٦٦، ١٧٣.

(٣) المثل السائر ٣/٩٦.

(٤) منهاج البلغاء/ ٢٠٦، ٣٠٥، ٣٠٩.

(٥) الكافي في العروض والقوافي/ ١٨٩.

(٦) شرح الكافية البديعية/ ٥٧.

ابتدأها بما يدل على غرضه فيها»[1].

وعند النظر في القصيدتين اللتين استهلهما العماد الأصفهاني بمقدمتين غزليتين، نرى تلاؤما بين مقدمة القصيدة وموضوعها. ويبدو هذا التلاؤم في حسن الربط بين المقدمة الغزلية وموضوع القصيدة، أو حسن التخلص كما يسميه النقاد، فإنه يختتم المقدمة الغزلية بقوله[2]:

فلا تحبِسوا عني الجميل فإنني جعلتُ على حبي لكم مهجتي حبسا

وقد كان العماد يكن حباً عظيماً لصلاح الدين. ومن الممكن أن نرى قوله، في عجز البيت، ينطبق على علاقة العماد بصلاح الدين، حباً له، وإشادة به. ولهذا نجده يبدأ مدح الفاتح صلاح الدين، بعد البيت السابق مباشرة، فيقول[3]:

رأيت صلاحَ الدين أفضل من غَدا وأشرفَ من أضحى، وأكرم من أمسى

★ ★ ★

ويتحدث العديد من النقاد عن التخلص، ومنهم ابن وكيع التنيسي الذي يسميه «حسن الخروج المليح إلى الهجاء والمديح»[4]، وأسامة بن منقذ، ويسميه «التخليص والخروج»[5]، وابن الأثير الحلبي[6]، وابن أبي الإصبع[7]، ويتحدث عنه آخرون.

وينبغي أن تكون المقدمة الغزلية مرتبطة بموضوع القصيدة. يذهب ابن رشيق إلى القول بأن «النسيب الذي تفتتح به القصائد، يجب أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح، أو ذم، متصلاً به غير منفصل عنه، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان، في اتصال أجزائه بعضها ببعض، فمتى انفصل واحد منها عن الآخر، وباينه في صحة التركيب، غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه، وتعفي

---

(١) انظر: قانون البلاغة/ ١١٦.

(٢، ٣) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣١، كتاب الروضتين ٢/ ١٠١، شفاء القلوب/ ١٥٠، معجم الأدباء ١٩/ ٤.

(٤) المنصف/ ٨٢.

(٥) البديع في نقد الشعر/ ٢٨٨.

(٦) جوهر الكنز/ ١٥٧.

(٧) تحرير التحبير/ ٤٢٩، ٤٣٣.

معالم جماله»[1]. ومن هذا يتبين أن على الشاعر أن يصل بين أجزاء القصيدة، ومن ذلك وصل المقدمة الغزلية بالمدح وصلاً جيداً، وذلك كما نرى في المقدمات التي استهل بها عدد من الشعراء الذين أنشأوا القدسيات قصائدهم القدسية تلك. وتجدر الإشارة إلى قلة هذه المقدمات الغزلية في الأشعار القدسيات، كما تقدم.

وقد تحدث غير واحد من القدماء عن حسن التخلص بما يوحي أنهم أدركوا ضرورة تحقق ضرب من الوحدة في القصيدة.

يذكر ابن الأثير أن التخلص هو «أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني، فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره، وجعل الأول سبباً إليه، فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض، من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاماً آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أُفرغ إفراغاً، وذلك مما يدل على حذق الشاعر، وقوة تصرفه»[1].

وهو بهذا ينظر إلى حسن التخلص على أنه عامل من عوامل الوحدة في القصيدة، وترابط أجزائها، بحيث تبدو معانيها يشد بعضها برقاب بعض.

وإلى مثل هذا يذهب حازم القرطاجني، فإنه يرى أن التخلص ينبغي أن يكون «لطيفاً، والخروج إلى المدح بديعاً»، ويكون الكلام «غير منفصل بعضه من بعض. . .، وبذلك لا يختل تناسق الكلام، ولا يظهر التباين في أجزاء النظام». ويتحرز فيه من «انقطاع الكلام» واطراده[2].

ويرى البغدادي ان براعة التخلص تتمثل في أن يكون التشبيب ممتزجاً بما بعده من مدح أو هجاء وغيرهما، وغير منفصل عنه، فإن القصيدة مثلها كمثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض. . .»، وهو في هذا يذهب مذهب ابن طباطبا والحاتمي[3].

---

(١) المثل السائر ٣/١٢١. (٢) منهاج البلغاء/ ٣١٨، ٣١٩، ٣٢١.

(٣) قانون البلاغة/ ١٢٠، وانظر: عيار الشعر/٦، ٧، ١٤٦، العمدة ١/١١١.

ويذهب صفي الدين الحلي إلى أن معناه أن «يستطرد الشاعر من الغزل، أو الفخر، أو الوصف، أو غير ذلك، إلى مدح ممدوحه بأحسن نوع يمكنه من أنواع البديع، يختلس ذلك اختلاساً رشيقاً». وبراعة التخلص عنده من «محاسن الأدب، وأوضح الأدلة على تصرف الشاعر وحذقه»[1].

ويرى النواجي، وابن حجة الحموي أنه ينبغي أن يكون التخلص سهلاً «يختلس اختلاساً رشيقاً، دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول، إلا وقد وقع في الثاني، لشدة الممازجة والملاءمة بينهما، حتى كأنما أفرغا في قالب واحد»[2].

ويرى ابن معصوم أن مشايخ البديع نبهوا على وجوب التأنق في حسن التخلص، وذلك «لأن السامع مترقب للانتقال من الافتتاح إلى المقصود كيف يكون، فإذا كان حسناً متلائم الطرفين حرك من نشاط السامع، وأعان على إصغاء ما بعده، وإلا فبالعكس»[3]. ويذهب إلى أن المتأخرين قد «لهجوا به كثيراً لما فيه من البراعة والدلالة على قوة عارضة الشاعر وملكته»[4].

ويذهب العلوي إلى أنه «مذهب تفرد به المحدثون ولهم فيه أشعار حسنة كثيرة»[5].

★ ★ ★

وأما عن مطلع القصيدة، فقد عني الشعراء بمطالع قصائدهم منذ القديم، وعني بها النقاد، فنظروا فيها وقوموها، فاستحسنوا وأشادوا أو استقبحوا وغضوا من شأنها. وكان الشعراء والنقاد يعدون المطالع من أهم مواطن الإجادة في القصيدة، فالمطلع ذو صلة وثيقة بموضوع القصيدة.

ويرى النقاد أن تكون الابتداءات رائعة، ويعدونها أصعب ما في القصيدة.

---

(١) شرح الكافية البديعية/ ١٣٠.

(٢) مقدمة في صناعة النظم والنثر/ ٥٩، خزانة الأدب/ ١٤٩.

(٣، ٤) أنوار الربيع ٣/ ٢٤٠، وانظر: النقد الأدبي الحديث/ ١٧٣.

(٥) نضرة الاغريض/ ١٨٩، ١٩٠، وانظر: شرح الكافية البديعية/ ١٣٠.

ويرون أن تكون قوية، موحية، في شعر الجهاد، متناسبة مع موضوع القصيدة[1].

يرى حازم القرطاجني أن تكون العبارة في المطلع «حسنة جزلة، وأن يكون المعنى شريفاً تاماً، وأن تكون الدلالة على المعنى واضحة»[2].

ويرى أنه إذا كان المتكلم «مقصده الفخر، كان الوجه أن يعتمد من الألفاظ، والنظم، والمعاني، والأسلوب، ما يكون فيه بهاء وتفخيم. وإذا كان المقصد النسيب، كان الوجه أن يعتمد منها ما يكون فيه رقة وعذوبة من جميع ذلك، وكذلك سائر المقاصد»[3].

ويتحدث ابن الأثير الحلبي عن حسن الابتداءات، ويرى أنها أول ما يطرق السمع، ولذا «ينبغي أن تكون مناسبة للمعنى المطلوب، غير أجنبية، ولا مكروهة للسامع»[4].

ويتحدث غير واحد من النقاد الآخرين عن براعة المطالع، وبراعة الاستهلال، وحسن الابتداء، من أمثال ابن حجة الحموي[5]، وعبدالرحيم العباسي[6]، وابن معصوم[7]، وغيرهم. مما يدل على عنايتهم البالغة بهذا الأمر.

وقد جاءت معظم مطالع القصائد القدسيات التي قيلت في التغني بالنصر، في سنة ٥٨٣ هـ، متطابقة مع ما يذهب إليه النقاد فيما تقدم، فقد جاءت قوية، موحية، معبرة عن الحدث والقصد، مستمدة من الحدث ذاته، ومن الواقع الذي يحيط به، متلائمة مع موضوع الحدث، واضحة الدلالة على المعاني

---

(١) انظر: الموضحة/ ٢٥، تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ ٢٦٥، البديع في نقد الشعر/ ٩٥، الاستدراك/ ٥٤.

(٢) انظر: منهاج البلغاء/ ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٩٦، ٣٠٥، ٣٠٩.

(٣) نفسه/ ٣١٠.

(٤) جوهر الكنز/ ٢١٨.

(٥) خزانة الأدب/ ٣، ٤.

(٦) معاهد التنصيص ٤/٢٢٥، ٢٣٤.

(٧) أنوار الربيع ١/٣٤، ٣٥.

المقصودة، ويبدو هذا كله جلياً في مطلع قدسية ابن الساعاتي[1]:

أعياً وقد عاينتمُ الآيةَ العُظمى لأيةِ حالٍ تذخرُ النثرَ والنظما

ومطلع قدسية أخرى له[2]:

زحفَ الصباحُ وهذه راياتُه فَهَوَتْ نجوم الليل وهي حمباتُه

ومطلع قدسية للرشيد بن بدر النابلسي[3]:

هذا الذي كانت الآمالُ تنتظرُ فليوف لله أقوام بما نَذَروا

ومطلع قدسية فتيان الشاغوري[4]:

تُبنى الممالكُ بالوشيح الأسمر والبيضُ تَلْمَعُ في العجاجِ الأكدَرِ

ومطلع قدسية الجواني[5]:

أتُرى مناماً ما بعيني أُبْصرُ القدسُ يُفتح والفرنجةُ تُكْسَرُ

ومطلع قدسية الجويني[6]:

جُنْدُ السَّماء لهذا المَلْكِ أعوانُ مَنْ شَكَّ فيهمْ فهذا الفتح بُرْهانُ

ونجد عدداً من مطالع القصائد القدسيات معبرة عن حكمة مستمدة من الحدث، معبرة عن الواقع، ومن ذلك مطلع قصيدة عبدالمنعم الجلياني الفتحية الناصرية[7]:

في باطن الغيب ما لا تُدرك الفِكَرُ فَذُو البصيرة في الأحداث يعتبرُ

ومثله مطلع قصيدته القدسية الكبرى[8]:

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥، مفرج الكروب ٢/٢٣٤.

(٢) ديوان ابن الساعاتي ١/٦٤.

(٣) عقد الجمان ٢٥/ حوادث ٥٨٣ هـ، شفاء القلوب/ ١٦٦، كتاب الروضتين ٢/١١٨.

(٤) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٠.

(٥) كتاب الروضتين ٢/١٠٥، مفرج الكروب ٢/٢٣٣، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٩٦، تاريخ الخلفاء/ ٤١٨، دول الإسلام ٢/٩٥، الإعلام والتبيين/ ٨٤.

(٦) كتاب الروضتين ٢/١٠٤. (٧، ٨) نفسه ٢/١١٧.

تَصاريفُ دهرٍ أغْرَبَتْ لمن اهتدى ... ونَشْطَةُ أمرٍ أغربت مَنْ تَمرّدا

وجاءت مطالع قصيدة الرثاء معبرة أيضاً، موحية، دالة على موضوع الحدث، ويبدو هذا جلياً في المراثي القدسيات، ومنها المرثية المنسوبة إلى الأبيوردي، وقيل القاضي الهروي، ومطلعها[1]:

مَزجنا دماءً بالدّموع السّواجم ... فلم يبقَ منا عُرضةٌ للمراحم

ومنها مرثية ابن المجاور التي رثى فيها القدس عندما تنازل عنها الملك الكامل الأيوبي، ومطلعها[2]:

أعيني لا تَرْقَي من العَبَرات ... صِلي في البكا الآصال بالبكرات

ومطلع المرثية القدسية لعبدالرزاق الرسعني، قالها وقد سمع الخبر بتسليم البيت المقدس إلى الفرنج، يقول[3]:

تَعالَوْا نقيمُ الحُزْنَ في مَجمع الأنْس ... ونصبغُ أثوابَ المصيبة بالنِّقْسِ

ومطلع قصيدة محمد بن المبارك القرقساني، الخطيب في البيت المقدس، قالها حين خربه الملك المعظم عيسى بن الملك العادل، في سنة ٦١٦ هـ، يقول[4]:

مُصابُ القُدس قد سَلَبَ الرُّقادا ... وقد لبس الخطيب به حدادا



وعني الأدباء والنقاد بالخاتمة الشعرية، فهي «قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى في الأسماع، وسبيله أن يكون محكماً لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده

---

(١) ديوان الأبيوردي ٢/ ١٥٠، الكامل ١٠/ ٢٨٤، نهاية الأرب ٥/ ٢٢٦، ملخص تاريخ الإسلام ٦/ ١٧٥، البداية والنهاية ١٢/ ١٥٦، النجوم الزاهرة ٥/ ١٥٠، المختصر ٢/ ٢١١، تتمة المختصر ٢/ ٢٠، عقد الجمان للعيني ٢٢/ ٩.

(٢) كتاب الروضتين ٢/ ٢٠٥.

(٣) عقود الجمان لابن الشعار الموصلي ٤/ ١٣٦.

(٤) نفسه ٦/ ٢١٦.

أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحاً له، وجب أن يكون الآخر قُفلاً عليه»[1].

ويذهب حازم إلى أن يُتحرى في أواخر القصائد، وهي ما يسميها المقاطع، و«أن يكون ما وقع فيها من الكلام كأحسن ما اندرج في حشو القصيدة، وأن يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كريه، أو معنى منفر للنفس». ويعلل العناية بالخاتمة أو المقطع، بأنه «منقطع الكلام وخاتمته، فالإساءة فيه مُعفية على كثير من تأثير الإحسان المتقدم عليه في النفس». ويشير حازم إلى أن أواخر الفصول قد تذيل «بالأبيات الحكمية. . .»[2]. ويرى أن تكون الخاتمة في كل غرض شعري مناسبة له، سارة في المديح والتهاني، وحزينة في الرثاء والتعازي»[3].

ويرى ابن أبي الإصبع، وابن حجة الحموي، وصفي الدين الحلبي أنه ينبغي على الشاعر والناثر، أن يختم كل منهما كلامه بأحسن خاتمة، لأنها آخر ما يبقى في الأسماع. ولذا ينبغي أن «يجتهد في رشاقتها، ونضجها، وحلاوتها، وجزالتها»[4]، كما ينبغي أن يكون آخر الكلام الذي «يقف عليه المترسل، أو الخطيب، أو الشاعر مستعذباً حسناً، لتبقى لذته في الأسماع[5].

وينبغي أن تكون الخاتمة أجود بيت في القصيدة[6]، وكره الحذاق من الشعراء أن تختم القصيدة بالدعاء إلا للملوك الذين يشتهونه.

وإذا نظرنا في القصائد القدسيات لنتبين مدى تحقق ما ذكره النقاد، وما يذهبون إليه، في حديثهم عن الخاتمة، فإننا نجد أن خواتيم القصائد

---

(١) العمدة ١/٢١١، أنوار الربيع ٦/٣٢٤. وانظر: بناء القصيدة/ ٢٥٣، الحياة الأدبية في الشام/ ٣٣٦.

(٢) منهاج البلغاء/ ٢٨٥، ٢٨٩، ٣٠٠، ٣٠١. وانظر: الاشارات والتنبيهات/ ٣٢٣.

(٣) منهاج البلغاء/ ٣٠٦.

(٤) انظر: تحرير التحبير/ ٦١٦، خزانة الأدب/ ٤٦٠، شرح الكافية البديعية/ ٣٣٣.

(٥) نهاية الأرب ٧/١٣٥، خزانة الأدب في صناعة النظم والنثر/ ٤٨، ٤٩.

(٦) انظر: الصناعتين/ ٤٤٣، شرح الكافية البديعية/ ٣٣٣.

القدسيات، جاءت معبرة عن الإشادة بالفاتح صلاح الدين، كما يبدو في خاتمة قصيدة ابن الساعاتي، في فتح طبرية سنة ٥٨٣ هـ يقول[١].

وإنْ تكُ آخراً وخلاكَ ذمٌ ... فإن محمداً في الآخرينا

وخاتمة قصيدته التي قالها يمدح السلطان صلاح الدين: «غصون الحمى شَفَّ المعنّى قدودُها...»، يقول رابطاً بين الفتح القدسي العمري، والفتح القدسي الصلاحي[٢]:

فَضيلةُ فَتح كان ثاني خليفة ... من القوم مُبديها وأنت معيدها

وخاتمة قصيدة الحكيم عبدالمنعم الجلياني التي قالها عند فتح بيت المقدس: «لقد أوسَعَ الله الفتوح بعامنا»، يقول[٣]:

فَكُلُّ ابتداءٍ في معالية مُنتَهى ... وكلُّ انتهاءٍ في مَعاليه مبتدا

وجاءت بعض القصائد القدسية مختتمة بالدعاء للسلطان صلاح الدين، ومنَ ذلك قصيدة فخر الكُتّاب علي بن الحسن الجويني القدسية: «جندُ السماء لهذا المَلْك أعوانُ...»، يقول[٤]:

إذا طَوى الله ديوان العباد فما ... يُطْوى لأجر صلاح الدين ديوانُ

ومثلها قصيدة فتيان الشاغوري القدسية: «تُبنى الممالك بالوشيج الأسمر...»، يقول[٥]:

لا زالَ ظلُّكُم الظّليلُ ولا خَلَتْ ... مِنْ ذكركمْ في الدهر ذِرْوَةُ مِنْبَرِ

وقصيدة أبي شجاع يعقوب بن علي الموصلي القدسية: «دموعٌ جَرَتْ يومَ الفراق سجامُ...»، يقول[٦]:

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٨، كتاب الروضتين ٢/٨٥، مفرج الكروب ٢/٢٠٠.

(٢) ديوان الساعاتي ٢/٤١٠، كتاب الروضتين ٢/١٠٧.

(٣) عقود الجمان لابن الشعار الموصلي ٤/٦٦.

(٤) كتاب الروضتين ٢/١٠٥.

(٥) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٨.

(٦) عقود الجمان لابن الشعار الموصلي ٣/٨١.

بقيتَ على الإسلام ما ذرّ شارقٌ وغرّدَ قُمريٌّ وسَحّ غمامُ

وجاءت خواتيم أخرى معبرة عن التغني بالفتح والنصر، والإشادة بالجند الذين حققوا أماني المسلمين، ومنها قدسية العماد الأصفهاني التي هنأ بها السلطان بالفتح القدسي، وهو مخيم في بيت المقدس: «أطيبُ بأنفاس تَطيبُ لكم نَفْسا. . .»، يقول[1].

وقد طابَ رَيّانا على طَبَرِيَّةٍ فيا طِيبها ريّاً ويا حُسْنها مَرْسى

ومنها قصيدة الحكيم عبدالمنعم الجلياني القدسية: «أبا المُظَفَّر أنتَ المُجتبى لهدى. . .»، يقول رابطاً بين تلك الأيام، والأيام النبوية[2]:

حتى يكونَ لهذا الدين ملحمةٌ تَحكي النبوةَ في أيام فَتْرَتِهِ

وقصيدة الشريف الجواني متحدثاً عن خيول الجند، ومصوراً مصير العدو المحتل[3]:

وصَوافناً تختارُ أن تطأ الثرى فيصدها عنه طُلىً وسنوّرُ
تمشي على جُثث العِدا عَرَجاً ولا عَرَج بها لكنها تَتَعثّرُ

وأما خواتيم قصائد الرثاء القدسيات، فقد جاءت معبرة، موحية، حزينة، داعية إلى الغضب، والثأر، والتحرير. ويبدو هذا جلياً في خاتمة المرثية القدسية المنسوبة إلى الأبيوردي، وقيل القاضي الهروي: «مَزَجْنا دماء بالدموع السّواجم. . .»، يقول[4]:

تُراقبُ فينا غارةً عربيةً تُطيلُ عليها الرومُ عضّ الأباهم
فإنْ أنتمُ لم تغضبوا بعد هذه رَمَيْنا إلى أعدائنا بالجرائم

كما يبدو جلياً في خاتمة المرثية القدسية لمحمد بن المبارك القَرْقساني،

---

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٦، كتاب الروضتين ٢/ ٨٤، مرآة الزمان ١٤/ ١٥٢، النجوم الزاهرة ٦/ ٣٤.

(٢) كتاب الروضتين ٢/ ١٠٣. (٣) نفسه ٢/ ١٠٥.

(٤) ديوان الأبيوردي ٢/ ١٥٧، الكامل ١٠/ ٢٨٦، نهاية الأرب ٥/ ٢٢٧، عقد الجمان للعيني ٢٢/ ١٠.

الخطيب في بيت المقدس، عندما خَرَّ به الملك المعظم عيسى بن العادل، في سنة ٦١٦ هـ: «مُصابُ القُدس قد سَلَب الرُّقادا...»، يقول[١]:

أبعدَ خرابِ القُدس خَطْبٌ أشدُّ ولو تَوَسَّدْنا القَتادا
على الدنيا وما فيها عَفَاءٌ ولو نلنا بها السبعَ الشِّدادا

ويختتم شهاب الدين يعقوب بن محمد المجاور مرثيته القدسية التي أنشأها لما تنازل الملك الكامل الأيوبي عن بيت المقدس: «أعيني لا تَرْقَي من العَبَرات...»، ببيت الشاعر دعبل الخزاعي، وهو بيت استهل به دعبل مرثيته لآل البيت، وقد جاءت الخاتمة معبرة عما أحس المسلمون به من مشاعر الحزن والأسى، يقول[٢]:

فَمَن لي بنوَّاحٍ يَنُحن على الذي شَجاني بأصوات لهن شجاةِ
يُرَدِدْنَ بيتاً للخُزاعيّ قاله يُؤبن فيه خِيرةَ الخيرات
مدارسُ آياتٍ خَلَت مِن تلاوةٍ ومنزلُ وحيٍ مُقفِرِ العَرَصاتِ

★★★

عني الأدباء والنقاد بالحديث عن الوحدة في العمل الأدبي، ومن مظاهر عنايتهم تلك، عنايتهم بالابتداءات، والمطالع، والتخلص، وارتباط أجزاء القول، والخاتمة[٣].

فهل يمكن أن نقول بأن القصيدة ذات وحدة على الرغم من تعدد الموضوعات فيها، أو التكثر فيها؟[٤].

إن التناسب ضروري بين موضوعات القصيدة، إذ ينبغي لها أن تكون

(١) عقد الجمان لابن الشعار الموصلي ٦/٢٦٢.

(٢) كتاب الروضتين ٢/٢٠٦، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٢٩٥، شفاء القلوب/ ٣١١، السلوك ١/٢٣٣، تتمة المختصر ٢/٢٢٣، شعر دعبل الخزاعي/ ٢٩٧.

(٣) الوساطة/ ٧٤، ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٤) انظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ ٣٢.

مترابطة في سياقها، معتمدة على «وحدة معنوية تقيم التلاحم والقران بين أبياتها»[1]، ويكون كل بيت مقترناً بالبيت الذي يأتي بعده، كما يذهب ابن قتيبة، حيث يقول: «وتتبين التكلف في الشعر. . بأن ترى البيت فيه مقروناً بغير جاره، ومضموناً إلى غير لفقه»، ولذلك يرى شاعراً أشعر من آخر، لأن الأول يقول البيت وأخاه، بينما يقول الثاني البيت وابن عمه[2].

ويقول ابن طباطبا: «على الشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه، فيلائم بينها لتنتظم له معانيها، ويتصل كلامه فنياً. ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه، أو بين تمامه، فصلاً من حشو ليس من جنس ماهر فيه». وأحسن الشعر عنده «ما ينتظم القول فيه انتظاماً ينسق به أوله مع آخره»[3].

وينبغي أن تكون القصيدة متدرجة تدرجاً منطقياً، مترابطة الموضوعات، ويصور قائلها بالنسّاج، أو النقّاش، أو ناظم الجوهر. وتصور القصيدة ذاتها بأنها «كالسبيكة المفرغة، والوشي المنمنم، والعقد المنظم، واللباس الرائق، فتسابق معانيه ألفاظه، فيلتذ الفهم بحسن معانيه، كالتذاذ السمع بمونق لفظه»[4]. ويصورها الحاتمي في وحدتها بالإنسان في اتصال أعضائه بعضها ببعض كما تقدم.

ومما له صلة بالحديث عن وحدة القصيدة، الحديث عن التضمين، وأقصد تضمين الإسناد، ارتباط الأبيات بعضها ببعض وهو ما يقع في بيتين من الشعر، ويكون «الأول منهما مُسْنَداً إلى الثاني، فلا يقوم الأول بنفسه، ولا يتم معناه إلا بالثاني»[5]

(1) تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ ١١٥.
(2) الشعر والشعراء ١/ ٩٠.
(3) انظر: عيار الشعر/ ١٢٤، تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ ١٣٦، ١٣٧، بناء القصيدة/ ١٢٧، دراسات بلاغية ونقدية/ ٥٦٣.
(4) عيار الشعر/ ٤، ٥، ٦، تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ ١٢٦، ١٢٧ ـ ١٢٨، دراسات بلاغية ونقدية/ ٥٦٣، ٥٦٤.
(5) المثل السائر ٣/ ٢٠١ ـ ٢٠٣، وانظر: جوهر الكنز/ ٦٢، دراسات بلاغية ونقدية/ ٥٤٤ ـ ٥٥٢، اتجاهات =

وهذا النوع من التضمين لا يرضى عدد من النقاد عن استخدامه، ولكن نقاداً آخرين يرون فيه لوناً من ألوان الربط بين أبيات القصيدة، وهو كذلك. يرى ابن الأثير أن هذا النوع من التضمين غير معيب، وأن فيه مظهراً من مظاهر الربط بين أبيات القصيدة، ويتحدث عن المؤاخاة بين المعاني، والمؤاخاة بين المباني، ففي أولاها «يذكر المعنى مع أخيه لا مع الأجنبي»، وهذا ما نجده في القصيدة، والرسالة والخطبة(1).

ومن ذلك ما سماه عدد من النقاد «حسن النسق»، وهو أن تأتي أبيات الشعر أو ألفاظ النثر متتاليات، متلاحمات تلاحماً سليماً. ويسميه بعضهم «حسن الارتباط» أو «حسن الترتيب»(2).

تبدو القصيدة القدسية التي قيلت في الفتح القدسي، رغم تعدد موضوعاتها في الظاهر، أو على الرغم من التكثر فيها، تتحدث عن موضوعات مترابطة، فالحديث فيها جاء حديثاً عن البطل أو الفاتح، وعن المعركة أو الفتح، وعن العدو الصليبي المحتل، كل ذلك إلى جانب الدعوة إلى الجهاد، والدعوة إلى الوحدة.

إن هذه القصائد القدسيات جميعاً تحدثت عن هذه المحاور، أو هذه العناصر، وهي محاور أو عناصر مشتركة بينها جميعاً. لقد تحدثت هذه القصائد عن الفتح القدسي، متغنية بالنصر الذي أحرزه المسلمون، وتحدثت عن المعركة التي آلت إلى النصر، كما تحدثت عن الفاتح مشيدة به، راسمة له صورة مثالية أو صورة تقرب منها، وانتهت إلى الحديث عن العدو المحتل مصورة الحالة التي كان العدو عليها قبل المعركة، والمصير الذي آل إليه بعدها، وقد تقدم تفصيل القول في هذه المحاور الثلاثة، في الحديث عن:

= النقد في القرنين السادس والسابع/ ٦، ٧، ١٦١ ـ ١٦٤.

(1) المثل السائر ٣/١٥٣، ١٥٤، ١٥٨.

(2) انظر: الفصاحة/ ١١٥، تحرير التحبير/ ٥٣٦، جوهر الكنز/ ١٥٤، ٢٩٧، شرح الكافية البديعية/ ٢٤٩، بديع القرآن/ ١٦٤، ٢٤٦.

الفتح القدسي، والفاتح، والمحتل.

ومن الممكن القول بأن هذه الموضوعات التي قد تبدو متعددة، أو قد يبدو التكثر فيها، تشكل موضوعاً واحداً، وهو موضوع الفتح القدسي، ولهذا نجد تناسباً بين محاور القصيدة القدسية الآنفة الذكر، كما نجد بينها ترابطاً، فالحديث عن الفتح هو حديث عن الفاتح في الوقت نفسه، وبالعكس. وهكذا يمكن أن نقول عن كافة المحاور الأخرى.

إن هذه الوحدة في القصائد القدسيات، تتمثل في «وحدة الموضوع، ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع، وما يستلزم ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيباً به تتقدم القصيدة شيئاً فشيئاً حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور»[1]. وهذا هو ما رأيناه في الحديث عن عناصر بناء القصيدة: مقدمة أو إهمالاً لها، ومطلعاً، وتخلصا أو اقتضاباً، وخاتمة. كل ذلك إلى جانب ترابط أجزاء القول في القصيدة القدسية الواحدة، كما تقدم.

لقد جاءت موضوعات هذه القصائد القدسية متناسبة، مترابطة في سياقها. متناسقة أبيات القصيدة منها، منتظمة معانيها، متصلة أفكارها. وإننا لا نجد تناقضاً في معانيها. وسنتبين هذا بصورة أكثر جلاء عند الحديث عن الأسلوب، والصنعة البديعية، والصورة الأدبية، فيما بعد.

وتبدو قصيدة الرثاء التي قيلت حول بيت المقدس، عند احتلالها في سنة ٤٩٢ هـ، أو عند تخريبها في سنة ٦١٦ هـ، أو عند التنازل عنها في سنة ٦٢٦ هـ، ذات موضوع واحد، لا تتعدد فيه الموضوعات، ولا تتكثر. ويتضح هذا من النظرة الأولى في تلك القصائد القدسيات الرثائية، ومنها القصيدة المنسوبة إلى الأبيوردي التي قالها في سنة ٤٩٢ هـ[2]، وقصيدة محمد بن

---

(١) انظر: النقد الأدبي الحديث/ ٣٩٥، ٤٠٤، ٤٠٥، دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده/ ٣٩.

(٢) انظر: ديوان الأبيوردي ٢/١٥٦ - ١٥٧، الكامل ١٠/٢٨٤ - ٢٨٦، نهاية الأرب ٥/٢٢٥ - ٢٢٧، فضائل القدس لابن الجوزي/ ١٢٦ - ١٢٧، المنتظم ٩/١٠٨، البداية والنهاية ١٢/١٥٦ - ١٥٧، ملخص تاريخ =

المبارك القرقساني، خطيب بيت المقدس، التي قالها في سنة ٦١٦ هـ[1]. عندما خُربت مدينة بيت المقدس في تلك السنة، وقصيدة ابن المجاور، شهاب الدين يعقوب بن محمد التي قالها في التنازل عن بيت المقدس في سنة ٦٢٦ هـ[2]، وقصيدة عبدالرزاق بن رزق الله الرَّسْعني، التي قالها في المناسبة ذاتها[3].



اتسمت معظم القصائد القدسيات بالإطالة، فقد أخذ الشعراء يطولون قصائدهم، ولعل ذلك يعود إلى أهمية الحدث نفسه، من ناحية أو قدرة الشاعر من ناحية أخرى.

لقد كان العديد من النقاد والأدباء يرون أن للقصائد الطويلة أثراً في نفوس سامعيها، فابن رشيق يرى أن «المطولات أكثر اثارة للهيبة في النفوس»، والمطيل من الشعراء أهيب في النفوس من الموجز، وإن أجاد»[4].

ويرى حازم القرطاجي أن تطويل الفصول سائغ ومحتمل في «القصائد المطولة، والمقاصد التي يذهب بها مذهب التهويل والتفخيم، لموافقته مقصد الكلام. وكون القصيدة فيها رحبٌ لذلك وسعة». وأما تقصير الفصول عنده، فهو سائغ في المقاصد التي يذهب بها مذهب الرشاقة»، ويكون التطويل فيها مستثقلاً[5].

= الإسلام ٦/١٧٥، النجوم الزاهرة ٥/١٥٠ ـ ١٥١، المختصر ٢/٢١١، تتمة المختصر ٢/٢٠، عقد الجمان للعيني ٢٢/٩، ١٠، تاريخ الخلفاء/ ٣٩٤.

(١) انظر: عقود الجمان لابن الشعار الموصلي ٦/٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٢) انظر: كتاب الروضتين ٢/٢٠٥ ـ ٢٠٦، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٩٥، شفاء القلوب/ ٣١١، السلوك ١/٢٣٣.

(٣) عقود الجمان لابن الشعار الموصلي ٤/١٣٦ ـ ١٣٧.

(٤) العمدة ١/١٦٣، وانظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ ٤٩٤.

(٥) منهاج البلغاء/ ٢٨٨.

ومن الملاحظ أن القصائد القدسيات جاءت مطولات في غالبها، ويتفق هذا مع ما يذهب إليه النقاد، فإن موضوعات تلك المطولات تذهب مذهب التهويل والتفخيم، كما يشير حازم. وهي قصائد «طوال للمواقف المشهورات»[1]، ولا شك أن الفتح القدسي من أهم المواقف المشهورة في تاريخ المسلمين.

ومن هذه المطولات القدسيات القصيدة القدسية الكبرى لعبدالمنعم الجلياني، فقد بلغت مائة واثنين وخمسين بيتاً، والقصيدة القدسية لفتيان الشاغوري، فقد بلغت مائة بيت وبيت. وتراوحت القصائد القدسيات الأخرى بين قرابة ستين بيتاً، وقرابة خمسة عشر بيتاً. وتغلب عليها القصائد التي تزيد على ثلاثين بيتاً. وتقل فيها القصائد التي تقل عن عشرين بيتاً، وقد قلت المقطوعات في هذه الأشعار.

لقد كان الفتح جديراً بالمطولات الشعرية، وموضوعه يقتضي الإطالة، ففيه حديث عن الفتح وآثاره، والمعركة، والفاتح، والعدو وما آل إليه من مصير.

وظاهرة الإطالة ليست جديدة في هذا الشعر القدسي، فقد عهدنا شعر الحرب تغلب عليه المطولات، وتكفي نظرة في الشعر الحماسي لأبي تمام، أو لأبي الطيب المتنبي، للتأكد من هذا القول.

لقد كان من المتوقع أن تنشأ ملحمة بل ملاحم تتغنى بالفتح القدسي، ولكننا لا نجد شاعراً برز، واستطاع أن يخلد الحدث، وأن يخلد الفاتح صلاح الدين، كما استطاع أبوالطيب المتنبي، مثلاً، في تخليده سيف الدولة وانتصاراته.

---

(١) انظر: العمدة ١/١٦١ ـ ١٦٣.

الأسلوب

يعبر الشعراء عما يفكرون به، وما يحسون، بطريقة خاصة في التعبير، والتصوير. وينسقون أفكارهم، وينظمونها، ويختارون الألفاظ والعبارات الملائمة للتعبير عن تلك المعاني والأفكار، ويصورون عواطفهم وانفعالاتهم. وهذا عندهم نظير «الصياغة، والبناء، والوشي، والتعبير، وما أشبه ذلك»[1].

وتتباين أساليب فنون الشعر، فلكل فن شعري أسلوب خاص به، ملائم له. وربما تتباين أساليب الشعر في الفن الشعري الواحد، ففي الوصف مثلاً، نجد أسلوباً خاصاً بوصف الحرب والحماسة، وهو أسلوب يتباين عن أسلوب وصف الطبيعة، أو أسلوب وصف المظاهر الحضارية المختلفة. وكما تتباين أساليب الفنون الشعرية، تتباين لغتها كذلك، فإذا كان الفن الشعري حماسة أو فخراً، جاءت لغته جزلة، وإن كان رثاء أو غزلاً، جاءت لغته رقيقة.

إن الفنون الشعرية لا تجري مجرى واحداً في أساليبها، فالألفاظ تقسم على رتب المعاني، ولا يكون أسلوب الغزل مثل أسلوب الفخر، ولا أسلوب المديح مثل أسلوب الوعيد، فيلطف الشاعر إذا تغزل، ويفخم إذا افتخر، أو مدح، أو وصف الحرب والسلاح. إن على الشاعر في قصيدة المديح، مثلاً، علماً بأن جُلّ الأشعار القدسيات قد جاءت في هذا المضمار، «السمو بكل طبقة الممدوحين، إلى ما يجب لها من الأوصاف، وإعطاء كل حقه من ذلك. ويجب أن يتوسط في مقادير الأمداح التي يحتاج فيها إلى اطالة في وصف فتح، وما يجري مجرى ذلك، مما قد تحتمل الإطالة فيه»[2]. وفي القصيدة القدسية المدحية، كان الشعراء يوجهون التهاني بالنصر إلى من قادهم إليه، وفي تهانيهم هذه، ينبغي لهم أن يعتمدوا «المعاني السارة، والأوصاف المستطابة، وأن يستكثروا فيها من التيمن للمهنأ». وكذلك يكون الأمر في الفنون الشعرية

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز/ ٣٥، ٣٦، ٣٧، ١٧١، ١٧٢، ٣٠٥، ٣١٥، النقد الأدبي الحديث/ ١٤، الأسلوب/ ٤٦، ٥١، ٥٣.

(٢) الوساطة/ ٢٢، وانظر: قانون البلاغة/ ١٥٠، تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ ٣٣٠.

الأخرى، فلكل منها طريقته الملائمة له[1].

وفي هذه الدراسة، تمثل الأشعار القدسيات، شعراً حربياً حماسياً، إن في الرثاء، أو في المديح.

وتتضمن قصيدة المديح التي قيلت في التغني بالنصر إشادة بالقائد المجاهد، وتهنئته له وللمسلمين بالفتح القدسي، ووصفاً للمعركة، وقد تتضمن غزلاً يتمثل في ما قد تستهل به القصائد من مقدمات، وهو قليل، وكأننا نرى في قصيدة المديح غير فن شعري، مما قد يوحي بتباين الأسلوب الشعري في القصيدة الواحدة.

إن ما يذهب إليه الأدباء والنقاد، في موضوع تباين الأساليب في الفنون الشعرية المختلفة، أو في التناسب والتجانس بين أسلوب الفن الشعري وموضوعه، نجده متمثلاً في هذه الأشعار القدسيات الجهاديات، إذ نجد في القصائد القدسية المدحية سمواً بالممدوح السلطان صلاح الدين، ونجد أنه قد وُصف بأوصاف ومناقب هو حقيق بها. ولم يُمدح غالباً إلا بما يليق به، وهو سمو يتناسب مع الحديث عن الفتح القدسي، كما يتناسب مع الحديث عن الفاتح السلطان صلاح الدين.

ونجد أن هذه القصائد القدسية، يتسم أسلوبها بالإطالة، كما تقدم في الحديث عن النفس الشعري، وهذا يتلاءم مع كونها قصائد فتح، والفتح تحسن فيه الإطالة.

وتتفق أساليب هذه القصائد القدسيات، في المديح، والتهاني، والوصف والرثاء، مع ما تقدم الحديث عنه حول تباين الأساليب في الفنون الشعرية المختلفة. وربما تباينها في القصيدة الواحدة، ففي المديح، والتهاني، والوصف، وأقصد هنا وصف المعركة، نجد الأشعار القدسيات تتسم باستخدام الألفاظ الجزلة القوية، في الحديث عن الفتح، والفاتح، والعدو المحتل.

---

(١) منهاج البلغاء/ ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٤، وانظر: ٢٨٨، ٣٠٦، ٣٢٩، ٣٣٠.

ولكنها تتسم باستخدام الألفاظ الرقيقة في المقدمات، كما هي الحال في المقدمات التي يستهل بها العماد الأصفهاني عدداً من قدسياته.

وفي هذه القصائد القدسيات المدحية التي قيلت في التغني بالفتح القدسي، في سنة ٥٨٣ هـ، مديح للسلطان صلاح الدين الذي قاد المسلمين إلى تحرير بيت المقدس، وغيرها من بلاد الإسلام، من الاحتلال الصليبي، وقد أكثر الشعراء من القول في مدحه، وتهنئته بالنصر، كما تقدم في الحديث عن الفتح، وفي الحديث عن الفاتح، في فصلين سابقين.



وقد يحسن القول بان القدماء تنبهوا على أن اللغة الشعرية تتناسب مع موضوع القصيدة، وأن الألفاظ تقسم على رتب المعاني وأقدارها، وتأتي مشاكلة لها، متلائمة معها، فالألفاظ الجزلة تستخدم في وصف الحروب، والتهديد، وما أشبه ذلك، والألفاظ الجزلة الرقيقة تستخدم في الغزل، ووصف الأشواق، والاستعطاف، وما إلى ذلك[1]. ومن ذلك، أن تكون اللغة سامية في الموضوعات السامية الجادة، وهكذا[2].

اللفظ والمعنى ركنان مهمان من أركان الأدب، وتُصور العلاقة بينهما بالعلاقة بين الجسد والروح، فاللفظ جسد روحه المعنى[3].

وتكمن مهارة الشاعر في مشاكلته بين ألفاظه ومعانيه، بحيث لا يطغى فيها جانب على آخر. وعليه أن لا يؤثر اللفظ، أو يقدم الشعر بالمعنى، ولكن الألفاظ «أوعية للمعاني»، وهي «لا محالة تتبع المعاني في مواقعها». وهي أدلة عليها. ولاحقة بها. وعلى الشاعر أن يلبس المعنى «ما يشاكله من الألفاظ»[4].

(١) المثل السائر ١/٢٤٠. (٢) انظر: النقد الأدبي الحديث/ ١١٩.

(٣) انظر: عيار الشعر/ ١١، الصناعتين/ ١٦١، العمدة ١/١٠٣، ١٠٤، ١٠٦، رسائل الانتقاد/ ٢٣، البديع في نقد الشعر/ ٢٩٥، ٢٩٧، مطلع الفوائد/ ٦، ٧، مقدمة في صناعة النظم والنثر/ ٢٨، ٢٩.

(٤) انظر: دلائل الإعجاز/ ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٢٧١، ٣١٢، ٣٤١، التبيان/ ١٤٧، فن الشعر/ ١٩٤، ١٩٥، النقد الأدبي الحديث/ ٢٦٨ ـ ٢٧٥، البلاغة تطور وتاريخ/ ١٦٢، ١٦٣، ١٦٦، في النقد الأدبي/ ١١٣.

تتسم لغة قصيدة الفتح القدسي بأنها لغة قوية جزلة، شأنها شأن أسلوبها، وقد تقدمت الإشارة إلى أسلوب القصائد القدسية، وما يظهر فيها من التناسب والتجانس بين الأسلوب والموضوع. لقد كان «سبيل الشاعر، إذا مدح ملكاً، أن يسلك طريقة الايضاح، والإشادة بذكره الممدوح، وأن يجعل معانيه جزلة، وألفاظه نقية، غير مبتذلة سوقية»[1].

★ ★ ★

ويبدو التجانس بين الأسلوب وموضوع الفتح جلياً في هذه القصائد، كما تبدو المشاكلة بين الألفاظ والمعاني جلية فيها أيضاً. وعندما ننظر في هذه القصائد المقدسيات نجدها متأثرة بالحروب الصليبية، والروح الحماسية التي أحجبتها.

إن قصيدة ابن الساعاتي التي قالها في معركة طبرية في سنة ٥٨٣ هـ، وقصيدته القدسية التي قالها متغنياً بالفتح القدسي، تتسمان بالقوة والفخامة والجزالة في أسلوبهما الشعري. كما تتسمان بالمشاكلة بين الألفاظ والمعاني، ففي حديثه عن الفتح القدسي، نجده يتحدث عن الآية العظمى، والأسل الصم، والعسكر الدُّهم، وراكب العزم، والحسام العضب، وسيوف الهند، والخطيّ، والفتكات، وغير ذلك من الألفاظ والعبارات التي يستخدمها الشاعر، وهي تدل على قوة أسلوب هذا الشعر وجزالته، والتناسب بين المعاني والألفاظ التي اختارها ابن الساعاتي للتعبير عن تلك المعاني.

ويقال مثل هذا في قدسية ابن سناء الملك: «لست أدري بأي فتح تُهنا...»، وقدسية عبدالمنعم الجلياني الكبرى، وقدسيته الفتحية الناصرية، وغيرهما من قدسياته الأخرى، ففي أولاهما يختار من الألفاظ والتعبيرات. «القواضب والعسالة السمر»، «والاسبتار إلى الداوية». وهما فرقتان من فرسان الصليبيين، وجحافل الجيوش، و«فتوح القادسية»، و«ملاحم ذي القرنين»، وغيرها. وفي ثانيتهما يختار «جروا جيوشاً كالسيول»، و«جبابرة الافرنج»،

---

(١) العمدة ١/١٢٢، ٢/١١٠، ١٢٢، ١٣٦، ١٤٠.

والملك المصفد. و«المنسر الديوي»، و«جنود الرعب»، وغيرها من الألفاظ والعبارات، وهي ألفاظ وعبارات، جاءت في القدسيتين تعبر عن المعاني المستقاة من الحديث عن الفتح القدسي وما يتعلق به، والفاتح، والعدو المحتل. وقد جاءت متناسبة مع تلك المعاني التي عبرت عنها.

ولكن أسلوب الجلياني هذا في قدسياته هذه، يختلف عنه في مدبجاته القدسية، التي وردت في «ديوان التدبيج»، أو «منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في سيرة الملك الناصر»، وأخص بالذكر منها المدبجة القدسية المسماة «رهان الأذهان في مدى ذكر الملك الناصر على مر الزمان»[1]..وقد أنشأ مدبجته هذه بعد الفتح القدسي بسنوات، فقد أنشأها في غرة سنة ٥٨٩ هـ، بطلب من السلطان صلاح الدين[1]. يتسم أسلوبه في هذه المدبجة، بأنه أسلوب مصنوع فيه تكلف وتعقيد. وهو ما سأتحدث عنه في كتاب خاص حول ديواني (المبشرات والقدسيات). و «التدبيج».

ويقال في قدسية الجويني، وقدسية الجلياني، وقدسية الرشيد النابلسي، وقدسية فتيان الشاغوري، ما قيل في أسلوب قدسية ابن الساعاتي، وفي قدسيتي الجلياني: الكبرى، والفتحية الناصرية، حول ما يتسم به أسلوب هذه القدسيات، من قوة وجزالة، ومن مشاكلة بين الألفاظ والمعاني. وأخص الشاغوري بالحديث، فإن أسلوبه الشعري، في قدسيته الآنفة الذكر يفيض قوة وجزالة. وليس ذلك غريباً، فقد ذكر أنه كان يقرىء اللغة والنحو، وكان يوصف بالنحوي الشاعر. يذكر ياقوت الحموي أنه كانت له «حلقة في جامع دمشق يقرىء النحو»[2]، وهو الشاعر المعلم[3]. ويشيد به الأدباء والنقاد في أسلوبه الشعري[4]. وتبدو تلك القوة والجزالة في لغة شعره وأسلوبه، من النظر في

---

(١) انظر: ديوان التدبيج: م/ ٢ - ١٢، س/ ٢ - ١١، ب/ ٢ - ١٠.

(٢) معجم البلدان ٣/ ٣١٠.

(٣) وفيات الأعيان ٤/ ٢٤.

(٤) انظر: خريدة القصر قسم شعراء الشام ١/ ٢٤٨، ٢٥٥، معجم البلدان ٣/ ٣١٠، وفيات الأعيان ٤/ ٢٤، ٢٥.

أشعاره، ومنها قدسيته هذه، وفيها يختار الألفاظ والتعبيرات القوية الجزلة حقاً، وهي تذكرنا بقوة شعر الحرب وجزالته، في العصر العباسي. ومن ذلك قوله: «الوشيج الأسمر»، و«الأجرد الشَيْظَم»، و«مقتحم المهالك»، و«رب الملاحم»، و«النجيع الممجوج»، و«شوس الملوك»، و«مقاتل الفرسان»، و«ضرب الحسام»، و«وقع السهام»، و«وأد الشرك»، و«هول يوم المحشر»، و«النجيع الأحمر»، و«عقبان المنون»، و«الداوية»، و«الخميس المتنمر»، وغيرها، ليعبر عن المعاني المستقاة من الحديث عن الفتح، والحديث عن الفاتح ومواقفه، والحديث عن صورة العدو المحتل.

وكذلك يتسم أسلوب قدسيات العماد الأصفهاني بالقوة والجزالة، ويُستثنى من قصائده القدسية هذه، المقدمات التي كان يستهل بها عدداً من قصائده تلك. وتظهر تلك القوة والجزالة في حديثه عن الفتح، والفاتح والمعركة. وفيها يتحدث عن التطهير من الرجس، والدماء، وأسود الحرب، وساحة الوغى، و«واقعة رجب بها الأرض جيشهم»، و«ذئاب الأرض»، وغيرها.

وقد كان العماد يلجأ إلى «انتقاء الشوارد، وما له رنين في السمع من ألفاظ اللغة، للمجانسة، والمشاكلة، والموازنة، والترصيع»، والإكثار من زخرفة أسلوبه[1].



وتلحظ بعض الظواهر الأسلوبية في القصائد القدسيات المدحية، ومنها ظاهرة التكرار في المعاني والألفاظ، فالحديث عن الفتح القدسي وآثاره، والحديث عن الفاتح السلطان صلاح الدين، ومواقفه، وخِلاله، والحديث عن صورة العدو الصليبي المحتل، يتكرر في القصائد الجهادية القدسية التي قيلت في التغني بالنصر، والإشادة بالفاتح، كما يبدو جلياً في قصائد العماد الأصفهاني، وابن الساعاتي، وابن سناء الملك، والحكيم عبدالمنعم الجلياني، والرشيد النابلسي، وفتيان الشاغوري، وغيرهم.

(١) انظر: خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام (المقدمة) ١/ ٤٠، ٤١، ٦١، ٦٢، ٦٧.

ويلحظ شيوع التكرار في الألفاظ في هذه القصائد، ومن ذلك تكرار كلمة «القدس» في قول العماد الأصفهاني، في قدسيته[1]:

فلا يَسْتحِقُّ القُدْسَ غيرُك في الورى ... فأنت الـذي من دونهم فَتَـحَ القُدْسا
ومن قبـل فتح القُدْس كنت مقدّساً ... فلا عدمتْ أخـلاقك الطُهْرَ والقُدْسا

وهـذا التكـرار اللفظي يعبر عن المكانة العظيمة التي تحتلها مدينة بيت المقدس في النفوس. ولعل فن الجناس كان عاملاً من عوامل هذا التكرار في شعـر العمـاد الأصفهـاني، فهـو يجانس بين مدينة القدس، والقدس بمعنى الطهارة. ويلحظ أن هذا التكرار، يعد عاملاً من عوامل إشاعة لون موسيقي في شعر العماد. وينجم هذا اللون الموسيقي عن هذا الجناس، أو تماثل الحروف فيه، كما ينجم عن شيوع استخدام هذا الصوت الهامس، وهو حرف السين، فقـد تكرر خمس مرات في هذين البيتين. ويكرر العماد لفظة «القدس» في أبيات أُخرى من قدسيته هذه.

ويتكـرر الحديث عن الأرض، ومن ذلك ما نجده في قدسية العماد من تكرار اللفظة «الأرض»، وهو يتحدث عن الأراضي المقدسة التي أبت أن تكون مستقراً للعدو الصليبي المحتل، كما يبدو في قوله[2]:

بواقعـةٍ رجت بهـا الأرض جيشهمْ ... دمـاراً كمـا بُسَّتْ جبـالهمُ بَسّـا
بطون ذئاب الأرض صارت قبورهمْ ... ولم ترض أرضٌ أن تكون لهم رِمسا

ويشيع تكـرار لفـظة «القـدس» في شعـر الشعراء أصحاب القدسيات، معبـرين عن أهميتهـا، وأهمية فتحهـا وخـلاصهـا من الاحتـلال، ومكانتها، وقدسيتها، ومن ذلك قول الجواني، في قدسيته[3]:

---

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٢، كتاب الروضتين ٢/١٠١، شفاء القلوب/ ٢١٥، وانظر ص ٧٢ من هذا البحث.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٤، كتاب الروضتين ٢/٨٣، مرآة الزمان ١٤/١٥٢، وانظر ص ٧٥ من هذا البحث.

(٣) كتاب الروضتين ٢/١٠٥ وانظر ص ٤٨ من هذا البحث.

أتُــرى منــامــاً ما بعـيني أبـصــرُ القُــدسُ يُفتــح والفــرنجـة تُكْسَرُ
فُتــح الشّـآم وطُهِّـرَ القُـدس الـذي هو في الـقيامــة للأنــام المحشــر

وقول فتيان الشاغوري[1]:

وأرَيتهُمْ لمــا التقى الجمعــان بالبيـ ـت المقــدَّس هول يوم المحشــر
فلصخــرة البيت المقــدسَ كفؤهــا الحجـر المفضـل عند أفضل معشر

ويلحظ مثـل هذا التكـرار في الحديث عن المعارك والفتوحات، معارك صلاح الدين وفتوحاته الحاسمة، وعلى رأسها الفتح القدسي، وحطين. ويعبر هذا عن أهمية تلك الفتوحات في نفوس الشعراء، وفي نفوس المسلمين. ونجد هذا الأمر شائعاً في قصائد قدسيات كثيرة. يقول فتيان الشاغوري[2]:

فليهنــه الـفتــحُ الــذي سُدَّتْ به عن مُلكــه أبــوابُ غدرِ الأدهُــر
فتــحٌ تطأطــأ كل فتــحٍ دونــه والـشــمسُ تكْسِـفُ كلَّ جسمٍ نيِّرِ

ويقول الرشيد النابلسي[3]:

هذا الفتـوحُ الـذي جاءَ الـزمـانُ به إليك من هفــواتِ الــدَّهـرِ يعتـذرُ
لا تَرْوينْ لفتــوحٍ بعــدهــا قصصـاً وإنْ تعــاظم منهــا الخُبــرُ والخَبَـرُ

ويقول العماد الأصفهاني مكرراً «حطين»، ومستغلاً ذكرها للمجانسة أيضاً[4]:

حططت على حِطين قَدْر ملوكــهــمْ ولم تُبق من أجنـاس كُفـرهمُ جِنْسا
ونعمَ مجالُ الخيلِ حِطينُ لم تكُنْ معــاركُهــا للجُـرْد ضرْسـاً ولا دَهسـا

ومثل هذا قول ابن سناء الملك، متحدثا عن عظمة الفتوح والتهنئة بها، ولعل للمجانسة أثراً فيه[5]:

(١) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٣، وانظر ص ٥٤ من هذا البحث.

(٢) نفسه/ ١٤٢.

(٣) شفاء القلوب/ ١٦٦ وانظر ص ١٩ من هذا البحث.

(٤) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٤ وانظر ص ١٠٩ من هذا البحث.

(٥) ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت)/ ١١٣، ٨١٤ وانظر ص ٧٨ من هذا البحث.

أنُــهــنــيك إذْ تَمــلَّكــتَ شامــاً ... أم نُهــنــيك إذ تمــلَّكــتَ عَدْنــا

قد مَلكت الجنــانَ قصــراً فَقَصــرا ... إذ فَتَحت الشــآم حصْنــاً فحصنــا

شاقَ جبــريلَ بيتُــه بيتُ جبــريـ ... ـلَ فوافَــى إلــيه شوقــاً وحَــنّــا

شهــد النــاسُ أنَّهم شاهــدوا جبـ ... ـريل رَدَّ الأقــرانَ قرنــاً فقــرنــا

ويلحظ مثـل هذا التكـرار في الحـديث عن صورة العـدو المحتل، في أخلاقه، وقوته، ومصيره، كما يبدو في قول العماد الأصفهاني، قاصداً التكرار للوصـول إلى الجنـاس، أو رد العجـز على الصـدر، أو غيرهمـا من الفنـون البديعية، أو قاصداً السخرية منهم والتهكم بهم[1]:

أتــوْا شُكُسَ الأخــلاقِ خُشــنــاً فلينتْ ... حدودُ الـرِّقـاق الخُشنِ أخـلاقهـا الشُّكْسَا

طردْتـهــمُ في الـمُـلتـقَى وعَكَستهُمْ ... مُجيداً بِحكم العَزمِ طَردكَ والعَكْسَا

فكيف مَكَسْتَ المشـركين رؤوسهمْ ... ودأبُك في الإحسان أن تُطلِقَ المُكْسَا

تُقــادُ بدأمــاءِ الــدمــاءِ مُلوكُـهـم ... أسارى كَسُفنِ اليَمّ نطتْ بها القَلْسَا

شَكـا يَسَبـاً رأسُ البِـرنسِ الذي به ... تَنـدَّى حسـام حاسمٍ ذلـك اليَبْسـا

ويلحظ تكرار في المعاني، وتكرار في الصور فيما تقدم. ومن ذلك أيضاً، قول العماد الأصفهاني مصوراً العدو المحتل[2]:

وطـارتْ على نار المواضي فراشُهُمْ ... صِلاءً فزادتْ من خمــودهم قَبْسَــا

وقول عبدالمنعم الجلياني[3]:

همُ الفـراشُ لهيبُ الحـربِ تَصرعُهُ ... وكُــلَّمــا لجَّ صدمــا جَلَّ مَقــتــلُهُ

وقد يأتي مثل هذا التكرار اللفظي، اقتضاء للقافية، أحياناً، كما يبدو في قول الجويني[4]:

---

(١) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٤، ٢٣٥، كتاب الروضتين ٢ / ٨٣.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٥، كتاب الروضتين ٢ / ٨٣.

(٣) كتاب الروضتين ٢ / ١٥١.

(٤) نفسه ٢ / ١٠٤، ١٠٥.

متى رأى النـاسُ ما نحكيه في زمنٍ   وقـد مضتْ قبـلُ أزمـان وأزمـانُ
فالآن لَبّى صلاح الـدين دعـوتهم   بأمـرِ مَنْ هو للمِـعـوان مِعـوانُ

★★★

ومن هذه السمات الأسلوبية استخدام ألفاظ ومصطلحات إسلامية، وهي تعكس الأثر الديني الجلي في هذه الأشّعار القدسيات، وهي مستمدة من القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، أو من الواقع الذي يتحدث عنه الشعراء متمثلاً في الفتح القدسي وآثاره، أو من التاريخ الإسلامي، وذلك عندما كان الشعراء يربطون بين حاضرهم وماضي أمتهم الإسلامية، في فتوحها الحاسمة في تاريخ الإسلام. وتبدو هذه الظاهرة أمراً شائعاً في القدسيات، ومن ذلك ما يعبر به ابن الساعاتي حول تحرير بيت المقدس فيقول[1]:

رَدَدْت «أخـيذةَ الإسـلام» لَمّـا   غدا صَرْف «القضـاءِ» بهـا ضَمنيا
قَضَيْت «فـريضـةَ الإسلام» منهـا   وصـدِّقـت الأمـانـي والـظنـونـا

ويستخدم العماد الأصفهاني من الألفاظ والتعبيرات: الطهر، والقداسة، و«لباس الكفر»، و«قدس الأرض»، و«بيت الله»، و«أحكام الدين»، و«أذان القدس»، و«ملائكة الرحمن»، كما يبدو في قوله مخاطباً صلاح الدين[2]:

ومن قبل فتحِ القدسِ كنتَ مقدّسا   فلا عَدِمتْ أخـلاقُك الطُّهْر والقُدسا
نزعَتَ لباسَ الكفر عن قُدْس أرضها   وألْبستهـا الدّين الذي كَشَفَ اللُّبْسا
جَرَى بالذي تَهوى القضاءُ وظاهَرتْ   ملائكـةُ الـرَّحمن أجنـادك الخُمْسا

ومن ذلـك ما يستخـدمـه الجلياني، مثـل: «الملة الحسنى»، و«عهـد الصحـابـة»، و«نشر الهدى»، و«النبوة»، و«بشرى النبي»، و«فتنة البغي»، و«الكفـر»، و«الايمـان»، كما يبدو في قوله في قدسيته التائية، وفي قدسيته الفتحية الناصرية، وفي غيرهما من قدسياته، يقول[3]:

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٦، ٤٠٧، كتاب الروضتين ٢/٨٤، ٨٥.
(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٢، كتاب الروضتين ٢/١٠١، ١٠٢.
(٣) كتاب الروضتين ٢/١٠٣.

دارتْ بك الملّةُ الحُسنى فنحن على | عهد الصحابة في استمرار مِلّتِهِ
أضحى لنشر الهُدى في فَتح منهجه | وبات يطوي العدى في سَدّ ثَغرَتِهِ
حتى يكونَ لهذا الدِّين ملحمةٌ | تحكي النبوة في أيام فَترَتِهِ

ويقول[1]:

والحقُّ يعرس والطغيان منتحب | والكفرُ يطمس والايمان مزدهرُ
هذا المليكُ الذي بُشرى النبيّ به | في فتنةِ البغي للإسلام ينتصرُ

وابن المجاور يستخدم ألفاظاً مثل: «المهدي»، و«الهادي»، و«المستعين بربه»، و«ملة أحمد»، و«يوم عَروبة» (أي الجمعة)، وغيرها، كما يبدو في قوله[2]:

بالنّاصر المهديِّ والهادي إلى | سُبُل الجهاد أبي المظفر يوسف
المستعين بربه والواثق الـ | ـمنصور والمستظهر البر الوافي
شدّت قُوى أركان ملة أحمد | وتحملت بجهاده في الموقفِ
لله يوم عَروبةٍ إذ أعْرَبَتْ | ساعاتُه عن نصرك المتعرفِ
أحييتَ دين محمدٍ وأقمْتهُ | وسَتَرتَهُ من بعد طول تكشُّفِ
وضبطتَ ديوان الجهاد بعامل | من عامل وبمشرف من مشرفي

والرشيد النابلسي يستخدم منها لفظتي «إحرام»، و«معتمر»، معبراً عن قدسية بيت المقدس، كما يستخدم ألفاظاً أخرى شبيهة، مثل: «الآيات والسور»، و«الله أكبر»، يقول[3]:

الآن طَاب إلى البيت المقدَّس كالـ | بيت المحرَّم، إحرام ومعتمر
يا نورَ مسجده الأقصى وقد رُفعتْ | بعد الصليب به الآيات والسُّوَر
الله أكبر صوتٌ تَقْشَعِرُّ له | شُمّ الذُّرى، وتكاد الأرض تَنْفَطِرُ

وفتيان الشاغوري يستخدم منها: «الشرك»، و«الإسلام»، و«دين الله»، و«معشر الإسلام»، و«المشعر»، و«المعروف»، و«المنكر»، يقول[4]:

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١١٧.
(٢) نفسه ٢/١٠٣، ١٠٤.
(٣) كتاب الروضتين ٢/١١٨، شفاء القلوب/ ١٦٧.
(٤) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٣، ١٤٧.

فلقد وَأَدْتَ الشِّركَ يوم لقيتهم وغدوت للإسلام عين المنشِرِ
ورددتَ دينَ الله بعد قُطوبه بالمسجد الأقصى بوجهٍ مُسْفِرِ
ما إن رآك الله إلا آمراً فيهمْ بمعروفٍ ومنكر مُنْكَرِ

★ ★ ★

ومن هذه السمات الأسلوبية استخدام ألفاظ غير عربية في هذه الأشعار القدسيات، مثل: «البرنس»، و«الدّاوي»، و«الكند»، و«الاسبتار»، وغيرها، وقد تقدمت بعض الأمثلة على ذلك، ومنه قول الجلياني في قصيدته الفتحية الناصرية(١):

والاسبتارُ إلى الدّاويّة التأموا كأنهم سَدُّ ياجوج إذا استَجَروا

وقوله في قدسيته الكبرى(٢):

وقد أقطع (الكند) العراق موقعا فأودع سجناً وَسْطَ جلّق مُؤصَدا
ألم تَرَ للسلطان صَدَّق نذرَه دم الغادر (الإبرنس) فاقتيد أربدا

★ ★ ★

واستخدمت ألفاظ مستمدة من النصرانية أيضاً. وجاء استخدامها مستمداً من الحديث عن تحرير بيت المقدس، وهي ألفاظ جاءت مستمدة من الصراع في العقيدة بين المسلمين وعدوهم المحتل، وهي تدل على رتب دينية نصرانية، أو شعائر ورموز نصرانية. ومن ذلك قول العماد الأصفهاني، في قدسية له(٣):

وعادتْ ببيت الله أحكام دينه فلا (بطركاً) أبقيتَ فيها ولا (قُسّا)
وقد شاعَ في الآفاق عنك بشارةٌ بأن أذان القُدس قد بَطّل النَّقْسا

وقوله في قدسية أخرى(٤):

نفى من القُدس (صلباناً) كما نُفيتْ من بيتِ مكةَ أزلامٌ وأنصابُ

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١١٦. (٢) نفسه ٢/١١٧، ١١٨.
(٣) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٢، كتاب الروضتين ٢/١٠٢.
(٤) ديوان العماد الأصفهاني/ ٧٦، سنا البرق الشامي (خ) ٣٦، (ط)/١٧٤، كتاب الروضتين ٢/١٠٣.

وكان للصراع في العقيدة بين المسلمين والعدو المحتل أثر بارز في استخدام ألفاظ وتعبيرات مستمدة من الديانتين الإسلامية والنصرانية، تعبر عن ذلك الصراع، ومنها ألفاظ التوحيد، والتثليث، والايمان، والشرك، والصليب، وغيرها. ومنها ألفاظ تعبر عن رتب دينية مثل: بطرك، وقس، وغيرهما، أو تعبر عن أسماء ملوكهم، أو تعبر عن طوائف فرسانهم. ويبدو مثل ذلك جلياً في شعر شعراء القدسيات، فالعماد الأصفهاني يستخدم مثل تلك التعبيرات بشكل بارز، معبراً عن معالم ذلك الصراع، كما يبدو في قوله(1):

بعثتَ إمام أمة النار نحوها فزارَ أمام أرناطها ذلك الحبْسا

وقوله من قصيدة أخرى قدسية(2):

أحيا الهدى وأماتَ الشركَ صارمُه لقد تجلّى الهدى والشركُ مُنجابُ
بفتحه القُدس للإسلام قد فُتحتْ في قمع طاغية الإشراك أبوابُ

ومثله كثير في أشعار الشعراء أصحاب القدسيات(3).

★★★

ومن تلك السمات الأسلوبية استخدام ألفاظ الغزل والنسيب، في هذا الشعر القدسي الجهادي. وهذا الأمر ليس جديداً، فقد عرف أبوتمام، وأبوالطيب المتنبي، باستخدام ألفاظ الغزل في شعر الحرب. ومن ذلك ما يقوله ابن الساعاتي مصوراً مدينة طبرية، وكأنه ينهج نهج أبي تمام في تصويره عمورية(4):

حَصانُ الذَّيْل لم تُقذَفْ بسوءٍ وسَلْ عنها الليالي والسنينا
فَضَضْتَ ختامَها قَسْراً ومَنْ ذا يَصدُّ الليثَ أن يلج العَرينا
لقد أنكحتها صُمّ العوالي فكان نتاجها الحربَ الزَّبُونا

(1) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٦، كتاب الروضتين ٢/٨٤.

(2) ديوان العماد الأصفهاني/ ٧٥، كتاب الروضتين ٢/١٠٢، ١٠٣.

(3) كتاب الروضنين ٢/١١٧، ١١٨.

(4) انظر: الروضتين ٢/١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٥١، ٢٠٤.

وقوله مصوراً صنيع السلطان صلاح الدين، في يوم الفتح القدسي العظيم[1]:

يمـيـنـاً لقـد أنـكـحْـتـهـا يَوْمَ هَذيهـا
صدورَ المـواضي البيضِ والسُّبق الـدُّهْما

★ ★ ★

ومنها استخدام مصطلحات لغوية، وفلكية، وزراعية. وهي مصطلحات تدل على معالم من ثقافة الشاعر. ومن ذلك قول ابن الساعاتي مستخدما المصطلحين اللغوين: الرفع، والجزم[2]:

نَصَـبْـتَ على الأعـداء رأياً ورايةً   يفيدانهم من بعـد رَفْعِهمُ الجَـزْمـا

ويكثر فتيان الشاغوري نسبياً، من استخدام المصطلحات اللغوية، مثل: الإعراب، والنقط، والخط، يقول مصوراً الملحمة القدسية[3]:

إعـرابُهـا ضَرْبُ الحُسـامِ وَنقـطُهـا   وَقْـعُ السِّهـام وخَـطُّها بالسَّمهـري

ويستخدم الشاغوري مصطلحات فلكية، في قدسيته الآنفة الذكر، كما يبدو في قوله[4]:

والـسَّـبـعـةُ الأفـلاكُ تخـدمُ جدَّه   حتـى قُوى كيوانـهـا والـمـشتـري
لـم يَألُ مُشـتـري الـثنـاءِ بمـالـه   حُسْنـاً فنعِمَ المُشْتَرى والمُشْتـرِي

كما يستخدم مصطلحات زراعية مثل: الحصاد، والبذر، والبيدر، كما يبدو في قوله[5]:

حَصـدوا وكـان الغَـدْرُ بَذْرَهُمُ فقـد   درسـوا به وذروا بأوخـم بيدر

★ ★ ★

(1) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٦.
(2) نفسه ٢/٣٨٧.
(3) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٢.
(4) نفسه/ ١٤٢.
(5) نفسه/ ١٤٥.

ومنها استخدام ألفاظ غريبة، وقد يأتي ذلك من أجل الجناس، أو من أجل القافية، كما يبدو في قدسية العماد الأصفهاني[1]، كقوله: «تُقاد بدأماء الدماء ملَوكهم...». فالدأماء هي البحر، وقد جاءت للمجانسة بينها وبين الدماء. ومثل ذلك استخدامه (القَلْس). بمعنى الحبل، و(القِنْس) بمعنى الأصل. ولعله جاء بهما من أجل القافية السينية في قدسيته، هذه: «أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا...».

ويستخدم فتيان الشاغوري الغريب من الألفاظ، في قدسيته، وهو من أكثر هؤلاء الشعراء استخداماً لها، ومن ذلك قوله[2]:

كَفَعالِ مَوْلانا صلاح الدين ذي ... المجد الغُدامِسِ والعطاءِ الكَوْثَرِ
وكأنَّهم بحرٌ تَدافَعَ مَوْجُهُ ... بظُبىً وزُغْفٍ مُحْكَمٍ وسَنَوَّرِ
أرسلتَ من خَلَل العجاج صواعقاً ... تهمي عليهمْ من فُتوقٍ كَنَهْوَرِ



يستخدم الشعراء أساليب الاستفهام، والنداء، والأمر، والدعاء، والتعجب، والقسم، وغيرها من الأساليب.

يشيد ابن الأثير بالشاعر الذي يخرج الخطاب، في المديح، مخرج الاستفهام. ويصف هذا الأسلوب بأنه «أسلوب حسن جداً، وعليه مسحة من جمال، بل عليه الجمال كله» كما يقول[3]. إن ما يرد في الشعر من الاستفهام، مثلاً، قد ينصرف، إلى معانٍ أخرى تصور الأحوال النفسية، من الألم، والحسرة، والتعجب، والتوجع، ونحو ذلك[4].

وقد يأتي الاستفهام دالاً على الحيرة، فبأي الفتوح تكون التهاني، وهي

(١) انظر: ديوان العماد الأصفهاني/ ٣٣٥، كتاب الروضتين ٢/ ١٨٣.

(٢) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٠، ١٤٤، ١٤٦.

(٣) المثل السائر ٣/ ١٨٩.

(٤) لغة الشعر ـ السامرائي/ ٥٩.

فتوح كثيرة، وهذه الحيرة تدل على عظمة تلك الفتوح، كما يبدو في قول ابن سناء الملك[1]:

أتُهنيك إذا تَملّكتَ شاماً أم نُهنّيك إذا تملكت عَدْنا

وقد يأتي الاستفهام دالاً على عظمة الفاتح، وعظمة الفتح ذاته، والحيرة في أمره إلى الحد الذي قد يدعو إلى عدم التصديق بحدوثه، وكأنه حلم من الأحلام، كما يبدو في قول ابن الساعاتي[2]:

أعيّاً وقد عاينتمُ الآية العظمى لأية حالٍ تذخرُ النثرَ والنَّظْما
تجاوزت ما أعيا الجبال منالَهُ فهل يقظةٌ كانت مساعيك أو حُلما

وقد يأتي الاستفهام معبراً عن عظمة الفاتح، مركزاً عليها، كما يبدو في قول فتيان الشاغوري، متسائلاً، مستنكراً عدم خضوع الملوك لصلاح الدين، أو متسائلاً داعياً إلى الاستمرار في الجهاد[3]:

مَنْ سنجرٌ وأقلُّ مملوكٍ له أعلى وأغلى قيمة من سنجرِ
لِمَ لَمْ تَدِنْ شوسُ الملوك له وقد ملك السواحلَ في ثلاثة أشهرِ

وقوله[4]:

هل تُعجزَنْ صورٌ مليكاً ناصراً لله أين يَسِرْ يُسَرُّ وينصر

وقول الجويني[5]:

حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقا ل الناسُ داودُ هذا أم سليمانُ؟
في نصفِ شهرٍ غَدا للشركُ مُصْطلماً فَطُهِّرَتْ منه أقطارٌ وبُلدانُ
فأين مسلمةٌ عنها وإخوانه بل أين والدهم، بل أين مروان؟

---

(١) ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت)/ ٨١٤، مفرج الكروب ٢/٢٣٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٢٩١، شفاء القلوب/ ١٥١.

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥.

(٣) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤١.

(٤) نفسه/ ١٤٧.

(٥) كتاب الروضتين ٢/١٠٥.

وقد يأتي الاستفهام معبراً عن التقرير من ناحية، وعن الاستنكار من ناحية أخرى، كما يبدو في قول فتيان الشاغوري مصوراً المصير الذي آل إليه العدو، وهو يمزج ذلك بالسخرية والتهكم[1]:

فَمَن الـذي من جيشهم لم يُخْتَـرمْ   قَبْـلاً ومَنْ من جَمعهمْ لم يُؤسَـرِ؟

ويستخدم الشعر أسلوب النداء، وهو أسلوب يتناسب مع الوضع الذي كان عليه المسلمون، فنراه يستخدم أسلوب النداء، مرة للتعبير عن تحقيق أماني المسلمين المتمثلة في تحرير القدس، وغيرها من البلاد المحتلة، ونراه أخرى يستخدمه للتعبير عن عظمة الفتح، وعظمة الفاتح، ونراه ثالثة يستخدمه للتقليل من شأن العدو، والتعريض به، ومن ذلك ما كان من نداء للسلطان صلاح الدين لتحرير الإسلام والمسلمين، ويمثل ذلك ضالتهم المنشودة، كما يبدو في قول الجلياني[2]:

فَيا مَلِكـاً لم يبـقَ للدّين غيره   وَهَتْ عُمُدُ الإسلام فاشْدُدْ لها دعما

وقوله متحدثاً عن معركة حطين وآثارها الناجمة عنها، في قدسيته الفتحية الناصرية، معظماً الفتح، وساخراً من العدو[3]:

يا وقعـة التلّ ما أبْقيْتِ من عَجَبٍ   جحافـل لم يَفُتْ من جمعهـا بَشَرُ
ويا ضُحى السَّبْتِ ما للقوم قد سَبَتُواْ   تَهـوَّدُوا أم بكـأس الطعن قد سكروا
ويا ضريحَ شُعيبٍ ما لهـم جَثَمـوا   كمِـدْيَنَ أم لقـوا رجفـاً بمـا كفـروا

ومثل ذلك قول الرشيد النابلسي متحدثاً عن الفتح وآثاره في النفوس، معبراً عن الفرح[4]:

يا نعمـة كَبُـرَتْ عنـد الأنـام له   قَدْراً ففي كلّ شكـرٍ عنـدها صِغَـرُ
يا نورَ مسجـده الأقصى وقـد رُفعَتْ   بعـد الـصليب به الآيات والسُّـوَرُ

---

(1) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٤.

(2) كتاب الروضتين ٢/ ١١٦.

(3) كتاب الروضتين ٢/ ١١٨، شفاء القلوب/ ١٦٦، ١٦٧.

(4) كتاب الروضتين ٢/ ١١٨، شفاء القلوب/ ١٦٧.

ومثله قول الجواني مشيداً بالفاتح، ومعظماً له[1]:

يا يوسف الصدّيق أنتَ لفتحها ... فاروقها عُمَر الإمامُ الأطْهَرُ

وقد يستخدم الشاعر هذا الأسلوب للدعوة إلى الجهاد، كما يبدو في قول الرشيد النابلسي[2]:

يا مالكَ الأرضِ مَهِّدْها فما أحَدٌ ... سواكَ من قائم للهَدْي ينتظرُ

يا خاطباً جنةَ الفردوس مُمهرها ... أجرِ الجياد لنِعْمَ الصَّهْرُ والمَهَرُ

ويستخدم الشعر أسلوب الدعاء، ويتمثل جُلّ ذلك في الدعاء للفاتح السلطان صلاح الدين، وفي ذلك تصوير لعظمته، وتقدير له، فهو الذي حقق أغلى أمانّي المسلمين، كما يبدو في قول الجوُيني[3]:

فالله يُبقيك للإسلام تحرسه ... من أن يُضام ويُلفى وهو حَيْرانُ

إذا طوى الله ديوان العباد فما ... يطوى لأجر صلاح الدين ديوانُ

وقول الشاغوري[4]:

عِشْ عمرَ نوحٍ يا ابن أيوب وكُنْ ... مَلْكاً سليماناً وجاهِدْ واظفَرِ

★ ★ ★

ومن هذه المظاهر الأسلوبية أسلوب السخرية والتهكم، ونجد هذه السمة شائعة في الحديث عن المصير الذي آل إليه العدو الصليبي. ومن ذلك ما نجده في قول العماد الأصفهاني مصوراً مصير الأمير الصليبي أرناط بأسلوب ملؤه السخرية، مَشُوب بالانتقام[5]:

شَكا يَبَساً رأسُ البرنس الذي به ... تَنَدّى حسامٌ حاسمٌ ذلك اليَبَسا

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١٠٥.

(٢) كتاب الروضتين ٢/١١٨، شفاء القلوب/ ١٦٧.

(٣) كتاب الروضتين ٢/١٠٤، ١٠٥.

(٤) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٨.

(٥) ديوان العماد الأصفهاني/ ٣٣٥، كتاب الروضتين ٢/٨٣، ٨٤.

تَسفتَ به رأسَ البــرنس بضــربــةٍ   فأشْبَـه راسي رأسـه العهنَ والبرْسـا
تَبَــوَّغ في أوداجــه دم بَغْــيه   فصــال عليه السيفُ يَلْحَسُـه لَحْسـا

ومنه قول فتيان الشاغوري[1]:

آضَــتْ أسـودُهُــمُ ثعـالـبَ ذلـةٍ   فهُــمُ فرائسُ كلِّ ليثٍ قَسْــوَر

ويسخر الجويني من ملوك المسلمين الذين ضعفوا أمام العدو الصليبي، فيصورهم نساء وولدانا يقول[2]:

كم من فُحـول ملوكٍ غُودِروا وهـمُ   خوفَ الفــرنجــةِ ولـدان ونســوانُ
استـصــرخـتْ بَملْكشــاهٍ طرابُلُسٌ   فخــامَ عنهــا وصـمت منـه آذانُ
هذا وكم مَلكٍ من بعـده نظر الإسـ   ـلام يُطوى ويُحــوى وهـو سَكْـرانُ

★ ★ ★

ومنها سمة المبالغة، وهي سمة لا نجدها إلا في مواضع قليلة، ومن ذلك بعض المبالغات التي وقع فيها عدد من الشعراء في الحديث عن الفاتح السلطان صلاح الدين، حيث صوروا القضاء يجري بإرادته، كما يبدو في قول العماد[3]:

جرى بالذي تهوى القضاءُ وظافَرَتْ   ملائكـة الـرحمن أجنـادك الخُمسـا

وقول ابن الساعاتي[4]:

وقـد أصبحتْ رسـلُ القضـاء عبيده   فقـل لحنـايا القـوم لا تُرسلي سهما

ويبالغ ابن الساعاتي حين يصوره، وكأن له علماً بالغيب، يقول[5]:

بصــيرٌ بمـــا تنــوي قلوبُ وفــودِهِ   كأنّ له بالــغيب من وفــده علمـــا

ويبالغ فتيان الشاغوري عندما يصور معارك صلاح الدين لا مثيل لها منذ

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٤.
(٢) كتاب الروضتين ٢/١٠٥.
(٣) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٢، كتاب الروضتين ٢/١٠٢.
(٤) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٦.
(٥) نفسه ٢/٣٨٧.

أقـدم العصور، أو عندما يصور صلاح الدين وكأنه في جوده ألفا حاتم، وفي شجاعته الفا عنتر، أو عندما يصور ما عند غيره من الملوك ليس إلا قلامة إظفر بالنظر إلى ما عنده[1]. قد يبدو بعض هذه المبالغات مقبولاً، ومن ذلك الحديث عن جود صلاح الدين، وشجاعته، وأما مواضع المبالغة الأخرى، فقد لا تبدو مقبولة. وقد تعد المبالغة في الشعر ضرباً من المحاسن إذا بعدت عن الإغراق والغلو[2].



وفي الحديث عن قصيدة الرثاء القدسية، يبدو أن قائلي الشعر في رثاء بيت المقدس، وتصوير الهزيمة التي حلت بالمسلمين آنذاك، ينهجون النهج الذي يذهب إليه النقاد، وهو ما تقدم الحديث عنه، كما ينهجون نهج من تقدمهم من الشعراء في هذا المضمار.

كان «سبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع، بيّن الحسرة، مخلوطاً بالتلهف، والأسف، والاستعظام»[3]، ويبدو مثل هذا واضحاً في تصوير المصاب الجلل، وهو ما نتبينه في القصيدة الرثائية المنسوبة إلى الأبيوردي، (وقيل الهروي)، وفي قصيدة خطيب بيت المقدس محمد بن المبارك القَرقساني التي أنشأها في سنة ٦١٦ هـ، عنـدمـا خربت المـدينـة المقـدسـة، كما يبدو واضحاً في قصيدة عبدالرزاق الرّسعني التي قالها في التنازل عن بيت المقدس في سنة ٦٢٦ هـ، فكل منهم يصور الفاجعة التي حلت ببيت المقدس، بل بالمسلمين عامة، وقد صوروا حسراتهم وأسفهم، بل حسرات المسلمين ومصابهم.

يتسم أسلوب القصيدة المنسـوبـة إلى الأبيوردي، وقيل الهروي، بالرقة واللين حيناً، كما يتسم بالقوة، وذلك عند التعريض والتقريع حيناً آخر، كما نراه

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٦، ١٤٧.

(٢) انظر: تحرير التحبير/ ١٤٨، ١٤٩، ١٥٧.

(٣) العمدة ٢/ ١٤٠.

متسماً بالقـوة والجزالة، وذلك في الدعوة إلى الجهاد، بل الدعوة إلى «غارة عربية» غاضبة، كما يبدو في الأبيات الأخيرة من القصيدة. وهكذا يبدو التباين في أسلوب هذه المرثية، وهو تباين نابع من المعاني والأفكار التي يتحدث عنها الشـاعـر، فهـو يتحدث بأسلوب حزين، رقيق، لين، عندما يصور الفاجعة، ويتحدث بأسلوب قوي، جزل، وهو يعرّض بالمتخاذلين عن الجهاد، أو عندما يتحدث عن المعركة.

ويبـدو الأسلوب هنـا مُتأثراً بالمعاني التي تحدث عنها، مستقياً منها رقة ولينا، أو قوة وجزالة، ولكن تلك الرقة التي يتسم بها أسلوب الرثاء ليست كتلك الرقة التي يتسم بها أسلوب النسيب. وليست تلك القوة التي قد يتسم بها أسلوب جزء من المرثية، كتلك القوة التي يتسم بها أسلوب الحماسة، «فالكلمات تدل على معـان سلبية مؤلمـة كالفجيعـة، والكـارثـة، والجـزع، والبكـاء، والخـراب. . .، وأما الجمل فرقيقة، تصور الجزع، أو شاكية صاخبة تحكي الجزع، أو جزلة تعبر عن هول المصاب»[1].

ويتسم أسلوب هذه المراثي الجماعية، أو مراثي المدن وأهلها، بالوضوح، والإبـانـة، في ألفـاظهـا ومعانيها، كما تتسم بالسهولة، والبعد عن الغريب، والوحشي. ويبدو الأسلوب فيها مطبوعاً بعيداً عن الصنعة والتكلف، ويكاد يخلو من استخدام الفنون البديعية المقصودة.



ويتسم أسلوبها من ناحية أخرى بالمباشرة والتقريرية، كما هو واضح من النظرة إلى تلك الأشعار القدسية الجهادية.

وفي هذه المـراثي القـدسية، يلحظ استخـدام أسلوب النداء، وأسلوب الاستفهـام، وما يشبههما من الأساليب، كما تقدم في الحديث عن الأشعار القدسيات التي قيلت في التغني بالفتح القدسي.

---

(١) الأسلوب/ ٨٦.

ويشيع فيها استخدام مثل هذه الأساليب الإنشائية التي تهدف إلى التأثير، والحزن، والاستنكار، وما إلى ذلك، ففي القصيدة المنسوبة إلى الأبيوردي، وقيل الهروي، استخدام أسلوب الاستفهام، ويغلب عليه الاستفهام الاستنكاري، وهو أسلوب يتلاءم مع المعاني التي يتحدث عنها الشاعر، فإن الشعر يعلن استنكاره لمواقف المسلمين وحكامهم الذين تخلوا عن واجب الجهاد، وهو يستفهم مستنكراً مواقف أولئك المسلمين الذين ينامون ملء جفونهم، بينما يعاني المسلمون في الشام من الاحتلال وويلاته، كما يبدو في قوله: «أتهويمةً في ظل أمن وغبطة. . . ؟» و«كيف تنام العين ملء جفونها. . . ؟» ويستفهم مستنكراً موقف أمته الإسلامية التي تخاذلت على الرغم مما حل بها، وبدينها، وبأرضها: «أترضى صناديدُ الأعاريب بالأذى. . . ؟».

ويتساءل ابن المجاور، في المرثية القدسية التي قالها في سنة ٦٢٦ هـ، عند التنازل عن بيت المقدس، وعن غيره من أرض المسلمين، فيستنكر هدمهم المجد الصلاحي: «أما علمت أبناء أيوب أنهم . . . ؟» ولكنه استنكار غير قوي، ولعل ذلك يعود إلى الخوف من السلطان.

ويتساءل خطيب بيت المقدس، محمد بن المبارك القَرقساني، مستنكراً الفعل المتمثل في تخريب المدينة، على لسان المسجد الأقصى نفسه، يقول[1]:

ونادى المسجد الأقصى أيرضى ... بهذا الفعل مَنْ فرض الجهادا؟

ومثل ذلك قوله[2]:

أبعدَ خراب بيت القدس خطبٌ ... أشدُّ ولو توسَّدنا القَتادا؟

ويستخدم الشاعر عبدالرزاق الرَّسعني أساليب الأمر، والاستفهام الإنكاري، والقسم، كما يبدو في قصيدته التي قالها في التنازل عن بيت المقدس، في سنة ٦٢٦ هـ، يقول[3]:

(١، ٢) عقود الجمان لابن الشعار الموصلي ٦/٢٦١، ٢٦٢.

(٣) نفسه ٤/١٣٦، ١٣٧.

تَعَالوْا نقيم الحزنَ في مجمع الأنس ونصبغ أثواب المصيبة بالنِّقسِ
أيؤخذُ والإسلام فيه بقيةٌ فواعجبا أين النخاةُ من الحُمْسِ
لعمرك هذا الرُّزءُ لا هُلكُ هالكٍ ولا سَلْبُ مالٍ لا ولا عَدَمُ النفْس
مناماً أرى أم يقظة ما سمعته أحقاً عبادَ الله أم خانني حسي

★ ★ ★

ويتسم أسلوب هذه المراثي القدسية بأنه يقوم على الموازنة والمقابلة بين ما كان المسلمون عليه قبل الاحتلال الصليبي، وبين ما آلوا إليه في ظله، كما نجد هذا الأسلوب مستخدماً في الموازنة بين حال المسلمين الذين يتعرضون للاحتلال بالشام، وحال المسلمين في العراق، وهم لا يشعرون بما كان عليه المسلمون في الشام كما تقدم في الفصلين الأول والثالث.



ومما يتسم به أسلوب هذه المراثي القدسية، التكرار، كما تقدم في القدسيات التي تتغنى بالنصر. وتبدو هذه الظاهرة جلية تماماً في قصيدة ابن المجاور الآنفة الذكر، وفيها نلحظ التكرار في الألفاظ، أو في المعاني، ففي البيتين الثالث والرابع منها يكرر الشاعر أسلوب النداء مستخدماً حرف النداء «يا»، وفي الأبيات الخمسة التالية منها، يكرر استخدام حرف الجر «على» مستهلاً به كل بيت منها، إذ يدعو إلى البكاء على القدس، وأقصاها، وسلم معراجها، وصخرتها، وقبلتها الأولى. ويكرر الشاعر استخدام الفعل «عفا» في البيتين الثاني عشر والثالث عشر منها، مصوراً ما حل بالمسجد الأقصى المبارك الذي كان عامراً قبل الاحتلال الصليبي، ولكنه أصبح كأنه دارس في ظل الاحتلال. ويؤكد الشاعر تكراره هذا في البيتين الرابع عشر والخامس عشر منها، مستخدماً الفعل «خلا» من التائبين. والفعلان: «عفا» و«خلا» يدلان على معنى متقارب، ويؤكد كلاهما الآخر. ويكرر الشاعر استخدام «لتبك» في ثلاثة أبيات متتالية من القصيدة، داعياً إلى البكاء والحسرة على القدسْ التي آلت إلى الاحتلال ثانية. ومن الملاحظ أن الشاعر في أسلوبه هذا، يعمد إلى

التأكيد على تصويره للمعاني التي أراد تصويرها، كما يعمد إلى التأثير في النفوس. ولا شك أن هذا التكرار قد جعل القصيدة مؤثرة حقاً في النفوس، ومن المعروف أن أسلوب التكرار يشيع في الرثاء عادة، وأن الغرض الرئيسي منه هو التأثير في النفوس، والتأكيد على المعاني التي يتحدث عنها الشاعر.

يذكر ابن رشيق: «وأولى ما تكرر فيه الكلام باب الرثاء، لمكان الفجيعة، وشدة القرحة التي يجدها المتفجع. . . ، وفيه زيادة في التفجع، والتحسر»[1].

ويقول ابن الأثير متحدثاً عن التكرار المفيد، وهو الذي «يأتي في الكلام تأكيداً له، وتشييداً من أمره، وإنما يُفعل ذلك للدلالة على عظم محل الشيء الذي كررت فيه كلامك»[2].



ومن المظاهر الأسلوبية التي يتسم بها الأسلوب في المراثي القدسيات ظاهرة التلاؤم بين الألفاظ والمعاني، فالمعاني التي يعبر عنها الشاعر في مرثيته القدسية، تتمثل في البكاء، والهلع، والشجو، والاستغاثة، والتقريع، والتعريض، وما إلى ذلك. والألفاظ التي يختارها الشاعر للتعبير عن تلك المعاني تدل على ما تقدمت الإشارة إليه، ومنها: الدماء، والدموع، والهوان، والقتل، والغارة، والبكاء، وما إليها. وقد جاءت هذه الألفاظ متلائمة مع المعاني التي تعبر عنها. وتتسم هذه الألفاظ بالايحاء، كما تتسم بالوضوح في أداء المعاني.

وجاءت الألفاظ، والعبارات، في القصيدة المنسوبة إلى الأبيوردي، وقيل الهروي، مثل: «ظهور المذاكي»، و«بطون القشاعم»، و«السيوف البيض محمرة الظبا»، و«سمر العوالي داميات اللهاذم»، و«الطعن»، و«الضرب»، وغيرها مما يشبهها، معبرة عن معاني الحديث عن المعركة، متلائمة مع الحدث

---

(١) العمدة ٢/٧٢.

(٢) الجامع الكبير/ ٢٠٤.

نفسه. ونجد مثل هذا في هذه القصيدة، وذلك في الحديث عن الجهاد، والغارة العربية، كما يصفها الشاعر نفسه.

ينبغي أن تكون الألفاظ متلائمة، فكل لفظة تأتي متلائمة مع أختها، وكل لفظة تستعمل في موضع يليق بها. يذكر ابن الأثير أن للنظم أوصافاً تتعلق بالألفاظ، حيث ينبغي أن تكون «الألفاظ واضحة»، وأن تكون كل «لفظة من الألفاظ ملائمة لأختها التي تليها، غير نافرة، ولا مستكرهة»، ولا يكون فيها «تقديم وتأخير يستغلق به المعنى، فيجيء نظم الكلام مضطرباً»[1]. إن حسن التأليف في الكلام، يدعو إلى التلاؤم المتمثل في ائتلاف حروف اللفظة الواحدة من ناحية، وائتلاف ألفاظه معاً من ناحية أخرى[2].



ولكن هذا الشعر الرثائي القدسي، قد وقعت فيه بعض المآخذ اللغوية، كما يلحظ فيه أحياناً عدم التوفيق أو المشاكلة بين الألفاظ والمعاني، في بعض المواضع، ففي المرثية المنسوبة إلى الأبيوردي، وقيل الهروي، يجعل الدماء ممزوجة بالدموع، فأين حديثه عن جهاد المسلمين؟ وفيها يعبر عن الأحداث والمصائب التي حلت بالمسلمين بأنها: «هفوات»، وهو غير مصيب في اختيار هذه اللفظة.



ومن تلك المظاهر الأسلوبية: الواقعية، ويُقصد بذلك الاستمداد من الواقع الذي يتحدث عنه الشاعر، فهو في حديثه عن الاحتلال الصليبي، يستمد من الواقع: هزيمة، ومصاباً جللاً، وقتلاً، وتخريباً للبيت المقدس، وتنازلاً عنه للمحتل، ويبدو هذا جلياً من وصف الأحداث التي تحدثت عنها الكتب التاريخية الموثوق بها، كما تحدث عنها الشعر نفسه حديثاً يكاد يكون متطابقاً مع الواقع التاريخي، والحقيقة التاريخية. ولكن هذا لا يعني أن هذا الشعر قد

(١) الاستدراك/ ٥٩.
(٢) انظر: منهاج البلغاء/ ٢٢٢، ٢٢٣.

استطاع تحديد الواقع بصورة دقيقة. هل تحدث هذا الشعر عن حوادث الواقع حديثاً متسلسلاً، وهل تحدث عن المعركة ذاتها حديثاً مفصلاً يتطابق مع الواقع؟ إنه لم يفعل ذلك بتحديد وتفصيل، ولكنه مع ذلك كله، استقى معانيه، وصوره، من هذا الواقع.



ويبدو الأثر الديني واضحاً في أسلوب أشعار القصائد القدسيات، في الروح الإسلامية التي تحملها، وفي الطابع الديني الذي ينتشر بين تضاعيفها، وفي عدها معبرة عن نصر من عند الله، وهو نصر للإسلام والمسلمين، وفي الصراع العقدي بين المسلمين وعدوهم المحتل، وفي الألفاظ، والتعبيرات الإسلامية المرتبطة بالعقيدة الإسلامية، وفي الربط بين شخصيات قيادية إسلامية في هذا العصر، وشخصيات قيادية إسلامية في عهد النبوة، والعهد الراشدي، وفي الربط بين معارك وفتوح تمت في هذا العصر، ومعارك وفتوح حاسمة في تاريخ الإسلام، تمت في عهد النبوة، والعهد الراشدي، أيضاً، وفي الربط بين المقدسات الإسلامية في بيت المقدس، ومكة، والمدينة. كل هذا بدا جلياً في الحديث عن الفتح، والفاتح، والعدو المحتل، وفي الأسلوب واللغة، كما تقدم.

وسأقصر الحديث هنا على مجال التأثر بالقرآن الكريم، وبالحديث الشريف، في شعر القصائد القدسيات؛ إذ يبدو تأثر الشعر جلياً بالقرآن الكريم، والحديث الشريف. ويبدو هذا التأثر في معاني الشعر، وألفاظه، وتعبيراته، وصوره. ومن ذلك ما نراه في شعر العديد من شعراء القدسيات من أمثال ابن الساعاتي، والعماد الأصفهاني، وعبدالمنعم الجلياني، ونجم الدين بن المجاور، والجويني، وفتيان الشاغوري، وغيرهم من الشعراء، فابن الساعاتي في قوله متحدثاً عن الفاتح السلطان صلاح الدين، مشيداً به، ومصوراً إياه بيوسف الصديق[1]:

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٨، كتاب الروضتين ٢/٨٥، مفرج الكروب ٢/٢٠٠.

لقد جَرَّدْتَ عَزْماً ناصرياً   يُحدِّثُ عن سَناه طورُسينا
وأذْعَن كوكبٌ لَمّا تهادَتْ   نجوم ملوكها لك مُذْ عنينا
فكنت كيوسف الصدّيق حقاً   له هَوَت الكواكب ساجدينا

ينظر إلى قوله تعالى : ﴿إذ قال يوسُفُ لأبيه، يا أبتِ إني رأيتُ أحَدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهمْ لي ساجدين﴾[1]. وقوله تعالى : ﴿يوسُفُ أيُّها الصدّيق﴾[2].

ونجم الدين بن المجاور، في قوله متحدثاً عن جند الله، مشيداً بهم[3]:
إنْ صَبَّحوا الأعداءَ في أوطانهمْ   تركوا ديارهم كقاعٍ صفصفِ

ينظر إلى قوله تعالى : ﴿ويسئلونك عن الجبال، فقل ينسِفُها ربي نسفا. فَيَذَرُها قاعاً صفصفا﴾[4].

والشريف الجواني، في قوله مصوراً النصر الذي أحرزه المسلمون، متمثلاً في الفتح القدسي[5]:
قد جاءَ نصرُ الله والفتحُ الذي   وُعِدَ الرسولُ فَسَبحوا واستغفِروا

ينظر إلى قول الحق، سبحانه وتعالى : ﴿إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾[6].

وفتيان الشاغوري، في قوله مصوراً المعركة[7]:
وأرَيْتُهُمْ لما التقى الجمعان بالبيـ   ـت المُقدَّس هول يوم المحْشَرِ

ينظر إلى قوله تعالى : ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما

---

(1) آية (٤) من سورة يوسف.
(2) آية (٤٦) من سورة يوسف.
(3) كتاب الروضتين ٢/١٠٤.
(4) الآيتان (١٠٥، ١٠٦) من سورة طه.
(5) كتاب الروضتين ٢/١٠٥، دول الإسلام ٢/٩٥، تاريخ الخلفاء/ ٤١٨.
(6) الآيات (١ ـ ٣) من سورة النصر.
(7) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٣.

استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾[1]، وقوله تعالى : **﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله، وليعلم المؤمنين﴾**[2].

وكما بدا تأثر الشعراء بالقرآن جلياً في الحديث عن الفتح والفاتح ، فإنه يبدو كذلك في تصوير المصير الذي آل إليه العدو الصليبي المحتل. فالعماد الأصفهاني يقول[3]:

بواقعة رجت بها الأرضُ جيشهمْ ... دماراً كما بسَّتْ جبالهمُ بَسَّا

وهو في هذا ينظر إلى قوله تعالى : **﴿إذا رُجَّت الأرض رَجًا. وبُسَّت الجبالُ بَسًّا، فكانت هباءًمُنبثًا﴾**[4].

وعبدالمنعم الجلياني ، في قدسيته الكبرى يصور العدو بأصحاب الأيكة ، قوم شعيب، عليه السلام ، ويصور المصير الذي آل إليه العدو، بل آل إليه كلاهما، فأصحاب الأيكة ظالمون لتكذيبهم شعيباً، والعدو الصليبي المحتل ظالم كذلك ، يقول[5]:

أتَـوْا وادياً ما زال ينفي خباثثاً ... ويصفي بعقبى الدار طائفة الهدى
به جثمتْ أصحاب ليْكة وهي في ... ذُراه وَذَا فيه شعيبٌ تأيدا

وهو ينظر إلى قوله تعالى : **﴿وإن كان أصحابُ الأيْكَة لظالمين ، فانتقمنا منهم، وإنهما لبإمام مبين﴾**[6]. وقوله تعالى: **﴿كَذَّب أصحاب ليكة المرسلين، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون. إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون﴾**[7] .وقوله تعالى : **﴿وثمود، وقومُ لوط وأصحاب ليكة، أولئك الأحزاب. إنْ كلٌ إلا كذَّب الرسل، فحقَّ عقاب﴾**[8].

---

(1) آية (١٥٥) من سورة آل عمران.
(2) آية (١٦٦) من سورة آل عمران.
(3) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٤ .
(4) الآيات (٤ ـ ٦) من سورة الواقعة.
(5) كتاب الروضتين ١١٨/٢ .
(6) الآيتان (٧٨ ، ٧٩) من سورة الحجر.
(7) الآيات (١٧٦ ـ ١٧٩) من سورة الشعراء
(8) الآيتان (١٣ ، ١٤) من سورة ص.

وقوله تعالى: ﴿وأصحاب الأيكة، وقوم تُبّع، كُلٌّ كذّب الرسل، فحقّ وعيد﴾ [1].

والجلياني يبدو متأثراً بالقرآن الكريم في تصويره للجيش المحتل، ففي قوله، في القصيدة الفتحية الناصرية القدسية [2]:

والاسبتارُ إلى الدّاوية التَأمُوا كأنهمْ سدٌّ يأجوج إذا استَجرَوا

ينظر إلى قوله تعالى: ﴿قالوا يا ذا القرنين، إنّ يأجوجَ ومأجوجَ مفسدون في الأرض، فهل نجعلُ لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سَدًّا﴾ [3]. وقوله تعالى: ﴿حتى إذا فُتحتْ يأجوج ومأجوج، وهم من كل حَدَبٍ يَنْسِلون﴾ [4].

ويبدو الأسعد بن مَمّاتي، وهو قبطي، متأثراً بالقرآن الكريم، في مدحه للملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، يقول[5]:

سَل البيتَ المقدَّس عنه يُخبر بسورة فتحه لَمّا تَلاها
محا الناقوسَ والصُّلبانَ عنه وأثبتَ «هل أتى» فيها و«طاها»

فهو ينظر إلى قوله تعالى، في سورة الفتح، وسورة الإنسان، وسورة طه: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾[6]، و﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر، لم يكن شيئاً مذكورا﴾[7]، و﴿طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾[8].

★ ★ ★

ويبدو التأثر بالحديث الشريف جلياً في شعر عدد من الشعراء أصحاب القدسيات، من أمثال عبدالمنعم الجلياني، وفتيان الشاغوري، وغيرهما من الشعراء، فالجلياني في قدسيته الكبرى، يتحدث عن الجند فيقول[9]:

---

(١) الآية (١٤) سورة ق.
(٢) كتاب الروضتين ٢/١١٦.
(٣) الآية (٩٤) من سورة الكهف.
(٤) الآية (٩٦) من سورة الأنبياء.
(٥) مطالع البدور ١/٢٢٦.
(٦) الآية الأولى من سورة الفتح.
(٧) الآية الأولى من سورة الدهر.
(٨) الآيتان (١، ٢) من سورة طه.
(٩) كتاب الروضتين ٢/١١٨.

وأعـدى جنـود الـرعب يردي عداته وسـلم جمـيع الـمـسلمين مجنـدا

والشاغوري في قدسيته «تُبنى الممالك»، يقول[1]:

يغـزو الملوكَ الـرُّعبُ قبـل مسيره في عسكـر أفْتِـكْ به من عسكـر

فهما ينظران إلى الحديث الشريف: «أعطيت خمساً لم يُعطهن أحدٌ من قبلي، نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر. . .»[2].

الاتباع

يذكر ابن سناء الملك، في رسالة كتبها إلى القاضي الفاضل، أن الأخير قد وقف على قصيدة لابن سناء، مطلعها[3]:

صِلينـي وهــذا الحسنُ باقٍ فَرُبَّمـا يُعـزَّل بيتُ الـوجـه منـه ويُكْنَسُ

فكتب إليه القاضي الفاضل مبدياً رأيه في القصيدة، ورد عليه ابن سناء الملك في رسالة تحدث فيها عن تأثره بابن المعتز، واحتذائه، وفيها أن «ما أوقعه في الكنس إلا ابن المعتز» إذ يقول:

وفـؤادي مِثْـلُ الـقَـنـاةِ من الـخطِّ وخَـدِّي من لِحـيتـي مَكْـنـوسُ

ويضيف ابن سناء بأنه «لم يزل يجري خلف هذا الرجل ويتعثر»، ولم يزل ينسج على منوال أسلوب ابن المعتز. ويذكر أنه «نظم تلك اللفظة في تلك الأبيات تقليداً لابن المعتز»، وأن طبعه يميل إلى نمط شعر (ابن المعتز)، وأنه نسج على أسلوبه، يقول: «. . . فنسج على هذا الأسلوب، وغلب عليه خاطره مع علمه أنه المغلوب، وحبك الشيء يعمي ويصم. . .»[4]. إن موقف ابن سناء

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤١.

(٢) صحيح البخاري ـ باب الجهاد ٤/٦٥، باب التيمم ١/٩١.

(٣) ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت)/ ٤٢٧، (ط مصر)/ ١٧٣.

(٤) انظر: فصوص الفصول/ عن، ديوان ابن سناء الملك/ ٤٢٨، ٤٢٩، ثمرات الأوراق/ ٣٠، ٣١، الغيث المسجم ٢/٤٢١ ـ ٤٢٣، ابن سناء الملك ـ مشكلة العقم والابتكار/ ٣٠، ٣١، ١٤٠، ١٤١، ابن سناء الملك/ ١٢٠، ١٤٧، ١٥٠، تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ ٥٨٢.

واضـح، في اتبـاعـه أو احتـذائه لابن المعتز في شعره، وفي أسلوبه، ولكنه احتذاء، واتباع، وتقليد يصل إلى درجة يعلل فيها استخدامه لما أُخذ عليه في بيت الشعر، بأن ابن المعتز كان قد استخدم مثل ذلك في شعره، وهذا تعليل غير مقبول. ويكفينا أن تتمثل إجابة القاضي الفاضل بأنه «لا حجة فيما احتج به، عن الكنس، في بيت ابن المعتز، فإنه غير معصوم من الغلط، ولا يقلد إلا في الصواب فقط». ويتمنى القاضي الفاضل لو خلت القصيدة من هذا البيت، فإن لفظة الكنس غير لائقة بمكانها أصلا، ويظل ابن سناء متبعاً أو محتذياً كما تقدم. ويذهب ابن حجة إلى أن ما قاله القاضي الفاضل، يعد نقدا صميما[1]. ولعله كان أولى بابن سناء «أن يعتذر بأنه استخدم لغة العامة واصطلاحهم»[2].

إن ما يذهب إليه ابن سناء، في هذا المثال الذي عمدت إلى ايراده، يوضح شيوع الاحتـذاء والتقليد، في هذا العصـر، للشعـراء السـابقين. وليس هذا فحسب، فإن ابن سناء يقر في احتذائه بأنه المغلوب، كما تقدم. ولعل هذا المثال يعد مثالاً من أمثلة هذه النزعة، أو هذا الاتجاه، حقاً. ويذكر ابن سناء أنه يحاول أن يحتذي حذو البحتري، ولكنه ينفر من صنعة أبي تمام. ويأخذ عليه القاضي الفاضل أنه نقص حظ أبي تمام. وأعطى البحتري أكثر من حقه[3].

ويبين صلاح الـدين الصفدي ان ابن سناء في بيت الشعر الآنف ذكره، يأخذ عن أبي الطيب المتنبي في قوله[4]:

زَوِّدينـا من حُسْـنِ وجهـكِ ما دا ... مَ فحُسْـنُ الـوجـوه حال يحـولُ
وَصِـلينـا نَصِـلْكِ في هذه الـدنـ ... يا فإنّ الـمـقـام فيهـا قليلُ

وهـو في قصيدته هذه التي قالها في سنة ٥٨١ هـ، يمدح فيها السلطان صلاح الدين، ويشيد به في جهاده[5].

(١) انظر: الحاشية (٤) ص ٢٨٣: المصادر نفسها.

(٢) ابن سناء الملك ـ مشكلة العقم والابتكار/ ٣١، وانظر: ١٥، ١٧، ١٨.

(٣) فصوص الفصول/ عن ديوان ابن سناء الملك/ ٤٢٨.

(٤) ديوان المتنبي، ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت) ٤٢٩، الغيث المسجم ٢/٣٣.

(٥) انظر: ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت)/ ٤٢٤ ـ ٤٣٤، (ط مصر)/ ١٧٢ ـ ١٧٦.

إن احتذاء ابن سناء هذا احتذاء مقصود، قلّد فيه ابن المعتز، وغيره من الشعراء. وبدا متأثراً بأبي الطيب محتذياً قوله، ولو أنه لم يشر إليه، كما أشار إلى تقليده ابن المعتز. ولا شك أن تقليده ذاك قد جاء بعد دراسته ابن المعتز دراسة وافية اتجه بعدها إلى ما انتهجه من نهج التقليد.

ولم يكن ابن سناء الملك بدعاً من شعراء العصر الأيوبي. في القرن السادس الهجري، فإن غيره من شعراء هذا العصر، احتذوا أقوال سابقيهم، واتبعوهم واقتدوا بهم، ونهجوا نهجهم. ومن الممكن القول بأن شعراء القدسيات نهجوا نهج أسلافهم من الشعراء، من أمثال أبي تمام، وأبي الطيب المتنبي، وغيرهما من الشعراء. ومن الواضح أن الاحتذاء أو الاقتداء يكون في احتذاء الشعراء المحسنين، والاقتداء بهم، كما يذهب ابن طباطبا[3]. لقد كان شعراء هذا العصر يسعون إلى قراءة شعر هذين الشاعرين أبي تمام وأبي الطيب، وتمثله، والأخذ منه، والتأثر به، واحتذاء نهجه، ومعارضته. إن «اشهرة الشاعر، وتقدم زمانه»، وجودة شعره، كل ذلك يدعو إلى الاقتداء به، واتباعه[4]. ويتحدث عبدالقاهر الجرجاني عن الاحتذاء، فيقول بأن «تقديره، وتمييزه أن يبتدىء شاعر في معنى له وغرض أسلوباً . . . ، فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب، فيجيء به في شعره، فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلاً على مثال نعل قد قطعها صاحبها، فيقال قد احتذى على مثاله»[5]. وهذا ما نجد العديدين من شعراء هذا العصر يصنعونه.

لقد شاع احتذاء الشعراء أصحاب القدسيات، أو اتباعهم وتقليدهم أبا تمام وأبا الطيب كما تقدم. إن الاتباع أو الاحتذاء بهما يمثل ظاهرة عامة أو شبه عامة، في شعر الجهاد القدسي خاصة، وشعر الجهاد كله عامة. ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن هذين الشاعرين كانا أشهر شاعرين وصفا حروب

---

(١) انظر: عيار الشعر/ ١٠.

(٢) انظر: نفسه/ ٧٦.

(٣) دلائل الإعجاز/ ٣٠٥.

سيف الدولة في قصائدهما الروميات. وقد نالت القصائد إعجاب شعراء هذا العصر، فتأثروا بها، وقلدوها، واحتذوا نهجها[1]. إن الاتكاء على شعر هذين الشاعرين، في مجال التراث الحماسي، يمثل نزعة كانت سائدة، وهي نزعة «تتمثل في التطلع إلى التراث الأدبي الموروث باعتباره الغاية التي ينبغي للأدباء أن يتوجهوا إليها، يستقون منها، ويحاولون تقليدها». وكان التقليد واضحاً في التراكيب، والمعاني، والصور، وغيرها[2]. ولكنهم لم يستطيعوا أن يصلوا إلى ما وصل إليه أبوتمام، وأبوالطيب المتنبي.

لقد نظروا إلى شعر أبي الطيب المتنبي على أنه مثال يحتذي الشعراء حذوه، ولم يقتصر ذلك على الشعراء، فإن العديد من النقاد والأدباء ذهبوا إلى ذلك، فابن الأثير الحلبي يكثر من الاستشهاد بشعر المتنبي في وصف المعارك والحروب، وعندما يستشهد مثلاً، بأبيات من لامية أبي الطيب «ليالي بعد الظاعنين شكولُ...». يقول معقباً: «فمن أراد أن يصف شيئاً فليصفه هكذا، وإلا فليصمت». وعندما يستشهد بمدائح المتنبي يقول: «فمن أراد المدح، فليمدح هكذا»[3].

وحازم القرطاجني يعد المتنبي إماماً في الشعر، ويشيد به إشادة بالغة في مواضع عديدة، فمرة يذهب إلى أن مذهب أبي الطيب يجب أن يُعتمد، ويذهب أُخرى إلى أنه ينتمي إلى «الطراز الأعلى»، ويذهب ثالثة إلى أنه «يجب أن يؤتم به» في المراوحة بين معانيه[4].

إذا نظرنا في الشعر القدسي الذي قيل في التغني بالفتح والنصر، نجد أن هذا الشعر الجهادي الحماسي، جاء متأثراً بالشعر الحربي الحماسي الذي قيل في العصور الأدبية السابقة عامة، وفي العصر العباسي خاصة. وفي هذا العصر

---

(١) انظر: شعر الجهاد/ ٢١٦ ،عصر سلاطين المماليك ٨/ ٤٤٧، ٤٤٨.

(٢) انظر: صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني/ ١٣٧، ١٧٢، ١٨٧، ١٩٠.

(٣) جوهر الكنز/ ٧٩، ٨٠، ١٨٠.

(٤) انظر: منهاج البلغاء/ ٨٨، ٢٩٣، ٣٠١، ٣٦٣.

الأخير، كان التأثر كبيراً بالشعراء الذين قالوا شعراً صوروا فيه الحرب مع الروم، وأخص بالذكر أباتمام، وأباالطيب المتنبي، كما تقدم.

والأمثلة التي توضح هذه الظاهرة كثيرة في الأشعار القدسيات، ومن ذلك ما جاء في قصيدة لابن الساعاتي، في فتح طبرية، في سنة ٥٨٣ هـ، ففيها يبدو الشاعر متأثراً بأبي تمام، فهو يصور طبرية عروساً، حصان الذيل، تترفع عن أكف اللامسين، وترفض من يتقدم لخطبتها، وقد بقيت كذلك إلى أن تقدم الرجل المناسب لها، وهو السلطان صلاح الدين، كما يبدو في قوله[1]:

وما طَبَرِيَّةٌ إلا هَدِيٌّ تَرَفَّع عن أكُفِّ اللامسينا
حصانُ الذيل لم تُقْذَف بسوءٍ وَسَل عنها الليالي والسنينا
قَسَتْ حتى رأت كفؤاً فلانتْ وغايةُ كلِّ قاسٍ أن يلينا

وهو ينظر إلى أبي تمام، في قصيدته التي يصور فيها معركة عمورية، حيث يصورها فتاة حيية، بكراً، رفضت من تقدم إليها إلى أن جاءها الخليفة المعتصم[2]:

وبَرْزَةُ الوَجْهِ قد أعيتْ رياضَتُها كِسرى فصَدَّتْ صُدوداً عن أبي كَرِبِ
بِكْرٌ فما افْتَرعَتْها كفُّ حادثةٍ ولا تَرَقَّتْ إليها هِمَّةُ النُّوَبِ
من عَهْدِ إسكَنْدَرٍ أو قبلَ ذلك قد شابَتْ نواصي الليالي وهي لم تَشِبِ

يذكر صلاح الدين الصفدي أن ابن الساعاتي، في قصيدته القدسية «أعيّاً وقد عاينتمُ العُظمى . . .»، يبدو متأثراً بعنترة، ففي قوله:

فقد أصبحتْ نُجْلُ العيون بأرضها مخافةَ هنديّ الظُّبا تُنْكِرُ السُّقما
وأصبح ذاك الثغرُ جذلانَ باسماً والسنةُ الأغماد تُوسِعُه لَثما
وكانت سيوفُ الهند سِرَّ غمودها فها هي سِرٌّ لا تُطيق له كَتما
ينمُّ على فتكاته زَهَرُ القنا كذاك حديثُ الزَّهر يحلو إذا نَمّا
ويخلو مع الخطيِّ من كَلَفٍ به ويحسبه قدّاً فيوسعه ضَمّا

---

(١) ديوان ابن الساعاتي/ ٤٠٦، كتاب الروضتين ٢/ ٨٤، مفرج الكروب ٢/١٩٨، ١٩٩.

(٢) ديوان أبي تمام ١/ ٤٧، ٤٨.

ينظر إلى قول عنترة، وهو مأخوذ منه:

فوددتُ تقبيلَ السيوف لأنها لمعتْ كبارقِ ثغرِك المتَبسِّمِ

ومن قول ابن الحسن بن القبطرية البطليوسي:

ذكرت سُلَيْمى وحرّ الوغى بقلبي كساعة فارقتها
وأبصرتُ بين القنا قَدَّها وقد مِلْنَ نحوي فعانقتها[1]

ويحذو الجلياني، في قصيدته الفتحية الناصرية حذو أبي الطيب المتنبي، في قصيدته «على قدر أهل العزم تأتي العزائم...»، فيبدو متأثراً به في معانيه وغيرها. يقول الجلياني في قصيدته هذه مصوراً الأعداء الغزاة المحتلين أمماً مختلفة، فيقول[2]:

تَغْزو أساطيلُنا منها صقليةً فتذعر الروم والصَّقْلاب والخَزر

وهو ينظر في ذلك إلى قول أبي الطيب[3]:

تَجمَّعَ فيه كلُّ لِسْنٍ وأمَّةٍ فما تُفهمُ الحدّاث إلا التراجمُ

وقوله[4]:

يَجمعُ الرومَ والصَّقالب والبُلْـ ـغر فيها وتجمعُ الآجالا

ويبدو الجلياني متأثراً بأبي تمام، وذلك في قصيدة أُخرى له أنشأها في فتح غزة في سنة ٥٦٧ هـ، ومطلعها[5]:

العزمُ ينفذُ ليس البيضُ والسُّمُر
تلك العزيمةُ منها هذه الأثُرُ

وابن سناء الملك، في قصيدته «صليني وهذا الحسنُ باقٍ فربما...»،

---

(١) انظر: الغيث المسجم/ ٣٣، ٣٤.

(٢) كتاب الروضتين ٢/ ١١٧.

(٣) ديوان أبي الطيب ٣/ ٣٨٥.

(٤) نفسه ٣/ ١٣٧.

(٥) ديوان التدبيج: م/ ٤٦، س/ ٤٥، ظ/ ١٦، كتاب الروضتين ٢/ ١١٥.

الآنفة الذكر، يأخذ عن أبي الطيب المتنبي في مواضع عديدة من قصيدته «على قدر أهل العزم . . . »، ففي قوله متحدثاً عن السلطان صلاح الدين:

يُرَى جذلاً في حومـة الحـرب ضاحكـاً
فلا القلبُ منحـوب ولا الـوجـه مُعْبِسُ

ينظر إلى قول أبي الطيب المتنبي:

تمـرُّ بك الأبـطال كَلْمـى هزيمـة
ووجـهـك وضـاحٌ وثـغـرك باسـمٌ[1]

ويبدو ابن سناء الملك متأثراً بأبي الطيب المتنبي، فبالإضافة إلى ما تقدم ذكره، نجده ينهج نهجه، ويأخذ عنه، في العديد من قصائده، ففي قصيدة له يصور العدو الصليبي وجيوشه، فيقول[2]:

لم تُلاقِ الـجيوشَ منهـمْ ولـكـنّـ ـك لاقَـيْتـهـمُـمْ بلاداً ومُـدنـا
كل من يجـعـل الـحـديد له ثو باً وتـاجـاً وطَـيْلسـانـاً ورِدْنـا

وهو في ذلك ينظر إلى قول أبي الطيب، في تصويره العدو الرومي وجيوشه[3]:

أتَـوْك يَجُـرّون الـحـديدَ كأنَّـهُمْ سَرَوا بجـيـادٍ ما لهـن قوائـمُ
إذا بَرَقـوا لـم تُعْـرَف الـبيضُ منهمُ ثيابـهـمُ من مِثْلِهـا والـعـمـائـمُ

ويبدو الشريف الجواني، محمد بن أسعد متأثراً بأبي الطيب المتنبي أيضاً، ففي قوله من قدسية له مشيداً بالسلطان الفاتح صلاح الدين[4]:

غاراتُـهُ جُـمَـعٌ فإن خطبـت له فيهـا الـسيوفُ فكـلُّ هامٍ منبـرُ

يبدو متأثراً بأبي الطيب في قوله[5]:

---

(١) انظر: ديوان ابن سناء الملك (ط مصر) ١٧٤، ديوان ابي الطيب المتنبي ٣/٣٨٧، ابن سناء الملك حياته وشعره/ ٦٨، ٦٩، ٧٢، ١٤٧.

(٢) ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت) ٨١٦، ٨١٧، مفرج الكروب ٢/٢٣٤.

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي ٣/٣٨٤.

(٤) كتاب الروضتين ٢/١٠٥.

(٥) ديوان المتنبي ٢/٢٢٥.

مُخْلىً له المَرْجُ منصوباً بصارخةٍ له المنابرُ، مشهوداً بها الجُمَعُ

وينهج فتيان الشاغوري نهج أبي الطيب، فيبدو متأثراً به، آخذاً عنه، ففي قدسيته يتحدث عن بناء الممالك، فيقول مستهلاً تلك القصيدة القدسية[1]:

تُبْنى الممالكُ بالوَشيجِ الأسْمَرِ والبيضُ تلمعُ في العجاجِ الأكْدَرِ

وبكلِّ أجْرَدَ شَيْظَمٍ يعدو إلى الهَيْجا بمقْتحم المهالكِ مِسْعَرِ

وهو ينظر في ذلك إلى قول المتنبي، مستهلاً إحدى سيفياته أو رومياته[2]:

أعْلى الممالك ما يُبْنَى على الأسل والطعن عند مُحبيهن كالقُبَلِ

مثل الأمير بغى أمراً فقرَّبَهُ طولُ الرماحِ وأيدي الخيلِ والإبلِ

وهو في قوله، من القصيدة القدسية ذاتها[3]:

واسْتعظَمَ الأخبارَ عنك مَعاشِرٌ فاستصغروا ما استعظموا بالمَخْبَرِ

لعله ينظر إلى قول أبي الطيب أيضاً، في قصيدته: «على قدر أهل العزم تأتي العزائم...»[4]:

وتَعْظُمُ في عَيْنِ الصَّغير صِغارُها وتصغُر في عَيْن العظيمِ العظائمُ

ولعله ينظر إلى قوله (أي المتنبي)، في قصيدته: «أُطاعِنُ خيلاً من فوارسها الدَّهْرُ...»[5]:

وأسْتَكْبِرُ الأخبارَ قَبْلَ لِقائِهِ فَلَمّا التَقينا صَغَّرَ الخَبَرَ الخُبرُ

وهو في قصيدته هذه ذاتها، يقول[6]:

يَغْزُو الملوكَ الرُّعبُ قبل مَسيرِه في عسكرٍ أفتِكْ به من عَسْكَرِ

ولعله ينظر إلى قول أبي تمام، في قصيدته «السيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتُب...»[7]:

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٠.

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي ٣/٣٤، ٣٥.

(٣) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٦.

(٤) ديوان أبي الطيب المتنبي ٣/٣٧٩.

(٥) نفسه ٢/١٥٥.

(٦) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤١.

(٧) ديوان أبي تمام ١/٥٩.

لَمْ يَغْـزُ قومـاً ولـم يَنْهَـدْ إلى بَلَد إلاّ تَقَـدَّمَـهُ جيشٌ من الـرُّعْـبِ
لو لم يَقُـدْ جَحْفَـلاً يومَ الوَغَى لغَداً من نَفْسِهِ وَحْدَها في جَحْفلٍ لَجَبِ

★ ★ ★

وشاعت ظاهرة المعارضات في أدب هذا العصر، ومن ذلك ما نجده شاهدا ودليلاً في الأشعار الجهاديات القدسيات، ولا شك أن المعارضة في الشعر تمثل إعجاباً بالشاعر الذي يعارضه شاعر من هذا العصر، كما تمثل إقراراً بتفوقه. ومن الشعراء الذين شاعت معارضتهم في شعر الحرب أبوتمام، وأبوالطيب، يؤيد ذلك أن العديد من شعراء الحروب الصليبية تأثروا بأبي تمام، وعارضوه في عدد من قصائده، لا سيما قصيدته في فتح عمورية: «السيف أصدق أنباء من الكتب...». ومنهم ابن القيسراني في قصيدته التي مطلعها[1]:

هذي العـزائمُ لا ما تَدَّعي القضُبُ وذي الـمكـارمُ لا ما قالت الكتبُ

والعماد الأصفهاني في قصيدته التي مطلعها[2]:

بالجـدّ أدركتَ ما أدركتَ لا اللعبِ كم راحـةٍ جُنيتْ من دوحةِ التعبِ

كما تأثروا بأبي الطيب المتنبي، وعارضوه في عدد من قصائده أيضاً، ومنها قصيدته: «على قدر أهل العزم تأتي العزائم...»، ومنهم طلائع بن رُزّيك في قصيدته التي مطلعها[3]:

ألا هكـذا في الله تمـضـي الـعـزائـم
وتـمـضـي لدى الحـرب السيوف الصـوارمُ

ويعارضه فيها أسامة بن منقذ في قصيدته[4]:

---

(١) كتاب الروضتين ١/٥٨، مفرج الكروب ١/١٢١، الكامل ١١/١٤٥، زبدة الحلب ٢/٣٠٠، كنز الدرر (الدرة المضية) ٦/٥٥٤.

(٢) كتاب الروضتين ١/١٥٩، ديوان العماد الأصفهاني/ ٧٩، مفرج الكروب ١/١٦٦، تاريخ ابن الفرات م ٤ ج ١/٤٥، سنا البرق الشامي/ ٤١، المختصر ٣/٤٦، تتمة المختصر ٢/١١٦، شفاء القلوب/ ٤٢.

(٣) ديوان طلائع/ ١٣٥، ديوان أسامة/ ٢٢٠.

(٤) ديوان أسامة/ ٢٤٤.

لكَ الفضـلُ من دون الورى والمكارمُ فَمـن حاتمٌ ما نالَ ذا الفخـر حاتم

★★★

يقر الشعراء في هذا العصر بأخذهم من معاني الأقدمين، ولكنهم يحورونها في صياغة جديدة، ويعنون بالصورة الشعرية فيها، ويحلونها بالبديع، وكأنهم بذلك يجددون في صياغة المعنى المطروق، وفي الصورة الشعرية، وغير ذلك[1].

وحاول شعراء القدسيات الاتيان بجديد أو مخترع، في المعنى أو الصورة، أو في غيرهما من المجالات، أو حاولوا توليد معاني جديدة، وذلك كما تقدم في الحديث عن صورة الفتح أو صورة الفاتح، أو صورة المحتل في الفصول السابقة. ولكن ما المقصود بالمعنى المخترع من ناحية، وما المقصود بالمعنى المتبع من ناحية أخرى؟

يتحدث النقاد والأدباء عن الاختراع والاتباع في المعاني، ويذهبون إلى أن «المعاني على ضربين: ضرب يبتدعه صاحب الصناعة، من غير أن يكون له إمام يقتدي به فيه، أو رسوم قائمة في أمثلة مماثلة يَعمل عليها». ويقع «عند الخطوب الحادثة، ويتنبه له عند الأمور النازلة الطارئة». والضرب الآخر هو «ما يحتذيه على مثال تقدم، ورَسْم فَرط»[2]. والمعاني التي يُحتذى فيها على «مثال سابق ومنهج مطروق، كانت جُلّ ما يستعمله أرباب هذه الصناعة» كما يقول ابن الأثير[3]. وهـذا يعني أن المعـاني المخترعة كانت قليلة عندهم[4]. وكان قد صنف ابن الأثير كتاباً سماه «الرسالة في المعاني المبتدعة»[5].

---

(١) انظر: مقالات في النقد الأدبي/ ٣٥.

(٢) كتاب الصناعتين/ ٦٩، العمدة ١/٢٣٢، وانظر: الجامع الكبير/ ٦٨، المثل السائر ٢/٧، ١٤، ٥٥.

(٣) المثل السائر ٢/٥٨.

(٤) العمدة ١/٢٣٢.

(٥) الاستدراك/ ٦٠.

ويُفـرِّق بين الاختـراع والتـوليد، فالمخترع هو الجديد، والمولد هو «أن يستخـرج الشـاعـر معنى من شاعر تقدمه، أو يزيد فيه زيادة، فلذلك يسمى التـوليد، وليس باختـراع لمـا فيه من الاقتـداء بغيره»[1]. ويُفـرِّق بين الاختراع والابداع، وإن كان معناهما في العربية واحداً، فالاختراع هو «خلق المعاني التي لم يُسبق إليها»، والإبداع هو «إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف، والذي لم تجر العادة بمثله» كما يقول ابن رشيق[2]. ويصور أسامة بن منقذ أن كلاً من الابتـداع والاتبـاع فضيلة، يقول: فلهم، ـ أي العلماء المتقدمون ـ «فضيلة الابتداع، ولي فضيلة الاتباع»[3]. وهو يقرر بذلك أنه كان من أصحاب نزعة الاحتذاء، والتقليد، والاتباع. ويرى بعضهم أن «حسن الاتباع» هو «أن يأتي المتكلم إلى معنى اخترعه غيره، فيحسن اتباعه فيه، بحيث يستحقه بوجه من وجـوه الـزيادات التي توجب للمتأخر استحقاقاً، إما بزيادة وصف، أو عذوبة سبك، أو قِصَر وزن، أو تمكن قافية، أو تتميم نقص، أو تكميل لتمامه، أو تحلية بحلية من البديع يحسن بمثلها النظم، وتوجب الاستحقاق»[4]. وسيبدو شيء من هذا في الحديث عن الصورة الشعرية.

---

(١) العمدة ١/٢٣٣، ٢٣٤، تحرير التحبير/ ٤٩٤، ٤٩٧، وانظر: أنوار الربيع ٥/٣٢٨.

(٢) العمدة ١/٢٣٥، وانظر: جوهر الكنز/ ٤٨، ١٥٩، ١٦٠، ٢٣١، تحرير التحبير/ ٤٧١، ٤٧٣، ٤٧٥، ٤٨٨، شرح الكافية البديعية/ ٢٣٩، ٢٩٢، مطلع الفوائد/ ٨، أنوار الربيع ٦/٢٠٤.

(٣) البديع في نقد الشعر/ ٤، ٨.

(٤) انظر: تحرير التحبير/ ٤٧٥، ٤٨٨، شرح الكافية البديعية/ ٢٢١، أنوار الربيع ٦/٥.

الصنعة البديعية:

يشيع في هذا العصر الإسراف في استخدام المحسنات البديعية، فقد وجه الكثير من الشعراء عنايتهم إلى هذه الظاهرة الأدبية، وجعلوها غاية يرنون إليها. وسلكوا إليها كل سبيل، وكان ذلك على حساب المعاني والأفكار في الكثير من الأحيان. وقد أصبحت هذه الظاهرة الأدبية هي مقياس الجودة التي يقاس بها الأدب، عند الكثير من أدباء العصر ونقاده.

ولم تكن العرب «تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس، أو تطابق، أو تقابل، فتترك لفظة للفظة، أو معنى لمعنى، كما يفعل المحدثون. ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض» كما يقول ابن رشيق[1]. وقد كان مقياس الجودة، والمفاضلة بين الشعراء، عند العرب، يقومان على «شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته». ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة. «وقد كان يقع ذلك في خلال قصائدها، ويتفق لها في البيت بعد البيت، على غير تعمد وقصد[2].

ثم تغير الأمر فيما بعد. ويصور ابن رشيق القدماء والمحدثين برجلين «ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه». كما يصور صنيع القدماء بالقدرة والبعد عن التكلف، ويصور صنيع المحدثين بالكلفة الظاهرة عليه[3].

لقد أخذ الشعراء المتأخرون يتفننون في البحث عن الفنون البديعية، بل الأصباغ «التي اتسمت بسمات الحضارة والترف، واتشحت بوشاح العقل المفكر، والعلم الغزير، والمزاج الرقيق، والبيئة الاجتماعية المنظمة»[4].

---

(١) العمدة ١/١٠٨، وانظر: الصبغ البديعي/ ٢٢.

(٢) الوساطة/ ٣٧، وانظر: الصبغ البديعي/ ٢٢.

(٣) العمدة ١/٧٤، وانظر: الصبغ البديعي/ ٥٦.

(٤) الصبغ البديعي/ ٥٦، وانظر: ٥١، ٥٢، ٥٣.

ويعود استفحال هذه الظاهرة إلى عوامل عديدة، أدبية، وفكرية، واجتماعية. لقد كان ديوان الإنشاء، منذ العصر الفاطمي، وفي العصر الأيوبي، ذا أثر في الأدب، وذا أثر في شيوع الصنعة. وكان يتولى رئاسته كبار الأدباء الذين كانوا ينهجون نهج الصنعة، من أمثال القاضي الفاضل. وكان الفاضل بدوره ذا أثر كبير في هذا العصر، وفي أدبائه، من أمثال العماد الأصفهاني، وابن سناء الملك، وغيرهما. وقد كان «يحتل دور المعلم والراعي للأدباء في مصر»[1]، كما يبدو في توجيهه لابن سناء الملك، في فصوص الفصول وعقود العقول». لقد كان للنقاد والأدباء في هذا العصر أثر كبير في شيوع الصنعة والتكلف، فإلى جانب القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، كان الحريري مثالاً يحتذى، في ذلك العصر.

وكان للمجالات الاجتماعية دورها في هذا المجال، وتتمثل في شيوع الحضارة والترف المبالغ فيهما، فتأثر أدب العصر بحضارته وترفه. واتجه الأدباء إلى الزخرفة، والتنميق، والصنعة.

وكثرت المصنفات في هذا المجال، ومما صنف في هذا العصر: «البديع في نقد الشعر» لأسامة بن منقذ، و«مفتاح العلوم» للسكاكي، و«تحرير التحبير» لابن أبي الاصبع، و«جنان الجناس» لصلاح الدين الصفدي، وفض الختام في التورية والاستخدام للصفدي أيضاً، وكشف اللثام عن التورية والاستخدام، وخزانة الأدب، لابن حجة الحموي. ويشير ابن الأثير إلى أنه قد صنفت كتب كثيرة في التجنيس[2]. وهذا كله يدل على العناية الكبيرة بهذه الظاهرة الأدبية.

ولم يقتصر تأثير شيوع هذه الظاهرة، والإسراف فيها، على المعاني فحسب، فقد انعكس تأثيرها على لغة الشعر وأسلوبه.

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ ٥٨١.

(٢) المثل السائر ١/٣٤٢، ٣٤٤.

وإذا كانت هذه الظاهرة الأدبية قد شاعت في أدب هذا العصر بشكل عام، إلا أنها كانت أقل شيوعاً في شعر الجهاد منه في فنون شعرية أخرى، لدى معظم الشعراء الذين قالوا شعراً يصورون به المأساة التي حلت بالمسلمين، من جراء الاحتلال الصليبي، وتمثلت باحتلال بيت المقدس في سنة ٤٩٢ هـ، ثم التنازل عنه في سنة ٦٢٦ هـ، أو قالوا شعراً، متغنين بالفتح القدسي.

ولتوضيح ذلك ننظر في قدسيات هؤلاء الشعراء التي قالوها في الفتح القدسي، لنتبين مدى استخدامهم للبديع وفنونه في قدسياتهم هذه، ومدى تأثرها فكرة، ومعنى، ولغة، وأسلوباً، وموسيقى بهذا البديع وفنونه المختلفة.

أنشأ الجلياني قدسيات عديدة. قال العماد: «وللحكيم أبي الفضل قدسيات طوال كثيرة الفوائد». ويذكر ابوشامة المقدسي أنه وقف على بعضها[1]. ومن القدسيات التي أنشأها القدسية الفتحية الناصرية[2]، والقدسية التائية[3]، والقدسية الكبرى[4]. وهو في هذه القدسيات الثلاث لا ينهج نهج الصنعة، ولا يستخدم المحسنات البديعية إلا في مواطن قليلة جاءت عفوية، طبيعية، فلم يتكلف أو يتصنع في سبيلها، ولم تؤثر في المعاني التي قصد إلى التعبير عنها، ولكننا نجده ينهج نهجاً مختلفاً في قدسيات أخرى، فهو صاحب ديوان التدبيج أو المدبجات القدسيات.

وديوان التدبيج هو غير ديوان المبشرات والقدسيات، يذكر الجلياني نفسه في مقدمة ديوان التدبيج، وهو يعدد دواوينه، ومنها: «الرابع ديوان المبشرات والقدسيات، وهو نظم وتدبيج وكلام مطلق، يشتمل على وصف الحروب والفتوح الجارية على يد صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب، فاتح مدينة البيت المقدس، بإذن الله في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة» . . . ، والسادس

---

(١) انظر: كتاب الروضتين ٢/١٥٥.

(٢) انظر: نفسه ٢/١١٦، ١١٧.

(٣) انظر: نفسه ٢/١٠٣، ١١٧، ١٥١.

(٤) انظر: نفسه ٢/١١٧، ١١٨.

ديوان التدبيج وهو يشتمل على أعاجيب من المدبجات المعجزة النظم» كما يقول[1]. ويذكر في أول ديوانه المبشرات والقدسيات، أنه لم يزل يتابع ذكر غزوات صلاح الدين، «بأصناف المنظوم، والمدبج، والمسجوع، ثم توالت حروبه وفتوحه في الساحل، فعبر عنها بالقصائد القدسيات». ويشيد الجلياني نفسه بما صنع، ويصف ما قاله بأنه من «بدائع المقول»، وما بهر به أرباب العقول، في فنون الكلام. ويذكر أنه أودع قدسياته «من عجائب الاوصاف والأمثال، وغرائب البلاغة». ويبالغ الجلياني فيذكر أن غرائب البلاغة التي تضمنتها قدسياته ستشغل «الأمم بعدنا عن النظر في غيرها إقبالاً عليها»[2]، كما يقول.

ويصف الجلياني النهج الذي نهجه في مدبجاته بقوله: «وقد كنت قدمت له (لصلاح الدين) مدبجات عجيبة في كتاب (منادح الممادح) وغيره. ثم حضر عند صلاح الدين في مدينة بيت المقدس في سنة ٥٨٨ هـ، فاستدعى منه أن ينشىء له تدبيجاً، فأنشأ المدبجة القدسية، ووصفها بأنها «نظم مشتبك، متداخل، من شعر مبسوط، ومضاعف، ومصّدر، ومُنّهر، ومختم، ومشمول منجم، وكل صنف منها قائم بنفسه، تام الصنائع، كامل أدوات البلاغة، وليس فيها ضرورة من ضرورات الشعر التي استجازها الشعراء في مطلق الأشعار، ولا فيها تصحيف حرف من الحروف المشمولة وغيره، ولا فيها تاء تأنيث تقرأ هاء، ولا هاء ضمير تقرأ تاء، على كثرة اشتراكها واشتباكها». ويضيف الجلياني: «بأن الدائرة المضاعفة فيها التي هي ثمانية أبيات، يقرأ منها اثنان وثلاثون بيتاً، ليس في بيت منها تضمين، بل كل بيت قائم المعنى بنفسه لقوة الكلام في ضبط التقدير بوجوه التصريف للاعراب»[3]. ثم يشرح الجلياني كيف تقرأ هذه المدبجة[4].

---

(١) ديوان التدبيج/ ق ٨.

(٢)نفسه/ق٨.

(٣) نفسه/ ق ٨، ٩.

(٤) نفسه/ ق ٩.

لم يستخدم جُلّ شعراء القدسيات البديع في قدسياتهم إلا في مواطن قليلة، ولا نجد في قدسياتهم تكلفاً أو تصنعاً، أو طغيان لفظ على معنى، فابن المجاور لم يعن بالبديع في قدسيته، كما لم يعن به في قصيدته التي قالها في التنازل عن بيت المقدس في سنة ٦٢٦ هـ بين المسلمين والصليبيين(١).

والجويني لا يستخدم البديع في قدسيته: «جند السماء لهذا الملك أعوان»(٢)، إلا في مواطن قليلة، كالجناس بين الصِّيد والصَّيد في قوله(٣):

أضحت ملوك الفرنج الصّيد في يده صَيْدا وما ضعفوا يوماً وما هانوا

والجناس والطباق في قوله(٤):

وهذه سَنَةٌ أكرِمْ بها سَنَةً فالكفرُ في سنةٍ والنصرُ يقظانُ

ولا نرى تكلفاً، أو تصنعاً، أو طغيان لفظ على المعنى، في هذه المواطن البديعية.

والجواني لا يستخدم البديع في قدسيته «أترى مناما ما بعيني أُبصر...»، إلا في مواطن قليلة أيضاً(٥).

والرشيد النابلسي لم يستخدم البديع في قدسيته التي مطلعها: «هذا الذي كانت الآمال تنتظر...»، إلا في مواطن قليلة أيضاً، كالطباق والجناس في قوله(٦):

يا نعمة كَبُرتْ عند الأنام له قدراً ففي كل شكر عندها صِغَرُ
لا تروين لفتوح بعدها قصصاً وان تعاظم منها الخُبْرُ والخَبَرُ
يوم به التأم الكفار في عدد جم ولكن الكسر ليس ينجبرُ

(١) انظر: الروضتين ٢/٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٢) انظر: نفسه ٢/١٠٤ ـ ١٠٥.

(٣، ٤) نفسه ٢/١٠٥.

(٥) انظر: نفسه ٢/١٠٥.

(٦) انظر: عقد الجمان للعيني ٢٥/ حوادث سنة ٥٨٣ هـ، شفاء القلوب/ ١٦٦ ـ ١٦٧، الروضتين ٢/١١٨.

فالـروع متصـل والصبر منفصـل ... والـنقـع مرتفـع والنصـر منحـزر
نقضت ما أبـرموا، أبرمت ما نقضوا ... عمـرت ما هدموا، هدمت ما عمروا
الآن طاب إلى البيت المقدس كالـ ... بيت الـمـحّـرم، إحــرام ومعتمـر
يا بهجة القدس، إن أضحى علم الـ ... ايمــان من بعــد طي وهـو منتشـر
صاروا حديثـاً وكـانـوا قبـل حادثـةً ... على الـورى يتقيّهـا البـدو والحضرُ

وقـد أجمـع النقـاد والأدباء على الإشادة بالشاعر فتيان الشاغوري، فقد وصف العماد الأصفهاني شعره بأنه «نظم كالعقود، ومعنى أرقّ وأصفى من معين العذب البَرود. ولفظ أرق وأشهى من وشي البرود»[1].

ويصفه ابن خلكان بـ «الشاعر الماهر»[2]، كما يصفه ياقوت بـ «النحوي الشاعر الأديب. وكانت له حلقة في جامع دمشق، كان يقرىء النحو. . ، وله أشعار رائعة جداً، ومعان كثيرة مبتكرة»[3].

وأما ابن سناء الملك في قصيدته «لست أدري باي فتح تهنا. . .»[4]، فقد جاءت فيها فنون بديعية بعيدة عن التكلف، كما يبدو في الطباق، والجناس، في قوله[5]:

أنـتَ أحـييتـه وقـد كان مَيتـاً ... ثم أعـتـقـتـه وقـد كان قِنّـا
شاقَ جبـريل بيتـه بيت جبـريـ ... ـل فوافـى إلـيه شوقـاً وحـنّـا
جمـعـوا كيدهـم وجـاءوك أركـا ... ناً فمـن هَدَ فارسـاً فقـد هَدَّركنـا
وتـصـيّدتـهـم بحـلقـة صيد ... تجـمـع الـليث والـغـزال الأغنّـا
يحسـبُ النـومَ يقـظةً ويظن الشـ ... ـخصَ طوداً ويبصـرُ الشمسَ دَجْنـا
ظنّ ظنّـا وكـنـت أصـدقَ في اللـ ... ـه يقـينـاً وكـان أكـذبَ ظنّـا

---

(١) خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ١/٢٤٨.

(٢) وفيات الأعيان ٤/٢٤، وانظر: النجوم الزاهرة ٦/٢٧٤، شذرات الذهب ٥/٦٣.

(٣) معجم البلدان ٣/٣١٠ (مادة شاغور).

(٤) انظر: ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت)/ ٨١٣ ـ ٨٢٠، (ط مصر)/ ٣٤٠ ـ ٣٤٣.

(٥) المصدر نفسه (ط بيروت) ٢/٨١٤، ٨١٥، ٨١٦، ٨١٧، ٨١٨، ٨١٩، ٨٢٠.

والـلعين الإبــرنس أصبــح مذبــو حاً تَمنّى لم يعــدم الـيوم يُمْـنــاً
قد ملكتَ البــلادَ شرقــاً وغــربــاً وحــويتَ الآفــاقَ سَهْــلاً وحَــزْنـا

علماً بان ابن سناء الملك كان متأثراً بالقاضي الفاضل، مقتدياً به، وقد تتلمذ عليه، وظهر أثر ذلك في فنه الشعري في مضمار الصنعة اللفظية: التورية، والاستخدام، والجناس، وغيرها من الفنون البديعية. وكان ابن سناء الملك قد «أحرز في صناعة النثر والنظم غاية» كما يقول العماد الأصفهاني[1]. وكان شاعراً مشهوراً، وصاحب شعر بديع، ونظم رائق، كما يقول ابن خلكان[2]. وهو من أدباء العصر، وشعرائه المجيدين، وأكثر شعره جيد، كما يقول ياقوت[3].

وكان الرشيد النابلسي شاعراً مجيداً، كما يصفه ابن شاكر الكتبي[4]. وكان ذا «نظم مستجاد، يجمع بين السهولة، والمتانة والعذوبة، والرصانة، كما يصفه ابن الشَعَّار الموصلي[5]. ويأخذ عليه القاسم بن القاسم الواسطي بأن شعره كان مزوقاً أو منوقاً أي مبالغاً في اختياره، ولكن ذلك لا يبدو جلياً في قدسية الرشيد النابلسي هذه[6].

وفتيان الشاغوري لم يكثر من استخدام البديع في قدسيته، وهي طويلة تزيد على مائة بيت، أولها: «تُبنى الممالك بالوشيح الأسمر...»[7]. ولم يبدُ متكلفاً، متصنعاً، في سبيل الوصول إلى جناس، أو طباق، أو غيرهما من فنون البديع، ولم يستخدم تلك الفنون البديعية إلا في مواطن قليلة، كالطباق، والجناس في قوله[8]:

---

(١) خريدة القصر ـ قسم شعراء مصر ١/٦٥.
(٢) وفيات الأعيان ٦/٦١.
(٣) معجم الأدباء ١٩/٢٦٥، ٢٧١.
(٤) انظر: فوات الوفيات ٢/٢٧٥.
(٥) عقود الجمان ٣/٣٧٧.
(٦) معجم الأدباء ١٦/٣٠٢.
(٧) انظر: ديوان فيتان الشاغوري/ ١٤٠ ـ ١٤٨.
(٨) نفسه/ ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨.

أعيت وأعجزت البليغ صفاته   فالمسهب المنطيق مثل المُقْصِر
هو كاسرٌ كسرى ومتبع تُبَّعٍ   ذُلّاً أحاط به وقاسِرُ قيصر
كَمْ ردّ من مَلْك عزيز أصعَرِ   يُدعى بمملوكٍ ذليلٍ أصغر
والبيض تنشر وهي غير خواطب   والسُّمر ناظمةٌ وإن لم تَشْعُر
فهناك لم يُر غير نجم مقبلٍ   في إثر عفريتٍ رجيم مُدْبر
كم أودعتْ دَوِّيةً داوية   صرعوا بها في المعرك المستوْعِرِ
وعجمت عود صليبهم فكسرتهُ   وسواك ألفاه صليب المكْسَر
أغلى الأداهم من أسرتَ وأرْخصتْ   بيض الصوارم من نهاب العسكر
واستعظم الأخبار عنك معاشرٌ   فاستصغروا ما استعظموا بالمخبرَ
يا سور صورٍ عاصمٌ منه وهل   سورُ المعاصم عاصمٌ لمُسوَّر
فانهدْ لصورٍ فهي أحسنُ صورةٍ   في هيكل الدنيا بدتْ لمُصِوِّر
فَازت بِقداحُكُم وكُلُّ ملوكها   بَرِمٌ فليس مُيسَّر للميْسِرِ

ولم يكثر ابن الساعاتي من استخدام الفنون البديعية في أشعاره الجهادية القدسية، التي أنشأها في سنة ٥٨٣ هـ. ولا يبدو فيها متكلفاً، أو ساعياً وراء الصنعة. ولعله من الممكن القول بأنه حاول الابتعاد عن الصنعة في شعره القدسي هذا، وهو ربما يختلف في صنيعه هذا عنه في فنونه الشعرية الأخرى.

لقد أنشأ ابن الساعاتي قصيدة في فتح طبرية، كما أنشأ عدداً من القصائد القدسيات، يتغنى فيها بالفتح القدسي، في سنة ٥٨٣ هـ. وفي هذه القصائد، يقلل من استخدام البديع نسبياً. ومن المواطن التي يستخدم فيها الجناس، والطباق، والمقابلة، ورد الأعجاز على الصدور، والتعليل، والتقسيم قوله من قصيدته في فتح طبرية[1]:

فَيالله كم سَرَّت قلوباً   وَيَالله كم أَبْكتْ عُيونا
قَستْ حتى رأتْ كفؤا فلانَتْ   وغايةُ كلِّ قاسٍ أن يلينا
جَعلتَ صباحَ آهلها ظلاماً   وأبدلتَ الزئيرَ بها أنينا

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨.

فكم حازتْ قُدودُ قناك منها قدودا كالقَنا لَوْنا ولينا
أعَدتَ بها الليالي وهي بيضٌ وقد كانت بها الأيامُ جونا
فقلبُ القُدْس مسرورٌ ولولا سُطاك لكان مكتئباً حزينا
وإن تكُ آخراً وخلاك ذمٌّ فإن محمداً في الآخرينا

وقوله في قصيدته في الفتح القدسي[1]:

نقمتَ وأتبعتَ الرِّضى عفو مُحسنٍ فلم يبق لا بُؤسى تُعدُّ ولا نُعمى
إذا عقمت سودُ المنايا قرعتها
ببيضٍ ذكور تولد المحن العُقما
أجلّهُمُ نفساً، وأشرف همة
وألينهم خُلقاً، وأصلبهم عَجما

لقد كان ابن الساعاتي شاعراً مشهوراً، مبرزاً في «حلبة المتأخرين». وقد «أجاد في شعره كل الإجادة»[2].

ويذكر بعض الباحثين أن ابن الساعاتي كان فارساً في مضمار صناعة البديع، وأنه «قصر همه على الافتنان بالمحسنات اللفظية والمعنوية»، وأنه «قلما ترى له قصيدة تخلو من شوائب التعسف»[3]. ولكن إذا صح هذا القول في شعر ابن الساعاتي عامة، فإنه لا يبدو صحيحاً في أشعاره القدسية الجهادية، ومنها الأبيات الشعرية التي استشهدت بها. فإنه لا يبدو فيها متكلفاً، أو متصنعاً، أو قاصراً همه على الافتنان في مجال الصنعة البديعية. ولعلنا لا نرى شوائب فيما استُشهد به من أبيات. يضاف إلى هذا أن الباحث نفسه يصف الشاعر بجودة الطبع. ويضعه في مقابل الطبقة الأولى من شعراء العصر العباسي، وفي مديحه خاصة[4]. ومن مديحه شعره القدسي هذا. وما دام الأمر

(١) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٧.
(٢) وفيات الأعيان ٣/٣٩٥، ٣٩٦. وانظر: شذرات ٥/١٣.
(٣) ديوان ابن الساعاتي (المقدمة)/ ٣٣، ٣٤ ـ ٣٦
(٤) نفسه (المقدمة)/ ٤٤.

كذلك، فكيف يصفه الباحث المذكور بما تقدم.



ولكن هذا الإسراف في استخدام الفنون البديعية، والإغراق في الصنعة، يبدو جلياً في أشعار العماد الأصفهاني، ففيه تكلف، وتصنع، واستخدام الفنون البديعية على أنها غاية في ذاتها وقد عرف العماد بأنه من معلمي الصنعة، في العهد الزنكي، وفي العصر الأيوبي. وقد كان يلتزم الصنعة حتى في أسماء كتبه مثل «الفيح القسي في الفتح القدسي»، علماً بأن القاضي الفاضل هو الذي أطلق هذه التسمية على الكتاب. ولكن العماد كان ينهج النهج نفسه. ولعل العماد تأثر في نهجه هذا، بقراءته في «مقامات الحريري»، المثل الأعلى عند أدباء العصر، فتأثر بأسلوب الصنعة فيها، وكان قد قرأها على شيخه «ابن الخشاب»، في بغداد، كما قرأها على الحريري نفسه[1].

كان العماد مغرماً بالجناس، وغيره من الفنون البديعية. ويشيد به صلاح الدين الصفدي في مجال استخدام الجناس، إذ يقول: «إن الذين رزقوا السعادة في أشياء لم يأت بعدهم من نالها جماعة كثيرة». ويصف إغراقه في الجناس بأنه «ضرب من الرقى والعزائم، ويستحسن ما كان خالياً منه. ويعد شعره ألطف من نثره، لإكثاره الجناس في نثره، ومبالغته فيه، حتى يعود كلامه كأنه رُقىً وعزائم كما تقدم. والناس أصحاب الذوق والفطرة السليمة يعيبون «كثرة التجنيس لأنه دليل التكلف. وقالوا كلما قلّ كان أحسن، ورؤي كالطراز في الثوب، والخال الواحد في الوجنة»[2].

أنشأ العماد الأصفهاني عدداً من القصائد الجهادية، في سنة ٥٨٣ هـ، مهنئاً بالنصر في حطين، والفتح القدسي. وفي قصيدته «أطيب بأنفاس تطيب

(١) انظر: خريدة القصر ـ قسم شعراء العراق (المقدمة) ١/٦٢.

(٢) انظر: الوافي بالوفيات ١/١٣٣، ١٣٤، طبقات الشافعية الكبرى ٤/٩٨، ٦/١٨٢، خريدة القصر ـ قسم شعراء العراق (المقدمة) ١/٦٤.

لكم نفساً . . .»[1]، يستخدم السجع، والطباق، والمقابلة، والجناس، ورد العجز على الصدر، والطرد والعكس، كما يبدو واضحاً في المقدمة الغزلية التي يستهل بها قصيدته هذه. ويبدو متكلفاً تكلفاً جلياً، ساعياً وراء الصنعة، مغرباً في سبيل الوصول إليها، جاعلاً إياها غاية في حد ذاتها، كما يبدو في قوله مصوراً العدو الصليبي بعد الهزيمة التي مُني بها[2]:

وطَهَّرْتَهُ من رِجْسِهِمْ بدمائهِمْ
فأذهبتَ بالرِّجس الذي ذهب الرِّجْسا
ولا تَنْسَ شِرْكَ الشرق غَرْبُك مُرْوياً
بماء الطُّلى من صاديات الظبى الخمسا
سحبتَ على الأُردُن رُدْناً من القَنا
رُدَيْنيَّةً مُلْداً وخَطيَّةً مُلْسا
أَتَوْا شُكُسُ الأخلاق خُشْناً فَلَيَّنَتْ
حدودُ الرقاق الخُشْن أخلاقها الشُّكْسا
طردتهمُ في الملتقى وَعَكَسْتَهُمْ
مُجيداً بحكم العَزْم طرْدك والعكسَا
فكيف مَكَسْتَ المشركين رؤوسَهمْ
وَدَأْبُك في الإحسان أن تُطْلِق المُكْسا

تُقادُ بِدَأْماء الدماء ملوكُهمْ أسارى كَسُفْنِ اليمِّ نطتْ بها القَلْسا
شَكا يَبَساً رأسُ البِرنْس الذي به تَنَدَّى حسامٌ حاسمٌ ذلك اليَبْسا
حَسَا دَمَهُ ماضي الغِرار لغَدْره وما كان لولا غدرُه دَمُهُ يُحْسَى

وفي قصيدته: «استوحش القَلبُ مُذْ غبتمْ فما أَنِسَا . . .»، يستخدم الجناس، والطباق والمقابلة، ورد العجز على الصدر، وغيرها من الفنون البديعية[3].

(1) انظر: ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٠ ـ ٢٣٦، الروضتين ٢/٨٣، ٨٤، ١٠١، ١٠٢، شفاء القلوب/ ١٥٠، معجم الأدباء ١٩/٢٢ ـ ٢٧.

(2) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، كتاب الروضتين ٢/٨٣، ١٠٢.

(3) انظر: ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٢٧ ـ ٢٣٠، كتاب الروضتين ٢/٨٣، ٨٨، ١٠٢.

إن التكلف في استخدام الفنون البديعية، يكون ذا أثر في بناء القصيدة، فهو الذي يسوقها في طريقها، «بدلاً من أن يظل الشاعر هو الذي يتحكم في بناء قصيدته»[1].



تتباين مواقف الأدباء والنقاد من هذا الصنيع البديعي في الشعر، فمنهم من كانوا يذهبون مذهب الصنعة، ومنهم من لا يذهبون هذا المذهب، ومنهم من يقف موقفاً وسطاً.

ينبغي أن يكون العمل الأدبي «سليماً من التكلف. بريئاً من سوء الصنعة»، وهـو إذا سلم من ذلـك، «وبرىء من العيوب، كان في غاية الحسن، ونهاية الجودة» كما يذهب أبوهلال العسكري[2].

إن الفنـون البديعية إذا كثرت دلت على التكلف، وهي «نبذ تُستحسن، ونكت تستظرف مع القلة، وفي الندرة» كما يقول ابن رشيق. وعنده أنه إذا توالى البديع وكثر، «لم يجز البتة أن يكون طبعاً واتفاقاً، إذ ليس ذلك في طباع البشر»[3].

وقد يكون لاستخدام التجنيس، مثلاً، فضيلة، وذلك إذا كان يتلاءم مع المعنى، ويتطلبه. يذهب عبدالقاهر الجرجاني إلى أن «ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمـر لم يتم إلا بنصـرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن. . .، ولذلك ذم الاستكثار منه، والولوع به». ويضيف عبدالقاهر بأن الشعراء لا يجدون «تجنيساً مقبولاً، ولا سجعاً حسناً، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه». وأحلى التجنيس عنده ما وقع «من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه». ويرى أن بعض المتأخرين « شغفوا بأمور ترجع إلى ما له اسم

---

(١) انظر: الصبغ البديعي/ ٢٣٢، ٣٥٤، ٣٧٢.

(٢) كتاب الصناعتين/ ٤٤، ٤٥، ٢٥٨، ٢٦١، وانظر: سر الفصاحة/ ٢٢٧، ٣٢٥.

(٣) العمدة ١/ ١١٠، ١١١، ٢٥٥.

في البديع، حتى نسوا أنهم يتكلمون ليفهموا، وحتى خُيّل إليهم إذا جمعوا بين أقسام البديع في بيت، فلا ضير أن يقع ما عنوه في عمياء، وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده، كمن ثقل العروس بأصناف الحلي حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها». ولكن إذا روعي معه المعنى، أو مع غيره من الفنون البديعية مثل الترصيع، وغيره، كان التجنيس من حُلى الشعر[1]. ويعود جمال الجناس، إذا لم يكن مقصوداً متكلفاً، إلى تناسب الألفاظ وانسجامها، والجرس الموسيقي الناجم عن تماثل الألفاظ[2].

وإلى مثل هذا، يذهب ابن الأثير، فهو يرى أن التصريع، والترصيع، والتجنيس، وغيرها من الفنون البديعية، تحسن في الكلام إذا قلت، وجرت «مجرى الغرة من الوجه»، أو كانت «كالطراز من الثوب». ولكنها إذا كثرت، فإنها لا تكون مرضية، لما فيها من أمارات الكلفة». ويضيف بأن اللفظ في السجع ينبغي أن يكون تابعاً للمعنى، «وكذلك يجري الحكم في الأنواع الباقية من التجنيس، والترصيع، وغيرهما». ويستقبح الفن البديعي إذا كان فيه تكلف وتعسف. والكلفة عنده «وحشة تذهب برونق الصنعة». والأصل في هذا كله «الاعتدال في مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع[3].

ويذهب إلى مثل هذا شهاب الدين محمود الحلبي، فالجناس حسن عنده «إذا قل، وأتى في الكلام، من غير كدر ولا استكراه»[4]، ومثله عبدالرحيم العباسي[5].

ويحمل حازم القرطاجني، المتوفى سنة ٦٨٤ هـ، على شعراء المشرق

(١) أسرار البلاغة/ ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، وانظر: ١٩، ٢٠، ٢٣، دلائل الإعجاز/ ٤١، ٣٤٢.

(٢) فن الجناس/ ٢٩، ٣٠.

(٣) انظر: المثل السائر ١/٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٩، ٣٣٨، ٣٦٥، الجامع الكبير/ ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥.

(٤) انظر: خزانة الأدب/ ٢٠، أنوار الربيع ١/٢٢٥.

(٥) انظر: معاهد التنصيص ٣/٢٤١.

المتأخرين، ويذهب إلى أن بصائرهم قد عميت عن «حقيقة الشعر منذ مائتي سنة، فلم يوجد فيهم على طول هذه المدة، من نحا نحو الفحول، ولا من ذهب مذاهبهم في تأصيل مبادىء الكلام، وإحكام وضعه، وانتقاء مواده التي يجب نحته منها، فخرجوا بذلك عن مهيع الشعر، ودخلوا في محض التكلم»[1].

ويجعل ابن خلدون العجمة في ألسنة الناس علة في الإكثار من المحسنات البديعية، وتغطية على الفقر في المعاني والأفكار، ولذلك ولعوا بالسجع، والجناس، والطباق وغيرها من الفنون البديعية، وضحوا بصحة الشعر، في سبيل استخدام الفنون البديعية. ويحمل ابن خلدون على المكثرين من استعمال تلك الفنون البديعية، المتكلفين فيه. لقد كان ابن خلدون يؤمن ايماناً عميقاً بقيمة الفكرة، ولهذا لا يرضى أن يبددها في ضباب كثيف من المحسنات اللفظية. ويفسر نهجهم هذا بالعجز «عن الكلام المرسل»[2].

إن في هذه الحملة من قبل حازم، وابن خلدون، قسوة وتعميماً، فحازم الذي يحمل على شعراء المشرق المتأخرين في القرنين السادس والسابع الهجريين، قسا في الحكم، وجعله حكماً عاماً، في قوله إن أولئك الشعراء قد عموا عن حقيقة الشعر، وإلا فكيف نجد في المشرق شعراء من أمثال عمارة اليمني، وأسامة بن منقذ، والبهاء زهير، وغيرهم. وهو ينظر إلى أن المتنبي هو المثال الشعري، وينتمي عنده إلى «الطراز الأعلى»[3]. ويوازن بين الشعراء المتأخرين والمتنبي، ولا شك أنهم لم يستطيعوا أن يكونوا مثل أبي الطيب، ولا يذهب أحد إلى ذلك. ولكن هذا لا يعني أننا لا نجد شاعراً حقاً في القرنين المذكورين، كما يقول حازم القرطاجني.

وهل يمكن أن نذهب مع ابن خلدون في وصفه للأدباء المتأخرين؟

---

(١) منهاج البلغاء/ ١٠، وانظر النقد في العصر المملوكي/٦١، ٦٢.

(٢) مقدمة ابن خلدون/ ٥٦٨، تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ ٦١٦، ٦١٧، ٦٢٥.

(٣) منهاج البلغاء/ ٣٠١.

وللإجابة عن هذا التساؤل أقول: هلى كان الكُتّاب في عهده ذوي عجمة وقصور حقاً؟

إنه لمن الغريب أن يصف ابنُ خلدون ابنَ فضل الله العمري، وابن نباتة المصري، وصلاح الدين الصفدي، وغيرهم من الكُتّاب المعاصرين له بالعجمة والقصور. وقوله هذا يمكن أن يندرج على كُتّاب العصر الأيوبي، ومنهم القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير، فهل كان هؤلاء ذوي عجمة وقصور أيضاً؟[1].

ومع كل هذا، فإننا نجد عدداً من النقاد يؤيدون استخدام الصنعة البديعية، فالبغدادي يرى أن التجنيس «يزيد في رونق الشعر، ويحلي في عاطل معانيه، وهو عنوان الفصاحة عنده، وشاهد الاتساع في اللغة...». ولكنه لم يتحدث عما وقع فيه المتأخرون من تكلف وتعقيد[2].

ويحاول ابن الأثير أن يبين العلل الجمالية التي تكمن وراء استخدام فنون البديع، ففي الجناس مثلاً يقول: «إن النفس تتشوق إلى سماع اللفظة الواحدة إذا كانت بمعنين، وتتوق إلى استخراج المعنيين المشتمل عليهما ذلك اللفظ، فصار للتجنيس وقع في النفوس وفائدة[3].

ويعد ابن أبي الإصبع استخدام البديع مقياساً للمفاضلة بين الأدباء، كما يبدو من مفاضلته بين مسلم بن الوليد، وابن سناء الملك، مثلاً. ولكنه يقف من البديع والبديعيين موقفاً ناقداً، إذ يذهب إلى أنه إذا كثر في شعر سمج. ولكن لا يحسن خلو الكلام منه غالباً، وكل ما جاء منه متوسطاً من غير تكلف فهو المستحسن[4].

---

(١) انظر: عصر سلاطين المماليك ٦/ ٢٢٠، ٢٢١، ٢٣٠ ـ ٢٣٢.

(٢) قانون البلاغة/ ٩٠.

(٣) جوهر الكنز/ ٩١.

(٤) تحرير التحبير / ٢٧٢، ٣٠٥، ٣١١ ـ ٣١٢، وانظر: النقد في العصر المملوكي/ ٥٢.

ويرى بعضهم أن الإبداع يتمثل في استخدام عدة ضروب من البديع، في البيت من الشعر، أو الفصل من النثر[1]. ولكن مفهوم الإبداع ليس كذلك، فهو يتمثل في أن يأتي الشاعر أو الكاتب «بالمعنى المستظرف، والذي لم تجر العادة بمثله»[2].

وأما ما يذهب إليه ابن حجة الحموي من إنكار للإكثار من استخدام الجناس، فليس إلا ليرفع من شأن التورية، فهو يذهب إلى أن الجناس ليس مذهبه، ومذهب من نسج على منواله من أهل الأدب كما يقول[3].

إن اتخاذ الصنعة مقياساً للجودة، والمفاضلة، ليس من المقاييس الصحيحة التي ينبغي أن تشيع في الأدب.

وإذا استثنينا أشعار العماد الأصفهاني القدسيات، وبعض أشعار عبدالمنعم الجلياني القدسيات، فإننا نجد العديد مما يذهب إليه النقاد والأدباء الذين لا يذهبون مذهب الصنعة متحققاً. وأما أشعار العماد القدسيات، فإنه نهج فيها منهج الصنعة، وقد ابتعد فيها عن الطبع، فجاء شعره فيها مُصنوعاً لا مطبوعاً. ولعل هذا يدعو العديد من الباحثين إلى اتهام هذا العصر بأدبائه ونقاده بالانشغال «بالزخرف اللفظي، والتوليد العقلي العقيم»، وأنهم وقفوا «عند الكلمة اللغوية طويلاً، واعتمدوا على جرسها اللفظي، فيما أتوا به من جناس مختلف الأنواع، جعلوه همهم في قصائدهم ومقطوعاتهم»[4].

وأما الحكيم عبدالمنعم الجلياني في بعض قدسياته، وأخص بالذكر منها ما جاء في ديوانه (التدبيج)، فهي مصنوعة أيضاً. كما تقدم، ولكننا نجد قدسيات كثيرة للعديد من الشعراء من أمثال ابن الساعاتي، والرشيد النابلسي، والجويني، والجواني، وفتيان الشاغوري، وشجاع بن علي الموصلي، ابتعدت

(١) انظر: أنوار الربيع ٦/٣٢٨.

(٢) انظر: العمدة ١/٣٢٥.

(٣) خزانة الأدب/ ٢٠.

(٤) انظر ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار/ ٢٢، ٢٣.

عن الصنعة اللفظية والبديعية نسبياً، وإن وُجدت الصنعة، جاءت متسمة بروح الاعتدال.

إن «النـظرية النقدية عند العرب، تنص على روح الاعتدال في التعبير، وعدم الايغال في الاستعارة، وفي الخيال إجمالاً»[1].

وفي مجال السجع، يرى العديد من الأدباء والنقاد ان يكون السجع غير متكلف، ولا مقصـود في حد ذاته، وأن يأتي بطلب من المعنى، وأحسنه أن يكون «كالطراز في الثوب. . . ، والخال في الوجه» كما تقدم. وينبغي أن يهجر فيه «التكلف والإغلاق، واستعمال الغريب والعويص، وما يستهلك المعنى، أو يفسده، أو يحيله، ويجب أن يكون الغرض الأول في صحة المعنى، والغرض الثاني في تخير اللفظ، والغرض الثالث في تسهيل النظم، وحلاوة التأليف «كما يذهب ابن عُبيد[2].

وهو محمود «إذا وقع سهلاً ميسراً بلا كلفة ولا مشقة»، ولم يـ صد في نفسه، «ولا أحضره إلا صدق معناه، ، دون موافقة لفظه» كما يقول ابن سنان. ولكنه يذهب إلى أن الرسالة ينبغي ألا تجعل كلها مسجوعة على حرف واحد، لأن ذلك يقع تعرضاً للتكرار، وميلاً للتكلف»[3].

ويدعو ابن أبي الإصبع إلى أن لا يكون الكلام كله مبنياً على السجع، فتظهر عليه الكلفة، وقد يتكلف ارتكاب المعنى الساقط أو اللفظ النازل، لأجل السجع والسجع المراد عنده هو ما جاء «عفواً من غير استكراره» كما تقدم[4].

---

(١) فن الشعر/ ٤٦.

(٢) انظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ ٢٣٧.

(٣) انظر: سر الفصاحة/ ٢٠١، ٢٠٢، ٢١٠.

(٤) تحرير التحبير/ ٤١٤، ٤١٥، وانظر: النقد في العصر المملوكي/ ٤٢٨، ٤٣٠.



الصورة الشعرية

الصورة الشعرية هي أساس الشعر، وروحه، وهو قائم عليها، وهي جزء من مبنى القصيدة، وهي وسيلة الشاعر لتجسيد إحساسه، وتعبيره عن حالة نفسية معينة يعاني منها إزاء موقف معين من مواقفه مع الحياة. إن التجربة الشعرية تنقل، من فكر إلى فكر، بطريقة مباشرة، ولكنها تنتقل إلى الأذهان بطريق الخيال والتصوير. وللصورة أهمية كبيرة في التجربة ذاتها[1].

عني الأدباء والنقاد بالصورة الشعرية منذ القديم، فالجاحظ يذهب إلى أن الشعر «صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير»[2]. وهو يعول على صياغة الأفكار صياغة جديدة مؤثرة تعتمد على التصوير[3].

ويربط ابن طباطبا بين صانع الشعر والنساج، ويعد الشعر نسجاً، كما عده الجاحظ، فهو يصوره «بالنساج الحاذق الذي يفوف وشيه بأحسن التفويف». ويصوره «كالنقاش الذي يصنع الأصباغ في أحسن تقاسيم نفسه». كما يصوره مثل ناظم الجوهر[4]، كما تقدم.

ويعد عبدالقاهر الجرجاني «الصورة الأدبية أساساً للحسن، وهي التي يتوافر فيها حسن النظم»، ويرى أنه «متى حسنت الصورة الأدبية باستكمال حسن النظم، وحسن الألفاظ في مواقعها، فقد حسن الكلام». وهذا يبين أن الحسن فيها عنده، يرجع إلى مراعاة الصياغة والتصوير. وهو يركز على النظم هنا[5]، ولكنه يذهب إلى أن التشبيه، والتمثيل، والاستعارة «أصول كثيرة كأن

(١) انظر: المثل السائر/ ٢٥، ٢٦، فن الشعر/ ٢٣٠، ٢٣٨، ٢٣٩، قضايا النقد الأدبي والبلاغة/ ١٠٨، ١١٠، ١١١، المجاز وأثره في الدرس اللغوي/ ١٣٧، الصورة والبناء الشعري/ ٢٧، ٣٣، النقد الأدبي الحديث/ ٤٤٣، ٤٤٧، قواعد النقد الأدبي/ ٥٢، ٥٣، الشعر والتأمل/ ٨١.

(٢) انظر: الحيوان ٣/١٣٢، دلائل الإعجاز/ ٣٣٠، تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ ٤٢٦، فن الشعر/ ١٢، النقد الأدبي الحديث/ ١٦٦.

(٣) انظر: فن الشعر/ ١٢، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي/ ٢٥٦، ٢٥٧.

(٤) عيار الشعر/ ٥، ٦.

(٥) انظر: دلائل الإعجاز/ ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، النقد الأدبي الحديث/ ٢٧٨، ٢٨٥، الصورة الفنية في =

جل محـاسن الكلام، إن لم نقل كلها، متفرعة عنها، وراجعة إليها، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في تصرفاتها»[1].

إن الفنـون البيانية ذات قدرة على التصـوير، والتشخيص، والتجسيم، فالتشبيه، والاستعـارة، والتمثيل، والكناية، تهدف إلى الايضاح إذ «ترى بها الجماد حيا ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية». وتهدف إلى الايجاز، حيث تعطي «الكثير من المعاني باليسير من اللفظ». كما تهدف إلى التجسيم، فترى «المعاني اللطيفة التي هي خبايا العقل كأنها جسمت حتى رأتها العيون»[2]. وإلى مثل هذا يذهب ابن الأثير، فهو يرى أن علم البيان يهدف إلى «إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخيل والتصوير، حتى يكاد ينظر إليه عيانا»[3]. ومن هذا يتبين أن الاستعارة والتشبيه يقومان بعدة وظائف متباينة في الكلام، فقد تكون التوضيح أو التبيين، أو تكون «الوسيلة العظمى التي يجمع الذهن بواسطتها، في الشعر، أشياء مختلفة، لم توجد بينها علاقة من قبل، وذلك لاجل التأثير في المواقف والدوافع»[4].



ومن مظاهـر العنـاية بالصـورة أن أصـواتـا قد ارتفعت، مثـل ابن سعيد الأندلسي، «لتنصف شعر المتأخرين، ولترى في الصورة الشعرية وحدها سر التفـوق، بل لتفضل الشعر المرقص، والمطرب، على شعر القدماء». ولكن تلك الأصوات «تعلقت بظاهرة واحدة من ظواهر الشعر، ونسيت ما عداها»[5].

= التراث النقدي والبلاغي/ ٢٨٢.

(١) أسرار البلاغة/ ٣٣.

(٢) أسرار البلاغة/ ٥٠، ٥١. وانظر: ابن الأثير/ ٢٧٨، تاريخ النقد في القرن الخامس الهجري/ ٢٢٤، م٢٢، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي/ ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٧٥.

(٣) المثل السائر ١/١١١، ٢/١٢٣ ـ ١٢٤، وانظر: العمدة ١/٢٥٦، ٢٥٩، خزانة الأدب ١٧٣، ١٧٤، أنوار الربيع ١/٢٤٣، ابن الأثير/ ١٧٨، ١٧٩.

(٤) مبادىء النقد الأدبي/ ٣٠٩، ٣١٤.

(٥) فن الشعر/ ٢٤.

ويصنف ابن سعيد الشعر إلى مرقص، ومطرب، ومقبول. ويذهب إلى أن المقبول منه هو ما «لا يكون فيه غوص على تشبيه وتمثيل». كما يذهب إلى أن المرقص، والمطرب جيدان، وذلك لما فيهما من غوص على التشبيه والتمثيل[1]، وهذا هو مقياس الجودة في نظره. وقد شاع المرقص والمطرب في شعر الشعراء المتأخرين، في القرن الخامس، والقرن السادس، والقرن السابع للهجرة، وهذا يعني «إجادة المتأخرين للغوص على التشبيهات، وميل الأذواق إلى طريقتهم»[2].

إننا نجد بين نقاد القرن الرابع الهجري من يذهب إلى مثل ذلك، فابن أبي عون (المتوفي سنة ٣٢١ هـ) يرى ان الشعر يقوم على «المثل السائر، والاستعارة الغريبة، والتشبيه الواقع النادر»[3]. وأما ابن ظافر الأزدي(المتوفى سنة٦١٣هـ، فإنه يصنف في غرائب التشهبيات. ويدل كتابه على عنايته بالتشبيهات الغريبة، بل عنايته بالصورة الأدبية الغريبة. ولعل هذا يعني أن الصورة الادبية الغريبة، كانت تتفق وذوق ذلك العصر[4]، ويذكر ابن حجة الحموي في اختياره للتشبيهات التي تتلاءم وذوق العصر، أن «التشابيه التي تقدم عهدها للعرب، رغب المولودن عنها، فإنها مع عقادة التركيب، لم تسفر عن بديع معنى، إلا ما قل وندر» كما يقول. ويضيف قوله بأن «المراد من التشبيه غرابة أسلوبه، وسلامة اختراعه». ومما يستشهد به من التشبيهات الغريبة تشبيهات للقاضي الفاضل. ويعده «إمام هذه الصناعة»، ويدل هذا على تغير في الذوق، وهو تغير انعكس أثره في الأدب[5] ولكننا نجد مثل هذه الصور الشعرية التي تتسم بالغرابة من

---

(١) المرقصات والمطربات/ ٧، ٨.

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ ٥٣٥، ٥٣٦.

(٣) التشبيهات/١٠ ـ ٢ عن تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ ١٣٠.

(٤) انظر: غرائب التشبيهات (المقدمة)/ ٢٣، ٢٤، (الكتاب)/١ ،تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ ٥٩٠.

(٥) خزانة الأدب/ ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦. وانظر: الأدب في العصر الأيوبي/ ١٦٩، تاريخ النقد في القرن الخامس الهجري/ ٣١.

ناحية، والإثارة من ناحية أخرى، عند عدد من الشعراء أصحاب القدسيات، وخاصة في تصويرهم العدو الصليبي بعد الهزيمة التي مني بها، وفي تركيزهم على تصوير القادة الصليبيين بعد هزيمتهم. ومنه ما سنراه في الحديث عن الصورة الشعرية في قصائد العماد الأصفهاني مثلاً. وقد اقترنت تلك الصورة الغريبة بالصورة الساخرة المتهكمة، وخاصة تلك الصور التي تصور العدو الصليبي المحتل، بعد الهزيمة التي مني بها.



لقد عمد الشعراء في هذا العصر، ومنهم شعراء القدسيات، إلى الأسلوب الفني التصويري، في توضيحهم لمعانيهم، وتشخيصهم لها، واعتمدوا في ذلك على ضروب علم البيان، كما تقدم. وكانوا يلجأون إلى الاتكاء على الأساليب الفنية التصويرية، في شعر أسلافهم من ناحية، أو يلجأون إلى توليد الصور وابتكارها، من ناحية أخرى. وقد كانت الصورة الشعرية وسيلتهم لنقل تجاربهم الشعرية. إن «قوة الشعر تتمثل في الايحاء بالأفكار، عن طريق الصورة، لا في التصريح بالأفكار مجردة، ولا في المبالغة في وصفها»[1].

واستمد الشعراء الكثير من الصور الشعرية. من الواقع الحربي الذي كان المسلمون يعيشونه، في صراعهم مع العدو الصليبي المحتل. وهو الواقع الذي تتعدد محاوره بين الفتح، والفاتح، والعدو المحتل.

ولتبين معالم الصورة الشعرية في هذا الشعر القدسي، نقسمه قسمين، يتمثلان في قصيدة الرثاء، وقصيدة المديح، فأما في قصيدة الرثاء فإننا لا نلحظ عناية كبيرة بالصورة الشعرية، كما سنلحظها في قصيدة المديح، ففي القصيدة المنسوبة إلى الأبيوردي نجد صورة للحالة التي كان المسلمون عليها من جراء الاحتلال الصليبي، وهي صورة توضحت معالمها فيما تقدم. وأما الصورة الفنية، فإننا نجد صوراً شعرية جزئية تقوم على التشبيهات والاستعارات، كأن

(١) دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده/ ٦٠.

يصور الشاعر حياة المسلمين البعيدين عن أرض الصراع في بيت المقدس خاصة، وفي الشام عامة، حياة كلها رغد ودعة، وكأنهم لا يدرون ولا يحسون بما يجري في جزء من عالمهم الاسلامي، كما يبدو في قوله مُعرِّضاً[1]:

أتهويمةٌ في ظل أمنٍ وغبطةٍ   وعيشٍ كنوار الخميلة ناعم

وتقوم الصورة على الموازنة بين الحالة التي كان أهل الشام عليها، والحالة التي كان أهل العراق عليها، فأهل العراق يصورهم يعيشون حياة الرغد، بينما يصور أهل الشام يعانون من الاحتلال، ويصور أفعالهم في قتالهم ضد العدو، وتضحيتهم بالنفوس رخيصة في سبيل الأرض والدين، وكأن مآلهم إلى بطون القشاعم[2].

ويصور الشاعر النساء اللواتي تعرضن لويلات الاحتلال بالدمى، وهن يحاولن أن يخفين محاسنهن بمعاصمهن، كما تقدم.

ويحاول الشاعر أن يصور المعركة، ولكنها صورة جزئية غير محددة، وغير واضحة، وهي صورة إجمالية تشير إلى أنها كانت معركة حامية الوطيس، فالسيوف، والرماح كانت راعفة بالدماء، والطعنات كانت قوية نافذة يشيب لها الولدان كما يقول[3]:

بحيثُ السيوفُ البيضُ مُحمرةُ الظُّبا   وسمرُ العوالي دامياتُ اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفةٌ   تظلُّ لها الولدانُ شَيبَ القوادم

لم يعن الشاعر بتصوير المعركة، وتصوير ما آلت إليه من هزيمة في صورة فنية جلية، محددة المعالم، وكل ما أراده هو تصوير الحالة التي كان المسلمون عليها تصويراً مثيراً من أجل استنهاض همم المسلمين للعمل ضد العدو المحتل.

(١، ٢، ٣) انظر: ديوان الأبيوردي ٢/١٥٦، ١٥٧، الكامل ١٠/٢٨٤ - ٢٨٦، نهاية الأرب ٥/٢٢٥ - ٢٢٧، فضائل القدس لابن الجوزي/ ١٢٦، ١٢٧. المنتظم ٩/١٠٨، البداية والنهاية ٢/١٥٦، ١٥٧، المختصر ٢/٢١١، تتمة المختصر ٢/٢٠، عقد الجمان للعيني ٢٢/٩، تاريخ الخلفاء/ ٣٩٤.

ولم يعن ابن المجاور بالصورة الفنية في قصيدته التي رثى فيها بيت المقدس، وعنى بتصوير الحالة التي وصل المسلمون إليها بتنازل أحد سلاطينهم عن فتوح صلاح الدين، وعلى رأسها بيت المقدس.

★ ★ ★

وقد تجلت عناية الشعراء بالصورة الشعرية في قصيدة المديح، أو في القصائد القدسية التي قيلت في التغني بالفتح القدسي في سنة ٥٨٣ هـ.

وفي هذه القصيدة نرى صورة للفتح أو المعركة، وصورة للفاتح صلاح الدين، وصورة للعدو الصليبي المهزوم، وهي صورة توضحت معالمها فيما تقدم، ونجدها في كل قصيدة من قصائد الفتج القدسي ومما تجدر الإشارة إليه أننا لا نستطيع أن نتبين صورة الفاتح، أو صورة الفتح، أو صورة العدو الصليبي، واضحة من خلال كل قصيدة من قصائد هذا الفتح القدسي. ولكن يمكن ان نرى كلاً منها قريبة من الوضوح في قصائد الفتح القدسي كلها.

ونريد هنا أن نتبين الصورة فنياً، كيف بناها الشعراء، وكيف رسموها، وعلام اعتمدوا في ذلك؟

يصور الشعراء الفتح القدسي، ومعركة بيت المقدس، صورة جلية، ومع ذلك فيمكن القول بأنها لم تكن صورة محددة، واضحة المعالم، تتضمن أخبار الفتح وأحداثه مفصلة، وهذا ما لا يتوقع في الشعر، فالشعر لا يحتمل التفصيل في مثل هذه المواضع، ولا يرمي الشعراء إلى ذلك التفصيل، إذ نجد العماد الأصفهاني في قصائده القدسية التي تغنى فيها بالنصر، وهنأ السلطان صلاح الدين به، يصور معركة حطين التي كانت مقدمة حاسمة للفتح القدسي، معركة حامية الوطيس، فاصلة في تاريخ الإسلام، أزهقت الكفر وأهله، ورجت الأرض من تحت أقدام جيوشهم، كما يبدو في قوله مصوراً الدمار الذي حل بالعدو المحتل، والمصير الذي آل إليه[1]:

---

(١) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٤، كتاب الروضتين ٢ / ٨٣.

بواقعـةٍ رَجَّتْ بهـا الأرضُ جيشهُمْ دمـاراً كمـا بسَّتْ جبـالهمُ بَسَّـا
بطون ذئاب الأرضِ صارتَ قبورَهم ولم تَرض أرضٌ أن تكون لهم رمسا

وقوله مصوراً المعركة[1]:

يا يوم حطينَ والأبـطالُ عابسـةٌ وبـالعجاجة وجهُ الشَّمْس قد عبسا
رأيتُ فيه عظيم الـكفـر مُحتقـراً مُعـفـراً خده والأنـف قد تعسـا

ولم يفصل العماد القول في الفتح القدسي، ونراه يركز في شعره على الفاتح.

وكان عبدالمنعم الجلياني، قد عني بالفتح القدسي عناية واضحة، فقد أنشأ قصيدة قدسية نسبها إلى الفتح فقال: «الفتحية»، ونسبها إلى الناصر فقال: «الناصرية»، ويتحدث فيها عن معركة حطين الفاصلة، وعن الفتح القدسي، ولكنـه ركـز في قصيدتـه على الفـاتـح أيضاً، كما يبدو في قصيدته «الفتحية الناصرية»[2] هذه.

ويصـور الجلياني الفتـح وكـأنـه كان حلماً في تصور المسلمين يتمنون حدوثه، وهو أمر صعب المنال، ويصوره في عظمته بالقادسية، وهو أكثر عظمة من ملاحم الاسكندر ذي القرنين.

وفي الأبيات التي وصلت إلينا من قدسيته الكبرى، يقتصر في حديثه عن الفتح القدسي، على تعليل سرعة هذا الفتح، كما يقول، بأنه سر مغيب[3]، ويبين أن النصر نصر من الله.

ويصوره الرشيد النابلسي أملاً كانت تنتظره النفوس، وهو أمل كان صعب المنال أيضاً، ويصوره فتحاً عظيماً لا يوفيه الشعر والنثر حقه من القول بل انه

---

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٢٩، كتاب الروضتين ٢/ ٨٣.

(٢) انظر: الروضتين ٢/١١٦، ١١٧.

(٣) انظر: نفسه ٢/١١٦، ١١٧، ١١٨.

يجل عنهما، وهو أكثر عظمة من غيره من الفتوح. ويبرز يوم الفتح يوماً أغر، يوماً «تعالى كلاًّ، واستنار سناً». ويصور آثار الفتح النفسية والدينية(١).

ونجد شعراء آخرين يصورون الفتح القدسي. وتبدو الصورة عندهم أكثر وضوحاً منها في شعر العماد الأصفهاني، أو في شعر الحكيم عبدالمنعم الجلياني. ومن أولئك الشعراء أبوعلي الحسن بن علي الجويني، علماً بأنه كان مقيماً في مصر، ولم يشهد الفتح والمعركة، وهو يصور الفتح القدسي بأنه نصر من الله، شاركت فيه جند السماء، وهو معجزة من المعجزات، وبأنه فتح كفتوح الانبياء، ويصور عظمته. ويذكر أنه لو تم في العهد النبوي لنزلت به آيات كريمات. ويحدد السنين التي بقي فيها بيت المقدس محتلاً(٢).

ويتحدث الشريف محمد بن أسعد الجوّاني عن الفتح القدسي العظيم، ويصور عظمته التي جعلته حائراً، وكأنه لا يصدق ما جرى، كما يصور تطهير بيت المقدس(٣).

ويصور ابن الساعاتي الفتح القدسي بالآية العظمى، سائغاً في كل منطق، ويصور الآثار النفسية التي نجمت عنه لدى المسلمين، وعدوهم المحتل، كما يصور المشاعر في مكة والمدينة إزاء الفتح القدسي العظيم(٤).

وجاءت الصورة الشعرية الفنية في الحديث عن الفتح القدسي نفسه مستمدة من الفتح وآثاره.

ويصور العماد الأصفهاني معركة حطين الفاصلة، مقدمة الفتح القدسي، وقد ثار فيها غبار المعركة، وكاد نهارها يتحول ليلاً، وقد عبس وجه الشمس، وكاد ضياؤها يذهب. ويصور فرسان المعركة، وسيوفها ورماحها، وخيولها،

---

(١) انظر: الروضتين ٢/١١٨.

(٢) انظر: نفسه ٢/١٠٤، ١٠٥.

(٣) انظر: نفسه ٢/١٠٥.

(٤) انظر: ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥ ـ ٣٨٨، مفرج الكروب ٢/٢٣٤، كتاب الروضتين ٢/١٠٦.

فالفرسان أسود وغى، وهم حيات عظيمة، تتوق إلى اجتثاث العدو، والسيوف والرماح الردينية هي التي تقوم عناد العدو وغلظته، وقد تقدم الاستشهاد بأبيات العماد في قدسيته[1].

ويصور الجلياني حطين وجحافلها، وما ألحقته بالعدو المحتل، ويعجب مما لحق بهم، ويتساءل: هل تهود الغزاة فسبتوا، أم سكروا بكؤوس الطعنات النافذة، أم لقوا رجفاً بكفرهم؟ ويصورها في قدسيته الكبرى وقد صيرت الفرنج «حيرى وشردا» كما يقول[2]. وقد تقدم الاستشهاد بهذه الأبيات.

يصور الشعر هذا الفتح القدسي عظيماً، يفوق غيره من الفتوح، ويغطي على آثارها، فهو كالشمس التي يغطي ضياؤها كل ضياء كوني آخر، اذا ما ووزن بالفتوح الاخرى، كما يبدو في قول فتيان الشاغوري[3]:

فتح تطأطأ كلُّ فتح دونه　　كالشمس تكسف كل جسم نيرٌ

ويصور الشاغوري هذا الفتح ملحمة خطت بالسمهري، وأعجمت بوقع السهام، وأعربتْ بضرب الحسام، وكتبت بالدماء، وكان دفترها الثرى. ويصور السيوف تنثر الرؤوس هنا وهناك، والرماح تنظم، والخيل نشوى يُطرب صهيلها، كما يطرب نسيب البحتري تغني به النحيلة[4]. وقد تقدم الاستشهاد بهذه الأبيات.

وبأسلوب التشخيص والتجسيم، يصور الملحمة حياة للهدى، وموتاً للكفر، إذ يصور الشرك موءودا، وقد وأده المسلمون بقيادة صلاح الدين، وبذا عاد الإسلام مستبشرا بزوال الاحتلال، كما تقدم في الحديث عن الفتح القدسي.

ويصورها ابن الساعاتي معركة ضروساً وقد طلب منه العدو السلم والأمان يقول[5]:

---

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٤، كتاب الروضتين ٢/٨٣ وانظر ص ٧٦ من هذا البحث.

(٢) انظر: الروضتين ٢/١١٦، ١١٧.

(٣) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٢ وانظر ص ٥٤ من هذا البحث.

(٤) نفسه/ ١٤٣.　　(٥) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٦.

رأوا حَرَباً يستتبُّ حرب كريهةٍ فقد طلبوا منه السَّلامة والسّلما
يقابلهم طعنا فإنْ ثبتوا له فضرباً فإن لم يُغنِ أرداهُمُ هَدْما

ويصور ابن الساعاتي البلاد مستبشرة بعد ان خلصت من داء الاحتلال الذي أعيا دواؤه كما يقول الشاعر، إلى ان امتشق الحسام العضب، ووضع الأمور في نصابها، كما تقدم ويصور الشاعر الحسام يقبل الثغر بحرارة وقوة، ويعلن الحسام سره، وكأنه العاشق المتيم الذي لم يطق كتمان السر، كما يبدو في قوله[1]:

وأصبح ذاك الثغرُ جذلان باسماً وألسنةُ الأغماد توسعه لثما
وكانت سيوفُ الهند سرَّ غمودها فها هي سرٌّ لا تطيق له كتما
ينمُّ على فتكاته زهر القنا كذاك حديث الزهر يحلو إذا نمّا
وتخلو مع الخطى من كَلفٍ به وتحسبه قدّا فتوسعه ضمّا

ويصور العماد الأصفهاني النصر في معركة بيت المقدس مميتاً للشرك وأهله، ناشراً لواء الهدى، وهو يعمد إلى اسلوب التشخيص في تصويره كما تقدم في الحديث عن صورة الفتح القدسي[2].

ويصور كيف لبست مدينة بيت المقدس لباس الدين، ونزعت لباس الكفر، فعادت إلى ما كانت عليه في قداستها، وفي إقامة الشعائر الدينية في مقدساتها، يقول[3]:

نزعتَ لباسَ الكفر عن قدسِ أرضها وألبستها الدّين الذي كشف اللُّبْسا

ويصور تطهير بيت المقدس من العدو الصليبي وشعاره، بتطهير مكه من الأنصاب[4] كماتقدم.

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥، ٣٨٦، كتاب الروضتين ٢/١٠٦، الغيث المسجم ٢/٣٣ وانظر ص ٤٨ ، ٥٩ من هذا البحث.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني/٧٥، كتاب الروضتين ٢/١٠٢، وانظر ص ٥٩ من هذا البحث.

(٣) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٢، كتاب الروضتين ٢/١٠٢.

(٤) انظر: ديوان العماد الأصفهاني/ ٧٦، سنا البرق الشامي (خ)/ ٣٦، ٢٠١، الروضتين ٢/١٠٣.

ويصور الحكيم عبدالمنعم الجلياني الكفر، وقد أقام المآتم، ويصور الحق والإيمان وقد أقاما الأفراح تعبيراً عن البشرى بالنصر العظيم، كما يبدو في قوله بأسلوب التشخيص(١):

والحقُّ يعرس والطغيانُ منتحِبٌ والكفرُ يطمس والايمان مُزدَهرُ

ويصور ابن الساعاتي سيوف صلاح الدين وجنده في معركة بيت المقدس، مستخدماً اسلوب التشخيص، وألفاظ الغزل في شعر الحرب، كما كان يصنع أبوالطيب المتنبي أو أبوتمام، يقول(٢):

وما زلت تحمي كلَّ شَماءَ بالظبى إلى أنْ أخافتْ بيضُك الأنُفَ الشُّما

يميناً لقد أنكحتها يوم هَدْيها صدورَ المواضي البيضِ والسُّبقِ الدُّهْما

★★★

ويصور الشعراء الفاتح السلطان صلاح الدين صورة تبدو واضحة المعالم في الشعر الذي قاله الشعراء متغنين بالفتح القدسي العظيم، كما بدا واضحاً فيما تقدم. والحديث عنه هنا يتمثل في تبين الصورة الفنية التي صور بها الشعراء الفاتح صلاح الدين.

يصور الشعراء صلاح الدين القائد الشجاع، صاحب العزم والقوة، ولا يخرج الشعر عن المألوف في تصوير شجاعته وقوته، فيصورونه أسداً مرة، وقانصاً مرة أخرى، وفي يده أعداؤه، وكأنهم سرب من الطير، كما يبدو في قول الشاعر عبدالمنعم الجلياني(٣):

أهوَى إليهم صلاحُ الدين مفترساً وهو الغضنفرُ عدَّى ظفره الظفرُ

أملى عليهم فصاروا وسط كفته كسربِ طيرٍ حواها القانصُ الذَّكرُ

(١) كتاب الروضتين ٢/١١٧.

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٦.

(٣) كتاب الروضتين ٢/١١٦، ١١٧.

وقول الحسين بن علي الجويني[1]:

أضحتْ ملوكُ الفرنجِ الصَّيدُ في يده صَيْداً وما ضعفوا يوماً وما هانوا

ويصوره الشاغوري حليماً متسامحاً، يعم حلمه وتسامحه المسلمين وأعداءهم، كما تقدم، وكأن لهما رائحة طيبة تعبق الأرجاء كرائحة المسك، كما يبدو في قوله[2]:

والحلمُ والعفوُ اللذين شَذاهمُا متضَوعٌ كأريج مسكٍ أذْفرِ

ويصوره ابن سناء الملك بدراً في سناه، وقد طلع من غياهب الظلام ليخلص المسلمين مما يرزحون تحته من ويلات الاحتلال، فكان في صنيعه وفعله الحسن، مثل يوسف عليه السلام، يقول[3]:

قُمْتَ في ظُلمة الكريهة كالبد ر سَناً والبدرُ يطلع وَهنا
لم تقف قطُّ في المعارك إلا كُنت يا يوسفُ كيوسف حُسنا
تجتني النصرَ من ظُباك كأن الـ ـعضبَ قد صحفُوه أو صارَ غُصْنا

ويصوره ابن الساعاتي في بصيرته وسداد رأيه، كأن له علماً بالغيب، يقول[4]:

بصيرٌ بما تنوي قُلوب وفوده كأنَّ له بالغيب من وَفْدِه علما

ويصور الجواني طعنه بالرمح نظماً، وضربه الرؤوس بالسيف وبعثرتها هنا وهناك نثراً، فتخضع رقاب الأعداء، وتخشع عيونهم، وتتمرغ جباههم في التراب، ويصور غاراته بالصلوات في أيام الجمعة، وفيها يصور السيف خطيباً فوق الهامات متخذاً منها منبراً، كما يقف الخطيب فوق المنبر في يوم الجمعة، يقول[5]:

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١٠٥.

(٢) ديوان فتيان الشاغوري ١٤٠، وانظر ص ٧٧ من هذا البحث.

(٣) ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت)/ ٨١٦، مفرج الكروب ٢/٢٣٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٩١، ٩٢.

(٤) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥.

(٥) كتاب الروضتين ٢/١٠٥.

نثـرٌ ونـظمٌ طَعْـنـهُ وضـرابُـهُ فالـرمـحُ ينـظمُ والـمهنَّـدُ ينثـرُ
حيث الـرقـابُ خواضعٌ حيث العيو نُ خواشـعٌ حيث الـجباةُ تُعـفَّـرُ
غاراتـه جمـعٌ فإن خطبـتْ له فيهـا الـسيوفُ فكـلُّ هامٍ منبـرُ
إذ لا ترى إلا طُلىً بسـنـابـك تُحـذى نعـالاً أو دمـاءً تهـدر

تتسم هذه الصور الشعرية في الحديث عن صورة الفتح، وصورة الفاتح، وصورة المحتل كما سنتبينها، بأنها تمور بالحركة، مما يكسبها حيوية وجمالاً، وهي حركة سريعة صاخبة غالباً، تتناسب وجو المعارك التي دارت آنذاك بين المسلمين والفرنج.

ويعتمد الشعراء في هذه الصور على التشبيهات، والاستعارات، وغير ذلك من ضروب علم البيان، وهي أصول يعود إليها جُلّ محاسن الكلام، كما تقدم.

إن هذه الصور الشعرية تنبع من الحدث، أي من الواقع الحربي القائم آنذاك، وهي صور تتسم بالواقعية، فهي مستمدة من الحدث المتمثل في الفتح القدسي، ومن شخصية فاتح بيت المقدس السلطان صلاح الدين.

وعلى الرغم من أن هذه الصور الشعرية قد جاءت مستقاة من الواقع الذي عاشه الشعراء، فإنها تبدو في بعض جوانبها، صوراً تراثية يعتمد قائلوها على التراث الشعري السالف، فالصور التي تمثل الشجاعة، والجود، والرفعة، صور تشيع في التراث الشعري منذ القديم.

وكانت هذه الصور الشعرية، في قسم ملموس منها، صوراً تقليدية نهج فيها شعراء القدسيات نهج سابقيهم من الشعراء.

إن ابن الساعاتي في تصويره صلاح الدين وكأن له علماً بالغيب، يبدو متأثراً بالمتنبي في تصويره سيف الدولة، والجلياني في تصويره غارات صلاح الدين، وكأنها صلوات الجمع، وكان السيف خطيباً فيها، وكأن الهامات منابرها، ينظر في ذلك إلى أبي الطيب في تصويره غارات سيف الدولة أيضاً.

وهذه مظاهر من الصور الشعرية التي تعتمد على التراث الشعري السالف.
ومن ذلك تصوير الشعراء الجيوش سيولاً هادرة، أو بحراً متلاطم الأمواج، أو أطواداً شماء، فهذه كلها صور تراثية أيضاً.

ومن تلك الصور الشعرية التراثية تصوير دماء الأعداء بحاراً طفت جثثهم فوقها، أو تصوير إقامة الولائم للوحوش، وكأنها ولائم الأعراس.

ولكن قسماً من تلك الصور الشعرية يتسم بالجدة، وأخص بالذكر ما يصور فيه الشعراء مصير العديد من قادة الأعداء. وتتسم هذه الصور، إلى جانب ما فيها من الجدة، بأنها صور تهكمية، ساخرة، غريبة، مثيرة، كما ستتبينه فيما بعد.

وجاء قسم من هذه الصور الشعرية التي تصور الفتح، والفاتح، والمحتل، مستمداً من التراث الديني، ومن ذلك ما يبدو في تصوير المصير الذي آل إليه الأعداء، فكأنهم جبال في عظمتهم قبل المعركة، ولكنهم آلوا إلى جبال منكوشة من الصوف، أو كأن فرسانهم سد يأجوج، ولكن ذلك لم يُجْد شيئاً، فقد لقوا جزاءهم كما لقيت قرية مدين جزاءها، كما ستتبينه موضحاً بأمثلة من الأشعار القدسيات.



ويصور الشعر العدو الصليبي المحتل، صورة واضحة المعالم. وتجدر الإشارة إلى أن تلك الصورة ذات وجهين، وجه يتمثل في صورة العدو قبل الهزيمة التي مُني بها، ووجه آخر يتمثل في صورة العدو بعد الهزيمة كما تقدم.

برز عنصر المقابلة لدى الشعراء بين الصورة التي كان العدو الصليبي عليها قبل الهزيمة في معركة حطين، وفي معركة بيت المقدس، والصورة التي آل اليها بعد الهزيمة في المعركتين، فابن الساعاتي يصورهم أسوداً تضطرم جوانبها بالزئير، ولكن زئيرها ذاك تحول إلى أنين بعد الهزيمة، كما يصورهم رجالاً

أشاوس استحالوا نساء، كما يبدو في قوله[1]:

جَعَلْتَ صباحَ آهلها ظلاماً ... وأبْدلتَ الزئيرَ بها أنينا
تخالُ حُماةُ حوزتها نساءً ... يخوضون الحديد مقنعينا

ويصور مصيرهم الذي آلوا إليه، وهو مصير قررته السيوف المنتشية بالنصر، المتغنية بأهازيجه، وكأنها الطير يشدو بأعذب الالحان، ويصور الرماح تهفو اليها الطير، وكأنها الغصون، وقد كانت السيوف هادية لها في المعركة الضروس، يقول[2]:

لبيضك في جماجمهمْ غناءٌ ... لذيذٌ عَلَّم الطيرَ الحنينا
تميلُ إلى المثقَّفة العوالي ... فهلْ أمستْ رماحاً أم غُصونا
يكاد النقع يذهلها فلولا ... بُروق القاضبات لما هدينا

ويصور الدهر واحداثه كميناً، كان لهم بالمرصاد، وكان لهم خوَّانا، يقول[3]:

لقد جاءتهمُ الأحداث جَمعاً ... كأنَّ صُروفها كانتْ كمينا
وخانهُمُ الزمانُ ولا مَلامٌ ... فلست بمبغضٍ زمناً خؤونا

ويصورهم العماد الأصفهاني، وقد آلوا إلى اسوأ مصير، فقد رفضتهم الأرض، ورفضت أن تكون فيها قبورهم، فكانت قبورهم بطون ذئاب الأرض، ويصورهم جماعات من الفراش تتهافت على نيران السيوف، فأين أولئك الأبطال الذين كانوا يزأرون قبل المعركة، يقول[4]:

وطارتْ على نار المواصي فراشُهُمْ
صلاءً فزادتْ من خُمودهم قبسا
وقد خشعتْ أصواتُ أبطالها فما
يعي السمعُ إلا من صليل الظبى هَمسا

(١، ٢، ٣) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٧، ٤٠٨، كتاب الروضتين ٢/٨٥، مفرج الكروب ٢/١٩٩، ٢٠٠.
(٤) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٥، كتاب الروضتين ٢/٨٣.

وتتكـرر بعض معالم هذه الصورة عند الجلياني، فيصورهم فراشاً، كما صورهم العماد، يقول[1]:

هُمُ الفـراشُ لهيبُ الحـرب تَصرعُهُ   وكُـلَّمـا لجَّ صدمـا لَجَّ مَقـتـلُه

ولا يقتصـر الجلياني على تصـويرهـم بجماعات الفراش، فيصورهم في قدسيته الفتحة الناصرية، سرباً من الطير اصطاده صلاح الدين، كما تقدم.

ويصورهم ابن سناء الملك وكأنهم في حلقة صيد تجمع بين الكائنات المتنافرة، بين الليث والفاتنة الحسناء التي يصورها بالغزال الأغن، كما يبدو في قوله[2]:

وتَـصـيَّدتَـهُـمْ بحـلقـة صَيْدٍ   تجمـعُ الـلَّيْثَ والـغـزالَ الأغنّـا

ولا يقتصر الشعر على تصوير الحالة الحسية التي آلوا إليها، فإنه يصور الحـالـة النفسية التي أصبحوا عليها بعد الهزيمة. ومن ذلك ما يبدو في قول الجلياني متحدثاً عن ملك العدو الصليبي وقادته، مصوراً ما لحقهم من الذل والقهر، وكأنهم مقيدون بحبال منها، كما يبدو في قوله[3]:

إزاءه زعـمـاء السـاحـلين معـاً   مصفـدين بحبـل القهـر قد أسـروا

ويصور الشاغوري جيوش الفرنجة أسوداً قبل الهزيمة ثعالب بعدها، كما تقدم في الحديث عن صورة المحتل[4].

ويرى الجلياني الجيوش الغازيـة سيولاً هادرة، في عددها وعُددَها، ولكنها اصبحت غثاء كغثاء السيل، كما يبدو في قوله[5]:

وجـروا جُيوشاً كالسيول على الصوا   فآضتْ غُثـاءً في البـطاح مُمَـدَّدا

ويصور فتيان الشاغوري تلك الجيوش بحراً متلاطم الأمواج كما يبدو في قوله[6]:

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١٥١.   (٢) ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت)/ ٨١٧.

(٣) كتاب الروضتين ٢/١١٧ وانظر نفسه ٢/١١٨، ص ١٠٣ من هذا البحث.

(٤) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٤ وانظر ص ١٠٣ من هذا البحث.

(٥) كتاب الروضتين ٢/١١٧ وانظر ص ١٠٤ من هذا البحث.

(٦) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٣، ١٤٤.

جاشَتْ جيوشُ الشّرْك يومَ لقيتهمْ ... يتذامرون على متون الضُمَّرِ
وكأنهم بحرٌ تدافع مَوْجُه ... بُظبيً وزُعفٍ مُحكم وسَنَوَّرِ

ولكن تلك الجيوش لم تستطع الصمود أمام جيوش المسلمين، فقد استطاعت رماح المسلمين أن تتخذ من صدورهم موردا، وولغت في دمائهم التي كانت تجري بحاراً، ويصورهم الشاعر مُولين من ساحة المعركة، وكأنهم عفاريت مدبرة تتبعهم نجوم تخر من السماء، وتطاردهم عقبان المنون، يقول فتيان الشاغوري[1]:

أوْردتَ أطرافَ الرماح صدورهمْ ... فَوَلغْنَ في علق النجيع الأحمَرِ
فَهُناك لم يُرَ غير نجمٍ مقبلٍ ... في إثر عِفريتٍ رجيمٍ مُدبرِ
وَلَّوا وعقبانُ المنون مُسفةٌ ... والخيلُ تَعثر بالقنا المتكسِّرِ
لا ينظرون سوى حُسامٍ مُشهرٍ ... ومن الدماء كأنَّه لم يُشهَرِ
رُفعتْ سماءٌ من سنابك خيلهم ... مُسْوَدَّةٌ أرجاؤها من عثيرِ
فَمَن الذي من جيشهم لم يُخترمْ ... قتْلاً ومَنْ مِنْ جمعهم لم يُؤسَرِ

ويصورهم الشاغوري صرعى ملطخين بدمائهم، وكأنهم تماثيل من الكافور الملطخ بالعنبر، كما يصورهم وقد أقبلت الطير تنوش حداقهم الزرقاء، وكأنها فصوص من الجواهر، كما يبدو في قوله[2]:

صَرْعَى كأنهمُ تماثيل من الـ ... ـكافور من دَمهم رُدِعْنَ بعَنبَرِ
نهبت عُفاةُ الطير من حَدَقٍ بها ... زرقٍ فصوصاً من نفيس الجوهر

وهكذا لقي العدو الصليبي أسوأ مصير آل إليه، ويصورهم وقد حُصدوا، ودُرسوا وذُرّوا، وكأنهم نبات زُرع، ثم حصد ودرس وذري، ولكنهم ليسوا كذلك، فلم يُلقوا غير بذور الغدر، فلاقوا شر ما صنعوا، كما يبدو في قول الشاغوري[3]:

حُصدوا وكان الغدرُ بَذْرَهُمُ فَقَدْ ... دُرسوا به وذُروا بأوْخَم بَيْدَرِ

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٤، وانظر ص ١٠٣ من هذا البحث.
(١، ٣) نفسه/ ١٤٥.

ما إنْ ترى إلا مساكنهمْ وهمْ صَرعَى الصَّوارم باليبابِ المُقْفِرِ

ويصورهم ابن سناء الملك جبالاً في عظمتهم، ولكن تلك الجبال تحولت إلى جبال منفوشة من الصوف، ولم يُجدِ ما أعدوه فتيلاً، فأين هي جيوشهم، وأين حديدهم الذي اتخذوه لباساً وسلاحاً، ويعلل ذلك بخيانة السلاح لهم، كما يبدو في قوله ساخراً[1]:

حُمِلوا كالجبال عِظْماً ولكن جعلتها حَمْلاتُ خيلك عِهْنا
جَمَعُوا كيْدهُمْ وجاءوك أركا ناً فَمَنْ قدَّ فارساً هَدَّ رُكْنَا
لَمْ تُلاقِ الجيوشَ منهمْ ولكنـ ـك لاقيتهمْ بلاداً ومُدْنا
كلُّ من يجعل الحديدَ له ثو باً وتاجاً وطَيْلساناً ورِدْنا
خانهمْ ذلك السلاح فلا الرمـ ـحُ تَثَنى ولا المُهند طنَّا

ويصورهم في جبنهم يتخذون الدروع والتروس طريقاً لفرارهم، يقول[2]:

أشجَعُ القومِ فيهم جاعلُ الدر ع هُروباً والفرار مِجنَّا

ويصورهم وقد جرت دماؤهم بحاراً طفت جثثهم فوقها، وكأنها السفن تمخر البحار، كما يصورهم وقد لعبت السيوف برؤوسهم، وأُقيمت ولائم للوحوش، وقدمت جثثهم طعاماً. وصاحَب الولائم غناءُ السيوف ورقصها، كما يبدو في قوله[3]:

وَجَرَتْ منهمُ الدماءُ بحاراً فَجَرتْ فوقها الجزائرُ سُفْنا
صُنِعَتْ منهمُ وليمةُ وحْشٍ رقَّص المشرفيُّ فيها وغنّى

ويصور الشعر فرسانهم، ويركز في تصويره على أشهر فرقتين من فرسانهم، وهما الداوية والاسبتارية، وهما من أقوى فرسان الصليبيين وأكثرهم نكاية في المسلمين.

---

(١) ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت) ٨١٦، ٨١٧، مفرج الكروب ٢/٢٣٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٢٩١.

(٢) ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت)/ ٨١٧.

(٣) نفسه/ ٨١٧، ٨١٨.

يصور الجلياني، في قدسيته الفتحية الناصرية، الاسبتارية، والداوية وكأنهم سد يأجوج، كما يبدو في قوله[1]:

والاسبتارُ إلى الدّاويّة التأموا كأنهم سَدُّ يأجوج إذا استجرَوا

ويصور ما آل إليه فرسانهم، كأنهم يهود سبتوا في يوم السبت ولم يستطيعوا القيام، أو كأنهم سكارى بمعاقَرة الصهباء، بل بتلقي الطعنات النافذات، ويصورهم وقد اضطربوا وزلزلوا بكفرهم، ولقوا جزاءهم كما لقيت قرية مدين جزاءها بظلمها نفسها بتكذيبها شعيباً في دعوته، كما يبدو في قوله متعجباً[2]:

ويا ضُحى السبت ما للقوم قد سَبَتُوا تَهوَّدُوا أم بكأس الطَّعْن قد سَكرُوا

ويا ضريحَ شُعيبٍ ما لهمْ جثموا كمدين أم لقوا رَجفاً بما كفروا

ويصورهم في قدسيته الكبرى، يلقون سلاحهم، ويساقون بين السبايا متدافعين، كما يبدو في قوله[3]:

تَرى المنسر الديويّ يُلقي سلاحه وينساقُ ما بين السبايا مُلَهَّدا

يُباعون أسراباً شرائحَ أحْبُلٍ كشلة عصفور من الريش جردا

ويصور ابن الساعاتي أصوات الضربات الموجهة إلى أعناق فرسان الداوية، فاجتثت عن أصولها، وكأنها غناء لذيذ كالأصوات التي تنجم عن العزف بالعود، كما يبدو في قوله[4]:

لسيفك في جماجمهم غناءٌ لذيذٌ عَلَّمَ الطيرَ الحَنينا

ومثله قول العماد الأصفهاني[5]:

حكى عنقُ الداويّ صُلَّ بضربةٍ طريرَ الشبا عوداً لمِضرابِه جِسّا

وأما السبايا الفرنجيات فيصور الشعراء قد ودهن بالقنا، ويصوروهن

(١، ٢) كتاب الروضتين ٢/١١٦ وانظر ص ٧٦ من هذا البحث.

(٣) نفسه ٢/١١٨.

(٤) ديوان ابن الساعاتي/ ٤٠٧، كتاب الروضتين ٢/٨٥، مفرج الكروب ٢/١٩٩.

(٥) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٦، كتاب الروضتين ٢/٨٤.

بالظباء، كما يبدو في قول ابن الساعاتي[1]:

فكم حازتْ قُدودُ قَناك منها ... قُدوداً كالقَنا لَوْناً ولينا
وغيدٍ كالجاذر آنساتٍ ... كغيدِ نداك أبكاراً وعُونا

ويصورهن فتيان الشاغوري شموساً، وظباء، كما يبدو في قوله[2]:

حتى لقد بيعتْ عقائلُ أُرهقتْ ... بالسبي بالثمن الأخسّ الأحْقرِ
من كلّ حورىٍ ضئيلٍ مُوشّجٍ ... كالغصن مَيّاداً ثقيل مؤزر
وأوانس مثلُ الشموسِ سوافراً ... من كاعبٍ مثلِ الغزالِ ومُعصِرِ

★ ★ ★

ويصور الشعر ملوك الفرنج الذين كانوا جبابرة، قد صاروا أذلة بعد هزيمتهم، وجاءت الصور الشعرية التي يصورهم الشعراء بها صوراً تهكمية ساخرة، فالعماد الأصفهاني يصورهم أسارى يقادون في بحر من الدماء، وهم في ذلك كالسفن التي تمخر عباب البحر، كما يبدو في قوله مستخدماً التشبيه، والجناس، في تشكيل الصورة[3]:

تُقادُ بدَأماء الدِّماءِ ملوكهمْ ... أسارى كسُفن اليمِّ نطَّتْ بها القَلْسا

ويركز الشعر على تصوير المصير الذي آل إليه (البرنس أرناط)، ويصوره صوراً تهكمية ساخرة، غريبة مثيرة، تعبر عن الانتقام ممن اعتدى على قوافل الحج، وأراد الاعتداء على المقدسات في مكة والمدينة. وكان أرناط كثير الغدر كما تحدث عنه التاريخ والشعر، ويبدو ذلك جلياً في الصورة الساخرة التهكمية المثيرة، في شعر العماد الأصفهاني، فيصور رأسه يشكو من اليبس، ولا دواء له إلا الحسام يحسو دمه لغدره وبغيه، ويصور العماد رأس البرنس وقد اجتثت عن الجسد، فأصبح شبيهاً بالصوف والقطن، كما يبدو في قوله[4]:

---

(١) ديوان ابن الساعاتي/ ٤٠٧، كتاب الروضتين ٢/٨٥، مفرج الكروب ٢/١٩٩، ٢٠٠.

(٢) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٤.

(٣) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٥، كتاب الروضتين ٢/٨٣.

(٤) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٥، كتاب الروضتين ٢/٨٣، ٨٤ وانظر ص ٨٢ من هذا البحث.

شكـا يَبَسـاً رأسُ البـرنْس بضـربـةٍ فَأشْبـهَ راسي رَأسـه العهن والبْـرسَـا
تَبـوَّغَ في أوداجــه دمُ بَغـيه فصـالَ عليه السيفُ يَلحَسُـه لحْسَـا

ويصـور العمـاد الأصفهاني رأس البرنس نجساً، غارقاً في الدماء، كما يصوره ضفدعاً يغطس في الماء، كما يبدو في قوله[1]:

يا طُهْرَ سيفٍ بَرى رأس البرنْس فقد أصـابَ أعْظمَ مَنْ بالشرك قد نَجسَا
وغـاصَ إذ طارَ ذاك الـرأسُ في دمه كأنّـه ضفـدعٍ في المـاء قد غَطَسـا
ما زالَ يعــطسُ مزكــومــاً بغَـدْرتـهِ والقتلُ تشميتُ مَنْ بالغدر قد عَطَسا
عَرّى ظُبـاه من الأغمـاد مهـرقَـة دمــاً من الشــرك ردّاً هابَـهَ وَكَسَـا

ويصور ابن المجاور الرمح قد اتخذ عمامه من رؤوسهم، والسيف قد اتخذ قرابا من دمائهم، كما يبدو في قوله[2]:

واعجبْ لرمــحٍ بالـرؤوسِ معمَّمٍ واطــربْ لسيفٍ بالــدمــاءِ مُغلَّفِ

---

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٢٩ - ٢٣٠، كتاب الروضتين ٢/ ٨٣.
(٢) كتاب الروضتين ٢/ ٢٠٤.

القدسيات (في النثر)

دراسة فنية

بنية الرسالة القدسية

كان الفتح القدسي حافزاً كبيراً لإنشاء العديد من رسائل التهنئة، والبشرى، والتغني بالفتح العظيم، في سنة ٥٨٣ هـ. ومن ذلك ما أنشأه كبار الأدباء في العصر الأيوبي، من أمثال القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير. لقد أنشأ القاضي الفاضل رسالة قدسية، على لسان السلطان صلاح الدين، أرسلت إلى الخليفة العباسي، في بغداد، الناصر لدين الله[١]. وأنشأ العماد عدداً من الرسائل يشرح فيها الفتوح الصلاحية، وعلى رأسها الفتح القدسي، كما أنشأ سبعين كتاب بشارة بالفتح. وخصص كتاباً تحدث في قسم منه عن الفتح القدسي، وهو كتاب «الفتح القسي في الفتح القدسي»[٢]. وأنشأ ابن الأثير رسالة قدسية يعارض فيها رسالة القاضي الفاضل القدسية[٣]. وأنشأ الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى رسالة بمناسبة تحرير بيت المقدس، في سنة ٦٣٧ هـ، وأرسلها إلى الخليفة المستنصر في بغداد[٤].

وأشير إلى أنني اخترت عدداً من الرسائل القدسية، أنشئت جلها في سنة ٥٨٣ هـ، وأنشئت رسالة واحدة منها في سنة ٦٣٧ هـ، كما تقدم، للتحدث من خلالها عن بناء الرسالة القدسية.

★ ★ ★

لقد جرى الكُتّاب على افتتاح رسائلهم بالبسملة، و«بالدعاء للديوان

---

(١) انظر: رسائل عن الحرب والسلام/ ١١٦ ـ ١٨٨، الدر النظيم/ ١٥ ـ ٣٤، وفيات الأعيان ٧/ ١٧٩ ـ ١٨٧، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٠٤ ـ ٢١٠، صبح الأعشى ٦/ ٤٩٦ ـ ٥٠٤، ٨/ ٢٨١ ـ ٢٨٩، شفاء القلوب/ ١٤٠ ـ ١٥٠، الأنس الجليل ١/ ٣٤١ ـ ٣٤٨.

(٢) انظر: الفتح القدسي/ ١١٦ ـ ١١٧، ١٢٢ ـ ١٣١، ١٤٦ ـ ١٤٩، ١٨٣ ـ ٢٠٢، الروضتين ٢/ ٨٩، ٩٢ ـ ١٠٠، ١١٢ ـ ١٢٣.

(٣) انظر: المثل السائر ٢/ ٣٧٤ ـ ٣٨٥، رسائل ابن الأثير (تحقيق المقدسي)/ ١٤٩ ـ ١٥٦.

(٤) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٦.

العـزيز، وتـارة بالـدعـاء لما يعود عليه، وتارة بالصلاة، وتارة بالسلام. وربما افتتحت المكاتبة بآية من القرآن الكريم مناسبة للحال»[1]. ويكون الدعاء في صدر الكتاب «مشتقاً من المعنى الذي بُني عليه» ذلك الكتاب، فيكون الدعاء فيه دالًا على المقصـود به. ويُذكر أنهُ من الحذاقة في هذا الباب «أن يجعل الدعاء في أول الكتاب، من السلطانيات، والاخوانيات، وغيرهما متضمناً من المعنى ما بنى عليه ذلك الكتاب»[2].

ويفصـل ضياء الدين بن الأثير في الحديث عن المبادىء والافتتاحات، وأقتصر، في هذا المقام، على ما يخص الرسالة. وهو يرى في هذا المجال «أن تُجعل التحميدات في أوائل الكتب السلطانية مناسبة لمعاني تلك الكتب» كما تقدم. ويبين أنه يخص الكتب السلطانية دون غيرها، لأن التحميدات «لا تصدر في غيرها، فإنها تكون قد تضمنت أُموراً لائقة بالتحميد، كفتح معقل، أو هزيمة جيش، أو ما جرى هذا المجرى»[3].

إن المبـادى والافتتـاحـات أصـل من أصـول المكـاتبـات، كمـا يقول القلقشنـدي. والحسن فيهـا يعود إلى الافتتاح بالتحميد، أو بالسلام، أو بما يوحي بتعظيم المكتوب إليه، أو إلى «ما يوجب التحسين، من سهولة اللفظ، ووضوح المعنى، وتجنب الحشو»[4]. ويدعو الأدباء والنقاد إلى الإجادة في هذا المجال. قال بعض الكُتّاب: «أحسنوا الابتداءات، فإنها دلائل البيان»[5].

ومن محـاسن المبـادىء والافتتـاحات «أن يفتتح الكتاب بآية من القرآن الكريم، أو بخبر من الأخبار النبوية، أو ببيت من الشعر، ثم يبنى الكتاب عليه»[6].

---

(١) صبح الأعشى ٦/٤٩٥.

(٢) انظر: المثل السائر ١/١٢١، ٣/١١١، معالم الكتابة/ ٢٨، إحكام صنعة الكلام/ ٧٢، ٧٣، خزانة الأدب/ ٨، ١٣، شرح الكافية البديعية/ ٥٩.

(٣) المثل السائر ٣/١٠٨، وانظر: نصرة الثائر/ ٣٥٠، الفلك الدائر/ ٢٩٧، صبح الأعشى ٦/٣٣٢، ٤٠٠.

(٤) صبح الأعشى ٦/٢٧٤، ٢٧٥، ٣٣٢.

(٥) البديع في نقد الشعر/ ٢٨٥.

(٦) المثل السائر ٣/٩٦، ١١٨، الجامع الكبير/ ١٨٧، وانظر: نصرة الثائر/ ٨٧، ٣٥٥.

إن كل كتاب بلاغي له خمسة أركان، وأذكر منها اثنين هنا يتصلان بالموضوع، وهما يتعلقان بمطلع الكتاب، أولهما «أن يكون عليه جدة ورشاقة . . . ، أو يكون مبنياً على مقصد الكتاب». وثانيهما يتعلق بالدعاء في صدر الكتاب[1]، كما تقدم. وبذا تكون المطالع دالة على «المعنى المقصود، إن كان فتحاً ففتحاً، وإن كان هناء فهناء، أو كان عزاء فعزاء»[2].

وفي الافتتاح بالدعاء، قد تأتي براعة الاستهلال في فنون الكلام، وقد تأتي مع الابتداء بالتحميد. وفي هذا المقام يستشهد بقول الرسول، ﷺ، «كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم». وقد تقع براعة الاستهلال مع الابتداء بالدعاء، كما تقدم، وقد تقع مع الابتداء بالتقبيل[3]. وفي براعة الاستهلال «يأتي الناظم أو الناثر، في ابتداء كلامه ببينة أو قرينة، تدل على مراده في القصيدة، أو الرسالة، أو الخطبة، أو معظم مراده. والكاتب أشد ضرورة إلى ذلك من غيره، ليبني كلامه على نسق واحد دلّ عليه من أول وهلة، علم بها مقصده، إما في خطبة تقليد، أو دعاء كتاب»[4].



وقد تحقق هذا في مقدمات الرسائل القدسيات، فالقاضي الفاضل يفتتح رسالته القدسية بالبسملة، وبالدعاء للخليفة العباسي الناصر لدين الله، فيدعو له بالبقاء، يقول: «أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري»[5]. ويذكر ابن فضل الله العمري أن سبب مخاطبة الخليفة بمثل ذلك، هو الابتعاد «عن مخاطبة الخليفة نفسه. ويكون الدعاء للديوان بما فيه معنى دوام العز، والسلطان، وبسط الظل، وما أشبه ذلك»[6]. ويبين القلقشندي أن المقصود

(١) المثل السائر ١/١٢١، ٣/١١١.

(٢) المثل السائر ٣/٩٦، ١١٨، وانظر: الجامع الكبير/ ١٨٧، نصرة الثائر/ ٨٧، ٣٥٥.

(٣) انظر: الصناعتين/ ٢٢٤، ٢٢٥، صبح الأعشى ٦/٢٢٤، ٢٧٦، ٢٧٧، نصرة الثائر/ ٥٣، ٥٤.

(٤) انظر: حسن التوسل/ ٢٥٠ ـ ٢٥١، تحرير التحبير/ ١٦٨.

(٥) انظر: رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٦، الدر النظيم/ ٣٥، صبح الأعشى ٦/٢٨٢.

(٦) انظر: صبح الأعشى ٦/٤٩٦.

بالـديوان هو ديوان الإنشاء. وأن «النبوي» لقب «من ألقاب الخلافة، وما في معناه من متعلقاتها. . . . وهو نسبة إلى النبوة لانتساب الخلافة العباسية إلى العباس عم النبي، ﷺ، وانتساب الأشراف إلى ابنته فاطمة، رضي الله عنها». وفي هذا تعظيم للخليفة العباسي.

وفي هذا الافتتاح الفاضلي القدسي، براعة استهلال، وفيه تعظيم للمكتوب إليه، كما يقول أبوالعباس القلقشندي[1].

ويستمر القاضي الفاضل في الدعاء للخليفة، ويطيل فيه. ويقرن الدعاء بمدح الخليفة. والإشادة به، يقول: «أدام الله. . . ، ولا زال مظفر الجَدّ بكل جاحد، غنياً بالتوفيق عن رأي كل رائد. . . ، وما زالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المرابع، وأنواراً إلى المساجد»[2].

ويفتتح ابن الأثير رسالته القدسية بالدعاء أيضاً، يقول: «خَلَّد الله سلطان الديوان العزيز النبوي، وجعل أيام دولته أترابا، ومناقب مجدها هضابا». ويطيل ابن الأثير في الدعاء للخليفة العباسي. وهو ينهج نهج القاضي الفاضل في رسالته القدسية، فقد كتب رسالته هذه معارضاً القاضي الفاضل، كما يقول ابن الأثير نفسه: «أما الكتاب، فإنه كتاب كتبته عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه الله، إلى ديوان الخلافة ببغداد، يتضمن فتح البيت المقدس، واستنقاذه من أيدي الكفار، وذلك في معارضة كتاب كتبه عبدالرحيم بن علي البيساني عنه»[3]. ويذهب الصفدي، إلى أن أغلب ما أثبته ابن الأثير، إنما هو معارضات يعارض فيها كتب القاضي الفاضل، وأبي إسحاق الصابي[4].

---

(١) صبح الأعشى ٦/٣٢، وانظر: معالم الكتابة/ ٣٧.

(٢) انظر: رسائل عن الحرب والسلام (ط ٢)/ ١٥٧، ١٥٨، الدر النظيم/ ١٦، صبح الأعشى ٦/٤٩٦، ٤٩٧.

(٣) المثل السائر ٢/٣٧٤، ٣٧٥، رسائل ابن الأثير ـ تحقيق المقدسي/ ١٤٩.

(٤) نصرة الثائر/ ٥٧.

ويأخذ الصفدي على ابن الأثير، أنه في الدعاء الذي افتتح به رسالته القدسية، كان عليه أن «يحترز للأيام، فإنه إذا دعا بأن تكون متشابهة، شمل ذلك الخير والشر». ويفضل أن يقول: «وجعل أيام دولته، في النصر أترابا». ويصفه بالمبالغة في قوله: «ومناقب مجدها هضابا»، ويفضل «أعلاماً»، بدل «هضابا» ولو قال: «ومناقب مجدها ترفع من الصباح عمودا، وتمد من المجرة أطنابا»، لكان أبلغ. ولا تعجب الصفدي لفظة «إذهاب» في قوله: «وأوسعها توشية وإذهابا»، ويعلل ذلك بأن «السمع ينفر عنها في الدعاء للدولة»، ويفضل أن يقول «تذهيبا»، بدل أن يقول: «إذهابا». ويأخذ عليه في مقدمة هذه الرسالة القدسية قوله: «ومثّل جدودها في عيون الأعداء شيئاً عُجابا»، ويرى أن هذا القول جسد ولا روح فيه[1]. ولعل فيما يذهب إليه الصفدي شيئاً من التحامل والمبالغة.

وفي حديثه عن الفتح المقدسي قائلاً: «... وهي فتح البيت المقدس الذي تفتحت له أبواب السماء، وكثرت بأحاديث مجده كواكب الظلماء، واسترد حق الإسلام، وطالما سعت الهمم في طلبه بالزاد والماء»[2]، يتساءل الصفدي، متعجباً، عن الهمم التي سعت في سبيل الفتح، وليس معها إلا الزاد والماء. ثم يقول: ألا ينبغي أن يتحدث عن تلك الهمم مقترنة بالحديث عن «الخيل، والرجل، والسلاح، والدأب، والسُّرى، وركوب الأخطار...»[3]؟ ولعل الصفدي يبدو محقاً في ما يذهب إليه.

ويعجب الصفدي من قول ابن الأثير، في حديثه عن الفاتح صلاح الدين: «وكان قد برز من السلاح في لباس رائع من المنعة، وأخرج من السواد الأعظم ما خدع العيون، والحرب خُدعة»[4]، فيقول الصفدي: «أكذا يكتب عن مثل ملك عانى من الأهوال ما عانى، وكابد ما كابد، وبذل نفسه، وأهله، وولده،

(١) نصرة الثائر/ ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦.

(٢) المثل السائر ٢/٣٧٥، رسائل ابن الأثير (تحقيق المقدسي)/ ١٤٩، ١٥٠.

(٣) نصرة الثائر/ ٣٠٦.

(٤) المثل السائر ٢/٣٧٦، رسائل ابن الأثير (تحقيق المقدسي)/ ١٥٠.

وماله، وعساكره، حتى استنقذ مثل القدس من الفرنج»، إنه قول: «خدعهم بالسواد الأعظم، والحرب خدعة»، ليس بلائق في هذا المقام[1].

وكما رأينا القاضي الفاضل، وابن الأثير يستهلان رسالتيهما بالدعاء للخليفة، فإننا نجد العماد الأصفهاني يستهل رسالتين قدسيتين له بآيات من القرآن الكريم، فهو يفتتح كتاب البشرى الذي كتبه إلى الديوان العزيز ببغداد، بقوله تعالى: **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم، وعملوا الصالحات، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾**[2]. ثم ينتقل إلى التحميد، فيحمد الله الذي أنجز وعده. ونصر أهل التوحيد، ومكّن دينه. ويكرر التحميدات، فيقول: «فالحمد لله الذي أعاذ القدس إلى القدس، وأعاذ من الرجس، وحقق من فتحه ما كان في النفس»[3].

ويفتتح رسالته القدسية التي كتبها، عن السلطان صلاح الدين، إلى الخليفة الناصر لدين الله في بغداد، بقوله تعالى: **﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾**[4]. ثم ينتقل إلى التحميد لإنجاز الله وعده «على نصرته لهذا الدين الحنيف من قبلُ ومن بعد»، في «الأيام الإمامية الناصرية». ويكرر العماد التحميد في رسالته هذه، يقول: «والحمد لله الذي نصر سلطان الديوان العزيز وأيده، وأظفر جنده في الغالب وأنجده...». ويحمد الله الذي «أعاد الإسلام جديداً ثوبه»، ويحمده «حمداً لا تُضرْب عليه الحدود، ولا تُزكى بأزكى منه العقود»[5].

وفي هذين الافتتاحين براعة استهلال، وملاءمة للموضوع الذي يتحدث عنه العماد الأصفهاني، وهو الفتح القدسي.

---

(١) نصرة الفاتر/ ٣٠٧.

(٢) آية ٥٥ من سورة النور.

(٣) كتاب الروضتين ٢/ ٩٧، معجم الأدباء ١٩/ ٢٠، ٢١.

(٤) آية ١٠٥ من سورة الأنبياء.

(٥) انظر: صبح الأعشى ٦/ ٥١٧، ٥١٨، ٥٢٠.

وتتفق هذه الافتتاحات مع ما تقدم، من حيث الابتداء بالدعاء، والتحميد، واتصال ذلك بموضوع الرسائل القدسية، واشتقاقه من المعاني التي بنيت عليها تلك الرسائل السلطانيات، أو في افتتاحها بآية قرآنية كريمة، تتلاءم والمقام الذي يتحدث عنه موضوع الرسالة. إن كتب الفتوحات هذه، تعد من «أعظم المكاتبات خطراً، وأجلها قدراً، لاشتمال أغراضها على إنجاز وعد الله تعالى الذي وعد به أهل الطاعة في إظهار دينهم على كل دين»[1]. كما تتفق مع ما يذهب إليه بعض النقاد في حديثهم عن تكرار التحميد ثانية، وثالثة، في الكتاب الواحد من كتب الفتوحات، كما يذكر ابن شيث، والقلقشندي. ويضيفان بأنه يستحسن أن يكرر الكاتب التحميد ثانية، وثالثة. ويذهب ابن شيث إلى أن «التكرار في الحمد. يكون بحسب النعمة المكتوب بسببها، من فتح ونحوه»[2].

ويفتتح الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى، رسالته القدسية، التي أنشأها في سنة ٦٣٧ هـ، وكتبها إلى الخليفة المستنصر بالله، يفتتحها بالدعاء للديوان العزيز النبوي أيضاً، يقول: «أدام الله ظلَّ الديوان العزيز النبوي، ما دامت الأيام والسنون. . .»[3]. وينطبق على هذا الافتتاح ما قيل حول افتتاحات القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وابن الأثير. ولكنه يقتصر في مقدمة رسالته هذه على الدعاء، ولا يقرنه بالتحميد، كما هو واضح، ومكرر، في الرسائل القدسيات الأخرى الآنفة الذكر.



وتكون الرسالة مبدوءة بمقدمة، فلا «يحسن بالكاتب أنْ يُخلى كلامه، وإن كان وجيزاً، من مقدمة يفتتحه بها. . .، ليُوفّي التأليف حقه». وعلى هذا السبيل، «جرت سنة الكُتّاب في جميع الكتب، كالفتوح، والتهاني، والتعازي على ذلك، وتكون المقدمة مشتملة على ما بعدها من المقاصد والأغراض».

---

(١) صبح الأعشى ٨/ ٢٧٥.

(٢) معالم الكتابة/ ٤٨، وانظر: صبح الأعشى ٦/ ٣٣٢.

(٣) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٦.

وتوضع للأمر الخاص مقدمة خاصة، كما توضع للأمر العام مقدمة عامة، «ولا يُطوِّل في موضع الاقتصار، ولا يقصر في موضع الايجاز»[1].

إن كتب الفتوحات تُبدأ أو تفتتح بالتحميد، فالصلاة على الرسول، ﷺ، فالمقدمة التي «تشتمل على التحدث بنعمة الله في شحذ العزائم لنصرته، وتثبيت الأقدام في لقاء عدوه ومجاهدته، وإنجاز وعده في الإعزاز والإظهار». ثم تتحدث عن الاستعداد للقاء العدو ومجاهدته. وتصف العدو بالكثرة، والقوة، والاستعداد، «لأن توقع الظفر ممن هذه صفته، أعظم خطراً، وأوقع في النفوس أثراً». كما تصف هذه الكتب الصراع بين الفريقين، وتصف «المواكب، والكتائب، والخيول، والأسلحة، والجرحى، والمجدّلين، والأسرى، والمقتّلين». ثم تتحدث عما أظهره الله «من تكامل النصر، ودلائل الظفر، وما انجلت عنه الحرب» من قتل، وأسر، وهزيمة. وتتحدث عما اعتمد في المعقل الذي كان العدو يحتله، «من حسن السيرة، وتخفيف الوطأة عن الرعية، وحسم أسباب الفتنة». أو رغبة في المسالمة، وسؤاله في المهادنة، وما يتبع ذلك من الشروط والعقود[2].

ومن أمثلة كتب الفتوحات هذه رسالة القاضي الفاضل القدسية إلى الديوان العزيز في بغداد: «أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري...[3]، ورسائل العماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير، والملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى، في الفتح القدسي»، في سنة ٥٨٣ هـ، وسنة ٦٣٧ هـ.



وتتحدث الرسائل القدسيات عن موضوع واحد، فتصور كل منها الفتح

---

(١) صبح الأعشى ٦/ ٢٧٩.

(٢) انظر: نفسه ٨/ ٢٧٤ - ٢٧٧.

(٣) انظر: نفسه ٦/ ٤٩٦ - ٥٠٤، ٨/ ٢٨١ - ٢٩٠.

وآثاره، والفاتح، والعدو المحتل، والمعركة، وهي العناصر المشتركة التي تقوم عليها الرسالة القدسية. وكل عنصر من هذه العناصر يرتبط بالعناصر الأخرى، وهي موضوعات مترابطة في هذه الرسائل القدسيات جميعها، على الرغم مما قد يبدو من تعدد موضوعات الرسالة الواحدة منها، في الظاهر. إن الحديث عن النصر، والتغني به، والحديث عن القائد إلى النصر، والحديث عن العدو الذي آل إلى الهزيمة في تلك المعركة القدسية، يرتبط بعضه ببعضه الآخر لا محالة.

إن هذه الوحدة في الرسائل القدسيات تتمثل في وحدة الموضوع، ووحدة المشاعر التي يثيرها، وما يتصل بذلك من ترتيب الأفكار والصور ترتيباً ينتهي بالخاتمة المناسبة، كما تقدم في الحديث عن بناء القصيدة.

تعد وحدة الموضوع، أو الترابط في الموضوعات، ركناً من أركان الكتابة، فابن الأثير، مثلاً، يرى أن كل كتاب بلاغي ذي شأن، ينبغي أن تودع فيه أركان خمسة، منها «أن يكون خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة، لتكون رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض، ولا تكون مقتضبة». وهذا ركن يشترط فيه الشاعر والكاتب(١).



وأما الخاتمة، وهي آخر ما يبقى في الأسماع، وآخر الكلام الذي يقف عليه الكاتب، أو الخطيب، أو الشاعر، ولهذا ينبغي أن تأتي متناسبة مع الموضوع، مستعذبة حسنة، لتبقى لذتها في الأسماع، كما تقدم في الحديث عن بناء القصيدة. وينبغي أن تتسم الخاتمة بالحسن في المكاتبات، وتكون بذلك قفلاً لمحاسنها، كما أن أولها مفتاح لذلك. وينص أئمة البلاغة على التأنق فيها، فتكون مختارة حسنة. وأحسنها «ما يؤذن بانتهاء الكلام، حتى لا يبقى للنفس تشوق إلى ما وراءه». وقد يكون حسن الختام في الرسالة، راجعاً إلى المعنى

---

(١) المثل السائر ١/١٢٢. وانظر: ٣/١٢١، الجامع الكبير/ ١٨١ - ١٨٧.

المختتم به»، وقد يكون راجعاً إلى سهولة اللفظ. وتجنب الحشو، وغير ذلك[1].

يختتم القاضي الفاضل رسالته القدسية اختتاماً متناسباً مع هدف الرسالة المبشرة بالفتح العظيم، مبيناً أن السلطان صلاح الدين جاد في فتح سائر الثغور، يقول: «وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص، ولا بما سوى المشافهة تتلخص، فلذلك أنفذنا لساناً شارحاً، ومبشراً صادحاً، يطالع الخبر على سياقته، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته»[2]. وتجدر الإشارة إلى أن ابن أبي الاصبع، وابن حجة الحموي، يشيدان بالقاضي الفاضل في خواتيم رسائله.

ويختتم العماد الأصفهاني رسالة البشرى بالفتح القدسي اختتاماً متلائماً مع الموضوع، كما يبدو في قوله: «... فهذا أوان فتحه، ولقد دام عليه الضلال، وقد آن أن يستقر فيه الهدى مشكور الإحسان، إن شاء الله تعالى»[3]. ويختتم العماد رسالة قدسية أخرى اختتاماً يتناسب وموضوع تلك الرسالة القدسية فيقول: «ومحت أيامن هذه الأيام تلك الليالي الدوامس، وقد أقيمت الجمع والجماعات، ونظفت بل طهرت تلك الساحات، وصلي في محرابه المحرب، ودرس فيه الخلاف والمذهب، والحمد لله الذي تسنى بفضله هذا المطلب، وتيسر بتأييده الأمر الصعب[4].

ويختتم ابن الأثير رسالته القدسية التي عارض بها القاضي الفاضل، اختتاماً متلائماً مع البشرى بالفتح، إذ يشير إلى أن هذه الأخبار الصادقة،

---

(١) انظر: احكام صنعة الكلام/ ٢٥٤، معالم الكتابة/ ٧٨، نهاية الأرب ١٣٥/٧، مقدمة في صناعة النظم والنثر/ ٤٨، ٤٩، صبح الأعشى ٣١٢/٦، ٣١٣، أنوار الربيع ٣٢٤/٦.

(٢) انظر: تحرير التحبير/ ٦١٦، خزانة الأدب/ ٤٦٠، ٤٦٤، رسائل عن الحرب والسلام/ ١٨٨، الدر النظيم/ ٣٣ ـ ٣٤، الروضتين ١٠٠/٢ ـ ١٠١، صبح الأعشى ٢٨٩/٨، وفيات الأعيان ١٨٦/٧.

(٣) صبح الأعشى ٥٢٠/٦.

(٤) كتاب الروضتين ٩٩/٢.

ستتلوها أخبار أخرى صادقة، «ما دامت السيوف ناطقة في يد الخادم، فالألسنة عنها ناطقة، وللآراء العالية مزيد العلو إن شاء الله تعالى»(١).

ويختتم الملك الناصر داود رسالته القدسية، مبشراً بالفتح القدسي الثاني، اختتاماً متلائماً مع موضوع هذه الرسالة أيضاً، يقول: «وهو يسترشد في ذلك هَذْي الديوان العزيز الذي عليه معتمده، وإليه مرجعه فيما يصدره ويورده، والله تعالى يجعل حزب الديوان وعبيده حزب الله الغالب، وحزب عدوه وعدو دينه حزب الشيطان الهارب، ويقضي له ولمن اعتلق به ببلوغ المطالب والمآرب»(٢).

لقد اتسمت هذه الخواتيم بالحسن الراجع إلى المعنى ووضوحه، ودقة اللفظ المختار، وتجنب الحشو، كما آذنت بانتهاء الكلام، فكان قفلاً، كما كان مطلعها مفتاحاً.

ومن هذه الأمثلة من خواتيم كتب الفتح القدسي، نتبين حقاً كيف جاءت كل خاتمة منها متناسبة مع موضوع الحديث عن الفتح، فقد تحدثت هذه الخواتيم عن البشائر التي تعبر عنها ألسن الرسل إلى الخليفة في بغداد، من قبل السلطان الفاتح صلاح الدين، مبشرين صادحين، ففي خاتمة، رسالة القاضي الفاضل القدسية، يتحدث عن جيش المسرة بالفتح، وفي قدسية للعماد الأصفهاني يتحدث عن هناء الإسلام بالفتح، وقد أسفر صبحه.

وقرنت هذه الخواتيم إحراز الفتح والنصر بمشيئة الله تعالى، فالعماد، في رسالة قدسية له، يصور استقرار الهدى في بيت المقدس، وذلك بمشيئة الله تعالى. ويبدو مثل هذا أيضاً في الكتاب الجامع للفتح القدسي الذي كتبه العماد.

ويختتم العماد كتبه إلى الديوان للبشرى بفتح القدس، فيقول: «ويفتح على الإسلام أبواب الهناء بإنهاء ما تسنى من فتحه، ويحدث (أي القاضي ضياء

(١) المثل السائر ٢/٣٨٥، رسائل ابن الأثير ـ تحقيق المقدسي/ ١٥٦.
(٢) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٣٣٢.

الدين الشهرزوري) وهو الضياء بإسفار صبحه»[1].

ويختتم نسخة كتاب جامع للفتح القدسي الأيمن، كما يصفه، كتبها إلى سيف الإسلام أخي السلطان صلاح الدين، فيقول: «ثم ختمنا فتوحات هذه السنة بفتح الأرض المقدسة، والحمد لله على نعمه المفرجة للكروب وألطافة المنفسة. وقد جعلنا هذه البشارة القدسية بما هناه الله من الموهبة السنية، وسناه من المنحة الهنية»، إلى أن يقول: «ويشكر نعمة الله التي خصنا بها وعمت الأمة، فإن دوام الشكر يديم النعمة، لا زال المجلس منصور العزم إن شاء الله تعالى»[2].

ويختتم رسالة أخرى بقوله: «والحمد لله على هذا الإحسان حمداً مستمراً على الزمان»[3].

ومن هذه الخواتيم، في هذه الرسائل القدسية، ما كان الكُتّاب يختتمونها بالحمد لله، على نصره لدينه. ويبدو ذلك جلياً في العديد من الرسائل القدسية، ومنها رسالة قدسية للعماد الأصفهاني اختتمها بالحمد لله «الذي تسنى بفضله هذا المطلب»، وتيسر هذا الأمر الصعب، كما يقول. ومنها رسالة أخرى اختتمت بالحمد لله لإحسانه، وهو حمد يستمر على مدى الزمان. ومنها رسالة ثالثة حمد الله في خاتمتها على نعمه المفرجة للكروب، كما يقول فيما تقدم.

وهذا يتفق وما تحدث به الأدباء والنقاد، في حديثهم عن خواتيم كتب الفتوحات، إذ يرون أن تختتم «بحمد لله القاضي لأوليائه بالإدالة، ولأعدائه بالإذالة، الذي يستدرج بحلمه إمهالا، ولا يَلْقى العادل عن حكمه إهمالا، والصلاة على رسوله ﷺ، وعلى آله»[4].

---

(١) الفتح القدسي/ ١٤٩.

(٢) نفسه/ ٢٠٢.

(٣) كتاب الروضتين ٢/٩٨.

(٤) صبح الأعشى ٨/٢٧٧.

الأسلوب

لغة الشعر ولغة النثر:

تختلف لغة الشعر عن لغة النثر، وتبدو أولاها «أقدر على التأثير والإمتاع»، بينما تبدو ثانيتهما «أقدر على الشرح، والايضاح، والإفهام، والتبيين، والإقناع»[1].

كانت للشعر لغة لا تسوغ لغة للنثر، وكانت للنثر لغة لا تسوغ لغة للشعر، و«للشعراء ألفاظ معروفة، وأمثلة مألوفة، لا ينبغي للشاعر أن يعدوها، ولا أن يستعمل غيرها، كما أن الكُتّاب اصطلحوا على ألفاظ بأعيانها سموها الكتابية لا يتجاوزونها إلى سواها، إلا أن يريد شاعر أن يتظرف باستعمال لفظ أعجمي فيستعمله في النّدرة»[2].

ويقال إن لغة الشعر هي لغة العاطفة، ولغة النثر هي لغة العقل، وتثير لغة الشعر في الذهن صوراً وإحساسات، وتحرك مشاعر وانفعالات. بينما لا يهم في لغة النثر إلا الوصول إلى الفكرة.

ويميز الفلاسفة بين لغة النثر ولغة الشعر، فلغة النثر عندهم يأتي استخدامها بمعانيها الحقيقية، وتدل الألفاظ على معانيها الحقيقية التي وضعت لها، بينما يأتي استخدام لغة الشعر «بمعان تشبهها أو تخالفها، وبهذا يتجاوز الشعر الاستخدام الحقيقي للغة». ولا تلتزم فيه الألفاظ بالدلالة على تلك المعاني الحقيقية المتواضع عليها[3].

ولكننا نجد ابن طباطبا، يذكر أن «الشعر رسائل معقودة، والرسائل شعر محلول»[4]. ولعل هذا يؤدي إلى القول بتشابه في القصيدة والرسالة. ولكن لا

---

(١) انظر: منهاج البلغاء/ ٣٦٠، ٣٦١، النثر الفني/ ٢٦.

(٢) العمدة ١/١٠٧.

(٣) انظر: النقد الأدبي الحديث/ ٣٧٩، ٣٨٠، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي/ ٣٠٤، نظريات الشعر عند الفلاسفة المسلمين/ ١٥٥.

(٤) عيار الشعر/ ٧٨.

يمكن أن يتطابق الشعر والنثر «تمام التطابق. بل تبقى بينهما مسافة صغيرة، تعينهـا فروق صغيرة أيضـاً»[1]. لقـد محـا ابن طباطبا «الفروق بين القصيدة والرسالة النثرية، في البناء، والتدرج، واتصال الأفكار. . .، ولكن يظل هناك فرق بين القصيدة والرسالة، فقد يجوز في الرسالة أن يبنى فيها كل فصل قائماً بنفسه، أما القصيدة فلا يجوز فيها ذلك، بل يجب أن تكون كلها «ككلمة واحدة في إشتباه أولها بآخرها. . .». ولكن هذا الفرق لا نجده في كل رسالة، فإننا نجد رسائل كثيرة تعتمد فيها وحدة البناء[2]. وذلك كما تقدم في الحديث عن بناء الرسالة القدسية.

يعبـر النثـر الفني عن فنون كانت مقصورة على الشعر، ومنها: المدح، والمجون، والغزل. إن كُتّاب القرن الرابع الهجري «ألفوا الكتابة في موضوعات كانت خاصـة بالشعـر مثل الغزل، والمديح، والهجاء، والفخر، والوصف». وليس هذا فحسب، فقد استخدموا في النثر محاسن الشعر من استعارة وتشبيه، والنثـر إذا أخذ خصائص الشعر، أصبح أقدر منه على الوصف لخلوه من قيد الوزن والقافية[3].

شاع استخدام التخيل والمجاز في الرسالة والخطبة في هذا العصر، وقد قربـا بذلـك من الشعر[4]. وأخص بالذكر هنا الرسالة الديوانية القدسية، فقد أصبـح هذا اللون من الرسائل مليئاً بالصور الأدبية التي تقوم على التشبيهات والاستعـارات، كمـا يبدو في رسائل القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير، وغيرهم، وسنرى ذلك جلياً في الحديث عن الصورة الأدبية في النثر.

ويبدو ان لغة النثر قد اقتربت من لغة الشعر حقاً، في العصر الأيوبي. كما

---

(١) انظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ ٥٩٣.

(٢) انظر: نفسه/ ١٣٧.

(٣) انظر: النثر الفني ١/١٠٧ ـ ١١٠

(٤) انظر: نقد الشعر/ ١٣، النقد الأدبي الحديث/ ٢٠٤.

يبدو في رسائل القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير. ولعله يمكن القول بأن لغة النثر كادت تصبح مثل لغة الشعر، في كتابات هؤلاء الكتاب.

لقد استخدم المتأخرون أساليب الشعر في النثر، كما يبدو في أساليب الكُتّاب وقد يقال إن التقفية مشتركة بينهما، وهي قافية في الشعر، سجع في النثر، كما يقول ابن خلدون. وقد أكثر أولئك الكُتّاب من الأسجاع، والتزموا التقفية، وقدموا النسيب بين يدي الأغراض كما يقول ابن خلدون أيضاً. وقد استمر الكتاب المتأخرون على هذه الطريقة. واستعملوها في المخاطبات السلطانية. ويصف ابن خلدون هذا اللون بـ «المنثور المقفى». ولكنه يرى أن «تنزه المخاطبات السلطانية عن أساليب الشعر»[1]. ولكن، هل كان استعمال هذه الأساليب في النثر، جديداً لدى المتأخرين من الكُتّاب؟ إنه ليس جديداً، وقد كان شائعاً منذ القرن الرابع الهجري كما تقدم[2]. ويصف ابن خلدون كُتّاب عصره بالعجز عن الكلام المرسل، ويتهمهم بالعجمة. ويرى أن إكثارهم من الاستعارات، والتشبيهات، والفنون البديعية، فيه خروج بالكلام عن مقتضى الحال[3]. ويعلل بذلك عجزهم عن الكلام المرسل كما تقدم. ولكن، هل يُعدّ كل كلام مرسل بليغاً؟ وهل يعد كل كلام ليس كذلك غير بليغ؟ إن الأمر ليس كذلك، وليس كل أسلوب مرسل يتسم بالبلاغة، كما أنه «ليس كل أسلوب بديعي غير مطابق لمقتضى الحال»، وليس كل كلام مرسل مطابقاً لمقتضى الحال[4].



تتباين الأساليب في النثر الفني بين فن أدبي وآخر، كما رأينا ذلك في

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون/ ٥٦٥، ٥٦٨.

(٢) انظر: عصر سلاطين المماليك ٦/٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٤.

(٣) مقدمة ابن خلدون/ ٥٦٨.

(٤) انظر: عصر سلاطين المماليك ٦/٢٢٢ ـ ٢٢٧، ٢٣٠ ـ ٢٣٢، ٢٤١.

الشعر، فالنثر الفني تتباين أساليبه بين الرسالة الديوانية، والرسالة الإخوانية، والخطبة، وغيرها من أنماط النثر الفني. وهو يتمثل في هذه الدراسة بالرسائل الديوانية ممثلة بالرسائل القدسية التي أنشأها القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير، والملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى، كما تتمثل في الخطب، وأهمها الخطبة التي أنشأها القاضي محيي الدين بن زكي الدين، وخطب بها في المسجد الأقصى بعد تحريره مباشرة، في سنة ٥٨٣ هـ.

إن الرسالة التي تتحدث عن الفتح، تتباين في أسلوبها عن رسالة في اعتذار، أو وصف، أو مجون، أو غزل، أو غير ذلك. كما أن أسلوب الكتب السلطانية لا يستخدم في الكتب الإخوانية[١].

تقدم القول في الحديث عن تباين أساليب الشعر، وكيف تُقَسّم الألفاظ على رُتَب المعاني، وليس ذلك مقصوراً على الشعر دون الكتابة، ولا يختص بالنظم دون النثر، كما يقول القاضي الجرجاني. «إن كتابك في الفتح أو الوعيد خلاف كتابك في التشوق، والتهنئة، واقتضاء المواصلة. وخطابك إذا حذرت وزجرت أفخم منه إذا وعدت ومنّيت»[٢].

يتسم موضوع الرسائل القدسية، والخطب القدسية بأنه من الموضوعات الجادة، وهو موضوع الجهاد والفتوح. ولذا فإن أساليب هذا اللون من النثر الفني متشابهة.

ويقال إن الرسائل والخطب متشاكلتان في أن كلًّا منهما لا يلحقه وزن ولا تقفية، وهما متشاكلتان من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكُتّاب، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل، ولا يكاد يوجد فرق بينهما. إلا أن الخطبة يُشافه بها، والرسالة يكتب بها. وهما فنان مختصان بأمر الدين والسلطان[٣].

---

(١) سر الفصاحة/ ٣٠٢. (٢) الوساطة/ ٢٤.

(٣) انظر: الصناعتين/ ١٣٦، النثر الفني/ ٢٢٠.

يقتضي الحديث عن الجهاد، أو وصف الحروب، استخدام أسلوب أدبي يتسم بالقوة والجزالة. والأسلوب واللغة يتأثران بالأفكار والمعاني التي يتضمنها العمل الأدبي.

إننا إذا اخترنا كاتباً مثل القاضي الفاضل، أو العماد الأصفهاني، أو ضياء الدين بن الأثير، في الرسائل القدسية التي أنشأوها بمناسبة الفتح القدسي، وجدنا أن أسلوبها يتسم بالقوة والجزالة، وذلك راجع إلى الأفكار والمعاني التي تحدث عنها كل كاتب من الكُتّاب الثلاثة ويقول أحدهم، وهو ابن الأثير: إن «الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل منها «يستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف»، والرقيق منها «يُستعمل في وصف الأشواق، وذكر أيام البعاد»، وأشباه ذلك[1]. كما تقدم.

وإذا نظرنا في رسائل الفتح القدسي التي تقدم ذكرها، وجدنا مصداق ما يذهب إليه ابن الأثير، في جزئه الأول، فإن الجزء الأول من قوله ينطبق على الرسائل الديوانية القدسية الآنفة الذكر. ويبين ابن الأثير، في هذا المجال أيضاً، أن الجزل من الألفاظ عنده، هو أن لا يكون «وحشياً متوعراً، عليه عنجهية البداوة، بل هو «أن يكون متيناً على عذوبته في الفم، ولذاذته في السمع»[2].

ولتبين ما تقدم، ننظر في هذه الرسائل القدسية، ففي رسالة القاضي الفاضل القدسية، يصف الحرب، فيتحدث عن الرماح، والسيوف، والجيش، وحملات العدو، كما يتحدث عن عثرات الأقدام، وجدع الأنوف، وما إلى ذلك. ويختار الألفاظ المناسبة للتعبير عن المعاني التي يتحدث عنها، كما يبدو في قوله: «. . . وأجلَت المعركة عن صَرْعى من الخيل والسلاح والكفار. . .، فإنه قتلهم بالسيوف الأفلاق، والرماح الأكسار، فنيلوا بثأر من السلاح، ونالوه

(١، ٢) المثل السائر ١/ ٢٤٠.

أيضاً بثار، فكم أهلة سيوف تقارض الضراب بها حتى عادت كالعراجين، وكم أنجم رماح تبادلت الطِّعان حتى صارت كالمطاعين. . .» ومثل ذلك قوله: «وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون. . .، وأوتر لهم قسيَّها التي تضرب فلا تفارقها سهامها. . .، فأمكن النَّقَّاب أن يُسْفِرَ للحرب النِّقاب، وأن يعيد الحجر إلى سيرته من التراب. . .»[1].

وفي رسالة البشري بالفتح القدسي للعماد الأصفهاني، يختار الألفاظ الملائمة للتعبير عن المعاني والأفكار التي يتحدث عنها، كما يبدو في قوله مصوراً المنجنيقات والأسوار: «. . . أحجار المجنيقات قد أنزلت الأسواء بالأسوار، وغارت الصخور في نصرة الصخرة المباركة. . .، وطارت من أوكار المجانيق كأنها الصقور. . .»[2]. ومن ذلك ما ورد في رسالة ابن الأثير، يصف الحرب، فيقول: «وكان قد برز من السلاح في لباس رائع من المنعة. . .، ولا يحمى بعوالي الأسوار، بل بعوالي الصِّعاد. . .، هذا والعزائم تنظر. . .»، وتقول: «ما بارتياد السهل تُملك الصعاب، ومن ابتنى السيف صرحاً، لم ينأ عنه بلوغ الأسباب. والحديد لا يفل إلا بالحديد، والركن الشديد لا يصدم إلا بركن شديد»[3].

ومن الواضح، من هذه الأمثلة القصيرة، أن أسلوب هذه الرسائل يتسم بالقوة والجزالة في الألفاظ والمعاني. ويبدو فيها التلاؤم جلياً بين تلك المعاني والألفاظ أيضاً.

★ ★ ★

استخدم الغريب في العديد من المواضع، في الرسائل القدسية، ولعل الذي دفع إلى ذلك، يتمثل في الوصول إلى السجع، أو الجناس، أو غيرهما من الفنون البديعية.

---

(١) انظر: رسائل عن الحرب والسلام (ط ٢)/ ١٦٤، ١٦٥، ١٦٩، ١٧٠، الدر النظيم/ ٢١ ـ ٢٨، صبح الأعشى ٦/ ٤٩٩، ٥٠١ ـ ٥٠٢.

(٢) كتاب الروضتين ٢/ ٩٨.

(٣) المثل السائر ٢/ ٣٣٦، ٣٧٧.

ومن ذلك قول القاضي الفاضل، في رسالته القدسية، مصوراً العدو المحتل: «لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة، ولا في فناء الأفنية لهم نصرة»، وقوله: «لا جرم أنهم يتهافت على ناره فَراشُهم، وتجتمع في ظل ظلامة خَشاشُهُم». وقوله مصوراً أثر المنجنيق في الأبراج: «فشجَّ مرادع أبراجها»[1]. لقد استخدم الكاتب لفظة «عصرة» بمعنى منجاة، للوصول إلى السجع بين عصرة، ونصرة. واستخدم لفظة «خشاشهم» بمعنى حشرات الأرض، يصور بها عامتهم، للوصول إلى السجع الذي يلتزم به في رسالته. ولكنه لم يستخدم لفظة «مرادع»، للوصول إلى السجع أو الجناس، بل استخدمها للإتيان بالغريب في حد ذاته، ولعل في ذلك إظهاراً للمقدرة اللغوية في نظره ونظر معاصريه.

يذكر ابن خلكان أن للقاضي الفاضل غرائب في صناعة الإنشاء[2]. ويصفه العماد الأصفهاني بأنه قد «نسخ أساليب القدماء... بما أبدعه من الغريب»[3].

ومن أمثلة هذا الغريب، قول العماد الأصفهاني، في رسالته القدسية: «فكم أقدم بها حيزوم، وركض فاتبعه سحاب عجاج مركوم». وقوله: «فكم قرية كأنها هجرة الموت وبها التاريخ، وكم طعنة تخر لها هضاب الحديد ولها شماريخ»[4]. لقد استخدم العماد لفظة «حيزوم»، ولفظة «شماريخ» للوصول إلى السجع والجناس. والأولى بمعنى (وسط الصدر وما يُضم عليه الحزام)، والثانية مفردها شمراخ وهو رأس الجبل. وهو هنا رأس آلة الحرب.

ومن ذلك قول ابن الأثير مشيراً إلى إرسال رسالته إلى الخليفة في بغداد: «... فلم يقبضه بالأدب حين أرسله، وقد ارتاد من يبلِّغ عنه مشاريح هذه الوقائع التي اختصرها...»[5]. وقد استخدم لفظة «مشاريح»... ولكن ينبغي

(١) رسائل عن الحرب والسلام (ط ٢)/ ١٦٣، ١٦٦، ١٧٠، الدر النظيم/ ٢٢، ٢٤، ٢٧، ٢٨، صبح الأعشى ٦/٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١.

(٢) وفيات الأعيان ٣/١٥٨.

(٣) انظر: خريدة القصر ـ قسم شعراء مصر ٢/٣٥ـ٥٢، كتاب الروضتين ٢/٢٤٢.

(٤) صبح الأعشى ٦/٥١٨.

(٥) المثل السائر ٢/٣٨٥.

ألا تكون ألفاظ الكُتّاب ألفاظاً غريبة فإن ذلك عيب فاحش في نظره. ولكنه يعود فيقسم الغريب إلى غريب حسن، وغريب قبيح[1]، فهل يعد المثل الذي ذكرناه من ألفاظه الغريبة، من النوع الحسن؟ وهو يسوغ استعمال الغريب الحسن في الشعر، بينما لا يسوغ استعماله في الخطب والمكاتبات[2].



واستخدمت مصطلحات مختلفة في الرسائل القدسية الآنفة الذكر، وهي مصطلحات دينية، ولغوية، وكلامية، وفلكية، وغيرها. ولكن أولئك الكُتّاب، أصحاب الرسائل القدسيات، لم يكثروا من استخدام المصطلحات في رسائلهم القدسية تلك، بل يمكن القول بأنهم قللوا من استخدامها[3].

ومن ذلك أن القاضي الفاضل يستخدم بعض المصطلحات اللغوية، كاستخدامه الجار والمجرور ومتعلقهما، في حديثه عن الفاتح وتعلق النصر به وبالجيوش الإسلامية، فكما أن الجار والمجرور لا بد لهما من متعلق، فإن النصر لا بد له من مثل ذلك، يقول: «ويقر عينه وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصر منه ومن عسكره بجار ومجرور»[4].

ويستخدم ابن الأثير بعض المصطلحات اللغوية في رسالته القدسية، ومن ذلك استخدامه لام التعريف، في حديثه عمن استشهد من المسلمين، يقول: «ولم يستشهد منهم إلا عدد يسير، لا تدخله لام التعريف».

ويستخدم القاضي الفاضل بعض المصطلحات الكلامية، كما يبدو في رسالته القدسية متحدثاً عن الفاتح: «فتكون كلمة الله هي العليا، وليفوز بجوهر الآخرة، لا بالعرض الأدنى من الدنيا». وكما يبدو في حديثه حول أطماع العدو الصليبي: «وأطماع الفرنج فيما بعد ذلك غير مرجئة ولا معتزلة»[5].

(١) المثل السائر ١/١٢٢، ٢٢٧، ٢٢٨.

(٢) نفسه ١/٢٣٧.

(٣) انظر: الفن ومذاهبه/ ٣٧٣.

(٤، ٥) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٩، ١٨٨، الدر النظيم/ ٢٦، ٣٣، صبح الأعشى ٦/٥٠١، ٥٠٤

ويستخدم ابن الأثير بعض المصطلحات الفلكية، كما يبدو في إشارته إلى التنجيم والمنجمين، يقول متحدثاً عن الفتح القدسي: «لم يكن لأهل النجامة فيه قول يردُّ كذابه، ولا يقبل صوابه، والشهب الطالعة على ذوات السروج أصدق نبأ من الشهب الطالعة من ذوات البروج، على أنهما وإن اتفقا رَجْماً، فإنهما يختلفان علماً»[1].

ويستخدم ابن الأثير مصطلحاً رياضياً، كما يبدو في حديثه عن مكانة بيت المقدس، ومقارنتها بالبلاد الأخرى، يقول: «ولم يَحُزْه الخادم (أي صلاح الدين) حتى طوى ما حوله من البلاد المنجدة والغائرة، وكان مركزاً لدائرتها، فغادرها وهو طرف من أطراف الدائرة»[2].

ونتساءل هنا: ما موقف النقاد من استخدام المصطلحات اللغوية، والكلامية، وغيرها من المصطلحات، في الأدب؟

يدعو أبوهلال العسكري إلى الابتعاد عن «ألفاظ المتكلمين مثل الجسم، والعَرَض، والكون، والجوهر»، ويرى في استخدامها هُجنة[3].

ويذهب صاحب مواد البيان إلى أن لكل طبقة من الكُتّاب، والفقهاء، وعلماء الكلام، وغيرهم، ألفاظاً خاصة بها، «يستعملونها فيما بينهم عند المحاورة، والخوض في الصناعة». ويرى أن استخدام ألفاظ ليست من ألفاظ صناعته هجنة أيضاً[4].

ويذهب ابن سنان إلى القول «بعدم استخدام ألفاظ المتكلمين والنحويين، وغيرها من الألفاظ التي تختص بأهل المهن والعلوم، وعلى الأديب إذا تكلم في صناعة، وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم[5].

---

(١) المثل السائر ٢/٣٨١.

(٢) المثل السائر ٢/٣٧٦، رسائل ابن الأثير ـ تحقيق المقدسي/ ١٥٠.

(٣) كتاب الصناعتين/ ١٣٥.

(٤) انظر: صبح الأعشى ٢/٣٢٤.

(٥) سر الفصاحة/ ١٩٥.

وقد يتخفف عدد من النقاد في استخدام مصطلحات العلوم الأخرى، إذا استخـدمت على سبيل التـظرف والتملح. يقـول ابن رشيق: إن «الكُتّـاب اصطلحوا على ألفاظ بأعينها سموها الكتابية لا يتجاوزونها إلى سواها، إلا أن يريد شاعر أن يتظرف باستعمال لفظ أعجمي، فيستعمله في النّدْرة». ثم يقول: «والفلسفة، وجرّ الأخبار باب آخر غير الشعر، فإن وقع فيه شيء منهما فبقدر»[1].

ويذهب حازم القرطاجني إلى أن المعاني المتعلقة بصنائع أهل المهن، لا يحسن أن ترد في الشعر، لضعتها كما يقول. ويذكر أن «البصراء بهذه الصناعة كأبي الفرج قدامة وأضرابه، قد نص جميعهم على قبح إيراد المعاني العملية والصناعية، والعبارات المصطلح عليه في جميع ذلك، ونهوا عن ايراد جميع ذلك في الشعر». ولكنه يذهب إلى جانب ذلك، إلى أنه «إذا كان غرض الشعر مبنياً على وصف أشياء علمية أو صناعية، ومحاكاتها. . . ، فايراد تلك المعاني والعبارات غير معيب في ذلك الغرض»[2].

ويذهب ابن الأثير إلى أنه يجب على الإنسان إذا تكلم في صناعة، فعليه أن يستعمل ألفاظ أهل العلم. ويضيف: إن «صناعة المنظوم والمنثور مستمدة من كل علم، وكل صناعة، لأنها موضوعة على الخوض في كل معنى، وهذا لا ضابط له يضبطه»، فإذا أخذ الشاعر أو الكاتب «في صوغ معنى من المعاني، وأداه ذلـك إلى استعمال معنى فقهي، أو نحوي، أو حسابي، أو غير ذلك، فليس له أن يتركه ويحيد عنه، لأنه من مقتضيات ذلك المعنى الذي قصده»[3].

ويستحسن استخـدامهـا عدد من النقـاد والأدبـاء الآخـرين، فابن حجة الحموي يتحدث عما يسميه «التوجيه» في قواعد العلوم، والفقه، والحديث، والجدل، والعروض، والهندسة، والطب، وغيرها مستحسناً ذلك[4].

---

(١) العمدة ١/١٠٧.

(٢) منهاج البلغاء/ ٢٥، ١٩٠، وانظر: ١٨٨، ١٨٩.

(٣) المثل السائر ٣/٢١٢، ٢١٣، وانظر: تاريخ النقد الأدبي الأدبي عند العرب/ ٦٠٥.

(٤) خزانة الأدب/ ١٣٩ ـ ١٤٢. وانظر: النقد الأدبي في العصر المملوكي/ ٢٩٠.

وقد يُفَسَّر ما شاع في الشعر من استخدام المصطلحات بالمشكلة اللغوية آنذاك. وقد يفسَّر ما شاع في الشعر من استخدام لمصطلحات علوم الدين من فقه، وحديث، وعلوم العربية من نحو، ولغة، وبلاغة، إلى أن العلم كان مهتماً بتلك العلوم، متصلاً بها[1].



واستخدمت ألفاظ وتعبيرات في هذه الرسائل القدسية، يشيع استخدامها في النصرانية. وهذا أمر طبيعي، فالصراع كان قائماً بين المسلمين وأعدائهم، وهو صراع عسكري، وصراع في العقيدة، ومن تلك الألفاظ والتعبيرات ما يتعلق برمز العقيدة النصرانية، وهو الصليب، ومنها: التثليث، ومنها ما يتعلق بملوكهم، أو برجال دينهم، أو بفرسانهم. ومنها ما يتعلق بأماكن ديانتهم.

ومن ذلك ما نجده في رسالة القاضي الفاضل القدسية، مثل: الصلبان، والتثليث، والقومص، والديوية، والاسبتارية، والكنائس، وغيرها[2].

ومنه ما نجده في الرسالة القدسية للعماد الأصفهاني، أو كتاب بشارته، مثل: صليب الصلبوت، وعبدة الصليب، وأهل الأحد، والتثليث، والابرنس، والبطرك، والقس، والديوية، والاسبتارية، وغيرها[3].

ومنه ما نجده في رسالة ابن الأثير القدسية، مثل الصليب، وآلهة الصليب، والناقوس. والبيع، والصوامع، وغيرها[4].

ومنه ما نجده في رسالة الناصر داود بن عيسى مثل: الصليب، والتثليث، وكند من كنودهم[5].

---

(١) انظر: ابن سناء الملك ـ مشكلة العقم والابتكار/ ٣٣، ٣٤، الحركة الفكرية في مصر/ ١٠٦ وما بعدها.

(٢) انظر: رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٦ ـ ١٨٨، الدر النظيم/ ١٥ ـ ٣٤.

(٣) انظر: الروضتين ٢/٩٦ ـ ٩٧، صبح الأعشى ٦/٥١٧ ـ ٥٢٠.

(٤) انظر: المثل السائر ٢/٣٧٥ ـ ٣٨٥، رسائل ابن الأثير ـ تحقيق المقدسي/ ١٤٩ ـ ١٥٧.

(٥) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٦ ـ ٢٣٣.

ومن الملاحظ أن تعبيرات خاصة بديانة العدو المحتل، يشيع استخدامها في هذه الرسائل القدسية، تقابلها تعبيرات خاصة بالديانة الإسلامية، وذلك ناجم عن الصراع في العقيدة بين المسلمين والفرنج، فنجد في هذه الرسائل، من التعبيرات التي استخدمها القاضي الفاضل: أهل الشرك، وبيوت الشرك، وأهل الصلبان، يقابلهم أهل القرآن[1].

ومن التعبيرات التي استخدمها العماد الأصفهاني: اليد الموحدة. واليد المثلثة، والضربة الموحدة، والضرب مثلثاً، وأهل الشرك والخلاف، وأهل الأحد، يقابلهم أهل التوحيد، وأهل الايمان[2].

ومن التعبيرات التي وردت في رسالة ابن الأثير القدسية: أعداء الله، والناقوس، والكفر، يقابل ذلك الأذان، والايمان[3].

واستخدم الناصر داود من هذه التعبيرات: تثليث الشرك، وثلاثة التوحيد، وحزب الطغيان، وحزب الشيطان، يقابله حزب الايمان، وحزب الله[4].



واستخدمت ألفاظ الغزل في هده الرسائل القدسية، ومن ذلك ما يبدو في رسالة القاضي الفاضل، مصوراً تحرير الصخرة المشرفة: «وهنا كفؤها الحجرُ الأسود ببت عصمتها من الكافر بحربة». أو قوله متحدثاً عن بيت المقدس بعد تحريرها: «وأصبحت الأرضُ المقدسةُ الطاهرةَ، وكانت الطامث»[5].

ومثل ذلك ما ورد في رسالة العماد الأصفهاني كقوله: «وهذا الفتح أقدره الله على افتضاضة بالحرب العوان»، وقوله في رسالة أخرى: «هذا فتح عظيم

---

(١) انظر: رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٩، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٨، الدر النظيم/ ١٨، ٢١، ٢٦.

(٢) انظر: صبح الأعشى ٥١٨/٦ ـ ٥٢٠، الروضتين ٩٦/٢، ٩٧، معجم الأدباء ٢٠/١٩.

(٣) انظر: المثل السائر ٣٨٢/٢، رسائل ابن الأثير ـ تحقيق المقدسي/ ١٥٤.

(٤) انظر: الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٣١، ٢٣٣.

(٥) انظر: رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٣، الدر النظيم/ ٢١، صبح الأعشى ٤٩٩/٦.

قدره. . . ، وقد افتض بنا بكره، واقتضى بسيفنا وتره»[1].

ومنها ما استخدمه ابن الأثير في رسالته القدسية، كقوله متحدثاً عن العدو المحتل: «. . . فأبى السيف أن يترك رقاباً تغذّى بأكلها، ويحلُّ من عشقها على مداومة وصلها»[2].



ويلاحظ أن الجمل الاعتراضية، مما كان يشيع في تلك الرسائل القدسية، وهي جمل اعتراضية دعائية غالباً، ويعبر بعضها عن الدعاء بالتأييد للخليفة والسلطان، ويعبر بعضها الآخر عن لون من ألوان الصراع بين المسلمين وعدوهم المحتل.



ويتسم أسلوب الرسائل القدسية الآنفة الذكر بالإطناب، والتفصيل، والاستقصاء. وهذا يتناسب مع طبيعة تلك الرسائل خاصة، وطبيعة النثر الفني عامة، فهي رسائل فتوحات ارسلت إلى ديوان الخلافة في بغداد، وقد بسط كاتبوها الحديث عن الفتح القدسي، والآثار الناجمة عنه، كما تحدثوا عن الخليفة والخلافة، والفاتح، والمعركة، ووصف السلاح: السيوف، والرماح، والمنجنيقات، ووصف الجيوش، والأسوار، والقلعة، والبرج، والمفاوضات بين الجانبين، والعدو الصليبي المحتل، والمصير الذي آل إليه ملوكهم، وفرسانهم. وتسليم المدينة، وإعادة المسجد الأقصى إلى عهده، بل إعادة بيت المقدس كله إلى عهده الإسلامي، وشكر الله على نصره، والدعوة إلى الاستمرار في الجهاد. والربط بين المقدسات الاسلامية، وبين الفتوح الصلاحية، والفتوح العمرية، وغير ذلك. ولا شك أن هذه كلها موضوعات جديرة بالتفصيل والاستقصاء في الحديث عنها.

---

(١) انظر: الروضتين ٢/٩٧، معجم الأدباء ١٩/٢١.

(٢) المثل السائر ٢/٣٧٨، رسائل ابن الأثير ـ تحقيق المقدسي/ ١٥٢.

يأتي الإطناب «لايضاح بعد ابهام، أو لتفخيم الأمر وتعظيمه»، أو غير ذلك[1]. وبه قد يزيد الكلام حسناً[2].

ويبدو أن هذا الإطناب كان يهدف إلى التأكيد على المعاني، والمبالغة في ايرادها، وفيه «زيادة اللفظ على المعنى لفائدة»[3].

ويورد ابن الأثير رسالته القدسية ليوضح فائدة الإطناب. ويذكر فيها أنه «ليس الإكثار ههنا من الإسهاب». ويقول: «ولو أُبيح للقلم الخيلاء في مقام المقال، كما أُبيح لصاحبه في مقام القتال، لاختالت مشيته في هذا الكتاب، ولقال، وأسهب». ومنعه من ذلك أن «يكون ممن فخر بعمله فأبطله». ويصف الإطناب في رسالته القدسية هذه بأنه إطناب «مستوفى الأقسام»[4].

وهذا الإطناب في هذه الرسائل القدسية، يتلاءم مع ما يذهب إليه النقاد والأدباء، في هذا المجال، فالإطناب عندهم «يصلح للمكاتبات الصادرة في الفتوحات ونحوها مما يقرأ في المحافل، والعهود السلطانية»[5].

إن لكل من الإطناب، والايجاز، والمساواة، موضعه. وفي مجال الإطناب، يقال: «إن أفضل الكلام أبينه، وأبينه أشده إحاطة بالمعاني، ولا يُحاط بالمعاني إحاطة تامة إلا بالاستقصاء» كما يقول أبوهلال العسكري. ويذهب إلى أن «الكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور الجسيمة، والفتوح الجليلة، وتفخيم النعم الحادثة...، سبيلها أن تكون مُشْبَعة مستقصاة، تملأ الصدور، وتأخذ بمجامع القلوب».

ويذهب العديد من النقاد والأدباء إلى أنه إذا كتب الكاتب للتهاني بالفتوح،

---

(١) انظر: الايضاح/ ١٣٩ ـ ١٥٠.

(٢) انظر: تحرير التحبير/ ٥٤٤، ٥٤٧، خزانة الأدب/ ٤٢٠، أنوار الربيع ٢٢/٦.

(٣) المثل السائر ٣٥٧/٢، وانظر: ٤٠٠/٢، الجامع الكبير/ ١٥١.

(٤) المثل السائر ٣٧٤/٢، ٣٨٤/٢، ٣٨٥، ٣٩٩.

(٥) صبح الأعشى ٣٣٧/٢.

«فليس إلا بسط الكلام، والإطناب في شكر نعم الله، والتبري من الحول والقوة إلا به، ووصف ما أعطى من النصر، وذكر ما منح من الثبات، وتعظيم ما يَسَّرَ من الفتح، ثم ما وُصف بعد ذلك من عزم، وإقدام، وصبر، وجلد...، ثم كلما اتسع مجال الكلام في ذكر الواقعة ووصفها كان أحسن وأدل على البلاغة، وأدعى لسرور المكتوب إليه...»[1].



ويتسم أسلوب هذه الرسائل القدسية بالسخرية والتهكم، وذلك عند الحديث عن العدو المحتل والمصير الذي آل إليه بعد الهزيمة التي مني بها، وتبدو هذه السمة جلية فيما تقدم من حديث عن صورة العدو المحتل في فصل سابق.



إن تلك السمات الأسلوبية التي تبيناها في الرسائل القدسية، نجدها متمثلة بجلاء في كتاب «الفيح القسي في الفتح القدسي» للعماد الأصفهاني. وهو ينهج فيه نهج الأسلوب المصنوع، فقد غلبت عليه الزخرفة، والتنميق والتصنع، وقد أسرف فيه في استخدام الصنعة مما أدى إلى الإطناب.

وفي هذا الكتاب تتكشف كل ميزات الأسلوب الدواويني، ففيه مقدمات طنانة لروايات الأحداث، ومنتخبات متكررة من مكاتبات العماد ورسائله، وفيه تنميق في اللغة، وعناية بالزخرفة والسجع البلاغي. وقد أدت العناية بالنثر المسجوع إلى «خنق الزخم الفطري»، وأدى ذلك إلى التشويه من أجل السجع البلاغي[2].



---

(١) انظر: الصناعتين/ ١٤٧، ١٩٠، البديع في نقد الشعر/ ١٨٢، المثل السائر ٢/٣٥٥، ٣٥٦، الجامع الكبير/ ١٤٧، ١٤٨ ـ ١٥١، حسن التوسل/ ٣٣٥، ٣٤٣، صبح الأعشى ٢/٣٣٦.

(٢) انظر: صلاح الدين ـ جب/ ٧٢، ١٠٥، ١٠٩.

يبدو التأثر بالقرآن الكريم جلياً في الرسائل القدسية التي أنشأها القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير، والناصر داود، ويبدو هذا التأثر الإسلامي في الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم، والحديث الشريف، أو في «حل آيات القرآن الكريم» و«حل الأخبار النبوية»[1].

يذهب أبوهلال العسكري إلى أنه ينبغي على الكاتب، أن يأتي في تأليفه الكلام بآيات من القرآن الكريم، وذلك في «الأمور الجليلة للترصيع والتحلية، والاستشهاد للمعاني على ما يقع في موقعه، ويليق بالمكان الذي يقع فيه». ولكنه يذهب إلى أنه يستكثر منه حتى يكون غالباً على الكلام[2].

ويذكر الصفدي أن الكاتب «يحتاج إلى حفظ الكتاب العزيز وإدمان تلاوته». كما يحتاج إلى معرفة بالتفسير، والحديث، والآثار المنقولة عن الصحابة رضوان الله عليهم[3].

ويتحدث ابن الاثير الحلبي عن حل الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ويبين أنه لا يؤخذ «عند حل الآية والحديث جملة اللفظ»، ولا يؤخذ «المعنى مجرداً عن اللفظ بكماله»، إلا إذا أريد بذلك الاستشهاد، «وقد اختلف علماء الأدب في حل القرآن العزيز، وإدراجه في مطاوي الكلام اختلافاً كبيراً. ومنهم من يمنع حل الآيات مطلقاً، ومنهم من يرى جواز حلها. ومنهم من لا يمنع حلها مطلقاً، ولا يستبيح ذلك مطلقاً. ويستشهد ابن الأثير الحلبي على حلها بأمثلة لابن نباته الخطيب، وضياء الدين بن الأثير[4].

يعتمد فن الكتابة على القرآن، والحديث، والشعر، والقصص الديني، والأمثال السائرة، وكانت تستخدم بطرق شتى، تختلف باختلاف أسلوب الكاتب[5].

---

(١) انظر: المثل السائر ١/١٧٠، ١٩٠، الوشي المرقوم/ ٨٥، ٨٦، ٩٣، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، حسن التوسل/ ٣٢٣، ٣٢٥.

(٢) انظر: صبح الأعشى ٢/٣٢٧، ٣٢٨.

(٣) انظر: نصرة الثائر/ ٦٣، ٦٤، جوهر الكنز/ ٢٩، ٣٠، ٣١، ثمرات الأوراق/ ٣٩٥.

(٤) انظر: جوهر الكنز/ ٦٠٩ ـ ٦١٥.

(٥) ابن الأثير/ ٢٥.

يبدو هذا التأثر جلياً في رسالة القاضي الفاضل القدسية، ففي حديثه عن الفتح القدسي، واصفاً إياه بالنعمة.. يقول: «فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل»[1]، وهو ينظر في قوله هذا إلى الحق سبحانه وتعالى: ﴿إن لك في النهار سبحاً طويلاً﴾[2].

وفي حديثه عن العدو الصليبي المحتل يقول: «وقد ضُربت عليه الذلة والمسكنة».. وبدّل الله مكان السيئة الحسنة، ونقل بيت عبادته «من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة». وقوله: «وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا»[3].

وهو ينظر فيه إلى قول الحق: ﴿وضُربت عليهم الذلة والمسكنة﴾، وقوله: ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾. وقوله: ﴿وأولئك هم وقود النار﴾[4].

وفي قوله: «وأخذ نَقْبٌ في حَجَره قال عنده الكافر: «يا ليتني كنت تراباً»، وقوله متحدثاً عن النصر: «وكان اليوم مشهوداً، وكانت الملائكة له شهوداً»، ينظر إلى قوله تعالى: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس، وذلك يوم مشهود﴾[5]. وفي قوله مصوراً النزال: «فلما نازلها الخادم رأى بلداً كبلاد، وجمعاً كيوم التناد»[6]، ينظر إلى قوله تعالى: ﴿ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد﴾[7].

ويلاحظ هنا أن القاضي الفاضل يختار ما يناسب المقام الذي كان يتحدث فيه[8]. وكان القاضي الفاضل يستعين بالآيات القرآنية في رسائله كثيراً.

---

(١) انظر: رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٨، الدر ال نظيم/ ١٧.

(٢) آية (٧) من سورة المزمل.

(٣) انظر: رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٤، ١٧٦، الدر النظيم/ ٢٢، ٢٣.

(٤) الآية رقم (٦١) من سورة البقرة، والآية رقم (٩٥) من سورة الأعراف، والآية رقم (١٠) من سورة آل عمران.

(٥) الآية رقم (١٠٣) من سورة هود.

(٦) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٦، الدر النظيم/ ٢٣.

(٧) الآية رقم (٣٢) من سورة غافر.

(٨) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٩، الدر النظيم/ ٢٦.

ويصوره ابن حجة الحموي «مالك أزمة هذا الفن»، ويستشهد بأمثلة عديدة من نثره في مجال الاقتباس[1].

ويبدو الأثر الإسلامي جلياً في رسالة العماد الأصفهاني القدسية، وهي الرسالة التي كتبها عن السلطان صلاح الدين، إلى الناصر لدين الله ببغداد، بمناسبة الفتح القدسي، فهو يستهلها بالقرآن الكريم بالآية ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾[2]. ومن الواضح أنه يقتبس الآية التي تتناسب والموضوع الذي يتحدث عنه. ويبدو الاقتباس متناسباً مع حديثه عن النصر عند الله سبحانه وتعالى، إذ يقتبس قول الحق: ﴿**ولقد مننا عليك مرة أخرى**﴾[3].

ويعمد العماد الأصفهاني إلى نثر القرآن في تضاعيف كلامه، ومن ذلك قول العماد «وأخذت القُرى وهي ظالمة، فترى مترفيها كأن لم تُوفيها»[4]. ثم يتبع ذلك باقتباسه قول الحق: ﴿**وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون**﴾[5]. وهو ينظر إلى قوله تعالى: ﴿**وكذلك أخذ ربك إذا اخذ القرى وهي ظالمة**﴾[6].

ومنه قوله متحدثاً عن لقاء المسلمين بعدوهم المحتل في ساحة الوغى: «وذلك أنه في فئتين التقتا»[7]، وفيه ينظر إلى قوله تعالى: ﴿**قد كان لكم آية في فئتين التقتا**﴾[8].

ومنه قوله مصوراً الأيام منذ يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر إلى يوم الخميس منسلخه: «وتلك سبعُ ليال وثمانيةُ أيام حسوما سخرها الله على

---

(١) انظر: خزانة الأدب/ ٤٤٥، ٤٤٦.

(٢) الآية رقم (١٠٥) من سورة الأنبياء.

(٣) الآية رقم (٣٧) من سورة طه.

(٤) انظر: صبح الأعشى ٥١٨/٦.

(٥) الآية رقم (٥٩) من سورة القصص.

(٦) الآية رقم (١٠٢) من سورة هود.

(٧) صبح الأعشى ٥١٨/٦.

(٨) الآية رقم (١٣) من سورة آل عمران.

الكفار»[1]. ثم يقتبس قول الحق سبحانه وتعالى، بعد قوله السابق مباشرة: ﴿فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾[2]. وهو ينظر في قوله السابق إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿سخرّها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانية أيام حسوماً﴾[3]، وذلك في الحديث عن هلاك عاد «بريح صرصرٍ عاتية». والعماد يجمع هنا بين نثر القرآن، والاقتباس منه كما هو واضح.

ويستمر العماد في الإشارة إلى مصير عاد، وهو المصير الذي آل إليه العدو الصليبي المحتل، يقول مشيراً إلى تحرير عكا: «ورفعت بها أعلام الايمان، وهي أم البلاد، وأخت إرم ذات العماد، وقد أصبحت كأن لم تَغْنَ بالكفر، وكأن لم تفتقر بالإسلام»[4]وهو ينظر إلى قوله تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد﴾[5].

ومنه قوله مصوراً أسر صليب الصلبوت: «وأُخذ رَهنا فلا تُقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة»[6]. وهو ينظر إلى قوله تعالى: ﴿زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء، والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة﴾[7].

ويبدو هذا الأثر الإسلامي جلياً أيضاً في كتاب بشارة العماد الأصفهاني القدسية، يستهله بالاقتباس من القرآن: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً﴾[8]، وهو اقتباس جاء متناسباً مع موضوع البشرى بالفتح القدسي العظيم، ويبدو هذا التناسب أيضاً في حمده الله على نصره، وقطعه دابر الظالمين، بقوله: «والحمد لله رب العالمين»[9].

---

(١) صبح الأعشى ٥١٩/٦.

(٢، ٣) الآية رقم (٧) من سورة الحاقة.

(٤) صبح الأعشى ٥١٩/٦.

(٥) الآية رقم (٦، ٧) من سورة الفجر.

(٦) صبح الأعشى ٥١٩/٦.

(٧) الآية رقم (١٤) من سورة آل عمران.

(٨) الآية رقم (٥٥) من سورة النور.

(٩) انظر: الروضتين ٩٧/٢، معجم الأدباء ١٩/ ٢٠، ٢١.

ويبدو هذا الأثر الإسلامي جلياً في رسالة ضياء الدين بن الأثير القدسية، وهي الرسالة التي يعارض بها القاضي الفاضل، في مواضع متعددة من رسالته القدسية، ففي مقدمتها يدعو لسلطان الديوان العزيز، يقول: «وجعل أيام دولته أترابا. . . ، ومنحها في الدنيا والآخرة عطاءً وفاقا لا عطاءً حسابا»[1]. وهو ينظر إلى قوله تعالى ﴿جزاء وفاقاً﴾، وقوله: ﴿جزاءً من ربك عطاءً حساباً﴾[2].

ومنه قوله: «وأنه إذا ضرب بعصاه الحجر انبجست عيون أهله دماء، كما انبجست عيون الحجر ماء»[3]. وهو ينظر إلى قوله تعالى: ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر، فانفجرت منه اثنتا عَشْرَةَ عيناً﴾[4].

ومنه قوله: «ولما دخل البلد وجد به أُمما لولا أن ضُربت عليهمُ الذلة لدافعوا المنايا مكاثرة»[5]، وهو ينظر فيه إلى قوله تعالى: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾[6].

ومنه قوله متحدثاً عن البيع والصوامع: «وما منها إلا ما يقال إنه إرَمُ ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد» ولقد ألان الله لهم الحجارة حتى تخيروا في توسيعها بضرب الاختيار»[7]. وهو ينظر فيه إلى قوله تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾، وقوله تعالى: ﴿وألنا له الحديد، أن أعملْ سابغات وقدّرْ في السَّرْدِ﴾[8].

ومنه قوله: «وقال الأقصى: سبحانه الذي أسرى إليّ بجنده، كما أسرى بعبده﴾[9]. وهو ينظر فيه إلى قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى﴾[10].

---

(١) المثل السائر ٢/٣٧٥.

(٢) آية رقم (٢٦)، وآية رقم (٣٦) من سورة النبأ.

(٣) المثل السائر ٢/٣٧٧.

(٤) آية رقم (٦٠) من سورة البقرة.

(٥) المثل السائر ٢/.

(٦) آية رقم (٦١) من سورة البقرة.

(٧) المثل السائر ٢/٣٨٣.

(٨) الآيات (٦، ٧، ٨) من سورة الفجر. والآيتان (١٠، ١١) من سورة سبأ.

(٩) المثل السائر ٢/٣٨٣.

(١٠) آية رقم (١) من سورة الإسراء.

يذكر ابن الأثير أن الكاتب، يمكن أن «يضمن كلامه بالآيات، في أماكنها اللائقة بها، ومواضعها المناسبة لها، ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرونق»[1].

كان ابن الاثير يقتبس الآيات من القرآن، وهي الآيات التي تأتي متناسبة مع الموضوع الذي يتحدث عنه، كما تأتي في مواضعها المناسبة لها، كما يقول ابن الاثير نفسه. وكان ينثر آيات من القرآن بين تضاعيف كلامه، في رسائله، وهو ما يسميه «حل آيات القرآن الكريم»[2]. وهو يختلف عن حل المنظوم، أو نثر المعاني الشعرية، وذلك «لأن ألفاظه ينبغي أن يحافظ عليها لمكان فصاحتها، إلا أنه لا ينبغي أن يؤخذ لفظ الآية بجملته، فإن ذلك من باب التضمين، وإنما يؤخذ بعضه، فإما أن يُجعل أولاً لكلام أو آخرا، على حسب ما يقتضيه موضعه». وهكذا يكون الأمر بالنسبة للأخبار النبوية. وفي هذا المجال يؤخذ معنى الآية الكريمة، أو معنى الخبر النبوي، ويكسى المعنى لفظاً غير لفظه[3].

وهذا ما كان يصنعه الكتاب من أمثال ابن الأثير نفسه، كما هو واضح في الأمثلة التي استُشْهِدُ بها فيما تقدم، وما كان يصنعه القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، في رسائلهما القدسية.

وكان ابن الأثير يرى أن لا تخلو الرسالة من «معنى من معاني القرآن الكريم، والأخبار النبوية». وكان يعد ذلك ركناً من الأركان الخمسة التي كان يرى أنه لا بد منها في كل رسالة، أو في كل كتاب بلاغي[4].

وفي حديثه عن تعلم الكتابة، قسمها إلى طبقات ثلاث، وفي الثالثة منها يدعو الكاتب إلى أن «يصرف همه إلى حفظ القرآن الكريم، وكثير من الأخبار

(١) المثل السائر ١/٧١، وانظر: ٧٢.
(٢) انظر: المثل السائر ١/١٧٠، الوشي المرقوم/ ٨٥.
(٣) المثل السائر ١/١٧٠، وانظر: ١٩٠، الوشي المرقوم/ ٩٩، ١٠٠.
(٤) المثل السائر ١/١٢١، ١٢٤.

النبوية». ويأخذ بالاقتباس منها، ولا يعنى هذا أن ابن الأثير يريد من الكاتب أن يكون «مرتبطاً في كتابتة بما يستخرجه من القرآن الكريم والأخبار النبوية»[1]. ويمكن أن يعد ابن الأثير مثلاً لأثر القرآن في الادباء من ناحية ثقافته وكتابته ونقده». لقد استطاع أن يجعل القرآن «من أصول طريقته الكتابية»[2]

وفي الرسالة القدسية للناصر داود، نجد صدى التأثر بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ففي وصفه لبرج قلعة داود في بيت المقدس، يصفه في منعته ورفعته بأنه «ينقلب البصر عن نظره خاسئاً وهو حسير»، وقد «رُدم بقوة بحيث لو حضره يأجوج ومأجوج ما استطاعوا أن يظهروه، ولا استطاعوا له نقبا. فكأن الله قد ألان لداود الصخر كما ألان له الحديد في بنيانه، أو كأنه استعان في إتقانه بجن سليمانه»[3]. وهو في هذا ينظر إلى قوله تعالى: ﴿ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض فهل نجعلُ لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سدا. قال ما مكّنّي فيه ربي خيرٌ فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً. آتوني زُبَرَ الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أُفرغ عليه قِطْرا. فما استطاعوا أن يَظْهروه، وما استطاعوا له نقبا﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبالُ أوِّبي معه والطيرَ. وألنا له الحديد، أن اعمل سابغات، وقدر في السَّرْد، واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير، ولسليمان الريحَ غُدُوُّها شهر ورواحها شهر، وأسَلْنا له عين القِطْر، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يَزِغْ منهم عن أمرنا نُذِقْهُ من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفانٍ كالجواب وقدور راسيات﴾[6]

---

(1) المثل السائر ١/١٢٥، ١٢٦، ١٢٧.

(2) انظر: ابن الأثير/ ١٠، ١١، ٥٨.

(3) الأعلاق الخطيرة - لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٧، ٢٢٨.

(4) آية رقم (٤) من سورة الملك.

(5) الآيات (٩٤ - ٩٧) من سورة الكهف.

(6) الآيات (١٠ - ١٣) من سورة سبأ.

وفي حديثه عن العدو، وقد عمد الى ستر البرج والقلعة «بالستائر المخلّدة، والخشب المسنده، والعَمَد الممدَّدة»، و «أوقدوا للحرب نار الشيطان الموصدة. لا بل نار الله الموقدة»[1]، ينظر إلى قوله تعالى: ﴿وإذا رأيتهم تُعْجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خُشُبٌ مُسندة﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وما أدراك ما الحُطمة. نار الله الموقدة. التي تَطَّلعُ على الأفئدة. إنها عليهم مُؤصدة. في عَمَد ممدَّده﴾[3].

وفي حديثه عن العدو أيضاً، يقول: «وظنوا أنها مانعتهم حصونهم، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وجزاهم بما كسبوا، ومكن أيدي المؤمنين من نواصيهم، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم»[4]، ينظر إلى قوله تعالى: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ماظننتم أن يخرجوا، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿يُعرف المجرمون بسيماهم، فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم، وقذف في قلوبهم الرعب﴾[7].

وهو العدو الذي «ضربت عليه الذلة والمسكنة»، كما جاء في رسالة الناصر داود المقدسية[8]، وينظر في قوله هذا إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾[9].

---

(١) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٨.

(٢) آية رقم (٤) من سورة المنافقون.

(٣) الأيات ٥ ـ ٩ من سورة الهمزة.

(٤) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٩، ٢٣٠.

(٥) آية قم (٢) من سورة الحشر.

(٦) آية رقم (٤١) من سورة الرحمن.

(٧) آية رقم (٢٦) من سورة الأحزاب.

(٨) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٣١.

(٩) آية رقم (٦١) من سورة البقرة.

ومن هذا يتبين أن الناصر داود يكثر من نثر آيات القرآن في تضاعيف كلامه، وتبدو رسالته متأثرة بالقرآن الكريم بكل جلاء.

وكذلك يبدو التأثر بالحديث النبوي والأخبار النبوية ظاهراً فلقد كان الاشتغال بالحديث النبوي لزاماً على كل طالب علم، وعليه أن يحفظ منه.

وكان العلماء والأدباء يستشهدون بالحديث النبوي، وكانوا يضمنون أحاديث نبوية في الأشعار والرسائل (١).

ويذكر ابن الأثير أنه قد عني بالحديث عناية بالغة، وحفظ منه كثيراً، وجمع كتاباً فيه «يشتمل على أكثر من ثلاثة آلاف خبر من الأخبار النبوية كلها يحتاج إليها في أسباب الكتابة». ويذكر أنه كان يلزم «مطالعة ذلك الكتاب لزوم المحتفل». ولا يزال «في مطالعته كالحال المرتحل» (٢).

ويقول ابن الأثير إنه كان قد جرَّد من الأخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف خبر، كلها تدخل في الاستعمال. ويقول: «وما زلت أواظب مطالعته مدة تزيد على عَشْر سنين، فكنت أُنهي مطالعته في كل أسبوع مرة، حتى دار على ناظري وخاطري ما يزيد على خمسمائة مرة، وصار محفوظاً لا يشذ عني منه شيء»(٣).

ومن ذلك قول العماد الأصفهاني في رسالته القدسية: «وأخذت القرى وهي ظالمة فترى مترفيها كأن لم تُؤْو فيها، فكم اقدَمَ بها حَيْزوم»(٤). وهذا المعنى مأخوذ من حديث غزوة بدر، وذاك أن رجلاً من المسلمين لاقى رجلاً من الكفار، وأراد أن يضربه، فخر على الأرض ميتاً قبل أن يصل إليه، وسمع الرجل المسلم صوتاً من قومه وهو يقول: «أقدَم حيزومُ، فجاء النبي ﷺ، وأخبره، فقال: «ذاك من مدد السماء الثالثة»(٥).

---

(١) انظر: ابن الأثير/ ١٢.

(٢) الوشي المرقوم/ ٥، ٦.

(٣) المثل السائر ١/١٩١.

(٤) صبح الأعشى ٦/٥١٨.

(٥) انظر: المثل السائر ١/١٩٥ ـ ١٩٦.

ومن ذلك ما استشهد به ابن الأثير في رسالته القدسية متحدثاً عن الحرب، يقول: «وكان قد برز من السلاح في لباس رائع من المنعة، وأخرج من السواد الأعظم ما خدع العيون، والحربُ خُدْعةَ»[1].

فمن الواضح أنه يضمن حديثه قول الرسول ﷺ: «الحرب خُدْعة»[2].

بين الاتباع والابتداع

تقدم القول عن الاتباع أو الاحتذاء، في الحديث عن الشعر، حيث صنفت المعاني إلى قسمين: قسم مبتدع لا يقتدي فيه الأديب بمن سبقه، وقسم آخر يحتذي فيه الأديب نهجاً مطروقاً.

نظر الكُتّاب في معاني من سبقهم، ودرسوها، وتمثلوها، وأخذوا منها، وتأثروا بها، وجاءوا بمعان مطروقة. وقد تقدم الحديث عن تأثرهم، واستقائهم معانيهم من مصادر مختلفة، من القرآن الكريم، والحديث الشريف. ومن الشعراء السابقين، كما تقدم.

ولكنهم إلى جانب ذلك، جددوا في المعاني، والصور، وتحدثوا عن تجديدهم وابتداعهم ذاك.

ويذهب ابن الأثير إلى أن «المحدثين كانوا أكثر ابتداعاً للمعاني، وألطف مأخذاً، وأدق نظراً[3] ولكن تلك المعاني المخترعة لم تكن كثيرة، فإن ابن الأثير نفسه يذكر أن أكثر المعاني قد طُرق وسُبق إليه، والإبداع إنما يقع في معنى غريب لم يُطرق»[4].

يقول ابن الأثير: وهذا معنى انفرد بابتداعه، ولم يأت به أحد ممن تقدمني. وكثيراً ما يذكر: «وهذا معنى لطيف، في غاية اللطافة، وهو مخترع لي»[5]. ومن

---

(١) المثل السائر ١/٣٧٦، رسائل ابن الأثير - تحقيق المقدسي.

(٢) انظر: صحيح البخاري - باب الجهاد، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ١/٤٤٣.

(٣) انظر: المثل السائر ٢/٦٣، الجامع الكبير/ ٦٩.

(٤) المثل السائر ٢/٦٣.

(٥) نفسه ٢/٣٤، ٣٥، وانظر: ٥٥، ٥٦.

تلك المعاني التي يتحدث عنها ما قاله حول القتال بالمنجنيق: «ونُصبت المنجنيقات فأنشأت سُحُباً صعبة القياد، مختصة بالرُّبا دون الوهاد، فلم تزل تقذف السور بوبل من جُلْمودها، وتفجؤه برعودها قبل بروقها، وبروق السحب قبل رعودها، حتى غادَرَت الحَزْنَ منه سهلاً، والعامر بَلْقَعا مُخلى». ويذكر ابن الأثير ان في قوله معنيين غريبين، وهما: «أن هذه السحب تخص الربا دون الوهاد»، و «أن رعودها قبل بروقها». ويضيف بأن «كل ذلك يُتفطن له بالمشاهدة»[1].

ومن المعاني الجديدة التي يتحدث عنها ابن الأثير ما ورد في رسالته القدسية، متحدثاً عن القتال بالمنجنيق أيضاً، يقول: «واتّفق الرأي على لسان المنجنيق في خطبة عقيليّة، أبلغ خطابا. وأدنى من المطلوب طلابا، وأنه إذا ضرب بعصاه الحجر انبجستْ عيونُ أهله دماء، كما انبجستْ عيون الحجر ماءً»[2].

ولعناية ابن الأثير بالمعاني المبتدعة، صنف رسالة في تلك المعاني المبتدعة[3].

ونجد في رسالة القاضي الفاضل القدسية عدداً من المعاني المخترعة، ومن ذلك حديثه عن المنجنيقات. إذ يقول: «فقدّم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون، عصيَّها وحبالها، وأوتر لهم قسيَّها التي تضربُ فلا تفارقها سهامها، ولا يفارق سهامَها نصالُها، فصافحت السور بأكنافه، فإذا سهمها في ثَنايَا شُرُفاتها سواك، وقَدَّم النصرُ نَسْراً من المنجنيق يُخلد إخلاده إلى الأرض، ويعلو عُلُوه إلى السِّماك، فشجَّ مرادعَ أبراجها، وأسمع صوت عجيجها. ورفع مُثار عجاجها، فأخلى السورَ من السيارة، والحربَ من النَّظارة...»[4]. ومثل ذلك ما نجده في حديثه عن السيوف، والصخرة المشرفة، والعدو المحتل، في رسالته القدسية.

ويشيد العماد الأصفهاني بالقاضي الفاضل في مخترعاته في صناعة الكتابة، وفيما «أغربه من الإبداع» كما يقول. ويذكر أن فصوله تأتي «مبتدعة

---

(1) المثل السائر ٢/١٨. (٢) نفسه ٢/٣٧٧. (٣) الاستدراك/ ٦٠.

(٤) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٩، ١٧٠، الدر النظيم/ ٢٧، ٢٨، صبح الأعشى ٦/٥٠١.

مبتدهة». ويصور كتابته «كالشريعة المحمدية التي نسخت لشرائع، ورسخت بها الصنائع، يخترع الأفكار، ويفترع الأبكار»[1].

ويشير ابن حجة الحموي إلى ما اخترعه القاضي الفاضل «من النكت الأدبية، والمعاني المخترعة». ويؤيد قوله بما قاله العماد الأصفهاني عن مخترعات القاضي الفاضل[2].

ويتحدث ابن نباتة المصري عن بدائع القاضي الفاضل ومخترعاته، فهو عندما يقسم كتاب «مطلع الفوائد ومجمع الفرائد» إلى ثلاثة أنواع، يجعل عهد القاضي الفاضل المقياس الأدبي الذي يقيس به، ففي النوع الأول يتحدث عن «بدائع المتقدمين على الزمن الفاضلي»، وفي النوع الثالث يتحدث عن بدائع المتأخرين عن الزمن الفاضلي، وأما النوع الثاني، فهو في البدائع الفاضلية[3]. وهو بهذا ينظر إلى كتابة القاضي الفاضل على أنها المقياس الأدبي، أو المثال الذي ينظر إليه، للأخذ عنه، والسير على نهجه. ويطنب ابن نباتة في الحديث عن البدائع الفاضلية، في نحو أربعين صفحة من كتابه الآنف الذكر[4]، وذلك في رسائله إلى السلطان، أو رسائله إلى الخليفة، بلسان السلطان صلاح الدين، أو رسائله إلى العماد الأصفهاني، أو في وصف قلعة نجم، أو في وصف الاسطول. ومنها رسالته القدسية الآنفة الذكر، فيذكر ابن نباتة العديد من البدائع الفاضلية التي وردت فيها، ومن ذلك حديثه عن الصخرة المشرفة، يقول: «. . . وتلاقت على الصخرة قُبلُهم، وشُفيت بها وإن كانت صخرة كما تُشفى بالماء غُلَلُهم. ولما قدم الدينُ عليها عرف منها سويداء قلبه، وهنأ كفؤها الحجرُ الأسودُ بيت عصمتها من الكافر بحربه»[5].

ومنها قوله متحدثاً عن العدو الصليبي بعد الهزيمة التي مُني بها: «ونام جفن سيفه، وكانت يقظَتُه تُريق نُطَفَ الكرى من الجفون، وجُدعت أنوف

(١) خريدة القصر ـ قسم شعراء مصر ١/٣٥ ـ ٥٤، كتاب الروضتين ٢/٢٤١، ٢٤٢.

(٢) ثمرات الأوراق/ ١٣٣، ٣٤٢، وانظر: ٣٤٥.

(٣) مطلع الفوائد/ ٨، وانظر: ٣٨٥.

(٤) انظر: نفسه/ ٤١٤ ـ ٤٥٠.

(٥) انظر: نفسه/ ٤١٤ ـ ٤٣١.

رماحه، وطالما كانت شامخةً بالمنى أو راعفة بالمنون»[1].

ومنها قوله مصوراً السيوف وآثارها في المعركة: «فكم أهِلة سيوفٍ تَقارَضْن الضراب بها حتى عادت كالعراجين، وكم أنجم رماحٍ تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين، وكم فارسية ركض عليها فارسُها الشهم إلى أجل فاختلسه، وفغرت تلك القوس فاها، فاذا فوها قد نهش القِرن على بعد المسافة فافترسه»[2].

ومنها قوله متحدثاً عن الصليب: «وما دهموا قط بأمر إلا وقام بين دهمائهم، يبسط لهم باعه ويحرضهم. وكان مَدُّ اليدين في هذه الدَّفعة وداعَه»[3].

ويذكر النُعيمي، نقلا عن الأسديّ، أن له معاني مبتكرة في إنشائه وترسله، ولم يسبق إليها مع كثرتها[4].

ونجد مثل هذه المعاني الجديدة في رسائل العماد الأصفهاني كما يبدو في رسالته القدسية، متحدثاً عن فتح طبرية، يقول: «... فيوم الخميس فتحت طبرية، وفاض ريّ النصر من بُحيرتها، وقضتْ على جَسْرها الفرنج، فقضت نَحبها بِحيْرتها»[5]. وقوله مصوراً العدو المحتل بعد الهزيمة التي مني بها: «... والحديد الكافر الذي كان في الكفر يضرب وجه الإسلام، قد صار حديداً مسلماً يُفرِّق خُطوات الكفر عن الأقدام»[6].

ويشيد المنذري بالعماد في هذا المجال فيقول: «استعبدت رسائله المعاني الأبكار»[7].



---

(1) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٠، ١٦٣، الدر النظيم/ ١٨، ٢١، صبح الأعشى ٦/٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، مطلع الفوائد/ ٤٣١، ٤٣٢.

(2) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٤، ١٦٥، الدر النظيم/ ٢٣، صبح الأعشى ٦/٤٩٩ - ٥٠٠، مطلع الفوائد/ ٤٣٢.

(3) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٥، ١٦٦، الدر النظيم/ ٢٤، صبح الأعشى ٦/٥٠٠، مطلع الفوائد/ ٤٣٢.

(4) الدارس ١/ ٩٠.

(5، 6) صبح الأعشى ٦/٥١٩.

(7) انظر: الدارس ١/٤٠٩ - ٤١٠.

التأثر بالشعراء السابقين:

حل المنظوم:

إن الناظر في الرسائل القدسية للقاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وضياء الدين الأثير، والناصر داود بن المعظم عيسى، يجد أنهم يتأثرون بمعاني الأدباء السابقين، وأساليبهم، وتراكيبهم، وصورهم، يحتذون حذوهم، ويتأثرون بهم، ويأخذون عنهم.

شاعت ظاهرة حل المنظوم في هذا العصر، وقد كانت شائعة قبل ذلك أيضاً، فأبوهلال يتحدث عن حل المنظوم في باب سماه «في حسن الأخذ وحل المنظوم»[1]، وابن طباطبا يصور الرسائل شعراً محلولاً، والشعر رسائل معقودة. ويصنف الثعالي كتاب «نثر النظم وحل العقد»[3]، ويثبت قطعة من حل الصاحب بن عباد وغيره من نظم المتنبي، مبيناً استعانتهم بألفاظه ومعانيه في الترسل[4]. ويصنف العميدي كتاب «الإرشاد إلى حل المنظوم، والهداية إلى نظم المنثور»[5]. ويصور ابن الصيرفي، علي بن منجب، نثر المنظوم، ونظم المنثور، من أعلى رتب البلاغة، كما يقول[6].

ويصنف ضياء الدين بن الأثير كتاب «الوشي المرقوم في حل المنظوم». ويبين أن عمدة الأمر في هذا المجال «تصرف الهمة إلى حل الشعر، وآيات القرآن والأخبار النبوية»[7]، ويرى أن هذا هو «كنز الكتابة ومنبعها». وأن على الكاتب أن يتصفح ما كتبه السابقون، ويحذو حذوهم، وهذه أدنى الطبقات

---

(١) انظر: الصناعتين/ ١٩٦ ـ ٢١٧.

(٢) عيار الشعر/ ٧٨.

(٣) انظر: نثر النظم وحل العقد، النثر الفني/ ١٧٤.

(٤) انظر: اليتيمة ١/ ١٢٢ ـ ١٢٨.

(٥) انظر: معجم الأدباء ١٧/ ٢١٢، تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ ٣٧٧.

(٦) الأفضليات/ ٢٥٢، ٢٥٣.

(٧) الوشي المرقوم/ ٣.

عنده. ثم ينتقل الكاتب إلى طبقة ثانية يمزج فيها كتابة السابقين «بما يستجيده لنفسه من زيادة حسنة، إما في تحسين ألفاظ، أو في تحسين معان»، وهي الطبقة الوسطى عنده. ثم ينتقل الكاتب إلى العناية بحفظ العديد من دواوين فحول الشعراء، إلى حفظ القرآن الكريم، والأخبار النبوية[1].

ويبين ابن الأثير نفسه أنه كان يحفظ من الأشعار القديمة المحدثة ما لا يحصيه كثرة، وأنه اقتصر على شعر أبي تمام، والبحتري، والمتنبي، فحفظها، وكرر درسها مدة سنتين[2]. ويُذكر أن له مجموعاً اختار فيه من شعر أبي تمام، والبحتري، وديك الجن، والمتنبي[3]. ومما يذكره «وقد قيل إن أسير كتاب في الأرض ديوان المتنبي، وكتاب الحماسة، على أن ديوان المتنبي أسير[4]. إن اهتمامه بدواوين أبي تمام، والبحتري، والمتنبي، كان صورة لذوقه، بل كان صورة لذوق العصر عامة. ويضيف أنه عندما سافر إلى مصر، في سنة ٥٩٦ هـ، وجد الناس «مكبين على شعر أبي الطيب المتنبي دون غيره». ولما سأل القاضي الفاضل عن سبب ذلك، قال له: «إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس. ولقد صدق فيما قال»، كما يقول ابن الأثير[5].

لقد كانوا يرون أن الكاتب كان محتاجاً إلى حفظ جانب جيد من شعر العرب، وحفظ جيد الحماسة، ومختار المفضليات، وبعض قصائد (منتهى الطلب)، كما يقول الصفدي. وهو يخص بالذكر شعر أبي تمام، والبحتري، والمتنبي، والمعري (في سقط الزند)[6].

وينبغي أن يكون حل المنظوم من غير كلفة. وعلى الكاتب ألا يعتمد في جميع كتابته على الحل، فيتكىء خاطره على ذلك. وأكثر النقاد من الحديث

---

(١) المثل السائر ١/١٢٥، ١٢٦، ١٣٦، الوشي المرقوم/ ٣، ٩، نصرة الثائر/ ٨٩.

(٢) الوشي المرقوم/ ١٠٩، وانظر: وفيات ٥/ ٣٨٩.

(٣) وفيات الأعيان ٥/٣٩٢.

(٤) الاستدراك/ ٤.

(٥) الوشي المرقوم/ ١٠.

(٦) نصرة الثائر/ ٦٤، ٦٥.

عن الحل والعقد، أي حل الشعر المنظوم، وعقد النثر شعراً[1].

لقد كان الكتاب يُحَلّون رسائلهم بحل المنظوم، ويرصعون كلامهم بالأخبار والأمثال، والأشعار، وآيات القرآن، وأحاديث النبي ﷺ، إلى غير ذلك.

تمثل هذه الظاهرة تأثراً بعدد من الشعراء السابقين، وتبدو جلية في الرسائل القدسيات الآنفة الذكر. ومنها الرسالة القدسية للقاضي الفاضل، وهي الرسالة التي كتبها على لسان صلاح الدين، إلى الخليفة في بغداد. وليس غريباً أن يبدو القاضي الفاضل متأثراً بشعراء سابقين، في رسالته هذه، فقد كان يحفظ ديوان الحماسة لأبي تمام، وهو في الثانية عشرة من عمره. كما كان يحفظ ديوان أبي تمام والبحتري. ويذكر ابن خلكان أنه تأثر بابن المعتز في وصفه قلعة شاهقة، يقال إنها قلعة كوكب[2].

وتبدو هذه الظاهرة واضحة في رسائل العماد الأصفهاني القدسيات، ومنها «الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد»، وأوله: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات، ليستخلفهم في الأرض، كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا...»[3]، وهو واحد من كتب البشارة بالفتح القدسي، وفيه يبدو متأثراً بأبي تمام، حيث يعمد إلى حل بعض منظومه في قصيدة عمورية، ففي تصويره الفتح، وتمكن الفاتح صلاح الدين من افتضاضه، كما يبدو في قوله: «وهذا الفتح قد أقدره الله على افتضاضة بالحرب العوان»[4]، لعله ينظر إلى قول أبي تمام في تصويره عمورية[5]:

---

(1) انظر البديع في نقد الشعر/ ٢٥٩، حسن التوسل/ ٣٢٥، تحرير التحبير/ ٤٣٩ ـ ٤٤٢، خزانة الأدب/ ٤٥٩، معاهد التنصيص/ ١٨٢، ١٩٠، ١٩٣، شرح الكافية البديعية/ ٣٢٤، جوهر الكنز/ ١٩٥، ٦٠٧، ٦٠٨، الإشارات والتنبيهات/ ٣١٩، ٣٢٠.

(2) انظر: احكام صنعة الكلام/ ١٤٠، ١٤١، يتيمة الدهر ١/ ١٢٧، الوشي المرقوم/ ٩، ١٠، وفيات الأعيان ٣/ ١٦٠.

(3) انظر: الروضتين ٢/ ٩٦. (4) نفسه ٢/ ٩٧. (5) ديوان أبي تمام ١/ ٤٨.

بكْــرٌ فمــا افْتــرَعَتْهــا كفُّ حادثــةٍ ولا تَرَقَّــتْ إلــيهــا هِمَّــةُ الــنُّــوبِ

ولعله يبدو متأثراً بابن القيسراني، في هذا الموضع، في قوله مخاطباً نورالدين[1]

ما زُفَّــت الــحــربُ الــعَــوان به إلاّ انــجــلتْ عن معــقــل بكــرِ

وقوله مخاطباً نورالدين[2]:

في كل يوم ينــثــنــي سيفُــهُ ببــلدة بكــر وأُخــرى عوان

ويرى العماد أن الأدباء البلغاء لن يستطيعوا إعطاء هذا الفتح القدسي حقه من التمجيد، كما يبدو في قوله: «وأتى بهذا النصر الممنوح، الذي هو فتح الفتوح، وقد تعالى أن يحيط به وصف البليغ نظماً ونثراً»[3]. وهو ينظر في هذا إلى قول أبي تمام مصوراً فتح عمورية[4]:

فَتْــحُ الفتــوح تعــالى أن يحيطَ به نَظمٌ من الشعــر أو نثر من الخُطَبِ

ويبدو مثل هذا التأثر في كتاب آخر للعماد الأصفهاني، يقول: «نصرنا الله بملائكته المُسوِّمين، وأوليائه المؤمنين، واستخلصناها بتأييد البلاد وانتزعناها، وافتضضناها بالبيض الذكور من الحرب العوان أبكار الفتوح وافترعناها، وهذه موهبة مذهبة منقبة، لا يبالغ إلى وصفها بلاغة موجزة ولا مسهبة»[5]. وهو ينظر فيها إلى الأبيات الآنفة الذكر لأبي تمام.

ويقول العماد في الكتاب نفسه مصوراً تحرير الصخرة المشرفة: «... وزفت عروسها البكر محصنة، لم تُفتض منها العذرة»[6]. وهو ينظر فيها إلى أبيات أبي تمام في وصف عمورية أيضاً.

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ١٩.

(٢) نفسه ١/ ٢١.

(٣) كتاب الروضتين ٢/ ٩٧، معجم الأدباء ١٩/ ٢٢.

(٤) ديوان أبي تمام ١/ ٤٥.

(٥) كتاب الروضتين ٢/ ٩٩.

(٦) نفسه ٢/ ٩٩.

ويبـدو مثل ذلك في كتاب جامع للفتح القدسي، كتبه العماد إلى أخي صلاح الدين سيف الإسلام ظهير الدين طغيتكين بن أيوب، مصوراً فتح قلعة طبرية، ومصوراً القلعة بالبكر الحصين [1].

وفي رسالته التي كتبها إلى الناصر لدين الله ببغداد، على لسان السلطان صلاح الدين، يهنئه بفتح القدس، وأولها: «ولقد كَتَبْنا في الزَّبُور من بعد الذكر أن الأرض يرثُهـا عبادي الصالحون الحمد لله ما أنجز من هذا الوعد. . .»، يقـول: «وقد صارتْ البِيَعُ مساجدهـم بها من آمن بالله واليوم الآخر، وصارتْ المناحِرُ مواقفَ لخطباء المنابر. . .»[2]. وهو ينظر في قوله هذا إلى أبي الطيب المتنبي في قوله[3]:

مُخليً له المَـرْجُ منصـوبـاً بصارخةٍ　　　له المنـابـرُ، مشهـوداً بهـا الجُمَـعَ

وقد تقدم القول أن الجواني، في قصيدته القدسية، بدا متأثراً بقول أبي الطيب هذا. وبذا يكون الشعر والنثر قد اشتركا في التأثر بأبي الطيب المتنبي في شعره.

وتبـدو مثل هذه الظاهرة جلية في رسالة ابن الأثير القدسية، ففي مقدمة رسـالتـه يدعو لديوان الخلافة فيقول: «وأراهم منها وراءهم في اليقظة إرهاباً وإرعاباً، وفي المنام إبلاً صعابا تقود خيلاً عِراباً»[4]، وهو في قوله هذا ينظر إلى قول الشاعر أشجع السُّلَمي من قصيدة يمدح بها الرشيد:

وعـلى عَدُوِّك يا ابـنَ عَمِّ مُحـمـدٍ　　　رَصَـدانِ: ضوءُ الصُّبحِ والإظـلامُ
فإذا تَنَـبَّـه رُعِـتَـهُ وإذا غفـا　　　سَلتْ عليه سُيوفَـك الأحـلامُ[5]

---

(١) الفتح القدسي/ ١٩٣.

(٢) انـظر: الروضتين ٢/٨٩، صبح الأعشى ٦/٥١٧ ـ ٥١٩، مفرج الكروب ٢/٢٠٣ ـ ٢٠٥، شفاء القلوب/ ١٢٢، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٩٥.

(٣) ديوان المتنبي ٢/٢٥٥.

(٤) انظر: المثل السائر ٢/٣٧٥، رسائل ابن الأثير ـ تحقيق المقدسي/ ١٤٩.

(٥) وانظر: نصرة الثائر/ ٣٠٥، وانظر: الوساطة/ ٢٥٢، طِبقات ابن المعتز/ ٢٥١ ـ ٢٥٢، خاص الخاص/

ولعل ابن الأثير، في قوله هذا، ينظر إلى أبي الطيب، وقد قيل إن أبا الطيب نفسه نظر إلى بيتي أشجع السلمي الآنفي الذكر، في قوله[1]:

كم من حُشاشة بطريق تَضمنها ... للباترات أمينٌ ماله وَرِعُ

يقاتل الخطو عنه حين يطلبه ... ويطردُ النومَ عنه حين يضطجعُ

أو قوله[2]:

يَرَى في النَّوم رُمحَكَ في كُلاه ... ويَخشى أن يَراه في السُّهادِ

ولعله ينظر إلى قول أبي تمام[3]:

إن يَنتبه تَرْتَعدْ فرائصُه ... أو يتهجَّدْ تَعجلْهُ عن حُلُمِهْ

وفي حديثه عن الفتح القدسي وآثاره، يصور أبواب السماء، وقد تفتحت، كما يبدو في قوله: «وقد سلت منها آيات تتمايل في أشباهها وأضرابها، واستؤنف لها الآن واحدة تُدعى بأمِّ كتابها، وهي فتح البيت المقدس الذي تفتحت له أبواب السماء»[4]. وهو ينظر فيه إلى قول أبي تمام معظماً فتح عمورية[5]:

فَتحٌ تَفَتَّحُ أبوابُ السَّماء له ... وتبرزُ الأرضُ في أثوابها القُشُبِ

وفي حديثه عن العزائم والسيوف وأثرها في الوصول إلى الغايات إذ يقول: «هذا والعزائم تنظرُ إلى هذا الرأي المُستَجهل، وتصدُّ عنه صدود المُستعجِل، وتقولُ: ما بارتياد السهل تُملكُ الصِّعاب، ومَنْ ابتنى السيفَ صَرحاً لم ينأ عنه بلوغ الأسباب، والحديدُ لا يُفلُّ إلاّ بالحديد». ويصور الفتح باليوم البدري، وبإنه «العجيبة التي لم تجفل عنها الأيام في صفر، وإنما أجفلت عنها في رجب». ويتحدث عن التنجيم والمنجمين فيقول: «ولما ظفر الخادم لم يكن

= ٨٨، سرقات المتنبي ـ ابن بسام/ ٥٩.

(١) ديوان ٢/٢٢٨، ٢٢٩، وانظر: سرقات المتنبي ـ ابن بسام/ ٥٨، ٥٩.

(٢) ديوان المتنبي ١/٣٦٤، الوساطة/ ٢٥٣، المنصف/ ٣٥٩.

(٣) انظر: المنصف/ ٣٥٩.

(٤) المثل السائر ٢/٣٧٥، رسائل ابن الأثير ـ تحقيق المقدسي/ ١٤٩، ١٥٠.

(٥) ديوان أبي تمام ١/٤٦.

لأهل النجامة فيه قول يردُّ كذابه، ولا يقبل صوابه، والشهب الطالعة على ذوات البروج أصدق نبأ من الشهب الطالعة من ذوات البروج، على أنهما وإن اتفقا رجماً، فإنهما يختلفان علماً، فعلمُ هذه يُسأل عنه ثُغر الأعناق، وعلم هذه يسأل عنها بطون الأوراق»[1]. وهو في هذا ينظر إلى قول أبي تمام في قصيدة عمورية[2]:

السيف أصدقُ أنباءً من الكُتُبِ ... في حَدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ
بيضُ الصَّفائحِ لا سودُ الصَّحَائف في ... مُتونهنَّ جلاءُ الشَّكِّ والرِّيبِ
والعلمُ في شُهبِ الأرماحِ لامعةً ... بين الخمسين لا في السَّبعةِ الشُّهُبِ
أين الروايةُ أم أين النجومُ وما ... صاغوه من زُخْرُفٍ فيها ومن كَذِبِ
عجائباً زعموا الأيام مُجفِلةً ... عنهنَّ في صَفرِ الأصفار أو رَجَبِ

ولعله ينظر في بعض أقواله الآنفة الذكر إلى قول أبي الطيب[3]:

على قَدْرِ أهل العزم تأتي العزائمُ ... وتأتي على قَدْرِ الكرام المكارمُ

وهو في قوله متحدثاً عن العدو الصليبي المحتل: «وهم طوائف مختلفو الألسنة والألوان، إن قيل إنهم أناسيّ، فإن صورهم صور الجان»[4]، ربما ينظر إلى قول المتنبي[5]:

تَجَمَّعَ فيه كلُّ لسْنٍ وأمَّةٍ ... فما تُفهمُ الحدّاثَ إلا التراجِمُ

★★★

---

(١) المثل السائر ٢/٣٧٧، ٣٨٠، ٣٨١ .

(٢) ديوان أبي تمام ١/٤٠ - ٤٣ .

(٣) ديوان المتنبي ٣/٣٧٨.

(٤) المثل السائر ٢/٣٨١ .

(٥) ديوان المتنبي ٣/٣٨٥.

التأثر بالكُتّاب والخطباء السابقين :

تأثرت الكتابة في العصر الأيوبي بما كان عليه حالها في العصر الفاطمي ، ويكفي أن نشير هنا إلى موفق الدين الخلال ، وابن قادوس ، وابن أبي الشخباء العسقلاني ، وما كان لهـم من أثر في القاضي الفاضل على سبيل المثال ، فقد تتلمذ الاخير عليهم ، وأخذ عنهم ، وتأثر بهم ، وكان القاضي الفاضل قدم إلى ديوان الانشاء في مصر ، والتقى بموفق الدين الخلال ، وكان رئيساً لديوان الانشاء ذاك يذكر ابن الأثير أن القاضي الفاضل قدم إلى ديوان المكاتبات في مصر ، وأنه مثل بين يدي موفق الدين بن الخلال ، وأن الموفق سأله عما يحفظ ، فأجاب الفاضل بأنه يحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة ، ثم أمره الموفق بملازمته ، يقـول : «فلما ترددت إليه ، وتدربت بين يديه ، أمرني بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة فحللته مرتين»[1] . وتخرج به القاضي الفاضل وكتب بين يديه[2] . ومن هذا النص يتبين كيف أن الفاضل قد تدرب على ابن الخلال ، واشتغل عليه في صناعة الإنشاء ، فأخذ عنه ، وتأثر به .

وتأثر القاضي الفاضل بابن قادوس . وكان قد اشتغل عليه ، كما كان يجاريه في فنون الكتابة ، وغيرها[3] .

وتأثر بابن أبي الشخباء العسقلاني . وقيل : إن جُلّ اعتماده كان على حفظ كلام ابن ابي الشخباء . وقد استمد من رسائله ، وكان معجباً بها[4] .

وتجدر الإشارة إلى ان الكتابة في العصر الفاطمي ، وفي العصر الأيوبي ، قد تأثرت بأساليب الكتابة في القرن الرابع الهجري ، ونخص بالذكر أسلوب ابن العميد[5] .

---

(١) الوشي المرقوم/ ٩ ، وانظر صبح الأعشى ١/ ٩٧ ، ثمرات الأوراق/ ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) خريدة القصر ـ قسم شعراء مصر ١/ ٢٣٥ ، النجوم الزاهرة ٧/ ٣٣٧ ، صبح الأعشى ١/ ٩٦ ، حسن المحاضرة ١/ ٥٦٣ ، ثمرات الأوراق/ ١٣٨ .

(٣) كتاب الروضتين ١/ ١٠٣ . وانظر: فوات الوفيات ٤/ ١٠١ .

(٤) وفيات الأعيان ٢/ ٨٩ ، معجم الأدباء ٩/ ١٥٢ ، نصرة الثائر/ ٩٢ .

(٥) انظر: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية/ ٣٤١ .

والعماد الأصفهاني تتلمذ على العديد من الشيوخ في بغداد، ومنهم شيخه زين الاسلام محمد بن القاسم بن علي الحريري، وقرأ عليه مقامات والده، وكان قد لقيه العماد في سنة ٥٥٦ هـ، ويقول: «وسمعت عليه من مقامات والده أربعين مقامة، وهو لها متقن، ولشرحها مُبَيِّن.

وسمعها العماد أيضاً على عدد من العلماء، وقرأها على عدد آخر منهم، ومن هذا تظهر عناية العماد بمقامات الحريري، ودرسه لها، وحفظها، والتأثر بها وبأسلوبها، ونهج نهجها اسلوباً وفناً[(١)].

وتعد مقامات الحريري النموذج للعمل الأدبي في العصر الأيوبي، وهي إلى جانب شعر المتنبي، «اكمل تعبير عن روحهم» أو «أرفع نموذج للأدب العربي بشطريه النثر والشعر حسب ذوق العصر»، كما عُدًّا «مرجعاً لغوياً لما يحويانه من غريب الألفاظ، وفصيح التراكيب[(٢)].

وتمثلت العناية بمقامات الحريري بدراستها، وحفظها، والسير على نهجها، والتأثر بها، وشرحها[(٣)].



وتأثرت الكتابة في العصر الايوبي باسلوب ابن نباته الفارقي، عبدالرحيم بن محمد بن اسماعيل، في ديوان خطبه، فقد كانت إلى جانب مقامات الحريري، عكازي أهل ذلك الزمان كما يقول ابن الأثير[(٤)]، وكان ابن نباتة قد أكثر من القول في «خطب الجهاد ليحض الناس عليه، ويحثهم على نصرة سيف الدولة»[(٥)].

---

(١) انظر: خريدة القصر - قسم شعراء العراق ١/٢٩، ٦٢، ٦٣.

(٢) انظر: تاريخ الشعوب الإسلامية ٢/١٣٥.

(٣) انظر: الوشي المرقوم/ ٦. الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية/ ٤٢، ٢٤٣، ٣٢٦، الأدب في العصر المملوكي/ ١٧٦، ١٧٧، تاريخ النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري/٢٢.

(٤) الوشي المرقوم/ ٦.

(٥) وفيات الأعيان ٣/١٥٦.

ولذا فمن المتوقع أن يتأثر الأدباء بابن نباتة الفارقي في خطبه، فقد كانت الظروف الحربية متشابهة بين عهدين، عهد كان الصراع فيه ضد الروم، وعهد كان الصراع فيه ضد الصليبيين.

وكانت خطب ابن نباتة الفارقي منتشرة بين الناس. وكانوا مغرمين بها، مكبين عليها، وكانت عندهم مثل مقامات الحريري، فهي أحد عكازي أهل ذلك الزمان كما تقدم[1].

لقد بدا التأثر كبيراً بهذه الخطب المسجوعة، والمرصعة بالقرآن الكريم، والحديث الشريف، والأمثال، وأقوال الحكماء، ونهج الكتّاب والخطباء نهجها، وكان محيي الدين بن زكي الدين ممن تأثروا بها، كما بدا في خطبته بالمسجد الأقصى، في سنة ٥٨٣ هـ.

ويتساءل الصفدي، في مناقشته إحدى رسائل ابن الأثير، فيقول: «أما وقف على الخطب النُّباتية، ورأى كلامه فيها، ويحذو حذوه، ويتلو تلوه»[2].

وكما بدت الكتابة في العصر الأيوبي متأثرة بالقرآن والحديث، والشعر، وأساليب الكتابة من قبل، فقد بدت متأثرة بالامثال.

وكان ابن الأثير معتنياً بالأمثال، فقد ذُكر أنه جرد كتاب (مجمع الأمثال) للميداني، يقول: «وكنت جردت كتاب الأمثال للميداني أوراقاً خفيفة تشتمل على الحسن من الأمثال الذي يدخل في باب الاستعمال». وهو يذهب إلى أنه يجب على الكاتب أن يكون على معرفة بأمثال العرب[3].

وكان القاضي الفاضل يضمن رسائله الأمثال السائرة، والأقوال المأثورة. ويبدو مثل هذا في رسالته القدسية[4].

---

(١) انظر: المثل السائر ١/٢٧٨، الوشي المرقوم/ ٦، النثر الفني/ ١٦٢.

(٢) نصرة الثائر/ ١١٨.

(٣) المثل السائر ١/٦١، ٦٢.

(٤) نفسه ٢/٣٧٦.

ويضمن العماد الأصفهاني رسائله بعض الأمثال السائرة، ومن ذلك ما يضمنه في رسالته القدسية التي كتبها إلى الخليفة الناصر لدين الله في بغداد، يقول: «. . . وإلا فإن الحروب إنما عقدت سجالاً»، والقول[1]: «الحروب سجال» قول معروف مأثور.

ويرصع ابن الأثير رسالته القدسية بالعديد من الأمثال. ومن ذلك تضمينه المثل: «كل الصيد في جوف الفرا»، في قوله: «هذا أمنية لمن يرى، وعلم حينئذا من كل الصيد في جوف الفرا»[2].

ويشيد النقاد والأدباء بهذا الصنيع، ومن ذلك أن ابن شيث يتحدث عن «الأمثال التي يدمجها الكاتب في كلامه، ويستشهد بها نظماً عند توغله في القول واقتحامه»، في باب من أبواب كتابه «معالم الكتابة»، ويذهب إلى أن «ايراد البيت الشعر في مكانه، والتمثل بالمثل السائر في موضعه، من أحسن أنواع الكتابة، وأعظم فنونها»[3].

---

(١) انظر: صبح الأعشى ٥١٨/٦.

(٢) المثل السائر ٣٧٦/٢.

(٣) معالم الكتابة/ ١٠٥.

الصنعة البديعية:

تبدو الصنعة البديعية جلية كل الجلاء في النثر الفني القدسي. وهي متكلفة مصنوعة فيه، وقد بدا الإسراف فيها كبيراً. وقد جاءت في النثر أكثر منها في الشعر القدسي الجهادي بشكل بارز، ولعل ذلك يعود إلى عدم التقيد بالوزن والقافية في النثر. ولعله يعود إلى أن الكتاب كانوا يجعلون من رسائلهم وسيلة لإظهار التفوق في هذا المجال.

ولكي نتبين معالم هذه السمة الفنية في النثر الفني القدسي، ننظر في عدد من الرسائل للقاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير، والناصر داود بن الملك المعظم عيسى.

لقد كان أثر القاضي الفاضل كبيراً في هذا المجال الأدبي، في الشعر كما تقدم، وفي النثر كذلك، فقد تأثر به العماد الأصفهاني، كما يبدو من قول للعماد: «وكنت من حسناته محسوبا، وإلى مناسب الآية منسوبا، أعرف صناعته، ويعرف صناعتي، وأعارض بضاعته الثمينة بمزجاة بضاعتي»، ويضيف: «وإنما نسجت على منواله، ومزجت من جرياله، ورويت بزواله». وأنا «ملتزم له قانون الاتباع»[1].

وتأثر به ابن الأثير، فنهج إلى معارضته في رسالته القدسية. وكان ابن الأثير «يعارض القاضي الفاضل في رسائله، فإذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها»[2]. وقد عارضه ابن الأثير في رسائل أخرى عديدة كتبها عن الملك الناصر صلاح الدين إلى الديوان العزيز النبوي، ومنها كتاب كتبه في معركة حطين[3].

يكثر القاضي الفاضل، في رسالته القدسية، من استخدام فنون الصنعة البديعية، من سجع، وجناس، وطباق، ومراعاة نظير، وغيرها. ويبدو هذا كله

(١) انظر: خريدة القصر ـ قسم شعراء مصر ١/٣٦، الروضتين ٢/٢٤١، ٢٤٢.

(٢) وفيات الأعيان ٥/٣٩٦. وانظر: نصرة الثائر/ ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٠٧، المثل السائر ٢/٣٧٤، رسائل ابن الأثير ـ تحقيق المقدسي/ ١٤٩.

(٣) انظر: رسائل ابن الأثير ١/٦٦ ـ ٧٥.

جلياً في مقدمة رسالته هذه. وقد بدا في هذه المقدمة، بل في الرسالة كلها، مولعاً بالصنعة البديعية، مولعا بالجناس والسجع خاصة. وكان القاضي الفاضل يبسط القول، ويطيل فيه، ليصل إلى ما يريده من فنون البديع. وقد بلغ التأنق مبلغاً عظيماً، في القرن السادس الهجري، في ظل القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني. وقد كانت للقاضي الفاضل «يد طولى في هذه الحركة، حتى عُدّ شيخ الصناعة الكتابية»، فنسبت إليه طريقة فيها، فقيل: الطريقة الفاضلية[1]. وتجدر الإشارة هنا إلى ما كان عليه حال الكتابة في القرن الرابع الهجري، فقد كان ابن العميد صاحب طريقة في الكتابة، بل لعله يمكن الذهاب مع ما ذهب إليه عدد من الباحثين الذين جعلوا القاضي الفاضل يسير وفق نهج ابن العميد، ثم يطور في طريقته تلك، إلى أن أصبحت الطريقة الفاضلية شائعة في المشرق الإسلامي، وفي مغربه، وأصبحت طابعاً عاماً في عصره، وفي العصور التالية[2]. وهذه الطريقة الفاضلية تبدو جلية في رسالته القدسية هذه، وفي غيرها من رسائله القدسيات.

وعمد القاضي الفاضل إلى استخدام الجناس في رسالته القدسية متكلفاً كقوله: «وأمِرَ أمرُ الحق، وكان مستضعفاً، وأهِلَ رَبْعُه وكان قد عيف حين عَفَا»، وقوله مشيداً بالخليفة: «... والشرق يهتدي بأنواره، بل إن أبدى نوراً من ذاته، هتف به الغرب بأن واره...»[3].

ويذكر العماد الأصفهاني أن كاتباً كتب كتاباً حول القاضي الفاضل سماه «أجناس التجنيس»[4]. ويصوره ابن حجة قد غاص في استخدام الجناس[5]. كما يصوره صلاح الدين الصفدي قد ذلل الصعاب في بابي التورية

(١) انظر: تطور الأساليب النثرية/ ٢٩٢، الفن ومذاهبه في النثر العربي/ ٣٧٠، الصبغ البديعي/ ٣٥٢.

(٢) انظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي/ ٣٦٨، ٣٧٠، الصبغ البديعي/ ٣٢٧.

(٣) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٩، ١٧٢، الدر النظيم/ ١٨، ٢٠، وفيات الأعيان ٧/ ١٨٠، ١٨١، صبح الأعشى ٦/ ٤٩٧، ٤٩٨، شفاء القلوب/ ١٤١، ١٤٢.

(٤) المستدرك على خريدة القصر (قسم شعراء مصر)/ ١٧٥.

(٥) خزانة الأدب/ ٣٧.

والاستخدام، «وأنزل الناس بهذه الساحات والرحب، حتى ارتشفت هذه السلافة أهل عصره، وأصحابه الذين نزلوا ربوع مصره»، ومنهم ابن سناء الملك، وأبوالحسين الجزار، وسراج الدين الوراق، ونصير الدين الحمّامي، وابن دانيال الكحال، ومحيي الدين بن عبدالظاهر، وغيرهم[1]. ويشيد به ابن حجة في هذا المجال، ويعده متقدماً في استخدامها، وله مخترعات، بل له طريقة فاضلية وصل فيها إلى درجة الاجتهاد، كما يصفه ابن حجة[2].

وأكثر القاضي الفاضل من السجع في رسائله، كما يبدو جلياً في رسالته القدسية. وقد أطال للوصول إلى السجع في رسالته هذه، وذلك واضح من النظرة الأولى في رسالته بدءاً من مقدمتها، كقوله داعياً للديوان الناصري في بغداد، ومشيداً به: «وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد، متعدد مساعي الفضل، وإن كان لا يُلقى إلا بشكر واحد، ماضي حُكم القول بعزمٍ لا يمضي إلا بنَشْل غَويّ ورَيْش راشد. ولا زالت غيوثُ فضله إلى الأولياء أنواءً إلى المرابع، وأنواراً إلى المساجد، وبعوث رُعْبه خيلاً إلى المراقب، وخيالاً إلى المراقد». وقوله: «قد كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التباشير لصبح هذه العَزْمة، والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة، فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل، ولطف الحق تحمل الشكر فيه عبء ثقيل»[3]. وقد التزم استخدام السجع، وأطال فيه، وقد جاء سجعه طويل الفقرات. ومن الملاحظ أنه يستخدم سجعتين متساويتين إلى حد ما، ثم سجعتين أُخريين، وهكذا. وقد جاءت كل سجعة موافقة لصاحبتها. وهو بهذا يُلوّن أسلوبه بالجَرس الموسيقي المتتابع. وللنثر موسيقاه، وهي موسيقى تتحدد «بمصاريع الأسجاع»، وتكون «المصاريع متقاربة الطول والقصر». و«يكون الكلام مقسماً

(١) انظر: فض الختام عن التورية والاستخدام/ ٤٩، ٥٠، ١٢٤ - ١٣٣.

(٢) انظر: خزانة الأدب/ ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٩٣، ٣٤٤، ٣٤٨.

كشف اللثام/ ٥٨، ٧٩، ٨٥، ٨٦، ١٤٧.

(٣) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٨، الدر النظيم/ ١٧، صبح الأعشى ٦/ ٤٩٧، وفيات الأعيان ٧/ ١٨٠، شفاء القلوب/ ١٤٠.

إلى جمـل لكل منها نهاية محدودة». وهي جمل متناسبة في طولها وقصرها. وتكون حروف ألفاظها متوافقة[1]. لقد فرض ذوق العصر الأدبي «ألواناً من التعبير عمـادهـا استخـدام الخواص الصوتية للعبارات، لا الألفاظ المفردة وحدها، وكـذلك استغلال الحروف استغلالاً كبيراً، واللعب بها، وإدارتها في الجمل وأبيات الشعر»[2].

وأكثر القاضي الفاضل من استخدام الطباق، والمقابلة، ومراعاة النظير، في رسـالتـه القـدسية أيضـاً، كقوله: «ولا يقاسي تلك البُؤسى إلا رجاء هذه النعمى. . . ، فما غابوا حتى حضر، ولا غضوا لما نظر. . . ، وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة، وكانت الطامث. . . ، وبَدَّل الله مكان السيئة الحسنة، ونقل بيت عباده من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة. . . ، ورايتها إلى الإسلام ضاحكة، كما كانت من الكفر باكية»[3]. ولعله من الممكن القول بأنه قد لا يبدو متكلفاً في استخدامه الطباق، كما رأيناه في الجناس، والسجع.

وينهج العماد الأصفهاني نهج القاضي الفاضل في الإكثار من استخدام الصنعة البديعية، والإسراف فيها. ويبدو ذلك جلياً أيضاً في استخدامه السجع، والجنـاس. والطباق. والمقابلة، ومراعاة النظير، وغيرها من الفنون البديعية. جاء في مقـدمـة رسـالتـه القـدسية: «. . . ووالى البشـائر فيها بالفتوح غدواً ورواحـاً. . . ، وأنجـزها الحق وقذف به على الباطل الزاهق، وملّكها هوادي المغـارب ومرامي المشارق، ولا زالت آراؤها في الظلمات مصابح، وسيوفها للبـلاد مفـاتح، وأطراف أسنتها لدماء الأعداء نوازح. . . ، فالزمان كهيئته قد استدار، والحق بمهجته قد استنار، والكفر قد رد ما كان عنده من المستعار، وغُسل ثوب الليل بما فجّر الفجر من أنهار النهار». ومن ذلك قوله: «وأُخذت القرى وهي ظالمة. . . ، فكم أقدم بها حَيْزُوم، وركض فاتبعه سحاب عجاج

---

(١) انظر: نظريات الشعر عند الفلاسفة المسلمين/ ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١.

(٢) انظر: الأدب في العصر الأيوبي/ ١٦٩.

(٣) صبح الأعشى ٦/٥١٩.

مركوم، وضَرَب فإذا ضَرْبه كتاب جراح مرقوم». وقوله: «ويكون السيف في اليد الموحَّدة يُغني بالضربة الموحَّدة، وفي اليد المثلَّثة لا يُغني بالضَّرب مثلَّثا». وقوله مصوراً فتح طبرية: «... وفاض رِيُّ النصر من بُحيرتها، وقَضَتْ الفرنج نحبها بَحيرتها»[1]. وهو هنا يلتزم السجع، ويكثر من الجناس، بل يسرف فيه، ويتكلف، ويتصنع، للوصول إليه. يذكر السبكي أنه أكثر ما يعاب على العماد الأصفهاني «كثرة استعماله للجناس لا سيما في النثر، بحيث تضيق به الأنفاس. ويكاد لا يترك للفظة الواحدة مجالاً». وهذا ما يذهب بكل حسن للجناس، فحسنه يكون «إذا خف على القلب واللسان، ولم يتعدَّ المرتين» كما يقول السبكي المذكور[2]. وقد تقدم قول الصفدي حيث يعد شعره ألطف من نثره، لإكثاره من الجناس في نثره.

وينهج العماد نهجه هذا في كتاب البشارة بالفتح القدسي، وقد كتب إلى ديوان الخليفة ببغداد، وأكثر من الجناس، والتزم السجع، ومن ذلك قوله متحدثاً عن الفتح القدسي وآثاره، مصوراً الملوك وقد انقرضوا «على حسرة تَمنّيه، وحيرة تَرَجِّيه، ووحشة اليأس من تَسنّيه، وتقاصرتْ عنه طوال الهمم، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم، فالحمد لله الذي أعاد القدس إلى القدس، وأعاذه من الرجس، وحقق من فتحه ما كان في النفس، وبَدَّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس. وجعل عزّ يومه ماحياً ذل أمس، وقد أعاذ الله بإنزال الملائكة والروح، وأتى بهذا النصر الممنوح، الذي هو فتح الفتوح»[3].

وينهج ابن الأثير نهج القاضي الفاضل، في رسالته القدسية، ففيها يكثر من استخدام الفنون البديعية أيضاً، من سجع، وجناس، وطباق، ولكنه يبدو أقل استخداماً لهذه الفنون البديعية من القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني. وتجدر الإشارة إلى ما تقدم من قول لابن الأثير نفسه، في هذا المجال، فهو

---

(١) صبح الأعشى ٦/٥١٧، ٥١٨.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٦/١٨٠.

(٣) كتاب الروضتين ٢/٩٧، معجم الأدباء ١٩/٢٠، ٢١.

يرى ان الفنون البديعية تحسن إذا قلت، ولا تكون مرضية إذا كثرت، ويكون اللفظ فيها تابعاً للمعنى. والأصل فيها الاعتدال. وينبغي أن تكون بعيدة عن التكلف. وكان يشترط «أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه أختها». ويرى أن ما يشترطه في السجع، كان متحققاً في رسائله، ويستشهد بأمثلة منها، في هذا المجال[1].

وفي رسالته القدسية، يسجع، ويجانس، ويطابق، ويقابل، ولا يقلل من استخدام الفنون البديعية، بل نراه يلتزم استخدام السجع، ويسعى للوصول إلى الجناس، ولكننا إذا وازنا صنيعه بصنيع مثيليه الفاضل والعماد، وجدنا استخدامه للفنون البديعية أقل، كما تقدم. يقول في رسالته القدسية هذه مستهلاً رسالته بالدعاء للديوان العزيز في بغداد: «وجعل أيامَ دولته أترابا، ومناقبَ مجدها هضابا، وزادها مرور الأيام شباباً، وأوسَعها توشيةً وإذهابا، إذ أوسع غيرها تلاشياً وذهابا، ومَنحها في الدنيا والآخرة عطاءً وفاقا لا عطاء حسابا». ويقول متحدثاً عن الزحف: «ولما وقع الزحف صورع البلد صراعا، بعد أن قورع قراعا، ثم هُزَّ هزَّةً طوته بيمينها، ونشرته بشمالها، وأذاقته العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من نَكالها». ويقول مصوراً مصير العدو بعد هزيمته: «ولما رأى الكفار أن صليبهم قد صار خَوّار، وأن زئيرهم قد انقلب خُوارا، أذعنت أيديهم باستسلامها، وصانعت بالمال عن الرقاب واسترقاقها». ويقول متحدثاً عن اليوم البدري، وهو الفتح القدسي: «فما أكثر الفائز فيه والمغبون، والمسرور والمحزون، فمن جدّ راكب، ومن جدّ راجل، ومن عز قادم، وذل راحل»[2].

ويستخدم الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى الفنون البديعية من سجع، وجناس، وطباق، وغيرها، في رسالته القدسية التي كتبها إلى الخليفة

(١) انظر: المثل السائر ١/٢٧١، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩ ـ ٢٨١.

(٢) انظر: المثل السائر ٢/٣٧٥، ٣٧٧، ٣٨١، رسائل ابن الأثير ـ تحقيق المقدسي ـ ١٤٩، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣.

في بغداد، بعد أن حرر بيت المقدس في سنة ٦٣٧ هـ. ومن النظر في رسالته هذه، يلاحظ أنه لا يعمد إلى التصنع، والتكلف، والتعقيد، كما رأينا في رسائل القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، ثم في رسائل ابن الأثير. ولعل ذلك يعود إلى أنه لم يكن في مثل مكانتهم الأدبية، ولم يكن يسعى للتأنق والتفنن كما كانوا يصنعون. ويوضح هذا ما جاء في مقدمة رسالته، هذه يقول: «أدام الله ظل الديوان العزيز النبوي ما دامت الأيام والسنون، وفتح بعزمه مُستغلَق الحصون، وأذاع ببركته النصر المصون، وأطلع البشائر ببابه يانعة الثمار، ناضرة الغصـون، وقضى لأوليائـه بنيل المنى، ولأعـدائـه بنيل المنون». ثم يقول: «وينهي أنه طالع المقام الشريف بأمر الهدنة وانقضاء مدتها، وانفساخ عقدتها، وعند ذلك أخلى الفرنج ـ خذلهم الله ـ القدس الشريف من مكانة، وانتقل كل منهم عن وطنه إلى ما صيره من أوطانه»[1].

(١) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٦، ٢٢٧.

الصورة الأدبية

تبدو العناية كبيرة بالصورة الأدبية في النثر الفني، في العصر الأيوبي عامة، وتبدو في رسائل القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير. وتبدو هذه العناية كبيرة في رسائلهم القدسية التي أنشأوها بمناسبة الفتح القدسي في سنة ٥٨٣ هـ.

لقد كثرت الصور الأدبية في تلك الرسائل القدسية، وهي صور عمادها التشبيهات، والاستعارات، والكنايات، وغير ذلك من الفنون البلاغية التي تشارك في تشكيل الصورة الأدبية الفنية.

تقدم القول في الحديث عن الصورة الشعرية، أن عدداً من النقاد رأى في الصورة الشعرية سر التفوق عند المتأخرين، وهي الصورة التي تقوم على التشبيه والتمثيل، والاستعارة، وأن من مظاهر عنايتهم بالصورة، تصنيف كتب عديدة في التشبيهات. وهذا يدل على الاهتمام بالصورة الأدبية، وهو اهتمام أخذ يسيطر على الذوق العام في تلك العصور، كما تقدم القول حول الصور الأدبية الغريبة، التي كانت تتفق وذوق ذلك العصر أيضاً. وفي هذا المجال يشار إلى استشهاد ابن حجة الحموي، في مجال التشبيهات الغريبة، بتشبيهات للقاضي الفاضل. ويعده ابن حجة «إمام هذه الصناعة»[١]، كما تقدم. وقد كثرت الصور الأدبية التي تتسم بالغرابة، في الرسائل القدسية الآنفة الذكر، كما سنتبينه فيما بعد.

★ ★ ★

تدور الصور الأدبية في تلك الرسائل القدسية، حول تصوير الفتح القدسي وآثاره، والمعركة وأدواتها. ويبدو التركيز جلياً على تصوير الأسلحة التي كانت تستخدم في المعركة. كما يبدو التركيز أيضاً على تصوير الصخرة المشرفة، والمسجد الأقصى، وسائر المقدسات الإسلامية. وتدور الصور الأدبية أيضاً

---

(١) انظر: خزانة الأدب/ ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، تاريخ النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري ٣١.

حول الفاتح، والمسلمين، والجيش الإسلامي والشهيد، كما تدور حول تصوير العدو الصليبي ومصيره الذي آل إليه. ويضاف إلى هذا كله تصوير الأسوار، والأبراج، والقلعة.

ولتوضيح هذا كله، ننظر في الرسائل القدسية، فنجد أن القاضي الفاضل يصور مكانة الصخرة المشرفة، في نفوس المسلمين، كما يصور تعلقهم الشديد بها، وإحساساتهم ومشاعرهم بعد تخليصها من الاحتلال، إذ يصورهم وقد كانوا يحسون بغُلّة شديدة لم تذهب إلا بعد رفرفة أعلام الإسلام فوق الأقصى والصخرة. وبأسلوب التشخيص والتجسيم، يضفي الكاتب صفات الكائن الحي على الجمادات، كما يبدو في تصويره الصخرة المشرفة سويداء قلب الدين، وتصويره الحجر الأسود مشاركاً في الفرحة العظيمة بخلاص الصخرة المشرفة. وبأسلوبه ذاك، يصور الصخرة المشرفة امرأة كان العدو المحتل قد اقترن بها، وها هي تتلخص منه، وتبت عصمتها منه حرباً، كما يبدو ذلك كله في قول القاضي الفاضل: «وظفروا يقظةً، بما لم يُصدِّقوا أنهم يظفرون به على النأي طارقاً، واستقرت على ألا على أقدامُهم، وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقتْ على الصخرة قُبَلُهم، وشُفيت بها وإن كانت صخرة كما تُشفى بالماء غُللهُم، ولما قدم الدينُ عليها، عرف منها سويداء قلبه، وهنأ كفؤها الحجرُ الأسودُ ببت عصمتها من الكافر بحربه»[1].

ويصورها العماد الأصفهاني مستصرخة تدعو إلى تحريرها وخلاصها، فلبى صلاح الدين استصراخها وحررها وطهرها من كل رجس ودنس، وعادت إلى ما كانت عليه من قبل في ظل الإسلام والمسلمين، هادئة مستبشرة، بعد أن كانت قلقة مضطربة في ظل الاحتلال. وهو يلجأ بذلك إلى الموازنة والمقابلة بين ما كان عليه الوضع في ظل الاحتلال، وما آل إليه في ظل التحرير، يقول: «...

(١) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٠، الدر النظيم/ ١٨، وفيات الأعيان ٧/ ١٨٠، صبح الأعشى ٦/ ٤٩٧، ٤٩٨.

وأُجيبتْ الصخرة المقدسة عند استصراخها، وبركت البركة الناهضة إليها في مناخها، وغُسلتْ من أوضارها وأوزارها بعبرات العيون، ورجع اضطرابها إلى السكون، وفديت بنواظر أهل الايمان، وصوفحت للوفاء بعهدها المجدد بالايمان، وذكرت في يوم خلاصها من رجب بليلة المعراج، وتجلّى إظلامها بإنارة سناء السراج. . . ، وزالت ضجرة الصخرة، ونعشها الله من العثرة، وبدّل بالانس فيها ما كان من الوحشة والحسرة، والحمد لله على هذه النصرة، والمنة على هذه المبرة»[1].

ويصورها في حنينها إلى الخلاص مما كانت تنوء بحمله في ظل الاحتلال، فيقول مصوراً قدسيتها، وارتباطها بمعجزة الإسراء والمعراج، واستجابة المسلمين لندائها، ويصورها ذات قلب تمكنت المسرة من سويدائه، بعد التحرير، «وحنت الصخرة حنين جذع المعجزة الأولى في ظلمة ليلها إلى ذلك السراج الوهاج، والحمد لله على سلوك ما وضح من المنهاج، ونضوب ما كان من نبع الاجاج»، إلى أن يقول: «فأصرخنا الصخرة، وأهدينا إليها النصرة، ومكنا من قلبها وإن كان من الحجر المرة»[2].

ويصورها قد استجابت صخور المنجنيقات لندائها، والعمل على إنقاذها «ممن قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة، وإلحافها من البهاء والرونق والعز الإسلامي بكسوة» كما ويصورها قد غسلت، وطهرت بمياه العيون التي طالما قذيت في ظل الاحتلال، وقد «صقلت بشفاه المؤمنين. . .»[3].

وهو يصورها كذلك في رسائل عديدة، ومن الصور التي تلفت النظر تصويره لها، مكرراً معالم تصويره لها كما تقدم قبل قليل، ولكنه يضيف إلى معالم الصورة السابقة معالم لم ترد في تلك الصورة، إذ يصورها وقد «زُفّت عروسها البكر محصنة لم تفتض منها العذرة. . .، وظهرت من صدف قبتها

(١) كتاب الروضتين ٢/٩٧، مرآة الزمان ٨/٣٩٨.

(٢) كتاب الروضتين ٢/٩٧، ٩٨.

(٣) نفسه ٢/٩٨.

الدرة. . . »[1]. ومن الواضح استخدامه ألفاظ الغزل في تشكيل الصورة الأدبية التي يصور بها الصخرة المباركة، وكأنه ينظر إلى أبي تمام في تصويره عمورية البكر. ويكرر مثل هذه الصورة في نسخة كتاب جامع للفتح القدسي، أرسلها إلى سيف الإسلام، أخي صلاح الدين، فيصورها قد «جليت هدى الهدى من الصخرة المقدسة جلوة العروس»[2]. وهو يكثر من الاعتماد على الموازنة والمقابلة بين ما كانت عليه في ظل الاحتلال، وما آلت إليه بعد التحرير، فيصورها بعد تحريرها، وقد كشف نقابها، ورفع حجابها، وحسر لثامها. . . ، ونزع لبوسها»، وزفت عروسها، وطلع بدرها من الظلمات. ويصورها قد «أشرقت القناديل من فوقها نوراً على نور»، ويصور قبتها تاجاً فوق رأسها، فيقول: «ولها القبة الشماء التي على رأسها كالتاج. وفيه ومض البارق، ومضى البراق، وأضاءت ليلة الإسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق»[3].

ويصورها ضياء الدين بن الأثير تتحدث عن توجه المسلمين إليها خاطبين، وهو بذلك يجمع بينها وبين الحجر الأسود، أي يجمع بين الأختين، ولكنه يجمع بينهما حلالاً لا حراماً، كما يبدو في قوله: «وقالت الصخرة: الآن جُمع بيني وبين الحجر الأسود لخاطب الإسلام، والجمع بين الأختين في هذا الأمر من الحلال لا من الحرام»[4]. وهو هنا يلجأ إلى أسلوب التشخيص، واستخدام ألفاظ الغزل، وأسلوب الموازنة. ويبدو ذلك أيضاً في إنطاقه المسجد الأقصى متحدثاً عن الإسراء والمعراج، وعودة عهود الفتح العمري بالفتح القدسي الثاني الصلاحي[5].



ويركز هؤلاء الأدباء في رسائلهم القدسية على تصوير المعركة عامة،

---

(1) كتاب الروضتين ٢/٩٩، الفتح القدسي/ ١٩٧، ١٩٨، وانظر: ١١٦، ١٤١، ١٤٧.

(2) الفتح القدسي/ ١٩٨.

(3) نفسه/ ١٢٢، ١٤١.

(4، 5) المثل السائر ٢/٣٨٣.

وأدواتها ووسائل النصر فيها خاصة، إذ نجدهم يركزون على تصوير السيوف، والرماح، والقسي، والسهام، والمنجنيقات، وغيرها من أدوات المعركة ووسائلها.

يصور القاضي الفاضل النصر نعمة بل بحراً تسبح فيه الأقلام، ويصور الدين كيف كان غريباً في دياره، في ظل الاحتلال الصليبي، ثم كيف تخلص من غربته تلك بعد التحرير. يقول: «وكان الدين غريباً، فهو الآن في وطنه»(1). كما يصور استرداد المسلمين بيت المقدس، وكأنهم استردوا «تراثاً كان عنهم آبقاً» كما يقول القاضي الفاضل. وهو يعمد في تصويره بيت المقدس إلى عنصر المقابلة من ناحية، والتشخيص من ناحية ثانية، وذلك جلي في تصويره مدينة بيت المقدس امرأة حائضاً، في ظل الاحتلال، طاهرة في ظل الفتح والتحرير، كما يبدو في قوله: «وأصبحت الأرضُ المقدسةُ الطاهرةَ، وكانت الطامث»(2). ويصور الإسلام مولوداً بعد الفتح في ذلك اليوم المشهود، يقول: «وكان اليوم مشهوداً، وكانت الملائكة له شهوداً، وكان الضلال صارخاً، وكان الكفر مفقوداً، وكان الإسلام مولوداً»(3). ولهذا نجده يصور فاتح مدينة بيت المقدس «يحصد منها كفراً، ويزرع ايماناً»(4).

وتجدر الإشارة إلى عناصر أخرى، يستخدمها الكاتب في تشكيل الصورة، ومنها عنصر يتمثل في الصراع من ناحية، خاصة الصراع في العقيدة، وعنصر البديع من ناحية أخرى. ولعل مما يلفت النظر بروز استخدام الطباق والمقابلة، ولعل ذلك راجع إلى التعبير عن الصراع، والتضاد، والتنافر، بين المسلمين

---

(1) رسائل عن الحرب والسلام (ط٢)/ ١٥٩، الدر النظيم/ ١٧، وفيات الأعيان ٧/ ١٨٠، صبح الأعشى ٦/٤٩٧.

(2) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٣، الدر النظيم/ ٢١، وفيات الأعيان ٧/ ١٨٢، صبح الأعشى ٦/ ٤٩٩.

(3) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٥، الدر النظيم/ ٢٣، وفيات الأعيان ٧/ ١٨٢ - ١٨٣، صبح الأعشى ٦/٥٠٠.

(4) رسائل عن الحرب والسلام (ط٢)/ ١٦٧، الدر النظيم/ ٢٥، وفيات الأعيان ٧/ ١٨٣، صبح الأعشى ٦/٥٠٠.

وأعدائهم. وهذا أمر يعمل على تنمية تشكيل معالم الصورة الأدبية التي يهدف الكاتب إلى تصويرها.

ويصور العماد هذا النصر القدسي، قد جلا جلابيب الظلماء التي كانت تخيم على بلاد الإسلام، في ظل الاحتلال الصليبي. ويربط بين النصر في العهود الإسلامية الأولى، وهذا النصر في العهود الإسلامية الصلاحية، ويصور الدين وقد خوطب بقول الحق، سبحانه وتعالى ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾(١). كانت أولاها في عهد النبوة، وكانت الأخرى «هذه التي عتق فيها من رق الكآبة، فهو قد أصبح حُرّاً، فالزمان كهيئته استدار، والحق بمهجته قد استنار، والكفر قد رُدَّ ما كان عنده من المستعار، وغُسل ثوب الليل بما فجَّر الفجر من أنهار النهار، وأتى الله بنيان الكفر من القواعد، وشفى غليل صدور المؤمنين برَقْرَاق ماء المَوْرِدات البوارد»(٢). إنه يصور ليالي الاحتلال السوداء، وطلوع فجر النصر، فيتحدث عن العبودية والحرية، ويشخص الليل، ليل الاحتلال وقد انقشع، كما يشخص الفجر، فجر النصر، وقد جاء بالحرية. بل إنه فجرها تفجيراً. وما أدل هذه اللفظة التي يستخدمها الكاتب للدلالة على ما صنعه فجر النصر، فأزال قواعد الاحتلال من أساسها. وبأسلوب التشخيص، والتجسيم، والمقابلة، يصور الإسلام وقد عاد «جديداً ثوبه، بعد أن كان جديداً حبله، مبيضاً نصره، مُخْضَرّاً نَصْلُه، متسعاً فضله، مجتمعاً شمله». وعادت رايته «ضاحكة كما كانت من الكفر باكية». وما أحلى تصويره للنصر، وقد فاض من بحيرة طبرية، «فيوم الخميس الأول فُتحت طبرية، وفاض رِيُّ النصر من بحيرتها» كما يقول العماد. ويسترسل في تصوير بلاد الإسلام محررة مطهرة من كل الآثام، مغسولة بدماء الأعداء(٣).

ومن الواضح أن عناصر عديدة تشارك في تشكيل هذه الصورة. وتتمثل في استخدامه الاستعارات والتشبيهات، والتشخيص، والموازنة، كما تبدو من

---

(١) آية رقم (٣٧) من سورة طه.

(٢، ٣) مفرج الكروب ٢/٢٠٣، صبح الأعشى ٦/٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، شفاء القلوب/ ١٢٣.

خلال استخدامه البديع، واستلهامه التراث السالف، ومواقفه إزاء الصراع في العقيدة بين المسلمين وأعدائهم.

ويصور ابن الأثير الفتح بأم الكتاب الفاتحة، وذلك بالنظر إلى المساعي العظيمة التي قام بها السلطان صلاح الدين، يقول: «وقد سلفت منها آيات تتمايل في أشباهها وأضرابها، واستؤنف لها الآن واحدة تُدعى بأُم كتابها، وهي فتح البيت المقدس الذي تفتحت له أبواب السماء»، وبذلك آنس صلاح الدين القبلة الثانية ـ مكة ـ بالقبلة الأولى ـ بيت المقدس[1]. ويستلهم ابن الأثير التاريخ، فيصور الفتح باليوم البدري ـ كما يستلهم التراث الشعري، إذ يتضح استلهامه من شعر أبي تمام خاصة في حديثه عن معركة عمورية. ويصوره عجيبة من عجائب الأيام، وقد أسرعت الأيام في إظهارها في رجب، يقول: «وإذا أنصف واصفه قال إنه لليوم البدري في اقتراب النسب، وأنه العجيبة التي لم تجفل عنها الأيام في صفر، وإنما أجفلت عنها في رجب»[2]، كما يقول أبوتمام في قصيدته البائية حول عمورية، كماتقدم.

ويركز هؤلاء الكُتّاب في رسائلهم على تصوير أسلحة المعركة وأثرها فيها، معتمدين في تصويرهم على الاستعارات والتشبيهات، وأساليب التشخيص والتجسيم، فالقاضي الفاضل يصور السيوف تُدلج إلى اخترام «الآجال وهي نائمة»، وهي ذوات عيون وجفون، ويصور الرماح ذوات أنوف، كما يبدو في قوله مصوراً المصير الذي آل إليه العدو المحتل: «وغُضَتْ عينه، وكانت عيون السيوف دونها كسيفه، ونام جفن سيفه، وكانت يَقَظَتُه تُريق نُطَفَ الكرى من الجفون. وجُدعتْ أنوف رماحه، وطالما كانت شامخةً بالمنى أو راعفةً بالمنون»[3]. وهو في تصويره هذا يسبغ بعض الصفات التي لحقت بالعدو المهزوم، على أسلحته التي يصورها، كما أنه يعمد إلى الموازنة بين ماكان عليه

---

(1) المثل السائر ٢/٣٧٥. رسائل ابن الأثير ـ تحقيق المقدسي/ ١٤٩، ١٥٠.

(2) انظر: ديوان أبي تمام ١/٤٣.

(3) رسائل عن الحرب والسلام (ط ٢)/ ١٦٣، الدر النظيم/ ٢١، صبح الأعشى ٦/٤٩٩، شفاء القلوب/ ١٤٣.

العدو قبل الهزيمة، وما أصبح عليه بعدها، في تصـويره تلك الأسلحة أيضاً. ويبدو هذا جلياً في تصوير السيوف تبعث الكرى في العيون، وتصوير الرماح مجدوعة الأنوف، لما لحق بها من الهزيمة. ويصور المعركة وقد كشفت عن «صـرعى من الخيل والسـلاح والكفار»، وذلك بالسيوف القاطعة التي تفلقت لكثرة الطعان، والرماح التي تكسرت لما أنزلته بالعدو من التقتيل، وكأن السلاح قد ثأر من العدو، كما ثأر العدو منه. ويصور السيوف أهلة، وكأن الواحد منها «كـالعرجون القديم». ويصور الرماح تتبادل الطعان، وتنشر الموت، والقسي تختـرم الآجال، وما أجمل تصويرها مشخصة مجسمة، وهي فاغرة أفواهها، وكأنها الأسود تفترس فرائسها، كما يبدو في قوله: « . . . ، فإنه قتلهم بالسيوف الأفلاق، والرماح الأكسار، فنيلوا بثأر من السلاح، ونالوه أيضاً بثار، فكم أهلة سيوف تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين، وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين، وكم فارسية[1] ركض عليها فارسها السهم إلى أجل فاختلسـه، وفغرت تلك القوس فاها، فإذا فوها قد نَهَشَ القِرْن على بعد المسـافـة فافترسـه»[2]. وهو إلى جانب العناصر التي تقدمت الإشارة إليها، لتشكيل الصورة، يبدو مستلهماً من القرآن الكريم عندما يصور السيوف بالأهلة قال تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾[3] وقوله تعالى: ﴿والنجم إذا هوى﴾[4]. وعنـاية الكاتب بصوره، وتأنقه وتصنعه فيها، واضح جلي، ولعل فيها بعض الغرابة والجدة[5]. وهي صورة تحمل رعباً وانتقاماً.

ويصـور العماد الأصفهاني السيوف مفاتح للبلاد، وأطراف الأسنة نوازح لدماء الأعداء. ويعود ليصور السيوف ذات أثر كبير في أيدي المسلمين، ولكن أثرها غير مجدٍ في أيدي أعدائهم. وبأسلوب التشخيص والتجسيم، وبالاتكاء على الاستعارات والتشبيهات وغيرها من موضوعات علم البيان، والاتكاء على

---

(١) فارسية: قوس فارسية.

(٢) رسـائل عن الحرب والسلام/ ١٦٤، ١٦٥، الدر النظيم/ ٢٢، ٢٣، وفيات الأعيان ١٨٢/٧، صبح الأعشى ٤٩٩/٦ ـ ٥٠٠، شفاء القلوب/ ١٤٤

(٣) آية رقم (٣٩) من سورة يس.

(٤) آية رقم (١) من سورة النجم.

(٥) انظر: ص ٣٧٣ من هذا البحث.

الصنعة البديعية، يعمد العماد إلى تصوير السيف يقظاً كما رأينا القاضي الفاضل يصوره، وهو سيف ذو جفن، كما يبدو في قوله: «. . . فما كان سيف يَتيقَّظ من جفنه قبل أن ينبهه الصريخ، ولا كان ضَرْبٌ يُطير الهام قبل ضَرْبٍ يراه الناظر، ويسمعه المصيخ»[1]. ويحاول العماد أن يجدد في الصورة، ويغرب فيها، كما يبدو في تصويره قرية «وكأنها هجرة الموت»، وبها التاريخ، وكم طعنةٍ تخرُّ لها هضاب الحديد، ولها شماريخ»[2].

ويصور ابن الأثير السيوف محققة الآمال، وكأنه ينطق بلسان أبي تمام، أو بلسان أبي الطيب المتنبي، يقول: «ما بارتياد السهل تُمْلكُ الصِّعاب، ومَنْ ابتنى السيف صَرْحاً لم ينأ عنه بلوغ الأسباب»[3]. ويصور أثر السيوف في المعركة فهي التي تحسم الأمر، وتنشر الغيظ في كل بلد تسرع في خطوها إليه، تهاجمه وهي مشتاقة لنفوس الأعداء الطائشة لاخترام آجالها، كما يبدو في قوله: «ولما وقع الزَّحف صورع البلد صراعاً. . . ، ولم يكن قتاله بالسهام التي غايتها أن تصفَّ أجنحتها للمطار، وتنال بكلومها من فوق الأسوار، بل بالسيوف التي إذا جالدتْ بلداً أخذتْ بكظمه، وتوغَّلتْ في هَجْمه، وأَغْنَتْ بسرعة خطواتها إليه عن المنجنيق وإبطاء هَدْمه، والسيفُ ليس بمُرْتَوٍ من النفس التي تظلُّ طائشة عند لقائها، حائشة عند استيفائها»[4]. ويسترسل ابن الأثير في تصوير السيف، مستخدماً أسلوب التشخيص وألفاظ الغزل، فيصوره يتغذى بأكل رقاب الأعداء، ويصوره عاشقاً لها مداوماً على وصلها، كما يبدو في قوله: «. . . فأبى السيف أن يترك رقاباً تغذّى بأكلها، ويحلُّ من عشقها على مُداومة وَصْلها»[5].

ويركز هؤلاء الكتاب على تصوير المنجنيقات وآثارها في المعركة، من خلال رسائلهم القدسية، ويعمدون إلى الإطناب والاستقصاء في تصويرها،

(١) صبح الأعشى ٦/٥١٧، ٥١٨.

(٢) نفسه ٦/٥١٨.

(٣) المثل السائر ٢/٣٧٧، رسائل ابن الأثير ـ تحقيق المقدسي/ ١٥٠.

(٤) المثل السائر ٢/٣٧٧، ٣٧٨. (٥) نفسه ٢/٣٧٨.

كما يعمدون إلى أساليب التشخيص، والإكثار من التشبيهات والاستعارات، في رسائلهم القدسية هذه، فالقاضي الفاضل يصورها: عصيها، وحبالها، وسهامها تعاقب الحصون، وأسوارها وأبراجها، ويصور ذلك العقاب وكأنه مصافحة للسور، كما يصور سهامها، وهي تتداخل في ثنايا شرفات السور، بالسواك يتداخل بين ثنايا الأسنان، ويصور ما كانت تلقي به تلك المنجنيقات نسراً يخلد إلى الأرض مرة، ثم يعلو ليصل إلى السِّماك، وإذا به يحدث ثلمة في أبراجها، ويُحدث نَقبا، بل إنه يصوره يفتت الحجارة، ويعيدها تراباً كما كانت عليه سيرتها الأولى، وكأنها أخذ بعضها يتبرأ من بعضها الآخر، كما يبدو في قوله: «. . . فقدمَ المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون، عَصيُّها، وحبالُها، وأوتر لهم قِسيُّها التي تضرب فلا تفارقُها سهامُها، ولا يفارق سهامَهَا نصالُها، فصافحت السوّرَ بأكنافه، فإذا سهمُها في ثنايا شُرُفاتها سِواك، وقَدَّم النَّصرُ نَسْراً من المنجنيق، يُخلدُ إخلاده إلى الأرض، ويعلو عُلُوّه إلى السِّماك، فشجّ مرادع أبراجها، وأسمع صوتَ عجيجها، ورفعَ مثار عجاجها، فأخلى السّورَ من السَّيَّارة، والحربَ من النَّظَّارة، فأمكن النَّقَّاب، أن يُسْفِر للحرب النِّقاب، وأن يعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب، فتقدم إلى الصخر فمضغ سَرْدَه بأنياب مِعْوَله، وحَلَّ عَقْدَه بضَرْبة الأخْرق الدال على لطافة أنمُله، وأسمع الصخرةَ الشريفة حنينه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمُقَبِّله، وتبرّأ بعض الحجارة من بعض، وأخذ الخرابُ عليها موثقا، فلن تبرح الأرض»[1]. وهي صور أدبية تبدو عليها معالم من الجدة، كما تبدو العناية بالتأنق فيها جلية، فقد عُني فيها بالصنعة البديعية، واستخدم السجع، والجناس، وغيرهما من ضروب البديع.

ويصور العماد المنجنيقات تُنزل الأسواء بالأسرار، وقد جَدّت في انقاذ الصخرة من الإسار، وتطايرت لنصرتها، «وهتمت ثنايا الأبراج»، ويصورها تنزل

(١) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٩ ـ ١٧٠، الدر النظيم/ ٢٧ ـ ٢٩، وفيات الأعيان ١٨٤/٧، الأعلاق الخطيرة لبناو والأردن وفلسطين/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦، صبح الأعشى ٥٠١/٦ ـ ٥٠٢، شفاء القلوب/ ١٤٦، ١٤٧، الأنس الجليل ٣٤٥/١ ـ ٣٤٦. وانظر ص ٣٧١ من هذا البحث.

الموت الزؤام بالعدو، وكأنها تقيم حد الرجم على عصابته، ويصور حجارتها بالصقور، كما يبدو في قوله: «. . . نهضت لإصراخ الصخرة المقدسة الصخور، وطارت من أوكار المجانيق كأنها الصقور»(١).

ويصورها وكأنها مجانين يرامون، «وجبال تجذبها حبال، ورجال تنجدها رجال»، وهي التي تنزل الأخطار والمصائب بالأعداء، ولا يُرتجى الحذر منها، كما يبدو في قوله، من خلال وصفه البيت المقدس مصوراً المنجنيقات: . . . «وأمات الدواهي والمنايا، وحوامل تلد البلايا، لا حجر عليها في حجر، ولا أمن عندها من حذر، ولا تخطر سهامها إلا بالخطر»(٢)، وهو يشخصها مستخدماً الاستعارة والتشبيه. ويسترسل في تصويره لها مستلهما آيات القرآن الكريم، فيصور حجارتها نجوماً تنقض من السماء، وشررها جمراً ينتشر في الأنحاء، «وما شيء كآفات كفاتها، وآيات نكاياتها». ويصورها «ما زالت تقلع بمقالعها، وتقرع بمقارعها، وتمتح بأشطاتها». . . ، وتنهز بدلائها، وتجهز ببلائها، وتفلُّ شمل المباني بتفريقها وتبديدها، وتقوض القواعد من أساسها. . . »(٣).

ويصورها، في الكتاب الجامع للفتح القدسي الذي أرسله السلطان إلى أخيه سيف الإسلام باليمن، فيما صنعته بالأبراج، يقول: «فنصبنا عليهم منجنيقات هَدَّت أحجار السور بسورة أحجارها، وآذن ركوعها بسجود الأبراج في إجبارها، ووفت الصخور بإصراخ الصخرة، وعثرت تلك القلل بإقالة ما دام بها من العثرة»(٤).

وهو في تصويره حجارتها نجوماً ينظر إلى قوله تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح، وجعلناها رجوماً للشياطين﴾(٥).

---

(١) كتاب الروضتين ٢/ ٩٨.

(٢) الفتح القدسي/ ١٢٥.

(٣) نفسه/ ١٢٥، ١٢٦.

(٤) نفسه/ ١٩٧.

(٥) الآية رقم (٥) من سورة الملك.

وورد مثل قوله في تصوير حجارة المجنيقات، في رسالته القدسية التي كُتبت إلى ديوان الخليفة في بغداد، يقول: «ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف أهل الايمان منقضة»[1].

ويصورها ابن الأثير مشخصاً، وكأنها ناطقة تبين عن فعالها بكل جلاء، وهي ذوات ألسن تبدو بلاغتها ناصعة البيان. ويستلهم الكاتب القرآن في تصويره، لها، مصوراً إياها وكأنها تصنع ما يشبه المعجزات، كما يبدو في قوله: «واتفق الرأي على لسان المنجنيق، في خطبة عقيليّة، أبلغ خطابا، وأدنى من المطلوب طلابا، وأنه إذا ضرب بعصاه الحجر انبجست عيون أهله دماءً كما انبجستْ عيون الحجر ماءً»[2].

ويصورها الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى، في رسالته القدسية، مستخدماً أسلوباً يبدو متأثراً بأسلوب القاضي الفاضل، فهو يعني بالتشخيص من ناحية، وينظر إلى معاني القاضي الفاضل في رسالته القدسية الآنفة الذكر من ناحية أخرى، كما يبدو في قوله: «ونصب عليها المجانيق التي تزاحم الحصون بمناكبها، وتحرق شياطينها برُجوم حجارتها بدلاً من نجوم كواكبها. ومن شأنها أنها إذا قابلتْ بلدة أخذت بكظمها، وقضتْ برغمها، وأنزلتها على حكمها، فرمتهم بثالثة الآثافيّ من جبالها، وسحرتْ أعينهم، إلا أن الله ما أبطل سحرَ عصيّها، ولا سحرَ حبالها»[3]. ويصور النقابين، والزّرّاقين[4]، وقد أحدث النقابون نقوباً في الأسوار، «ورَمَى الزارقون في

---

(١) الفتح القدسي/ ١٤٨.

(٢) المثل السائر ٢/ ٣٧٧. ، وانظر ص ٣٧١ من هذا البحث.

(٣) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٩، وانظر ص ٢١٧ من هذا البحث.

(٤) الزراقون: مفردها الزرّاق، وهو الذي يرمي النفط من الزرافة، وهي أنبوبة يزرق بها النفط. إنهم الذين ينصبون أنابيب النفط يرمون بها في القتال، ويُذكر أنه كانت تنبعث منها نار النفط، فتحرق السفن.

(انظر: مفرج الكروب ٢/ ٣١٤، النوادر السلطانية/ ١١٨، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان الأردن وفلسطين/ ٢٢٩، تبصرة أرباب الألباب/ ٢٠ ـ ٢٢.

الستائر[1] نيرانا هتك حجابها[2] وجَدّ الحجارون في نقب الجدار، ويصور النيران تحرق العدو في الدنيا «قبل أن يحرقه الله في الآخرة بناره» كما يقول الكاتب[3].



ويتفرد ابن الأثير بتصوير الشهيد، في رسالته القدسية، فيصور الشهادة بالفوز الأكبر، وهي الشهادة في سبيل الله، لتحرير الأرض المقدسية، ويصور الشهداء وكأن أرواحهم الطاهرة «في حواصل طيرٍ خُضْرٍ تَعلّق من ثمار الجنة إلى يوم المعاد»[4].



وتصور هذه الرسائل القدسية راية الخلافة العباسية، فالقاضي الفاضل يصورها «سوداء صِبْغاً، بيضاء صُنْعا»، تخفق كما تخفق قلوب أعدائها، وهي ذات عيون، وذات عذبات تشير إلى النصر، كما يبدو في قوله: «. . . المستضاء بأنوارها إذا فتح عينها البشر، وأشارتْ بأنامل العذبات إلى وجه النصر»[5].

ويصورها ابن الأثير ذات بيان، وهي في بيانها أفصح من الخطباء، كما يبدو في قوله: «وجيء باللواء الأسود، فرُكز من المنبر في أعلاه، ونطق لسان حاله. . .، ولم يكن لسان الخطيب بأفصح بياناً من لسانه، غير أن هذا يُزهى

(1) الستائر: مفردها ستارة. وهي من أهم معدات القتال عند المسلمين في فترة الحروب الصليبية. وكانت تعمل من الجلود المبللة بالخل، والشب، والنطرون، وذلك لوقاية الحصون والقلاع من قذائف النفط، وكانت تستعمل بشكل خاص لحماية الآلات الحربية المصنوعة من الخشب، وحماية السفن من قذائف النفط، وحماية الأبراج.

(انظر: تبصرة أرباب الألباب/ ١٨ ـ ١٩، مفرج الكروب ٢/٣٠٣، الفتح القدسي/ ١٥٨).

(2) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٩.

(3) نفسه/ ٢٣٠، ٢٣١.

(4) المثل السائر ٢/٣٧٨.

(5) رسائل عن الحرب والسلام/١٧٧، ١٧٨ الدر النظيم/ ٢٥.

ببلاغ موعظته، وهذا يُزهى بعزة سلطانه»[1].

ويصورها الناصر داود راية النصر، وهي أكثر ضياء وإشراقاً من الشمس والقمرِ، كما يبدو في قوله: «. . . الراية التي أعادت بسناها آية الليل لكن من آياته النهار إبصارا، وأعظم من النيّرين: الشمس والقمر، ضياءً وإبداراً»[2].



وتصور الرسائل القدسية الأسوار، والأبراج، والقلعة، في مدينة بيت المقدس، فالقاضي الفاضل يصور السور محيطاً بها كالسوار، ويصور الأبراج بالجوهرة الواسطة التي تتوسط القلادة، فالسور «قد انعطف عَطْف السوار»، والأبراج «قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار». وقد تقدم تصويرها مشخصة، من خلال تصوير المنجنيقات، التي جعلت الحجارة يتبرأ بعضها من بعضها الآخر[3].

ويصور العماد الأصفهاني الوادي المحيط ببيت المقدس واديًا «تستهزىء عصمته بنُوب الدهر، وقد انعطف على جوانبه انعطاف الحَبْوة على الظهر»[4].

ويصور الناصر داود «برج داود» ضخماً، منيعاً، حصيناً، عالياً، متأثراً في تصويره بالقرآن الكريم، فهو «مُبارٍ في المَنَعة الجبل، وفي الرِّفعة النجم، ينقلب البصر عن نظره خاسئا وهو حسير». ويصوره في متانته وحصانته، وكأنه «رُدم بقوة بحيث لو حضره يأجوج ومأجوج ما استطاعوا أن يظهروه، ولا استطاعوا له نقبا»[5]. ومن الواضح أنه ينثر الآيات القرآنية بين تضاعيف كلامه، في وصفه

---

(١) المثل السائر ٢/٣٨٢، رسائل ابن الأثير ـ تحقيق المقدسي/ ١٥٤.

(٢) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٣٠ الزراقة ، وانظر ص ٢١٥ من هذا البحث.

(٣) رسائل عند الحرب والسلام/ ١٦٨، الدر النظيم/ ٢٦، ٢٧، وفيات الأعيان ٧/١٨٤، صبح الأعشى ٦/٥٠١، شفاء القلوب/ ١٤٦، والأنس الجليل ١/٣٤٥.

(٤) المثل السائر ٢/٣٧٦، رسائل ابن الأثير ـ تحقيق المقدسي/ ١٥٠.

(٥) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٧، وانظر ص ٢١٧، ٣٦٧ من هذا البحث.

ذلك البرج. ويستغل الكاتب نثر الآيات القرآنية المتلائمة مع وصفه البرج في إتقانه، وجودة بنائه، ومتانته، يقول: «. . . فكأن الله قد ألان لداود الصخر كما ألان له الحديد في بنيانه، أو كأنه استعان في إتقانه بجن سليمانه» كما يقول[1].

ويصور القلعة والبرج، وقد سُترا «بالستائر المخلّدة، والخشب المسنّدة». ويصور القلعة وبرجها مشخصاً، فهي أمرأة متبرجة للفاتح، يقول: «وافترع ذروتها العليا وتسنّمها، وتبرّجت له أبراجها المصونة وتَجَلَّتْ، ومُدَّت له أرْضها، فألقت ما فيها وتخلّتْ»[2]. ثم يصور البرج، وقد حرص الفاتح على «أن يغضّ من طرفه، ويجدع من أنفه»، فتحقق له ما أراد[3].

★ ★ ★

وتصور الرسائل القدسية العدو المحتل، قبل الهزيمة وبعدها، فالقاضي الفاضل يصوره مهزوماً، ممزقاً، ذليلاً. ويعتمد في تصويره على المقابلة بين ما كان عليه العدو، من قوة، وعزة، وكثرة، وما آل إليه من ضعف، وذل، وهوان. لقد كان ينعم بالثبات والاستقرار، وكأن الأرض حليفة له وإذا به يصبح متعثراً شريداً». وكان ينعم بالعزة والجبروت، فأصبح ذليلاً، وكانت سيوفه ورماحه تثير القلق في النفوس، وتؤرق الجفون، وتحقق الآمال التي كان يرغب فيها، ولكن ذلك كله أصبح أثراً بعد عين، كما يبدو في قوله: «وقد أظفر الله بالعدو الذي تَشَظَّتْ قناته شققا، وطارتْ فِرَقُهُ فَرَقا، وفُلّ سيفه فصار عصا، وصُدِعت حصاتُهُ وكان الأكثر عدداً وحصى، وكلت حَملاتُه وكانت قدرة الله تُصرِّف فيه العنان بالعيان»[4]. ثم يصور كيف عثرت قدمه بينما كانت الأرض حليفة لها من قبل، ويصور سيوفه، ورماحه، كما تقدم. وهو تصوير يعتمد فيه الكاتب على التشبيهات والاستعارات، ويبدو معنيا بأسلوب التشخيص، إلى جانب عنايته

---

(١) الأعلاق الخطيرة - لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٧، ٢٢٨.

(٢) نفسه/ ٢٣٠.

(٣) نفسه/ ٢٣٢، وانظر ص ٢١٥، ٢١٦ من هذا البحث.

(٤) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٢، ١٦٣، الدر النظيم/ ٢١، وفيات الأعيان ٧/١٨١، ١٨٢، صبح الأعشى ٦/٤٩٩، شفاء القلوب/ ١٤٢ - ١٤٣، الأنس الجليل ١/٣٤٣.

بالمقابلة بين الماضي والحاضر. وهو تصوير يمور بالتهكم والسخرية بالعدو بعد الهزيمة التي مني بها. ويسترسل القاضي الفاضل في إكمال معالم هذه الصورة التي يصور العدو بها، مستغلاً عنصر الصراع في العقيدة، ومستلهماً القرآن الكريم فيصور «نيوب الكفر مهتومة»، مشخصاً الكفر. ويصور شجعان الأعداء على يقين من الفناء «لا يرون في ماء الحديد لهم عَصْرة، ولا في فناء الأفنية لهم نَصرة، وقد ضربت عليه الذلة والمسكنة»، وقد كُسر كسرة لا جبر بعدها. ويصورهم يتهافتون تهافت الفراش حول صليب صلبوتهم، يقول: «لا جَرَمَ أنهم يتهافتُ على ناره فراشُهُم، ويجتمع في ظلّ ضلاله خَشاشُهم»[1]. ويصور القُومَص بأسلوب ساخر تهكمي، ويركز في تصويره على الحالة النفسية التي كان القومص عليها، وقد قُدر له أن يفلت من براثن المنون، وهو غير مصدق أنه نجا، يقول: «. . . فنجا، ولكن كيف، وطار خوفاً من أن يلحقه مَنْسِرُ الرُّمح، أو جناح السيف»[2]. وهو ينظر في هذه الصورة إلى أبي تمام في قصيدة عمورية، في تصويره قائد الروم، وأبي الطيب المتنبي في قصيدته: «على قدر أهل العزم . . .»، في تصويره القائد الرومي الهارب أيضاً. ويصور الكاتب قائد العدو بأسلوب يتسم السخرية والتهكم، فيقول: «وطرح جنبه على التراب، وكان جنباً لا يتعاطاه طارح»[3].

ويصور العماد الأصفهاني العدو، قد تصدع بنيانه وانهار، وأصبحت أسلحته غير ذات جدوى، وقد آل إلى سوء المصير، وهلك مثل هلاك عاد ويعبر عن ذلك قول الحق، عز شأنه: «فترى القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية»[4]. والمناسبة بين الحالين، حال العدو، وحال عاد، واضحة.

---

(١) من رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٣، ١٦٤، ١٦٦، الدر النظيم/ ٢٢، ٢٤، وفيات الأعيان ٧/١٨٢، ١٨٣، صبح الأعشى ٦/٤٩٩، ٥٠٠، شفاء القلوب/ ١٤٣، ١٤٤، الأنس الجليل ١/٣٤٤.

(٢) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٦، الدر النظيم/ ٢٤، وفيات الأعيان ٧/١٨٣، صبح الأعشى ٦/٥٠٠، شفاء القلوب/ ١٤٥، الأنس الجليل ١/٣٤٤.

(٣) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧١، الدر النظيم/ ٢٩، وفيات الأعيان ٧/١٨٥، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٠٧، صبح الأعشى ٦/٥٠٢، شفاء القلوب/ ١٤٧، الأنس الجليل ١/٣٤٦.

(٤) آية رقم (٧) من سورة الحاقة.

ويستخدم أسلوب السخرية في تصويره العدو، كما يبدو في تصوير حديدهم الكافر، كما يصفه، وقد أصبح مسلماً، يقول: «والحديد الكافر الذي كان في الكفر يضرب وجه الإسلام، قد صار حديداً مسلماً يُفرِّق خطوات الكفر عن الإقدام»[1]. ويصور بلاد الإسلام مغسولة بدماء أهل الشرك، كما يصور قائد العدو مُشَيِّد النار. ويبدو ذلك في تصويره فرسانهم من الداوية، والاسبتارية، وقد «أمضى الله حكمه فيهم، وقطع بهم سيوفَ نار الجحيم، ووصل الراحل منهم إلى الشقاء المقيم. وفتك» بقائدهم «مشيِّد النار، مَنْ يَدُه في الإسلام كما كانت يد الكليم»[2].

ويصورهم، في رسالة قدسية أخرى، في ذلهم، وخوفهم، قد «تعفروا في تراب الذل» وتوقعوا، وتقرر عليهم مال اشتروا به أنفسهم، فنزعوا به من الخوف ملبسهم»[3].

ويصورهم قبل هزيمتهم يطوفون بالسيوف «لإرواء الظبا الظماء من ماء الأرواح». ويصور الداوية في دويهم، متلهفين للقتال، فيقول: «. . . إذ الوجوه لقُبَل النصال مكشوفة، والقلوب للوجد بالقتال ملهوفة، والأيدي على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة. . . »[4]، ثم يصور الكفر كيف حُلَّ «عُروة عُروة، وهُدّ ذُروة ذروة، وعادت حباله رثاثا، وعقوده أنكاثا، ومساكنه أجداثاً». وأما الأرض، فقد «أينع زرعها وثمرها من رؤوس المشركين، وهذا أوان حصادها وقطافها»[5]. وهو ينظر في هذا إلى قول الحجاج: «إني أرى رؤوساً قد أينعتْ، وحان قطافها»، وإني لصاحبها».

ويصور ابن الأثير العدو وقد ضُربت عليه الذلة والمسكنة، فلم يستطيعوا مدافعة المنايا، ولا مغالبة السيوف. ويصورهم بالجان من ناحية، كما يصورهم مستغيثين لَمّا رأوا طلعة الإسلام مقبلة، ولكنهم كانوا كمن يستغيث في النار يوم

(١) صبح الأعشى ٦/٥١٩، وانظر ص ٣٧٣ من هذا البحث.

(٢) نفسه ٦/٥٢٠.

(٣) كتاب الروضتين ٢/٩٨.

(٤) الفتح القدسي/ ١٢٤، ١٢٥.

(٥) نفسه/ ١٤٨.

القيامة، يقول: «وإن قيل إنهم أناسيّ، فإن صورهم صورُ الجان». و«. . . اصطرخوا كما يصطرخون غداً في النار»[1]. ويصورهم تصويراً ساخراً متهكماً، فزئيرهم أصبح كأصوات البقر، والغنم، والظباء، يقول: «ولما رأى الكفار أن صليبهم قد صار خوّاراً، وأن زئيرهم قد انقلب خُواراً، أذعنتْ أيديهم باستسلامها، وصانعت عن الرقاب واسترقاقها، وبالبلد عن النفوس وحمامها»[2]. ويصور الرقاب غذاء للسيف، معشوقة يداوم على وصالها، كما تقدم في الحديث عن تصويره السلاح. وهو في تصويره يستغل عناصر عديدة لتشكيل الصورة الأدبية، وهي عناصر تشبه العناصر التي رأينا القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني يستغلانها، وتتمثل في الإكثار من استخدام التشبيهات، والاستعارات، والتشخيص، والنظر إلى القرآن والاستلهام منه، والنظر إلى الشعر والاستلهام منه أيضاً، والصنعة والالتزام بها، والصراع في العقيدة، وغير ذلك من العناصر، كما تقدم.

ويصور العماد طاغية طرابلس صورة ساخرة، فيصوره قلقاً مندهشاً، «فإن السيوف أسأرته وبفؤاده قلقٌ من أوجالها، وفي عينيه دَهشٌ من أهوالها». وقد فر، ولكن الفرار لم ينجه، وقد «اعتصم بذات جداره، فقتله الخوف من وراء الجدار»[3]. وتبدو العناصر التي أشرت إليها جلية هنا أيضاً، ولعله ينظر في تصوير أهل الكفر، وقد ظنوا أن حصونهم مانعتهم، فلم تُغن عنهم شيئاً، لعله ينظر إلى قوله تعالى: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قُرىً محصنةٍ، أو من وراء جُدُرٍ﴾[4].

ويصور الناصر داود العدو في غيه وضلاله، وتهافته على الحرب، وإقباله على المنون، فيقول: «قد ركبوا في الغيّ رؤوسهم، ووطّنوا على القتل

(١) المثل السائر ٢/٣٨١، ٣٨٢، رسائل ابن الأثير ـ تحقيق المقدسي/ ١٥٤.

(٢) المثل السائر ٢/٣٧٨، رسائل ابن الأثير ـ تحقيق المقدسي/ ١٥٢.

(٣) المثل السائر ٢/٣٨٤، رسائل ابن الأثير ـ تحقيق المقدسي/ ١٥٦.

(٤) آية رقم (١٤) من سورة الحشر.

نفوسهم، يتهافتون على نار الحرب تهافت الفراش، ويردون حياض المنون ورود الإبل العطاش». ويصورهم يوقدون نار الحرب، وكأنهم «أوقدوا للحرب نار الشيطان المُوصَدة، لا بل نار الله المُوقدة». ويصورهم ضالين، متنكبين عن طريق الرشاد[1]. وهو في تصويره يبدو متأثراً بسابقيه من الكُتّاب، مثل القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، كما يبدو متأثراً في تشكيل الصورة بالقرآن. وتجدر الإشارة إلى عنصر الصنعة، ولكن استخدامه لها جاء أقل من استخدام القاضي الفاضل، أو العماد الأصفهاني، بصورة واضحة.

ويصورهم في التجائهم إلى برج داود بالالتجاء إلى سجن، أو النزول إلى قبر، وهم على قيد الحياة. ويصورهم في ذلهم، وقد «ضُربت عليهم الذلة والمسكنة». وتشتت حزب طغيانهم[2].

وتصور الرسائل القدسية كنائسهم، وبيعهم، وصوامعهم، وبيوتهم. فالقاضي الفاضل يصور الكنائس، في بيت المقدس، وبيوت الداوية، والاسبتارية فيها، قد أُودعت «كل غريبة من الرّخام الذي يطّرد ماؤه، ولا ينطرد لألاؤه، قد لَطُف الحديد في تجزيعه، وتفنن في توشيعه، إلى أن صار الحديد الذي فيه بأس شديد، كالذهب الذي فيه نعيمٌ عتيد، فما ترى إلا مقاعدَ كالرياض لها من بياض الترخيم رقراق، وعمداً كالأشجار لها من التنبيت أوراق»[3].

ويصور ابن الأثير بيعهم وصوامعهم أبنية روائع قد «رُوِّضتْ بالزخارف ترويض الأزهار، ورُفعتْ معاقدُها حتى كادت النجوم توحي إليها بالأسرار». ويصورها متأثراً بالقرآن الكريم وكأنها «إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد»[4].

---

(١) الأعلاق الخطيرة - لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٨.

(٢) نفسه ٢/ ٢٣٠، ٢٣١.

(٣) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٣، الدر النظيم/ ٣١، وفيات الأعيان ٧/ ١٨٥، صبح الأعشى ٦/ ٥٠٣، الأعلاق الخطيرة - لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٠٨، ٢٠٩، شفاء القلوب/ ١٤٨، الأنس الجليل ١/ ٣٤٧.

(٤) المثل السائر ٢/ ٣٨٣.



ثبت المصادر والمراجع

المخطوطات

- إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى - أبوعبدالله محمد بن أحمد بن علي بن عبدالخالق المنهاجي السيوطي (نسخة مصورة، بمركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية - رقم ٧٦، ونسخة أخرى رقم ٥٦٢).
- إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى - المنسوب إلى محيي الدين بن عبدالظاهر، عبدالله بن عبدالظاهر بن نشوان الجُذامى المصري - (نسخة مصورة بمركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية - رقم ٤٠).
- إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى - المنسوب إلى أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي السعدي الأنصاري - (نسخة مصورة بمركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية - رقم ٥٩٧ هـ).
- البرق الشامي - محمد بن محمد حامد، عماد الدين الأصبهاني - ج ٣، ج ٥.
- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام - شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (نسخة مصورة بمركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية رقم ٥٣٥، و ٥٣٧).
- ديوان ابن القيسراني، محمد بن نصر بن صغير القيسراني - نسخة دار الكتب المصرية - رقم ١٤٨٤ أدب.
- ديوان التدبيج أو (منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر) - الحكيم أبوالفضل عبدالمنعم بن عمر بن حسان الجلياني:

★ نسخة مخطوطة مانشستر.
★ نسخة مخطوطة أُبسالا.
★ نسخة مخطوطة الظاهرية.
(وهي مأخوذة عن نسخة الخالدية في بيت المقدس).

- روضة المناظر في علم الأوائل والأواخر - ابن الشحنة، أبوالوليد محب الدين محمد بن محمد بن محمود - (نسخة مصورة بمركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية - رقم ٨٩٠).
- سنا البرق الشامي - اختصار الفتح بن علي البنداري لكتاب البرق الشامي - (نسخة أسعد أفندي بالسليمانية - ضمن المجموعة ذات الرقم (٣٣٤٩).
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - بدر الدين العيني، محمود بن أحمد بن موسى - الأجزاء: ٢٢، ٢٥، ٢٦ - (نسخة متحف الأوقاف باستانبول ذوات الأرقام: ٢١٥٩، ٢١٦٠، ٢١٦١).
- عقود الجمان في شعراء هذا الزمان - ابن الشَعّار الموصلي، المبارك بن أبي بكر أحمد بن حمدان بن أحمد الموصلي -
(نسخة أسعد أفندي بالسليمانية).
- فصوص الفصول وعقود العقول - ابن سناء الملك، هبة الله بن الرشيد أبي الفضل... السعدي، المعروف بابن سناء الملك -
(نسخة دار الكتب المصرية - رقم (٤٠٩) أدب).
- الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية - الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى - جمعه ابنه الملك الأمجد مجد الدين أبومحمد الحسن.
(نسخة مصورة بدار الكتب المصرية - رقم (٢٩٣ أدب).
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان - سبط بن الجوزي - الجزء الرابع عشر.
(نسخة مصورة بمركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية - رقم (٤٣٠).
- مسالك الأبصار - ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيي -
(من مصورات مكتبة الجامعة الأردنية - رقم ٣٩٥، ورقم ٣٩٧).

- ملخص تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام - شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي -
(نسخة مصورة بمكتبة الجامعة الأردنية).
- نهاية الأرب في فنون الأدب - أحمد بن عبدالوهاب النويري - الجزء السابع والعشرون - نسخة دار الكتب المصرية.

المطبوعات

- (ضياء الدين) ابن الأثير وجهوده في النقد - د. محمد زغلول سلام - مكتبة نهضة مصر.
- ابن سناء الملك - حياته وشعره - د. محمد ابراهيم نصر - مراجعة د. حسين نصار - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة - ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م.
- ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار - د. عبدالعزيز الأهواني - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٦٢ م.
- ابن نباتة المصري (أمير شعراء المشرق) - د. عمر موسى باشا - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٣.
- اتجاهات النقد في القرنين السادس والسابع الهجريين - د. محمد عبدالمطلب مصطفى - دار الأندلس - الطبعة الأولى - ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م.
- اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري - د. منصور عبدالرحمن - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م.
- إحكام صنعة الكلام - أبوالقاسم محمد بن عبدالغفور الكلاعي الإشبيلي الأندلسي - تحقيق د. محمد رضوان الداية - دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٦ م.
- أدب الحروب الصليبية - د. عبداللطيف حمزة - دار الفكر العربي - الطبعة الثانية - ١٩٤٨.
- الأدب في العصر الأيوبي - د. محمد زغلول سلام - دار المعارف بمصر - ١٩٦٨ م.
- الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية - د. عبداللطيف حمزة - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة.

- أسامة بن منقذ ـ صفحة من تاريخ الحروب الصليبية ـ محمد أحمد حسين . مطبعة دار الكتب المصرية . القاهرة ـ ١٩٤٦ م .
- أسامة بن منقذ ـ حياته وشعره ـ د. حسن عباس ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الاسكندرية ـ ج ١ : ١٩٨٠ م، ج ٢ : ١٩٨١ م .
- الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعاني الطائية ـ ضياء الدين بن الأثير ـ تقديم وتحقيق د. حفني محمد شرف ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٥٨ م .
- أسرار البلاغة ـ عبدالقاهر الجرجاني ـ علق حواشيه أحمد مصطفى المراغي ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٧٦ هـ/١٩٤٨ م .
- الإسلام والحضارة العربية ـ محمد كرد علي ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ ١٩٦٨ م .
- الأسلوب ـ أحمد الشايب ـ مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة الرابعة ـ ١٣٥٨ هـ/ ١٩٣٩ م .
- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ـ محمد بن علي بن محمد الجرجاني ـ تحقيق د. عبدالقادر حسين ـ دار نهضة مصر للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٨١ م .
- الاعتبار ـ أسامة بن منقذ ـ حرره فيليب حتي ـ مطبعة جامعة برنستون ـ الولايات المتحدة ـ ١٩٣٠ م .
- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ـ ابن شداد، عز الدين أبوعبدالله محمد بن علي بن ابراهيم ـ
★ تاريخ مدينة دمشق ـ عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه د. سامي الدهان ـ المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ـ ١٣٧٥/ ١٩٥٦ م .
★ تاريخ مدينة حلب ـ الجزء الأول ـ القسم الأول ـ عني بنشره وتحقيقه دومينيك سورديل ـ المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ـ ١٩٥٣ م .
★ تاريخ لبنان والأردن وفلسطين ـ عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه د. سامي الدهان ـ المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ـ ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٢ م .

★ تاريخ الجزيرة ـ القسم الأول، والقسم الثاني ـ حققه يحيى عبادة ـ من منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ دمشق ـ ١٩٧٨ م.
ـ اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ـ محمد راغب الطباخ ـ المطبعة العلمية ـ حلب ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٤٣ هـ/ ١٩٢٥ م.
ـ الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ـ عباس بن إبراهيم المراكشي ـ الطبعة الأولى ـ المطبعة الجديدة بفاس ـ ج ٣: ١٣٥٥ هـ/ ١٩٣٧ م، ج ٥: ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٥ م.
ـ الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين ـ أحمد بن علي بن المغربي الحريري ـ حقق نصه وعلق عليه وقدم له د. سهيل زكار ـ مكتبة دار الملاح ـ ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م.
ـ الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين ـ تحقيق د. مهدي رزق الله أحمد ـ دار الدعوة ـ الاسكندرية ـ ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م.
ـ أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ـ ترجمة د. حسن حبشي ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ م.
ـ الأفضليات ـ أبوالقاسم علي بن منجب بن سليمان المعروف بابن الصيرفي ـ تحقيق د. وليد قصاب، ود. عبدالعزيز المانع ـ من مطبوعات مجمع اللغة العربية ـ دمشق ـ ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٢ م.
ـ الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام (٤٦٥ ـ ٨١٢ هـ/ ١٠٧٢ ـ ١٤٠٩ م) ـ أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر ـ د. عماد الدين خليل ـ الطبعة الأولى ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م.
ـ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ـ قاضي القضاة أبواليمن مجير الدين عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن محمد العُلَيمي المقدسي الحنبلي ـ مكتبة المحتسب ـ عمان ـ ١٩٧٣ م.
ـ أنوار الربيع في أنواع البديع ـ السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني ـ حققه وترجم لشعرائه شاكر هادي شكر ـ الطبعة الأولى ـ مطبعة النعمان ـ النجف الأشرف ـ سبعة أجزاء ـ ١٣٨٨ هـ ـ ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٨ م ـ ١٩٦٩ م.

- البداية والنهاية - أبوالفداء الحافظ ابن كثير - مكتبة المعارف - بيروت - ج ١٢ - الطبعة الثالثة - ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م - ج ١٣، ١٤ - الطبعة الرابعة - ١٩٨٢ م.
- بدائع البداثة - علي بن ظافر الأزدي - تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٧٠ م.
- البديع في نقد الشعر - أسامة بن منقذ - مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر - تحقيق د. أحمد بدوي، ود. حامد عبدالمجيد - مراجعة إبراهيم مصطفى - القاهرة - ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠ م.
- بديع القرآن - ابن أبي الاصبع المصري - تحقيق د. حفني محمد شرف - دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة.
- البرهان في وجوه البيان - أبوالحسين اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب - تقديم وتحقيق د. حفني شرف - مكتبة الشباب - القاهرة - ١٩٦٩ م.
- بلادنا فلسطين - مصطفى مراد الدباغ - دار الطليعة للطباعة والنشر - الطبعة الأولى - بيروت -

★ في بيت المقدس: (١) ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م - (٢) ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦ م.

★ في الديار اليافية: ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م.

★ في ديار الجليل: (٢) ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م.

- البلاغة تطور وتاريخ - د. شوقي ضيف - دار المعارف بمصر - ١٩٦٢ م.
- بناء القصيدة العربية - د. يوسف حسين بكار - دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة - ١٣٧٩ هـ/ ١٩٧٩ م.
- تاريخ ابن الفرات - ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن الفرات - المجلد الرابع - الجزء الأول - عنى بتحرير نصه ونشره د. حسن محمد الشماع - مطبعة حداد - البصرة - ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٧ م - المجلد الخامس - الجزء الأول - دار الطباعة الحديثة - البصرة - ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠ م.

- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري - تحقيق عبـدالقـادر طليمـات - دار الكتب الحديثة بالقاهرة ومكتبة المثنى ببغداد - ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٣ م.
- تاريخ الحروب الصليبية - ستيفن رنسيمان - نقله إلى العربية الدكتور السيد الباز العريني - ٣ أجزاء - الطبعة الأولى - دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٧ م.
- تاريخ دمشق - الحـافظ أبـوالقاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله المعروف بابن عساكر - من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- تاريخ دول الإسـلام - الحافظ شمس الدين الذهبي - تحقيق فهيم محمد شلتوت، ومحمد مصطفى ابراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٤ م.
- تاريخ الدولة الفاطمية - د. حسن ابراهيم حسن - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الثانية - القاهرة - ١٩٥٨ م.
- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - د. فيليب حتي - ترجمة د. جورج حداد، ود. عبدالكريم رافق - أشرف على مراجعته وتحريره د. جبرائيل جبور - دار الثقافة - بيروت - ج ١ : ١٩٥٨ م - ج ٢ : ١٩٥٩ م.
- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية - كلود كاهن - نقله إلى العربية د. بدر الدين القاسم - دار الحقيقة - الطبعة الثانية - بيروت - ١٩٧٧ م.
- تاريخ فلسـطين القـديم من أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي - ظفر الإسلام خان - الطبعة الثانية - دار النفائس - بيروت - ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م.
- تاريخ مدينة القدس - د. معين أحمد محمود - دار الأندلس - الطبعة الأولى - بيروت - ١٩٧٩ م.
- التاريخ المنصوري - تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان - أبوالفضائل محمـد بن علي بن نظيف الحموي - تحقيق د. أبوالعيد دودو - مراجعة د. عدنان درويش - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م.

- تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر) من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري - د. إحسان عباس - دار الأمانة - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى - بيروت - ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م.
- تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري - د. محمد زغلول سلام - دار المعارف بمصر.
- التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن - ابن الزملكاني - تحقيق د. أحمد مطلوب، ود. خديجة الحديثي - مطبعة العاني - بغداد - ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٤ م.
- تبصرة أرباب الألباب (في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في العُدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء) - مرضي بن علي بن مَرْضي الطَرْسوسي - عني بتحقيقه ونشره كلود كاهن - بيروت - ١٩٨٤ م.
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن - ابن أبي الاصبع المصري - تحقيق د. حفني محمد شرف - لجنة إحياء التراث الإسلامي - القاهرة - ١٣٨٣ هـ.
- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي - أنيس المقدسي - دار العلم للملايين - الطبعة الأولى - بيروت - ١٩٦٠ م.
- ثمرات الأوراق - تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد بن حجة الحموي - صححه وعلق عليه محمد أبوالفضل إبراهيم - الطبعة الأولى - مكتبة الخانجي بمصر - ١٩٧١ م.
- الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور - ضياء الدين بن الأثير - قام بتحقيقه والتعليق عليه د. مصطفى جواد، ود. جميل سعيد - مطبعة المجمع العلمي العراقي - ١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٦ م.
- الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية - حسان غنيم أبو سعيد - مكتبة القاهرة - ١٩٧١ م.
- الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي - د. فايد حماد محمد عاشور - دار الاعتصام - الطبعة الأولى - ١٤٠٣ هـ.

- جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ـ د. فايد حماد محمد عاشور ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولى ـ بيروت ـ ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م.
- جوهر الكنز ـ نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي ـ تحقيق د. محمد زغلول سلام ـ منشأة المعارف بالإسكندرية.
- الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ـ د. محسن محمد حسين ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولى ـ بيروت ـ ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.
- جيش مصر في أيام صلاح الدين ـ د. نظير حسان سعداوي ـ مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ م.
- الحرب الصليبية الأولى ـ د. حسن حبشي ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ م.
- الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ـ د. نظير سعداوي ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٦١ م.
- الحروب الصليبية ـ آرنست باركر (ضمن تراث الإسلام) ـ عربه وعلق حواشيه جرجيس فتح الله ـ دار الطليعة للطباعة والنشر ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت ـ ١٩٧٨ م.
- الحروب الصليبية ـ الأسرة الزنكية ـ شاكر أحمد أبو بدر ـ الجامعة اللبنانية ـ ١٩٧٢ م.
- الحركة الصليبية ـ د. سعيد عاشور ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ الطبعة الثالثة ـ ج ١ : ١٩٧٥ م، ج ٢ : ١٩٧٦ م.
- الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي ـ د. عبدالجليل عبدالمهدي ـ مكتبة الأقصى ـ عمان ـ ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م.
- حسن التوسل إلى صناعة الترسل ـ شهاب الدين محمود الحلبي ـ تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف ـ دار الرشيد للنشر ـ الجمهورية العراقية ـ ١٩٨٠ م.
- حضارة العرب ـ د. غوستاف لوبون ـ نقله إلى العربية عادل زعيتر ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ـ ١٩٦٩ م.

- الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري ـ د. عبدالجليل عبدالمهدي ـ مكتبة الأقصى ـ الطبعة الأولى ـ عمان ـ ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م.
- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ـ د. أحمد بدوي ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ـ ١٩٧٩ م.
- الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي ـ د. خاشع المعاضيدي ـ دار الحرية ـ الطبعة الأولى ـ بغداد ـ ١٩٧٥ م/ ١٩٧٦ م.
- خريدة القصر وجريدة العصر ـ العماد الأصفهاني :

★ قسم شعراء الشام ـ عني بتحقيقه د. شكري فيصل ـ المطبعة الهاشمية بدمشق ـ ج ١: ١٣٧٥/١٩٥٥، ج ٢: ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٩. ج ٣: ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٤ م، بداية: ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م.

★ قسم شعراء مصر ـ نشره أحمد أمين، ود. شوقي ضيف، ود. إحسان عباس. لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٥١ م.

★ المستدرك على قسم شعراء مصر ـ بقلم هلال ناجي ـ مستلة من مجلة معهد المخطوطات العربية ـ ٢٧٣ ـ ج ١ ـ ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.

★ قسم شعراء العراق ـ ج ١ : حققه، وضبطه، وشرحه، وكتب مقدمته د. محمد بهجة الأثري. أعد أصله، وشارك في تحقيقه، ومعارضة نسخه، وصنع فهارسه د. جميل سعيد ـ ١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٥ م.

ج ٢ : تحقيق محمد بهجة الأثري ـ ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤ م.

ج ٣ : المجلد الأول والمجلد الثاني : حققه وشرحه محمد بهجة الأثري ـ من منشورات وزارة الإعلام، ووزارة الثقافة والفنون ـ بغداد ـ ١٩٧٦ م، ١٩٧٨ م.

ج ٤ : المجلد الأول والمجلد الثاني : حققه، وشرحه محمد بهجة الأثري ـ من منشورات وزارة الاعلام العراقية ـ بغداد ـ ١٣٩٣ هـ/ ١٩٧٣ م.

تكملة قسم شعراء العراق ـ حققه وشرحه محمد بهجة الأثري ـ بغداد ـ ١٤٠ هـ/ ١٩٨٠ م.

★ قسم شعراء المغرب والأندلس ـ تحقيق د. عمر الدسوقي، ود. علي

عبدالعظيم ـ دار نهضة مصر للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م، ١٩٦٩ م.
ـ خزانـة الأدب وغاية الأرب ـ تقي الدين أبوبكر علي، المعروف بابن حجة الحموي ـ دار القاموس للطباعة والنشر ـ بيروت.
ـ خطفة البارق وعطفة الشارق ـ العماد الأصفهاني ـ ضمن كتاب الروضتين ـ دار الجيل ـ بيروت.
ـ الخـطط المقـريزية(المـواعظ والاعتبـار بذكـرالخـطط والآثار)ـ تقي الدين أبوالعباس أحمد بن علي المقريزي ـ دار صادر للطباعة والنشر ـ بيروت.
ـ الدارس في تاريخ المدارس ـ عبدالقادر بن محمد النعيمي الدمشقي ـ عني بنشـره وتحقيقه جعفر الحسني ـ مطبعة الترقي بدمشق ـ ج ١ : ١٣٦٧ هـ/ ١٩٤٨ م، ج ٢ : ١٣٧٠ هـ/ ١٩٥٩ م.
ـ دائرة المعارف الإسلامية.
ـ الدر النظيم من ترسل عبدالرحيم ـ القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني ـ اختيار محيي الـدين بن عبدالظاهر ـ تحقيق د. أحمد بدوي ـ مكتبة نهضة مصر ـ ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٩ م.
ـ دراسات بلاغية ونقدية ـ د. أحمد مطلوب ـ دار الحرية للطباعة ـ بغداد ـ الجمهورية العراقية ـ ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م.
ـ دراسات في حضارة الإسلام ـ هاملتون جب ـ ترجمة د. إحسان عباس، ود. محمد يوسف نجم، ود. محمود زايد ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٦٤ م.
ـ دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ـ د. محمد كامل حسين ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ م.
ـ دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده ـ د. محمد غنيمي هلال ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة.
ـ دلائـل الإعجـاز ـ في علم المعاني ـ عبدالقاهر الجرجاني ـ صحح أصله الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد محمود الشنقيطي ـ وقف على تصحيح

طبعه، وعلق حواشيه محمد رشيد رضا ـ مكتبة القاهرة ـ ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١ م.
ـ ديوان ابن الخياط الدمشقي، أحمد بن محمد بن علي التغلبي ـ رواية تلميذه محمد بن نصر بن القيسراني ـ عني بتحقيقه خليل مردم ـ المطبعة الهاشمية بدمشق ـ ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٨ م.
ـ ديوان ابن منير الطرابلسي، أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح ـ جمعه وقدم له د. عبدالسلام تدمري ـ دار الجيل ـ بيروت ـ مكتبة السائح ـ طرابلس ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨٦ م.
ـ ديوان الأبيوردي، محمد بن أحمد بن إسحاق ـ تحقيق د. عمر الأسعد ـ مطبعة زيد بن ثابت دمشق ـ ج ١: ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م، ج ٢: ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م.
ـ ديوان عماد الدين الأصبهاني ـ جمعه وحققه وقدم له د. ناظم رشيد ـ مطابع جامعة الموصل ـ ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٣ م.
ـ ديوان طلائع بن رزيك ـ جمعه وبوبه وقدم له محمد هادي الأميني ـ من منشورات المكتبة الأهلية ـ مطابع النعمان ـ النجف الأشرف ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٤ م.
ـ ديوان طلائع بن رزيك ـ جمعه وبوبه وقدم له د. أحمد بدوي ـ مكتبة نهضة مصر ـ مطبعة الرسالة ـ ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٨ م.
ـ ديوان أسامة بن منقذ ـ حققه وقدم له د. أحمد بدوي، وحامد عبدالمجيد ـ المطبعة الأميرية ـ القاهرة ـ ١٩٥٣ م.
ـ ديوان ابن الساعاتي ـ تحقيق أنيس المقدسي، مطبعة كلية الآداب والعلوم بالجامعة الأمريكية ـ بيروت ـ ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ م.
ـ ديوان ابن سناء الملك، هبة الله بن جعفر بن محمد ـ اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه وتقديمه د. محمد عبدالحق ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ١٩٧٥ م.
ـ ديوان ابن سناء الملك ـ تحقيق د. محمد إبراهيم نصر ـ مراجعة د. حسين نصار ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٩ م.

- ديوان ابن النبيه المصري، كمال الدين علي بن محمد ـ تحقيق د. عمر الأسعد، دار الفكر ـ الطبعة الأولى ١٩٦٩ م.
- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ـ تحقيق د. محمد عبده عزام ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثالثة ـ ١٩٦٩ م.
- ديوان أبي الصلت أمية بن عبدالعزيز الداني ـ جمع وتحقيق وتقديم محمد المرزوقي ـ دار الكتب الشرقية ـ تونس ـ ١٩٧٤ م.
- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري ـ ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٦ م.
- ديوان البهاء زهير ـ شرح وتحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم، ومحمد طاهر الجبلاوي ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٧ م.
- ديوان جمال الدين بن مطروح ـ الطبعة الأولى ـ مطبعة الجوائب ـ القسطنطينية ـ ١٢٩٨ هـ.
- ديوان شرف الدين الصاحب الأنصاري، عبدالعزيز بن محمد ـ عني بتحقيقه د. عمر موسى باشا ـ المطبعة الهاشمية ـ دمشق ـ ١٣٧٨ هـ/ ١٩٧٦ م.
- ديوان فتيان الشاغوري، محمد بن علي ـ تحقيق أحمد الجندي ـ المطبعة الهاشمية ـ دمشق ـ ١٣٧٨ هـ/ ١٩٧٦ م.
- ذيل تاريخ دمشق ـ أبويعلي حمزة بن القلانسي ـ بيروت ـ مطبعة الآباء اليسوعيين ـ ١٩٠٨ م.
- الذيل على الروضتين في أخبار الدولتين (أو تراجم رجال القرنين السادس والسابع للهجرة) ـ أبوشامة المقدسي ـ عني بنشره وراجع أصله عزت العطار الحسيني، دار الجيل ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ـ ١٩٧٤ م.
- الذيل على طبقات الحنابلة ـ ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبدالرحمن بن أحمد البغدادي الدمشقي ـ وقف على طبعه وصححه محمد حامد الفقي ـ مطبعة السنة المحمدية ـ ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٢ م.
- ذيل مرآة الزمان ـ الشيخ قطب الدين أبوالفتح موسى بن محمد بن أحمد بن

قطب الدين اليونيني البعلبكي الحنبلي ـ الطبعة الأولى ـ حيدر آباد الدكن ـ الهند/ ١٩٥٤هـ ـ ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦١ م.
ـ رحلة بنيامين التطيلي ـ ترجمه إلى العربية، وقدم له عزرا هدار ـ الطبعة الأولى ـ بغداد ـ ١٩٤٥.
ـ رحلة الشتاء والصيف ـ محمد بن عبدالله الحسيني الموسوي الشهير بكبريت ـ حققها وقدمها وفهرس لها محمد سعيد الطنطاوي ـ المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ـ ١٣٨٤ هـ/١٩٦٤ م.
ـ رحلة العبدري المسماة الرحلة الغربية ـ أبوعبدالله محمد بن محمد العبدري ـ حققها، وقدم لها، وعلق عليها محمد الفاسي ـ الرباط ـ ١٩٦٨ م.
ـ رسائل عن الحرب والسلام ـ ـ من ترسل القاضي الفاضل ـ اختيار موفق الدين ابن الديباجي ـ تحقيق د. محمد نغش ـ ١٣٩٨/١٩٧٨ م.
ـ رسائل عن الحرب والسلام ـ من ترسل القاضي الفاضل ـ اختيار موفق الدين ابن الديباجي ـ تحقيق د. محمد نغش ـ الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م.
ـ رسائل الانتقاد ـ ابن شرف القرواني.
ـ رسائل ضياء الدين بن الأثير ـ تحقيق أنيس المقدسي.
ـ رسائل ضياء الدين بن الأثير ـ ج ١ : دراسة وتحقيق د. نوري القيسي وهلال ناجي ـ ج ٢ : تحقيق هلال ناجي ـ من منشورات جامعة الموصل ـ دار الكتب للطباعة والنشر ـ جامعة الموصل ـ ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م.
ـ (كتاب) الروضتين في أخبار الدولتين ـ أبوشامة المقدسي ـ ج ١ : تحقيق د. محمد حلمي أحمد ـ مراجعة د. محمد مصطفى زيادة ـ القسم الأول: ١٣٧٦ هـ/١٩٥٦ م، القسم الثاني : ١٩٦٢ م ـ القاهرة.
ـ (كتاب) الروضتين في أخبار الدولتين ـ أبوشامة المقدسي ـ ج ١، ج ٢ ـ دار الجيل ـ بيروت.
ـ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ـ غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري ـ اعتنى بتصحيحه بولس راويس ـ المطبعة الجمهورية ـ باريس ـ ١٩٨٤ م.

- زبدة الحلب من تاريخ حلب - كمال الدين أبوالقاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم - عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه د. سامي الدهان - المعهد الفرنسي بدمشق - ١٣٧٠ هـ/ ١٩٥١ م - ١٣٧٣ هـ/١٩٥٤ م - ١٣٧٨/١٩٦٨ م.
- سر الفصاحة - أبومحمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي - صححه وعلق عليه عبدالمتعال الصعيدي - مطبعة محمد علي صبيح - ١٣٧٢ هـ/١٩٥٣ م.
- سرقات المتنبي ومشكل معانيه - ابن بسام النحوي - تحقيق محمد الطاهر بن عاشور - الدار التونسية للنشر - ١٩٧٠ م.
- سنا البرق الشامي - اختصار الفتح بن علي البنداري - تحقيق د. فتحية النبراوي - مكتبة الخانجي بمصر - ١٩٧٩ م.
- سنا البرق الشامي - اختصار الفتح بن علي البنداري - تحقيق د. رمضان ششن - القسم الأول - دار الكتاب الجديد - الطبعة الأولى - بيروت - ١٩٧١ م.
- سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام ومصر والجزيرة (٥٧٠ - ٥٨٩ هـ/ ١١٧٤ - ١١٩٣ م) - د. دريد عبدالقادر نوري - مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٧٦ م.
- سيرة القاهرة - ستانلي ليس بول - ترجمة د. حسن ابراهيم حسن، ود. علي ابراهيم حسن، وادوار حليم - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥٠ م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب - أبوالفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت.
- شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع - صفي الدين الحلي - تحقيق د. نسيب نشاوي - دمشق - ١٤٠٣ / ١٩٨٣ م.
- شعر ابن جبير - نشر ضمن بحث «ابن جبير الأندلسي شاعراً» بقلم منجد مصطفى بهجت، في مجلة «آداب الرافدين» - جامعة الموصل - العد التاسع - ١٩٧٨ م.

- شعر ابن منير الطرابلسي ـ جمعه وحققه وقدم له د. سعود عبدالجابر ـ الطبعة الأولى ـ دار القلم ـ الكويت ـ ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م.
- شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ـ د. محمد علي الهرفي ـ الطبعة الأولى ـ دار الاعتصام ـ القاهرة ـ ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م.
- شعر دعبل الخزاعي ـ صنعة د. عبدالكريم الأشتر ـ مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٣ هـ/ ١٨٩٣ م.
- الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة ـ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف بمصر.
- الشعر والتأمل ـ روستريفور هاملتون ـ ترجمة د. محمد مصطفى بدوي ـ مراجعة د. سهير القلماوي ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ـ ١٩٦٣ م.
- شعلة الإسلام (قصة الحروب الصليبية) ـ هارولد لامب ـ ترجمة محمود عبدالله يعقوب ـ مراجعة د. جمال الدين الشيال ـ مكتبة المثنى/ مطبعة الإرشاد ـ بغداد ـ ١٩٦٧ م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا أبوالعباس أحمد بن علي القلقشندي ـ من منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر ـ القاهرة ـ ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م.
- الصبغ البديعي في اللغة العربية ـ د. أحمد ابراهيم موسى ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٩ م.
- صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ـ د. محمود ابراهيم ـ المكتب الإسلامي بدمشق، ومكتبة الأقصى بعمان ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م.
- صلاح الدين الأيوبي (الناصر لدين الله) ـ أحمد عبدالجواد الدومي ـ منشورات المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت.
- صلاح الدين الأيوبي ـ أبوالحسن علي بن الحسن الندوي ـ دار القلم ـ دمشق ـ بيروت ـ المطبعة الثانية ـ ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م.

- (الناصر) صلاح الدين يوسف الأيوبي - د. عبدالمنعم ماجد - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٨ م.
- (الناصر) صلاح الدين الأيوبي - د. محمد سامي الدهان - دار المعارف بمصر - ١٩٦٠ م.
- صلاح الدين - دراسات في التاريخ الإسلامي - هاملتون جب - حررها يوسف ايبش - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ١٩٧٣ م.
- صلاح الدين - د. مصطفى الوكيل.
- (حياة) صلاح الدين الأيوبي - د. أحمد بيلي - المكتبة التجارية الكبرى - المطبعة الرحمانية بمصر - الطبعة الثانية - ١٣٤٥ هـ/ ١٩٢٦ م.
- صلاح الدين الأيوبي - رجل غير وجه التاريخ - قدري قلعجي.
- صلاح الدين في الشعر العربي المعاصر - د. صالح جواد الطعمة - النادي الأدبي - الرياض - السعودية - ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م.
- صلاح الدين والصليبيون «استرداد بيت المقدس» - عبدالله سعيد محمد الغامدي - المكتبة الفيصلية - مكة المكرمة - دار الندوة الجديدة - بيروت ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م.
- (كتاب) الصناعتين، الكتابة والشعر - أبوهلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري - تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي - الطبعة الأولى - ١٣٧١ هـ/١٩٥٢ م.
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب - د. جابر عصفور - دار التنوير - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٨٣ م.
- الصورة والبناء الشعري - د. محمد حسن عبدالله - دار المعارف بمصر - ١٩٨١ م.
- طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز - تحقيق عبدالستار فراج - دار المعارف بمصر - ١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٦ م.
- العبر في خبر من عبر - شمس الدين الذهبي - ج ٣: تحقيق فؤاد سيد -

الكويت ـ ١٩٦١ م. ج ٤، ج ٥: تحقيق د. صلاح الدين المنجد ـ الكويت ـ ١٩٦٣ م، ١٩٦٦ م.
- العتبي والعقبى ـ العماد الأصفهاني ـ ضمن كتاب الروضتين ـ دار الجيل ـ بيروت.
- العدوان الصليبي على بلاد الشام (هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة) د. جوزيف نسيم يوسف ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ ١٩٨١ م.
- العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ـ د. جوزيف نسيم يوسف ـ دار النهضة العربية ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ـ ١٩٨١ م.
- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ـ محمود رزق سليم، المجلد السادس ـ منشورات مكتبة الآداب بالقاهرة ـ مطابع دار الكتاب العربي بمصر ـ المجلد الثامن ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م.
- العلاقات بين الشرق والغرب ـ عبدالمنعم ماجد.
- العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ـ د. علي زيتون ـ دار دمشق للطباعة والنشر ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ـ ابن رشيق القيرواني ـ حققه وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبدالحميد ـ مطبعة حجازي ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ـ ١٣٥٣ هـ/ ١٩٣٤ م.
- عيار الشعر ـ محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي ـ بتحقيق وتعليق د. طه الحاجري، ود. محمد زغلول سلام ـ المكتبة التجارية ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ م.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ـ ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي ـ شرح وتحقيق د. نزار رضا ـ منشورات دار كتبة الحياة ـ بيروت ـ ١٩٦٥ م.
- عيون التواريخ ـ محمد بن شاكر الكتبي ـ تحقيق د. فيصل السامر، ونبيلة عبدالمنعم داود ـ من منشورات وزارة الثقافة والاعلام بالجمهورية العراقية.
- غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات ـ علي بن ظافر الأزدي ـ تحقيق د. محمد زغلول سلام، ود. مصطفى الصاوي الجويني ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٧١ م.

- الغرب والشرق من الحروب الصليبية إلى حرب السويس - محمد علي الغتيت - مطابع الدار القومية - القاهرة - ١٣٨٨ هـ/١٩٦٩ م.
- الغيث المسجم في شرح لامية العجم - صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى بيروت - ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥ م.
- الفيح القسي في الفتح القدسي - العماد الأصفهاني - تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبيح - الدار القومية للطباعة والنشر.
- فض الختام عن التورية والاستخدام - صلاح الدين الصفدي - دراسة وتحقيق د. المحمدي عبدالعزيز الحناوي - دار الطباعة المحمدية - الطبعة الأولى - مصر ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م.
- فضائل القدس - أبوالفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي - حققه وقدم له د. جبرائيل جبور - منشورات دار الآفاق الجديدة، الطبعة الأولى - بيروت - ١٩٧٩ م.
- الفلك الدائر على المثل السائر - ابن أبي الحديد - قدم له وحققه وعلق عليه د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة - (مع المثل السائر) - مكتبة نهضة مصر - الطبعة الأولى - ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١ م.
- فن الجناس - علي الجندي -
- فن الشعر - د. إحسان عباس - دار الثقافة - الطبعة الثالثة - بيروت.
- الفن ومذاهبه في النثر العربي - د. شوقي ضيف - دار المعارف بمصر - الطبعة الثالثة ١٩٦١ م.
- في لغة الشعر - د. ابراهيم السامرائي - دار الفكر - عمان ١٤٠٤ هـ.
- في النقد الأدبي - د. شوقي ضيق - دار المعارف بمصر - ١٩٦٢ م.
- القاموس المحيط - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادي.
- قانون البلاغة في نقد النثر والشعر - أبوطاهر محمد بن حيدر البغدادي - تحقيق د. محسن غيّاض عجيل - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى - بيروت - ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م.

- القدس الخالدة - د. عبدالحميد زايد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٤ م.
- قضايا النقد الأدبي والبلاغة - د. محمد زكي العشماوي - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - الاسكندرية - ١٩٦٧ م.
- قواعد النقد الأدبي - لاسل آبركرمبي - نقله إلى العربية د. محمد عوض محمد - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الثالثة - ١٩٥٤ م.
- قوانين الدواوين - الأسعد بن مماتي، أسعد أبوالمكارم بن مهذب - جمع وتحقيق عزيز سوريال عطية - الجمعية الزراعية الملكية - القاهرة - ١٩٤٣ م.
- الكافي في العروض والقوافي - الخطيب التبريزي - تحقيق الحساني حسن عبدالله - نشر في مجلة معهد المخطوطات العربية - م ١٢ ج ١ ربيع الأول ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م.
- الكامل في التاريخ - عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير - دار صادر دار بيروت - بيروت.
الأجزاء ١٠، ١١، ١٢: ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م.
- كشف اللثام عن التورية والاستخدام - ابن حجة الحموي.
- كنز الدرر وجامع الغرر - أبوبكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري -
ج ٦: الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية - تحقيق د. صلاح الدين المنجد - القاهرة - ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦١ م.
ج ٧: الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب - تحقيق د. سعيد عاشور - القاهرة - ١٣٩١ هـ/ ١٩٧٢ م.
- لسان العرب - ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري.
- لغة الشعر بين جيلين - د. إبراهيم السامرائي، دار الثقافة - بيروت.
- مبادىء النقد الأدبي - رتشاردز - ترجمة وتقديم د. مصطفى بدوي - مراجعة د. لويس عوض - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر - ١٩٦٣ م.

- المجاز وأثره في الدرس اللغوي ـ د. محمد بدري عبدالجليل ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ ١٩٨٠ م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ـ ضياء الدين بن الأثير ـ قدم له وحقق عليه د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة ـ مكتبة نهضة مصر ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ـ
ج ١ : ١٣٧٩ هـ/ ١٩٥٩ م.
ج ٢ : ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠ م.
ج ٣ وج ٤ : ١٣٨١ هـ/ ١٩٦٢ م.
- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ـ د. سهيل زكار ـ دار الفكر ـ الطبعة الثالثة ـ دمشق ـ ١٩٧٥ م.
- المختصر في أخبار بني البشر ـ أبوالفداء، عماد الدين إسماعيل بن نور الدين علي ـ دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت.
- المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي ـ د. عبدالجليل عبدالمهدي ـ مكتبة الأقصى ـ عمان ـ ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م.
- المرقصات والمطربات ـ ابن سعيد، نور الدين علي بن الوزير أبي عمران ـ دار حمد محيو ـ ١٩٧٣ م.
- مضمار الحقائق وسر الخلائق ـ محمد بن عمر بن شاهنشاه الأيوبي ـ تحقيق د. حسن حبشي ـ عالم الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٦٨ م.
- مطلع الفوائد ومجمع الفرائد ـ جمال الدين بن نباتة المصري ـ تحقيق د. عمر موسى باشا ـ من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ـ ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م.
- معالم الكتابة ومغانم الإصابة ـ عبدالرحيم بن علي بن شيث القرشي ـ عني بتعليق حواشيه الخوري قسطنطين المخلصي ـ المطبعة الأدبية ـ بيروت ـ ١٩١٣ م.
- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ـ عبدالرحيم بن أحمد العباسي ـ حققه، وعلق حواشيه، وصنع فهارسه محمد محيي الدين عبدالحميد ـ عالم

الكتب ـ بيروت ـ ١٣٦٧ هـ/ ١٩٤٧ م.
ـ معجم الأدباء ـ ياقوت الحموي ـ دار المشرق ـ بيروت.
ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ـ ابن واصل الحموي، جمال الدين محمد بن سالم ـ نشر د. جمال الدين الشيال الأجزاء: ١، ٢، ٣ ـ
ج ١: مطبعة جامعة فؤاد الأول ـ القاهرة ـ ١٩٥٣ م.
ج ٢: المطبعة الأميرية ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ م.
ج ٤، ج ٥: حققهما، ووضع حواشيهما د. حسنين محمد ربيع ـ راجعهما، وقدم لهما د. سعيد عاشور ـ مطبعة دار الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٧٢ م، ١٩٧٧ م.
ـ مقالات في النقد الأدبي ـ د. محمد مصطفى هدارة ـ دار القلم ـ ١٩٦٤ م.
ـ مقامات الحريري (شرح الشريشي).
ـ مقدمة ابن خلدون ـ المكتبة التجارية بمصر.
ـ مقدمة في صناعة النظم والنثر ـ النواجي، شمس الدين محمد بن حسن ـ حققه وقدم له وعلق عليه د. محمد بن عبدالكريم ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت.
ـ المكتبة العربية الصقلية ـ جمعها وحققها ميخائيل أماري ـ ليبسك ـ مكتبة المثنى ـ بغداد ـ ١٨٥٧ م.
ـ المفصل في تاريخ القدس ـ عارف العارف ـ مطابع دار الأيتام الإسلامية الصناعية ـ الطبعة الأولى ـ القدس ـ ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦١ م.
ـ مفهوم الشعر ـ دراسة في التراث النقدي ـ د. جابر عصفور ـ دار التنوير ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ـ ١٩٨٢ م.
ـ المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره ـ أبومحمد الحسن بن علي بن وكيع التينسي ـ قرأه، وقدم له، وعلق عليه، د. محمد رضوان الداية ـ ـار قتيبة ـ دمشق ـ ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م.
ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ـ حازم القرطاجني ـ تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ـ دار الكتب الشرقية ـ تونس ـ ١٩٦٦ م
ـ المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ـ يوسف بن تغري بردي الأتابكي،

جمال الدين أبوالمحاسن ـ
ج ١ : تحقيق أحمد يوسف نجاتي ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ م .
ج ٢ : حققه ووضع حواشيه د. محمد محمد أمين ـ تقديم د. سعيد عاشور ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٤ م .
ج ٣ : حققه ووضع حواشيه د. نبيل محمد عبدالعزيز ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٦ م .
ج ٤ : حققه ووضع حواشيه د. محمد محمد أمين ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٦ م .
ـ الموضِحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي ، من كلام أبي علي محمد بن الحسن الحاتمي ـ تحقيق د. محمد يوسف نجم ـ دار صادر دار بيروت ـ بيروت ـ ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م .
ـ النثر الفني في القرن الرابع الهجري ـ د. زكي مبارك ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ـ ١٣٥٢ هـ/ ١٩٣٤ م .
ـ نثر النظم وحل العقد ـ أبومنصور عبدالملك بن محمد الثعالبي ـ دار الرائد العربي ـ بيروت ـ ١٩٨٣ م .
ـ نضرة الإغريض في نصرة القريض ـ المظفر بن الفضل العَلوي ـ تحقيق د. نهى عارف الحسن ـ من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ـ مطبعة طربين ـ ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦ م .
ـ نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين ـ من الكندي حتى ابن رشد ـ د. إلفت الروبي ـ دار التنوير للطباعة والنشر ـ الطبعة الأولى ـ بيروت ١٩٨٣ م .
النقد الأدبي الحديث ـ د. محمد غنيمي هلال ـ دار النهضة العربية ـ الطبعة الرابعة ـ القاهرة ١٩٦٩ م .
ـ نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر ـ تحقيق د. محمد عبدالمنعم خفاجي ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ـ ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م .
ـ النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ـ (القسم الخاص بالقاهرة من كتاب (المغرب في حلى المغرب) ـ (صنفه بالموارثة ستة من أهل الأندلس :

عبـدالله بن إبـراهيم الحجـاري ـ أحمد بن عبدالملك ـ موسى بن محمد ـ عبدالملك بن سعيد ـ محمد بن عبدالله ـ علي بن موسى) ـ تحقيق د. حسين نصار ـ مطبعة الكتب المصرية ـ ١٩٧٠ م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ جمال الدين أبوالمحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ـ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر.
- نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية ـ د. عمر الساريسي ـ دار المنارة ـ جدة ـ السعودية ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.
- نصرة الثائر عل المثل السائر ـ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ـ تحقيق محمد علي سلطاني ـ من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ـ ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ أحمد بن محمد المقَّري ـ حققه د. إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م.
- النقـد الأدبي في العصر المملوكي ـ د. عبدالعزيز قلقيلة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٧٢ م.
- النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ـ نجم الدين أبومحمد عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمني ـ اعتنى بتصحيحه هرتويغ دونبُرغ ـ طبع في مدينة شالون ـ ١٨٩٧ م.
- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـ بهاءالدين بن شداد ـ تحقيق د. جمال الدين الشيال ـ الطبعة الأولى ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ـ ١٩٦٤ م.
- نور الدين محمود ـ الرجل والتجربة ـ د. عماد الدين خليل ـ دار القلم ـ الطبعة الأولى ـ دمشق ـ بيروت ـ ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م.
- نور الدين والصليبيون (حركة الإفاقة والتجمع الإسلامي في القرن السادس الهجري) ـ د. حسن حبشي ـ دار الفكر العربي ـ ١٣٦٧ هـ/١٩٤٨ م.
- الوافي بالوفيات ـ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ـ فيسبادن.

- الـوزارة والـوزراء في العصـر الفـاطمي ـ د. محمد حمدي المناوي ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٠ م.
- الـوسـاطة بين المتنبي وخصومه ـ القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي ـ دار القلم ـ بيروت ـ ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م.
- الوشي المرقوم في حل المنظوم ـ ضياء الدين بن الأثير ـ مطبعة ثمرات الفنون ـ ١٢٩٨ هـ.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ شمس الدين أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ـ حققه د. إحسان عباس ـ دار صادر دار بيروت ـ بيروت ـ ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م.



الفهرس

الفصل الرابع





بيت المقدس

في أدب الحروب الصليبية

٤٩٢ - ٦٤٨هـ

تأليف

د. عبد الجليل حسن عبد المهدي

يأتي مشروع مكتبة الأسرة الأردنية ومهرجان القراءة للجميع، بهدف توفير طبعة شعبية زهيدة الثمن، تكون في متناول يد الأسرة الأردنية في كل بيت.

ويهدف هذا المشروع إلى تعميم الثقافة والمعرفة، وربط الأجيال بالتراث الثقافي والحضاري للأمة، والتواصل مع الثقافات الإنسانية.

إن الكتاب الجيد هو سفر باتجاه الذات ومعرفتها ومعرفة الآخر، وهو ومضةٌ لإضاءة عصرنا هذا، من أجل إنجاز رسالتنا التنويرية، القائمة على مشروع الدولة الأردنية منذ انطلاقة الثورة العربية الكبرى ومشروعها النهضوي.

لقد تباينت إصدارات هذه السلسلة في موضوعاتها، ومضامينها، واتجاهاتها، ورؤاها، آملين أن تقدم للقارىء زاداً معرفياً متكاملاً، وتلبي رغبات وحاجات مختلف الشرائح الإجتماعية.



طبع بدعم من: مؤسسة عبد الحميد شومان

السعر: (٣٥) قرشاً